اليكسي فاسيلييف

مصر والمصريون




مصر والمصريون

شركة المطبوعات



للتوزيع والنشر

بناية الوهاد - شارع جان - دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

هاتف ٣٤٤٢٣٦ – ٣٤٥٤٦٠ / ٢ – ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٥٢٢١٠٧ – ٩ – ٣٥٧ / ٦٠٢٠٢٩ – ٩٦١١
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٤م

تصميم الغلاف . عباس مكي

مصر والمصريون

قال كهنة الاله المصري القديم آمون: «كل من شرب من مياه النيل أسفل جزيرة فيلة هو مصري». ولقد شربت مياه النيل خمس سنوات، سنة كنت فيها طالبا واربع سنوات كنت اعمل خلالها في القاهرة. ورغم اني لم اصبح مصريا فقد احسست انني مدين للنيل، ولمصر، وللمصريين، فقررت ان اضع هذا الكتاب.

تمهيد

ود مختار في ريعان شبابه وكان راغبا في الحياة، والحب، والتمتع البرسيم في دلتا النيل وازهار الياسمين المزدهرة، ومطلع الشمس كل مال الصحراء.

حمود مختار ان ينحت، ويجسد في الصخر تلك الصور التي تملأ

مرين كانا متعارضين، يستبعد احدهما الاخر.

ه الاطباء «ان مرضك خطير ولكنه فتاك، فلتقلل من العمل اليدوي تعرض نفسك لاية ضغوط عاطفية. . وان شاء الله سوف تعيش الى يد ان القرار في يدك أنت... امّا، وامّا .»

محمود مختار الموت.

حمود مختار الخلود.

، الاحوال لم تكن مادته هي الرخام، بل جرانيت اسوان الصلب الذي لا

يلين للازميل. وراح المثّال يعمل بصورة محمومة وهو يحاول الا يفكر في اسقامه وفي ذراعيه المريضيتين اللتين دب فيهما الجفاف وفي قلبه الذي كان يدق في اضطراب، مقربا ساعة النصر الابداعي والموت.

كان يؤمن برسالته، وبمصر. وقد اعتبره انطوان بورديل من أنبغ تلاميذه. وتعلم مختار بلاغة الايجاز في الصورة النحتية، والتعميم في التشكيل الانسيابي، والتقتير في استخدام التفاصيل. واتجه مختار نحو الفن المصري القديم فاكتشف ان كثيراً من الاشكال الفنية التي كان يميل اليها قد توصل اليها أسلافه منذ الاف السنين. واذن فقد كان عليه ان يساعد الشعب المصري على ان يتذكر ذاته في الصيغ التشكيلية التي نسيها هذا الشعب نفسه.

واستوعب محمود مختار فأبدع صورا للفلاحين والبدو. وقد بحث في هذه الصور وعثر فيها على اشخاص لم تسحقهم الفاقة والاستبداد، بل كانوا تجسيدا للصبر والعزة والحكمة

وكان المرض قد تمكن من اوصال الفنان عندما فرغ من قضية عمره كله تمثال «نهضة مصر». وفي هذا التمثال تجسد عصر الامال الذي كانت تعيشه مصر والمشاعر التي كانت تجيش في نفس الفنان. وكأنما حمل مختار على جناحين فورة الحماسة التي انطفأت ولكنها لم تمت وقد فجرتها ثورة ١٩١٩، عندما تعانق الهلال والصليب في شوارع القاهرة رمزا لوحدة المسلمين والاقباط الذين ثاروا ضد الاحتلال البريطاني. وقد حلت خيبة الامال محل النهضة الروحية، ولكن الايمان بحضارة مصر التليدة وشباب الوطن شد أزر الفنان.

هكذا خرجت من تحت ازميله ومن جرانيت أسوان التشكيلة النحتية «نهضة مصر» حيث يبدو ابو الهول - في صورة اسد جبار له وجه رائع لشاب مصري - وكأنما نفض عن نفسه السبات لتوه وهو يرنو الى الدنيا في هدوء جليل، وبجواره فتاة ممشوقة القوام، قوية، تضع احدى يديها على رأسه، وبيدها الاخرى ترفع عن وجهها الطرحة. وينظر كلاهما الى الافق، وكأنما ترى ابصارهما شيئاً لا يبدو مرئيا للاخرين.

عمل مختار في تمثال «نهضة مصر» حوالي عشر سنوات. وفرغ منه في عام ١٩٢٨ ثم سافر للعلاج. وبعد ذلك ابدع بضعة تماثيل باخر ما بقي لديه من قوة، ثم وافاه الاجل وهو في الثالثة والاربعين.

كان تمثال «نهضة مصر» يستقبل الوافدين الى العاصمة عند ميدان باب الحديد، ميدان محطة قطارات القاهرة. وفي الخمسينات استبدل به تمثال هائل لرمسيس الثاني، اما ابو الهول والفتاة فقد انتقلا الى الجيزة، على الضفة اليسرى لنهر النيل، حيث انتصب التمثال امام ممر يحف به النخيل ويفضي الى المبنى الرئيسي لجامعة القاهرة.

عندما كنت طالبا كثيرا ما كمنت أتفرس وانا في طريقي الى المحاضرات في وجهي ابي الهول والفتاة الواقفة بجواره وكأنما دبت فيهما الحياة تحت أشعة الشمس الصاعدة، وأفكر في بطولة مختار ومأساته. وبعد مضي قرابة ثلاثة عقود من الزمن، واثناء احدى زياراتي الدورية للقاهرة، قررت ان أزور هذا التمثال الذي كانت تجمعني به ذكريات كثيرة، فتمشيت من مقر السفارة الروسية حتى كوبري الجامعة. كان التمثال في موضعه، شامخا بعظمة فوق فوضى أصوات أبواق السيارات الهادرة وصرير فراملها بينما تلفحه ابخرة غازات العادم المنبعثة منها. وكانت الفتاة والاسد الذي له وجه انسان ينظران مثلما من قبل - الى كوبرى الجامعة الممتد أمامهما بيد انه خيل إليّ ان ابتسامة سخرية تطوف بشفاههما.

وعدت افكر في بطولة مختار الابداعية، ولكن بصورة اخرى، مغايرة لما كنت افكر به في ايام شبابي. ان المأساة التي حلت بالمثال العظيم بعد بعد وفاته تكمن في ان «نهضة مصر» اصبح رمزا لوطنه بالنسبة للاجانب، وللمثقفين المصريين ذوي الثقافة الغربية وليس بالنسبة للجماهير المصرية التي تعيش حسب نظام القيم والصورة الفنية الاسلامية ان الشعب الذي وهبه مختار حياته لم يتعرف على نفسه في هذا التمثال ولم يعترف بمختار معبرا عن طموحاته ومثله.

وربما كان عدم التعرف وعدم الاعتراف امرا مؤقتا

ان الفن المصري القديم لا يلمس الاوتار الحية في نفوس غالبية المصريين رغم انه يثير عن حق اعجاب الذواقة وولههم.

والفن الغربي الحي، او على الاقل النحت والتصوير، ما يزال كتابا مغلقا بالنسبة للجماهير.

ربما كان مختار مبشرا بتوليفة من فنون مختلف الشعوب والحضارات والعصور، اما هذه التوليفة نفسها فما تزال في طي المستقبل. وبوسع المرء ان يقول ذلك في التسعينات بصورة أكثر ثقة مما كانوا يقولونه بها في العشرينات والثلاثينات.

وقد يتساءل البعض: وما معنى تذكر محمود مختار والكلام يدور عن مصر والمصريين في يومنا هذا؟ ولكن الجدال ينشب بين الحين والحين، حتى ايامنا هذه، حول «شخصية مصر» وما الذي يمكن ان يعتبر مكونا لها، ومن هو المعبر عنها والمفسر لها، وما هو دور مصر في العالم، والى أية حضارة تنتمي.

ومن خلف هذه المجادلات التي قد تبدو مجردة تحتدم الاهواء السياسية الحية ويجري البحث عن طرق البناء الاجتماعي والاقتصادي لمصر.

وفي ايامنا هذه يزداد المرء قناعة بانه لا يمكن فهم مصر المعاصرة بدون العودة الى العشرينات والثلاثينات، بدون الغوص في بئر تاريخ الاف السنين، بدون التوجه الى نيلها وصحاريها.

الباب الأول

اللاصحراء

ان كل انسان عاقل(حتى ولو لم يسمع عن ذلك شيئا من قبل) سيقتنع منذ الوهلة الاولى ان مصر (السفلى) التي يرتادها الهيلينيون على متن السفن، يرجع منشؤها الى عهد قريب، وتعدّ هبة النهر (النيل). ومثل هذا هو الجزء الممتد من البلاد على مسافة ثلاثة ايام سياحة الى اعالي النهر.... وعندما يغرق النيل البلاد، لا تظهر فوق المياه الا المدن، وتكاد تكون مثل الجزر عندنا في بحر ايجة

هيرودوت. التاريخ. القرن ٥ ق. م.

من النيل تفرعت قنوات عديد محفورة، ممتدة الى جميع الجهات ومنها، اي من هذه القنوات، تفرعت بدورها ترع صغيرة تروي القرى والنجوع وقد نصب عليها الكثير من السواقي التي لا يمكن حتى حصر عددها وكل قرى مصر مقامة على مرتفعات وتلال. وعندما يفيض النهر فان المياه تغرق جميع الاراضي، ولذلك اقيمت القرى على المرتفعات حتى لا تغرقها المياه. وفي تلك الاونة ينتقل الناس من قرية الى قرية بالقوارب

ناصر خسرو. سفر نامة. القرن ١١م.

هناك آلهان خلقا ارض مصر ويحرسانها اليوم كما كانا يفعلان دائماً، وهما الشمس والنيل هذان الآلهان انجبا واخصبا اكبر واحة خضراء على ظهر الارض ولكن النيل نفسه كان من خلق الاله الشمس... ومن النادر ان يسطع الاله الشمس بهذه القوة في مكان آخر، ولما كانت الصحراء الجافة تمتص الرطوبة كلها، فان الضباب لا يتصاعد من سطحها ابدا. وهكذا فان الشمس والماء، والارض والماء، والارض والشمس توجد منفصلة، في طهارة عذرية، دون ان تختلط او تتلوث.

اميل لودفيغ. النيل. وصف حياة نهر، ١٩٣٥.

لو نظرت الى الخريطة لبدت لك مصر على شكل مربع غير مستو يمتد طولا لالف كيلو متر وعرضا لالف كيلومتر تقريبا في الشمال الشرقي من افريقيا. اما شبه جزيرة سيناء ـ هذا الجزء الاسيوي الصغير من مصر ـ فلا تؤثر على الصورة العامة. ولكن مصر نفسها، وأرضها المعمورة، هي جزيرة في محيط الصحراء، واكبر واحة في العالم وسط اكبر صحراء في العالم.

ان مصر المكتظة بالسكان هي لا صحراء مساحتها حوالي ٣٥ ـ ٤٠ الف كيلومتر مربع. اما الواحات الصغيرة الواقعة خارج حوض النيل فلا تضم الا عددا قليلا من السكان. ومصر التي يرويها النيل تذكرك في شكلها بزهرة لوتس تنبت من بحيرة ناصر الصناعية، واحدى اوراقها هي واحة الفيوم، وذات فرع حي في صورة منطقة قناة السويس. نعم، فمنطقة القناة هي ايضا تنهل من ماء النيل وتروي منه حقولها وبساتينها ومزارعها.

ان جغرافية مصر تلوح اشبه بكتاب مدرسي لتلاميذ الصفوف الاولية لشدة ما تبدو بسيطة. فمصر هي البلد الوحيد على ظهر الارض الذي عاش اهله كلهم على امتداد جميع العصور على ضفاف نهر واحد او القنوات المتفرغة منه. وتبدو صورة تضاريس مصر كالتالي: النهر، والحقول المزروعة، واحراج النخيل، وخط الجبال الجرداء عند الافق.

ويقال ان عمرو بن العاصي الذي فتح مصر في القرن السابع الميلادي كتب الى مولاه الخليفة عمر بن الخطاب رسالة جاء فيها: «هنا تمتد صحراء جرداء، لا زرع فيها ولا ماء. وهي تعلو من كلا الجانبين، وبين هذين المرتفعين تقع بلاد العجائب.

فمن ناحية الغرب تحفها سلسلة من الكثبان الرملية. ومن ناحية الشرق تبدو كبطن حصان هزيل او ظهر جمل. تلك هي مصر يا أمير المؤمنين، وثرواتها تأتي كلها من النهر المبارك الذي يسير فيها بعزة الخليفة. هذا النهر يعلو ويهبط بانتظام مثل الشمس او القمر.

فعندما يأتي الاوان يكون فيه على جميع ينابيع الدنيا ان تدفع الجزية لملك الانهار هذا الذي اعلاه الله فوق جميع الانهار الاخرى، اذ يعلو النهر ساعتها ويفيض عن مجراه ويغمر السهل ويترك هناك غرينه الخصب. عند ذاك تصبح القرى معزولة بعضها عن بعض. ولا شيء يربط بينها سوى القوارب، وهي كثيرة مثل السعف في النخلة.

ولكن النهر يثوب الى صوابه فيعود الى حدوده التي خطها له القدر حتى يستطيع القاطنون بقربه ان يجمعوا الثروات التي وهبها للارض. فلتعلم يا أمير المؤمنين ان مصر تبدو على التوالي في صورة صحراء رملية جافة وخط من المياه الفضية، ومستنقع مغطى بالغرين الكثيف، ومرج اخضر فاخر، وبستان عامر بشتى الازهار، ثم حقول تفيض بالمحاصيل الوفيرة».

هذه الرسالة لا تشبه بلاغا من قائد عسكري قاس فقط، بل هي أقرب الى ملاحظات دونها رحالة حصيف، وهب الى ذلك ملكة التفكير الشاعري. وايا كان الامر فهي رسالة محكمة ودقيقة بصورة مدهشة.

وتتواءم بساطة تضاريس مصر مع اطراد مناخها وانتظامه فباستثناء الشريط الساحلي المطل على البحر المتوسط، حيث تسقط بعض الامطار شتاء، يعم الجفاف الصحراوي مناخ مصر حتى المدار الشمالي، مع اختلاف طفيف في متوسط درجات الحرارة بين اقليم وآخر.

ان العداء بين الصحراء الجرداء والواحة الخضراء في دلتا النيل يبدو من البديهيات المسلم بها. ويتحالف الانسان مع المياه ليقاوم القبضة المميتة للصحراء الزاحفة والمتحفزة لابتلاع الحقول والبساتين والمزارع، ويقوم في بعض الاماكن بغرس سواتر من الطرفاء والسنط في وجه الرمال المتحركة. واذا كنا لا نستطيع ان نقول ان الطبيعة مرتبة بصورة حكيمة ومناسبة، فهي على الاقل متسقة. فالصحراء تهدد بابتلاع مصر، ولكنها في الوقت نفسه، وباعتبارها قوة ايكولوجية جبارة، تحافظ عليها وتحميها. فالصحراء اللاهبة، مثل شعلة نار هائلة، تسخن

الهواء، فيتكون تيار عمودي صاعد، وتحدث منطقة ضغط جوي منخفض فتندفع نحوها رياح الشمال.

فمن مجموع ايام العام الثلاثمائة وخمسة وستين تهب الرياح الشمالية على مصر طوال ثلاثمائة يوم تقريبا. ومنذ القدم والنقل النهري في مصر يقوم على استخدام تيار النيل في الحركة من الجنوب الى الشمال وقوة الريح في الاشرعة للتحرك من الشمال الى الجنوب.

وهذا ينطبق سواء على الحركة في مجرى النيل نفسه ام في فروعه وقنواته. وحتى في أيامنا هذه يرى المرء وهو مسافر في الدلتا اشرعة المراكب التي تبدو وكأنها تسير على اليابسة. وتمضي هذه المراكب نحو الشمال عبر القنوات بينما لا تبدو هياكلها للعين من وراء عيدان الغاب والقصب النائية على الشواطيء. وفي عصرنا هذا الذي ترتفع فيه اسعار الطاقة فان رخص وسيلة النقل القديمة والانيقة هذه يكفل لها البقاء وعلى نطاق واسع.

ولكن الرياح الشمالية في مصر، الى جانب تلطيفها لحرارة الجو ودفعها لاشرعة المراكب، تلعب دورا آخر لا يقدر بثمن. فهي تكنس الرمال التي تسفيها الصحراء، وتبعدها عن وادي النيل، أو هي على الاقل توقف زحفها. ولولا مساعدة الرياح، التي تولدها الصحراء، لما استطاع الانسان ان يذود عن واحته ـ اللاصحراء.

أما الاخطار التي تحيق بمصر من الرياح الجنوبية فتكشف عنها رياح الخماسين.

ان سكان المناطق الجنوبية الشرقية في القسم الاوربي من اراضي الاتحاد السوفيتي يعرفون رياح السفوع القادمة من آسيا الوسطى.

فاذا أضفنا الى قيظها عشر او خمس عشرة درجة اخرى، مع الغبار والتراب، لأصبحت مثل الخماسين المصرية. والرياح القادمة من الصحراء يسمونها في السودان «الهبوب»، وفي ليبيا يسمونها «الجبلى» وفي جنوب ايطاليا· «سيروكو».

وكل هذه الرياح اخوة اشقاء... وهي جميعا زفير من فوهة الفرن اللافح.. فرن الصحراء الافريقية.

الخماسين مشتقة من كلمة «خمسين». ولكن هذا لا يعني ان هذه الرياح تهب خمسين يوما متصلة. صحيح ان موسم الخماسين، التي تهب من الجنوب الغربي، يمتد الى خمسين يوما في شهري ابريل ومايو. بيد ان العاصفة الترابية تعربد يومين او ثلاثة، واحيانا اكثر، ثم تخمد الرياح، لكي تعصف مرة اخرى بعد بضعة ايام. وفي اليومين الاولين لهبوب الخماسين تقفز درجة الحرارة بشدة. وتكتسب الشمس المضببة المريضة لونا قرمزيا واحيانا ـ في العواصف الشديدة بصفة خاصة ـ تختفي تماما. و«يصوى» القمح، فيصبح حبه ضامرا، خفيفا اذا ما حلت الخماسين في أوان امتلاء السنابل.

تهب الريح فتغطي الشوارع والحقول بطبقة خفيفة من الرمال. وتبلغ الرمال درجة من النعومة بحيث تتسلل الى محركات السيارات لتختلط بزيتها، وتنفذ الى الغرف عبر النوافذ والابواب المغلقة، وتترسب في ساعات معدودة طبقة سميكة على الارضية والاثاث، وتسقط في الطعام وتئز تحت الاسنان. ويصبح التنفس صعبا، ويشعر المرء بالضعف بسبب الحر وتتوتر اعصابه. ويتذبذب ضغط الدم، ويزداد التهيج العصبي وينقبض القلب. ولكن فترات الانقطاع في هبوب الخماسين تجلب الراحة والطراوة .

وذات مرة، اثناء هبوب الخماسين، قام طبيب روسي شاب في القاهرة باجراء كشف اشعة على رئات الاطفال للاختبار فانزعج بشدة، اذ ظهرت فيها بقع مظلمة، وتلك مظاهر مؤكدة للاصابة بالسل، ولكن الاطباء المصريين فسروا ذلك بكلمة واحدة: الخماسين. ولم يصدقهم الطبيب الروسي الابصعوبة، ولم يتنفس الصعداء الا بعد ان انتهت العواصف الترابية وعادت رئات الاطفال نظيفة كما كانت.

ورغم الخماسين يعتبر مناخ مصر مناخا مثاليا لعلاج امراض الصدر وخاصة في فصل الشتاء. ولا يصاب المصريون بالسل الا نادرا جدا، وفي هذه الايام لم

ينتشر السل الا في الاحياء الفقيرة في المدن الكبيرة وليس في الريف.

وبالبنسبة لنا، نحن اهل الشمال، يعتبر الصيف المصري موسما شاقا، فالقيظ يرهق الاعصاب ويسلب القوى ويسبب الارق.

وكم مرة لسعني مقود السيارة او هيكلها الملتهب. ومع ذلك اعترف بكل صدق بان الحر المصري الجاف امر مقدور عليه فالمرء الذي اجتاز فترة التكيف يستطيع بسهولة نسبية ان يحتمل الحرارة حتى الاربعين درجة. اما فوق الاربعين درجة فانك تحس بوطأة كل درجة اخرى. وفي عز الحر كثيرا ما تضطر إلى اغلاق نوافذ السيارة لان الهواء الساخن لا يلطف الحرارة بل يلسعك. والمنقذ هو الراحة في فترة القيلولة ما بعد الغداء ويتوقف العمل في هذه الفترة من ساعتين إلى أربع ساعات.

اما برد الشتاء - الذي يتراوح ليلا بين خمس واثنتي عشرة درجة مئوية فوق الصفر - فان تحمله اصعب بكثير. وحين تسأل المواطنين السوفييت الذين عاشوا في مصر، ما هو الاصعب هنا البرد ام الحر، يجيبون في صوت واحد البرد! ففي درجة الحرارة التي تشعل عندها روسيا كلها المواقد وتعمل التدفئة المركزية او دفايات الغاز والماء الساخن فان مصر ترتعش من البرد، اذ ان المنازل في غالبيتها العظمى غير مزودة بالتدفئة فالبيوت باسقفها العالية، وتيارات الهواء التي تتخللها، والشقوق في الابواب والنوافذ - اما اكواخ الفلاحين فليس بها زجاج عموما - انما تناسب الحر اكثر مما تحمى من البرد. وفي الليل يتغطى المصريون بالبطاطين وفي النهار يرتدون المعاطف والملابس الصوفية ويلفون رؤوسهم بالملافح، تاركين اقدامهم حافية في احيان كثيرة. وقد يحدث ان يموت الفقراء الضعفاء المنهكو البدن من البرد اثناء نومهم في الخلاء. وفي الصباح تتبقى احيانا حبيبات جليد رقيقة على العشب. وتتساقط اوراق كثيرة من الاشجار فتقف عارية، في هيئة شتوية تماما.

وفي فبراير - مارس تبدأ فترة ازدهار مدهش ورائع للاشجار والخمائل. اما اشجار الاكاسيا - فلامبويان (وتعني بالفرنسية الملتهبة) فهي وحدها التي تنتظر مقدم شهر مايو، تنتظر الحر الحقيقي، لكي تكتسي من قمتها الى اسفلها حلة

حمراء جزرية من الازهار الملتهبة التي اكسبت هذه الاشجار اسمها الملفت للنظر.

والامطار في مصر - ما عدا في اقصى الشمال - شيء نادر في غاية الندرة. فلا تسقط الا عدة مرات في العام، وربما اقل من ذلك. فاذا سقطت امطار غزيرة فهي كارثة طبيعية، لانها تذيب البيوت الطينية ذات السقوف الهشة، وتحول الشوارع غير المرصوفة الى برك من الوحل الغليظ، ويتقطع التيار الكهربائي والاتصال الهاتفي. ولا تعد الامطار مصدرا، ولو ثانويا، للمياه. ان النهر الذي يهب مصر الحياة يتكون من التقاء النيلين الابيض والازرق عند مدينة الخرطوم.

يولد النيل الابيض هناك، حيث الحياة تخطو بعد اولى خطواتها، في منظمة الامطار الاستوائية والادغال المظلمة الرطبة، في تلك الاصقاع التي تهاجر اليها طيورنا الشمالية. وينتهي مسار النيل في تلك المنطقة التي شهدت منذ آلاف عديدة من السنين مولد واحدة من اقدم الحضارات على وجه الارض.

والنيل الابيض وليد منظومتين مائيتين مرتبطتين احداهما بالاخرى: البحيرات الافريقية الكبرى، وانهار هضبة اثيوبيا. ويبدأ جريانه عند بحيرة فكتوريا شلالا هائلا صاخبا، كاشفا عن طبعه منذ الخطوات الاولى. ورغم أنه يظل نهرا عظيما ويلتقي بالنيل الازرق، فهو في بعض المناطق في مصر لا يبدو اعرض من نهرنا «اوكا» في مجراه الاوسط.

وبعد ان يهبط النيل الابيض من الهضبة الافريقية الوسطى حاملا اسم بحر الجبل، يتسع مجراه في جنوب السودان وتفيض مياهه في سهل مستو واسع ينحدر انحدارا خفيفا نحو الشمال فلا يبلغ مدى الانخفاض على امتداد حوالي ١٧٠٠كم من نيمولي حتى الخرطوم سوى ٧٠ مترا فحسب.

وفي جنوب السودان يخفف النهر جريانه الى حد الانسياب البطيء، ويتفرع الى مئات الفروع والبحيرات، ويشكل منطقة مستنقعات بامتداد خمسمائة كيلومتر واتساع ثمانمائة، ومساحتها الكلية تبلغ بضع مئات الالاف من الكيلومترات المربعة. وبفعل الرشح والتبخر يفقد بحر الجبل هنا اكثر من نصف مياهه، رغم

الروافد الكبيرة العديدة التي تصب فيه. وفي موسم الجفاف تتحول هذه المنطقة كلها الى مستنقع هائل، راكد المياه، تغطيه الاعشاب وتحف اعواد الغاب والبردى بشطآنه. ولكن ما ان يبدأ موسم الامطار وتنتهي فترة بيات النهر العظيم حتى ينضو النيل الابيض عنه كفنه العفن ويشق طريقه الى الشمال، الى الخرطوم، ليلتقي بشقيقه النيل الازرق. وتحمل مياهه العكرة المائلة الى الخضرة كثيرا من المواد العضوية. ان العرب يطلقون على منطقة جنوب السودان اسم «منطقة السد». وهو وصف سديد يشخص تماما طبيعية هذه المنطقة اذ ان هذه المستنقعات الكثيفة الاعشاب والتي يصعب اختراقها تشكل عقبة ضخمةفي وجه الملاحة يصعب تذليلها حتى يومنا هذا.

وبفضل المنظمات الطبيعية في صورة البحيرات والجنادل والمستنقعات يتدفق النيل الابيض بانتظام على مدار السنة ولا يرتفع منسوبه الا ارتفاعا طفيفا في موسم الامطار. ولكن الفضل لا يرجع اليه، بل إلى النيل الازرق، في الفيضانات التي يفيضها نهر مصر الاوحد وبالتالي في امكانية قيام الزراعة على الري.

بين النيل الأبيض والبحر الاحمر تعلو هضبة اثيوبيا بسلسلة جبالها المرتفعة. انها <Spino Mundi> (ظهر العالم) لدى القدماء. وهناك تتخلص الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي من حمولتها الرطبة فتهطل امطارا غزيرة. وينحدر النيل الازرق من بحيرة تانا تحت اسم أبّاي، وبعد ٢٠ كيلومترا يهوي شلالا من اجمل شالالات العالم يسمونه «تيزي زات» (النار الهادرة)، اذ ان قوس قزح بألوانه الطيفية ينتصب دوما في ذرات المياه المتطايرة. ويتدفق أبّاي عبر الستمائة كيلومتر الاولى نهرا جبليا فوارا، ويغور احيانا في واد جبلي على عمق الف متر واكثر. ثم يتلقى النيل الازرق روافد جبارة، ويتحرر من أسر الجبال ليخرج الى السهل. وهناك يهدّىء سدّ سنّار من ثائرة النهر. وفي موسم الجفاف يصل النيل الازرق الى شقيقه الاكثر هدوءا وقد اصبح نهرا بائسا يمكن عبوره خوضا.

ولكن ابتداء من ابريل، عندما تهطل الامطار الموسمية، ويندفع النيل الازرق

وهو يلعق الصخور نازعا عنها طبقات من القشور الناعمة، وتحمل مياهه المسعورة مادة البناء هذه الى دلتا النيل.

ويختلط النيل الازرق حاملا الرواسب المعدنية بالنيل الابيض ذي المياه العكرة الغنية بمخلفات المواد العضوية المتحللة. ومن اتحاد هذه الجزئيات تكونت عبر آلاف السنين طبقة من طمي النيل سمكها عشرة امتار. ذلك المعين الذي لا ينضب للخصوبة. وتحتها الى عمق مئات الامتار ترسبت الرمال والحصى مختلطة ايضا بهذا الطمي.

اما آخر روافد النيل، وهو نهر عطبرة، الذي يلتقي به على بعد حوالي ثلاثمائة كيلو متر الى الشمال من الخرطوم، فهو ينبع ايضا من هضبة اثيوبيا غير بعيد عن بحيرة تانا. وهذا النهر يجف احيانا في فصل الجفاف، ولكنه يتحول في الصيف الى نهر هادر.

ومن عطبرة حتى المصب، وعلى امتداد ٢٧٠٠ كيلومتر لا يلتقي النيل بأي رافد ويبدأ فيضان النيل في اواسط يوليو ويستمر حتى سبتمبر. وخلال موسم الامطار في جبال اثيوبيا يمد النيل الازرق ونهر عطبرة نهر النيل بحوالي ٩٠٪ من كمية مياهه. اما في الشتاء فيتكفل النيل الابيض بتوفير اكثر من اربعة اخماس مياه النيل. وفي الفترة التي يبلغ فيها الفيضان ذروته، في سبتمبر، يبلغ تصريف النيل اليومي اكثر من ٧٠٠ مليون متر مكعب من المياه، اما في اواسط مايو فلا تزيد هذه الكمية عن ٤٥ مليون متر مكعب.

في مواسم الفيضانات العالية كان منسوب المياه في نهر النيل يرتفع بضعة امتار. وقبل بناء السد العالي كانت الجنادل الستة، الممتدة في النوبة من شمال السودان حتى اسوان، هي المنظّم الاخير لحركة النهر اما الان فيختفي الجندل الثاني تحت مياه البحيرة الصناعية

ان الكثبان الرملية والهضاب الصخرية، والصخورالمتشققة الجرداء في الصحاري المحيطة بمصر ترقد هامدة بلا حياة. فلماذا اذن توجد تماسيح في

البحيرات النادرة التي بقيت في اعماق الصحراء، مع ان آلاف الكيلومترات تفصل بين هذه التماسيح وبني جنسها التي تعيش في المنطقة الاستوائية الرطبة؟ ولماذا نرى في حفريات مضارب الانسان الاول في تاسيل في جبال اطلس بالصحراء الكبرى وفي النوبة لوحات جدارية في المغارات لمناظر صيد الثيران البرية والفيلة والغزلان؟ ولماذا نجد في بقايا طعام سكان وادي النيل في العصر النيوليثي (العصر الحجري الحديث) عظام وحيد القرن وقشور بيض النعام؟ ولماذا نرى في النقوش الجدارية في العصور الفرعونية الكثير من مشاهد صيد الاسود، هذه الوحوش التي لا وجود لها في مصر المعاصرة الا في حديقة الحيوانات؟ اما في الرسوم العائدة الى عصر المملكة القديمة وعصر ما قبل الاسر فنرى الحمار الوحشي والفيل والغزلان والظباء والاسود والفهود وافراس النهر والتماسيح والثعابين الضخمة؟ وكيف بنى قدماء المصريين المعابد الهائلة في الاماكن التي تخلو اليوم من المياه ولا تبلغها الا بعد سفر ايام عديدة على ظهور الجمال التي لم تكن معروفة لمن عاشوا من الالف الخامس حتى الالف الثاني قبل الميلاد؟ ليس هناك سوى جواب واحد ان الصحراء التي تحيط بمصر هي صحراء حديثة العهد، عمرها لا يتجاوز تسعة آلاف الى اثني عشر الف عام. والمقصود هنا ليس الصحراء الكبرى الموجودة منذ ملايين السنين والتي تتسع تارة وتارة أخرى تتقلص.

فقبل بداية ذوبان الثلوج والجليد التي كانت تغطي شمال اوروبا، كانت الرياح المحملة بالرطوبة والقادمة من شمال الاطلسي والمارة اليوم فوق اوروبا، تمر آنذاك، الى الجنوب من ذلك، فتروي بأمطارها حوض البحر المتوسط وشمال افريقيا. وبدلا من الصحراء كانت الارض مغطاة باعشاب السافانا مثل تلك الممتدة الان في الجزء الاوسط من السودان على شواطىء النيل.

وحتى في الالف الثامن قبل الميلاد، عندما انتهى العصر الجليدي في اوروبا وبدأ الجفاف ينتشر في شمال افريقيا، فقد امتدت مرحلة تحويلها الى صحراء الاف السنين. وكانت مياه النيل آنذاك اكثر منها الان بثلاث او اربع مرات، كذلك كان اتساع وادي النيل. وفي هذه الايام يعثرون على طبقات من طمي النيل غربي

الاسكندرية في الصحراء الليبية. وفي منطقة بركة قارون في الفيوم عثر على ادوات زراعة حجرية من عصر ما قبل الاسر، اي يمتد عمرها الى اكثر من سبعة الآف سنة. ولكن هذه الادوات عثر عليها في طبقات التربة التي تعلو بعشرات الامتار فوق الطبقات التي كان يبلغها فيضان النيل حتى وقت قريب، اي قبل تشييد السدود الضخمة. اما بركةقارون المالحة المياه الان فقد كانت عذبة، وكان منسوبها يعلو عن منسوبها الحالي بعشرات الامتار. ويبدو انها في ذلك العصر كانت تلعب دور الخزان في موسم الفيضان، ثم تفرغ مياهها في فترة التحاريق، مثلما الحال تقريبا في بحيرة تونلي ساب في كمبوتشيا، وحيث تمتلىء في موسم فيضان الميكونج وتفرغ مياهها في فصل الجفاف. وكتب المؤرخون الرومانيون ان المسافر من الاسكندرية الى طربلس يمر معظم طريقه عبر الغابات والاجمات. وعلى شاطىء المطل على البحر المتوسط، المغطى بالحقول والاجمات والكروم يعيش عدد من البشر اكثر مما يعيش الان.

كانت مصر منذ ثمانية - عشرة الاف عام تشبه من حيث الظروف المناخية الطبيعية جنوب السودان حاليا. ولكنها لم تكن تشبه منطقة السد، بل المنطقة الاكثر ملاءمة لحياة الانسان والممتدة على حدود السافانا. فهنا نمت بوفرة الاشجار المثمرة والنباتات الصالحة للأكل، وتوفرت الظروف المثالية للقنص وصيد الاسماك.

ويبدو ان سكان جنوب السودان ومصر القدماء كانوا على درجة واحدة من التطور، وتحلوا بمميزات بدنية وذهنية متماثلة تقريبا.

فلماذا بقي فريق منهما على مستواه السابق ولم يتحرك الا قليلا تحت تأثير القوى الخارجية لمجتمع متقدم؟ ولماذا استطاع الفريق الاخرى، بعد استيعاب بدايات الرعي والزراعة، ان يقيم بعد ذلك واحدة من اعظم الحضارات في تاريخ البشرية؟

انـنا لم نتعلم بعد كيف نقدر تأثير تغير الظروف الطبيعية على تطور المجتمع

ولا كيف نقارن بين آثار الكوارث البيئية وآثار القلاقل الاجتماعية ـ السياسية. لقد تخلى العلماء الجادون منذ أمد طويل عن مفهوم «الحتمية الجغرافية» ولكن، ألم يظهر في المقابل خطر تجاهل العوامل الطبيعية او التهوين من شأنها؟ وكيف لا نأخذ بعين الاعتبار، عند الحديث عن مولد الحضارة في مصر، تأثير التناقض المستمر للشريط الزراعي واماكن الصيد والمراعي ومناطق جمع الثمار البرية على المجتمعات البشرية التي القت بها على ضفاف النيل لعبة الجغرافيا مع التاريخ؟

لقد كان على الانسان كي يعيش ان يرفع مستوى عمله الى درجة اعلى فينتقل الى ممارسة الزراعة، ثم بعد ذلك الى بناء نوع ما من منشآت الري. ولولا الجفاف لما كان في الغالب ثمة حافز لذلك الجهد الذي اثمر واحدة من اعرق حضارات الدنيا. بيد انه لولا النيل بالطبع لما توفرت الظروف لذلك الجهد ولثمار ذلك الجهد.

وهناك فرضية تدّعي ان قبائل الرعاة التي دفعها الجفاف الى شواطىء النيل هي التي مارست الزراعة في دلتا النيل وليس اهل الارض الاصليين. ولكننا اذ نعرف مدى صعوبة ومشقة استقرار قبائل الرحّل حتى في الازمنة الحديثة والمعاصرة، لا يسعنا الا ان نشك في قدرة قبائل الرعاة والصيادين على «اختراع» الزراعة في فترة تاريخية قصيرة.

انني لا اسعى الى التفرد والاصالة في وضع هذا السؤال والاجابة عليه. فعلماء الانثروبولوجيا والتاريخ يجمعون على ان الوسط المعيشي في جنوب السودان كان جد مناسب للانسان. ومنذ قرابة مائة عام كتب العالم الروسي ا.ن. كلينجين في مؤلفة «بين آباء الزراعة لشعوب الشرقين الادنى والاقصى» يقول بلغة وتعبيرات ذلك العصر. «ينبغي ان نرجع سبب هذا التخلف في النمو والثقافة قبل كل شيء الى غياب الدافع الى العمل المستقر المنتظم والاستقلالية. فالطبيعة نفسها لم تكن بالنسبة للانسان البدائي وسطا تربويا متماسكا بما فيه الكفاية، اذ انها لم تشجعه على الكفاح، وعلى التعاون، وعلى الكد... فما الداعي لبذل الجهد الشاق وشحذ الهمة اذا كان كل شيء متوفرا وكأنما من تلقاء نفسه، بل وبوفرة في كثير من الاحيان. كانت الفاقة الدائمة المستمرة بلا انقطاع والضاغطة مثل مكبس يعمل

بضغط معتدل ولكنه مستمر ويحث على التقدم في العمل والفكر، كانت تلك الفاقة مجهولة لديه....».

وبعد كلينجين تم التوصل الى اكتشافات جديدة تتعلق بحياة الانسان الاول، بما في ذلك في مصر، وبظروف معيشية وادوات الانتاج التي استخدمها. ولكن الصورة التي رسمها العالم الروسي تبدو في ملامحها العامة مقنعة. فالظاهر ان ذبول السافانا التدريجي، ونقصان مياه النيل، والتدهور البطيء للوسط المعيشي، اصبحت «مربيا» جيدا للمصري الاول. وكان على الانسان، لكي يعيش، ان يلجأ الى العمل المعقد، متكيفا مع الطبيعة ومغيرا من الظروف الطبيعية والا تعرض للهلاك. وفي ظروف مصر كان لا بد ان يكون العمل جماعيا، وكذلك ارادة البشر في كفاحهم ضد الطبيعة.

ان هذه الفرضية، ببساطتها وقوتها الاقناعية، تستميل الكثير من المؤيدين ومن بينهم اشخاص ذوو اسماء كبيرة. غير انها اذ تجيب على سؤال واحد تثير اسئلة اخرى. نعم، لقد وضعت الطبيعة امام الانسان الاول تحديا، وقبل هو هذا التحدي. غير انه حتى لدى افضل المربين نجد تلامذة بلداء. فلماذا اتضح ان هؤلاء «التلاميذ» على درجة من الصلابة وقوة العزيمة والموهبة والتنظيم بحيث استطاعوا ان يستوعبوا «الدرس»؟ ولماذا لم يهلكوا أو ينقص عددهم على الاقل الى مستوى مجموعة من السكان الذين تكفي ارض وادي النيل المتناقصة المساحة لاشباع احتياجاتهم البسيطة؟ ولماذا استطاع الانسان البدائي ان يقدم «رداً» على هذا «التحدي» في ذلك العصر التاريخي بالذات؟ ألم تولد في ذلك الزمن تقريبا حضارات اخرى فيما بين نهري دجلة والفرات وفي وادي السند؟

ولماذا لم يستطع سكان بدائيون آخرون في عهود أخرى وفي مثل هذه الظروف ان يردوا على مثل هذا «التحدي» ويستوعبوا «درس» الطبيعة؟

لقد حدث الانتقال الى الزراعة وتربية الماشية - مثله مثل كافة التحولات الكبرى في تاريخ البشرية - باعتباره ثورة من اكبر الثورات وعصر من العصور المفصلية

في تطور المجتمع البشري، حدث نتيجة جملة من الظروف التي قد لا يكون من الممكن حصرهاا في نطاق العلاقة السببية البسيطة فحسب. ولن يمكن الا بجهود الباحثين الشاقة كشف النقاب عن واحد من الاسرار الدفينة لمولد الحضارة، عن سبب ظهور العمل الجماعي والارادة الجماعية لتطوير هذا الانسان القديم.

والى ان يحين ذلك سوف نكتفي بالفرضيات.

وهكذا فقد تحول المصري القديم الى الزراعة وتربية الماشية، مما أحدث انقلابا في حياته وأدى الى تطور سريع في الحضارة. وسوف نستشهد مرة أخرى لكاينجين الذي يشدنا اليه ليس انتقائه للحقائق فحسب، بل خياله الفني الذي قد لا يكون أقل أهمية بالنسبة لاعادة تركيب صورة العصور الغابرة.

«مضى الزمن، واخذت تتسع رقعة الاراضي المزروعة، وتكاثر البشر، ونمت المبادرة الاجتماعية. واصبح لمبدأ التعاونية أهمية وابعاد لم يسمع بها من قبل. وجرى في كل مكان شق المصارف، وشيدت منشآت كبيرة للتحكم في الفيضان الدوري لمياه النيل، وتساوت مسطحات الحقول بفعل الطمي المترسب دوريا اثر فيضان النيل. واجتثت الغابات واقتلعت اشجارها وأزيلت الاحراج. وشنت حرب شعواء على مملكة البرمائيات، فهجرت مصر التماسيح وافراس النهر والثعابين الكبيرة. وحولت المستنقعات المجففة الى مراع ربيت فيها قطعان ضخمة من الثيران والمعيز والغنم. ولاول مرة وحّدت فكرة التعاون بين الوحدات المترابطة المتسمة بطابع الدويلات، والتي ربما كانت تشكل في البداية اتحادات بين امارات اقطاعية صغيرة. واحتفل الشعب في حرارة بصباه الاول، وادرك بوضوح مدى اكتمال نموفنه الأصيل وصورة ارادته الجماعية، وانتصاره الاول على الوسط المحيط الذي حوله من مستنقعات برية عطنة وترسبات غرينية مليئة بالحفر العميقة ومكتظة بالنباتات البرية المختلفة، الى سطح مستو من حقول الحنطة والمراعي الكثيفة الاعشاب».

ولم تتخلف عن هذه النهضة الجوانب الروحية في الانسان.

«إن عبادة اوزوريس التي تشكلت في عصور ما قبل التاريخ والقائمة على عبادة النيل بوصفه مصدر جميع الخيرات في مواجهة روح الصحراء الشريرة الجبارة، بدت منذ الايام الاولى للتاريخ غير مكتملة. وسرعان ما تطلبت وجهة النظر الدينية صيغة أكثر عمومية وذات محتوى اعظم واعمق، فتحولت الى عبادة حورس المنير، اله الشمس، مصدر كل الوجود، وباعث كل حياة وفرحة وحقيقة على ظهر الارض، وصورة الخلود في العالم الاخر. لقد ادرك الشعب قوته الروحية... وتمشيا مع حضارته العريضة المزدهرة اقام ابا الهول العظيم....

ولكن رغم كل جاذبية الصورة المرسومة لذلك الرخاء فلا ينبغي ان ننسى لحظة واحدة انه قد دفع ثمنا لها كفاح طويل ضد ذلك النيل نفسه وتلك الصحراء ذاتها، اللذين تستمد البلاد بدايتها من تفاعلهما. ولم يكن من الممكن الاسترخاء لحظة واحدة والاستكانة الى حصاد المعركة التي تم كسبها».

ليس النيل هو الذي جعل من مصر مصرا، بل هو الجهد البشري الجماعي جيلا اثر جيل والف سنة تلو اخر. ولم تكن مياه النيل سوى مادة بناء الحضارة مثلها مثل طمي النيل والشمس. ان الحياة مستحيلة بدون الماء، وهذه بديهية اصبحت رائجة. ولكن الحضارة على ضفاف النيل هي هبة الفلاحين ومهندسي الري المصريين.

وتضاريس الارض المصرية الراهنة هي من صنع يد الانسان بنفس القدر تقريبا الذي صنعت به تضاريس هولندا. وقد شارك الانسان في تشكيلها هو والمياه والتربة والشمس، وكان عنصرا ايكولوجيا عظيما لم يخل بانسجام الطبيعة، وانما كان جزءا من اللاصحراء في المجابهة الازلية بين الصحراء واللاصحراء.

وبتطور الريّ تغيرت البيئة الطبيعية ايضاً. ففي العصور القديمة، عندما كانوا يستخدمون نظام ري الحياض، كانت مصر المأهولة تتحول اثناء فترة الفيضان الى بحيرة هائلة تمتد الى الف كيلومتر، وبالاحرى تتحول الى خليج عذب ضحل المياه من خلجان البحر المتوسط. ووسط هذا الخليج تمتد على مسافات متباعدة الجسور والسدود، وترتفع الجزر التي تقوم عليها المدن والقوى، وذلك ما كان

يميز مصر التاريخ عن مصر ما قبل التاريخ. اما الان، وبعد ان تحولت مصر كلها الى نظام الري الدائم، فترى عند تدفق المياه مستطيلات الحقول المنمقة.

واذا استثنينا فترات الفيضانات فان المنظر الطبيعي الريفي لمصر ظل على ما هو عليه على الاقل منذ عهد هيرودوت. وحتى لا نرجع الى التاريخ القديم سنستشهد بكلينجين مرة اخرى:

«نحن في الرحاب الواسعة، نحن في ملكوت النهر التاريخي القديم، نحن على صدر وليده تماما، فأمامنا دلتا النيل. ان البصر لمأخوذ ومفتون بهذا المنظر الخارق. هذا استواء لاحدود له واتساع، والبصر لا يعلق بأقل ربوة ولا بأتفه تلّة من طرف السماء الى طرفها.

ان هذا السهل يسيطر علينا، وتشعر بنفسك معزولا فيه بصورة مذهلة، تشعر وكأنك منفصل، بصورة ما، وسط هذا السهل المستوى بلا حدود بصرامته الهندسية التي لا ترحم... انه ليس سهبا وليس مرجا، وأمامه تتضاءل كل سهولنا الغربية حتى اكثرها اتساعاً، اذ انها التصقت كشرائط متعرجة بانهارها المطعمة ومضت تتبع تعرجاتها وتفرعاتها النزقة بإذعان، اما هذا الوادي العملاق فقد انبسط ممتدا فوق الافق المنظور كله.

دلتا النيل هي انتصار جليّ لحضارة عمرها آلاف السنين. فلتنظروا الى حقول الغلال المتساوية هذه وهي تتناوب بلا نهاية ما بين القمح الرمادي الازرق الفاخر والشعير، بهذه الخطوط المتموجة المذهلة للسنابل الطويلة السفا. لتنظروا الى هذه الاشرطة الخضراء المتساوية والتي تبدو وكأنما رسمتها ريشة ماهرة والمتموجة بشتى درجات الالوان، اشرطة حقول مختلف انواع البرسيم والفصفصة (البرسيم الحجازي) والعديسة (بسلة ابليس) والفول والعدس والحمص وعشب الجمل وكثير غيرها من المزروعات التي لا حصر لها».

وتتوقف نظرة السائح المفتونة الان مثلما توقفت آنذاك على نبتات القطن الوليدة المرتبة بصورة هندسية منتظمة كأنما قسمت المسافات بينها بخيط، وعلى

اعواد القصب المجاورة وقد انتصبت كالجدار العالي، وعلى قطع ارض صغيرة سوداء مطفاة، مهياة لزراعة الارز وقد قسمت بصورة متساوية كأنما بالمسطرة. ويهتف كلينجين: «من هذا المهندس الرائع الذي سوّى هذا السهل الخصب المثالي بهذه الصورة؟ اي زحافة سحرية مرت على جميع هذه القطع الصغيرة المزروعة التي لا حصر لها فأضفت عليها كل هذا التنوع وكل هذا الثراء في الاشكال، وكل هذا التشابه والتوحيد من حيث طول النباتات وغزارتها وامتلاؤها؟... ان هذه الزحافة هي ابداع الفلاح المصري الكادح الذي لا يعرف الكلل منذ مائة قرن، هذا الابداع الاقدم بما لا يقارن من كل تاريخ الفراعنة الاحتفاليوالمدون بنقوش الهيروغليفات».

وفي كل مكان يدركه البصر ترى الحقول مغطاة بشبكة كثيفة من البحور وترع الري الكبيرة والصغيرة. فالرّياحات الملاحية الكبيرة تجلب الماء من بعيد، من الشريان الرئيسي: نهر النيل الفياض.

ومن هذه الرّياحات الرئيسية تتفرع الى جميع الاتجاهات بحور أقل درجة، ومنها تتفرع بدورها ترع تمد بالمياه قنوات الري الصغيرة كفروع الاغصان الدقيقة.

يقول الرحالة السابق: «لهذا الغرض تخدم منذ القدم في مصر شتى الادوات من مختلف التصميمات والانواع. فهذا هو الشاذوف القديم... وهذه هي الساقية التي لا تقل عنه قدماً.... ان هذا الاقتصاد هو «مائي» في طبعه الغالب. وهنا لا ينتظرون المطر المغيث انتظارهم لنعمة. وهنا تجرح اذن الفلاح الروسي عبارة «الحمدلله ان المطر لم يسقط تقريبا، والا لساءت الامور».

واقرأ ما كتبه الرحالة الروسي كلينجين، وأراجع انطباعاتي الخاصة واقارنها بملاحظات الرحالة وافكر في العنصر او الملمح الذي يمكن ان اضيفه الى تلك الالوان الحية النضرة للوحته... ربما يمكن ان نضيف الى تلك اللوحة مضخة مياه تعمل بالبنزين او الكهرباء وتطقطق على شاطىء قناة الري، او الجرار الذي اخذ يظهر اكثر فاكثر في حقول مصر. وربما اضفنا ايضا الطنبور (لولب ارخميدس)

الذي لم يره ارخميدس آنذاك في الدلتا ولكنه - اي الطنبور - خدم الفلاح آلاف السنين مع الشادوف والساقية وما زال يخدمه الى الان.

وربما أضفنا ايضا مزارع الورد والياسمين لانتاج زيوت العطور. ولا شيء آخر؟ يبدو ان هذا كل ما هنالك.

لقد تغيرت صورة الحقل المصري خلال تاريخه الطويل.

توطنت فيه المحاصيل الامريكية - الذرة والطماطم والبطاطس - جنباً الى جنب مع المحاصيل الاخرى: الذرة العويجة الافريقية والبصل والبطاطا العسلية. واصبح القطن الطويل التيلة - الذي كان ملك القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين - مثله مثل بقية المحاصيل، بل اخذت تزاحمه محاصيل اكثر دخلا مثل الفواكه والخضراوت ومحاصيل العلف وخاصة البرسيم. بيد ان ذلك كله ليس سوى تغيير في التفاصيل لا يمس الجوهر.

وأما الجوهر فهو نظام الري الموحد من اسوان حتى البحر الابيض المتوسط. ومعروف قَسَم اوزوريس في مصر القديمة:

«أنا لم ألوث مياه النيل، ولم أقطع مجراه في وقت الحاجة، ولم أسد القنوات»، ان كل هذه الجرائم لا يمكن ان تكون من فعل الفلاح، والاقرب الى الصواب ان هذا القسم كان اشبه «بقسم ابي قراط» يؤديه مهندسو الري في مصر الفرعونية.

ونظام الري هو ثمرة جهد مئات والاف وملايين البشر. بيد ان البشر ليسوا نحلا او نملا، ولا تحركهم الغريزة بل العقل، وعقل مهندس الري هو الذي كان المرشد في بناء السدود وشق القنوات وتوزيع المياه. لقد كان مهندس الري في مصر القديمة على ما يبدو يحتل في الحياة الاجتماعية منزلة لا تقل عن منزلة المحارب والقائد العسكري. وكانت القدرة على انشاء نظام للري وضمان تشغيله تضفي على القائد في عيون الشعب صفات خارقة. وربما كان الهة مصر القديمة الرئيسيون: رع، اوزوريس، بتاح، حورس، الذين خلعت عليهم وظائف التصرف

في قوى الطبيعة او الاشغال العامة، ربما كانوا في زمن ما فراعنة مهندسين حقيقيين او كهنة متخصصين في شؤون الري ، ثم تحولوا الى الهة بعد الممات.

وثمة خصيصة أخرى مهمة.

ان مصر لم تعرف الملكية الخاصة للارض بوصفها الشكل الرئيسي للملكية لا في الماضي القديم فحسب، بل وحتى حديثا، الى نهاية القرن التاسع عشر، ولم تعرف نظام الملكية الخاصة للمنتج (اي ملكية عبيد الارض) بصفتها الشكل المحدّد لعلاقات الانتاج . ففي ظل نظام الري المركزي كان لا بد من تجميع جهود المجتمع كله. وتطلب الانتاج، الذي كان زراعيا في اساسه، جذب العمل الاسري والعشائري ولكن كأجزاء في العمل الجماعي العام، لان شخصا بمفرده، او حتى عشيرة بمفردها، لم يكن بمقدوره او بمقدورها شق قناة وبناء سد وتشييد خزان مياه. وتطلب الامر وجود ادارة للاشراف على هذه الاعمال ولتعبئة الموارد. وفي مرحلة ما تحول الجهاز الذي تكوّن في مصر من اجل تنظيم الانتاج ومن اجل ادارة المجتمع، الى جهاز فوق المجتمع، الى سلطة دولة، الى دولة اصبح تنظيم الانتاج بالنسبة لها مجرد وظيفة ثانوية بالاضافة الى الوظيفة الاساسية الا وهي استغلال الكادحين. غير ان هذا الاستغلال كان في ظروف مصر استغلالا جماعيا في المقام الاول، وفي ظله كان الجزء الاكبر من المنتوج الاضافي، الناتج اساسا من عمل الفلاحين، يوزع من اعلى الى اسفل، من قمة الهرم الاجتماعي التي يمثلها الفرعون او السلطان الى الجزء الاوسط.

ومن الجائز ان عملية نشوء الطبقات في عصر ما قبل الاسر، عندما بدأ المصريون يشيدون منشآت الري الاولى البدائية، قد ترافقت مع تبلور القمة العشائرية، وبعد ذلك سارت عملية انشاء «الجهاز الاداري الهندسي» لمزيد من التوسع في اعمال الري في وقت واحد مع عملية نشوء الطبقة الحاكمة. ولكننا لا نملك وثائق أو مصادر تؤكد ذلك.

وفي تاريخ مصر الموحدة انهارت ملكية الدولة العليا للارض مرتين، على

الاقل فيما بعد الميلاد. وكانت المرة الاولى في العصر الروماني البيزنطي، والمرة الثانية في العصر الحديث والراهن.

ففي بداية القرن الرابع الميلادي حدث تقلص شديد في أراضي الدولة وتوسع في الملكية الخاصة للارض فيما يبدو بتأثير الاوضاع السائدة في الامبراطورية الرومانية. وسارت عملية الانتقال الى الاقطاع في مصر في الفترة ما بين القرن الخامس والسابع باشكال تشابهت نوعا ما مع ما حدث في الاقاليم الشمالية والغربية من الامبراطورية البيزنطية. فظهرت في مصر اقطاعيات كبيرة للارستقراطية اليونانية. ولكن ألم تتناقض هذه العملية المنقولة من الخارج تناقضا جذريا مع متطلبات الاداء الوظيفي الطبيعي لمجمل نظام الري في مصر؟ ألم يكن ذلك أحد التناقضات الحاسمة بين مصر وبيزنطية؟ (علاوة على النهب الضريبي المباشر لمصر من قبل القسطنطينية وملاحقة الاقباط المصريين)، ذلك التناقض الذي يفسرون به سهولة «فتح» العرب لمصر في القرن السابع الميلادي؟ فالتشريع الاسلامي قد وضع الملكية العليا للاراضي في ايدي الخليفة، اي انه اعاد العلاقات الزراعية إلى وضعها التقليدي.

وكان بامكان الخليفة ان يحصل على الموارد عن طريق موظفيه وذلك بتسليم الارض للفلاحين ليزرعوها. والامر الاكثر شيوعا كان تمليك الارض تمليكا مؤقتا، وبالاحرى تسليم الارض لاحد ممثلي الارستقراطية الاقطاعية لادارتها مقابل تقديم الخدمات العسكرية والمدنية او الدينية للدولة. وكانت هناك ايضا «اراضي الوقف» الموقوفة على اعمال الخير وللاغراض الدينية. ولم يكن هناك الا جزء يسير من الاراضي مملوكا تملكا خاصا. وساعد عدم وجود التملك الوراثي للارض على تجنب ظهور الارستقراطية الاقطاعية الاوربية الطابع في مصر. ولم يبدأ انتشار الملكية الخاصة للارض في مصر الا في بداية القرن التاسع عشر بتأثير من الغرب، وبينما لم يصبح لها سند من القانون سوى في نهاية القرن الماضي.

لقد كتب الكاتب الالماني اميل لودفيغ عن مصر: «فيما يتعلق بالمصريين يمكن القول ان القنوات هي ملحمتهم، والسدود هي دراماتهم والاهرام فلسفتهم».

وقد ادرك لودفيغ عن حق ان المنشآت المادية البحتة تشغل مكانة ضخمة في حياة الشعب المصري الروحية سواء في العصور القديمة ام في الوقت الراهن.

ان طول القنوات في مصر يبلغ عشرات الالاف من الكيلومترات، ولو صفّت السدود صفا واحدا لبلغ طولها آلاف الكيلومترات.

وعلى نهر النيل، سواء في مصر أم في السودان، شيدت عدة سدود. وبعض هذه السدود يقوم بتخزين المياه والبعض الاخر يقوم فقط بتوزيعها. وقبل ظهور السد العالي كانت هناك ثلاثة سدود تخزن مياه البحيرة الصناعية: سد اسوان القديم الذي كان خزان مياه يحجز ٥ مليارات متر مكعب من المياه، وسد جبل الاولياء في السودان الواقع على بعد حوالي خمسين كيلومترا جنوب الخرطوم والذي يحجز ٣ مليارات متر مكعب من المياه، وسد سنّار على النيل الازرق بالقرب من العاصمة السودانية، ويحجز خزانه مليار متر مكعب من المياه.

وعلى نهر النيل في مصر قامت قناطر توزيع المياه في اسنا ونجع حمادي واسيوط وديروط واللاهون وقناطر محمد علي جنوب القاهرة. وهذه القناطر توزع المياه على الريّاحات والترع الكبرى.

ومع حلول العقد الخامس من هذا القرن بدا وكأن الصراع الازلي بين اللاصحراء والصحراء، بين طاقة الانسان الحية وقوى الرمال المميتة قد اشرف على بلوغ منتهاه. ففي ظل السدود القائمة لم يكن في وسع النيل ان يروي سوى ٦ ملايين فدان (الفدان يساوي ٠,٤٢ من الهكتار) او ما يعادل ٩,٣ مليون فدان اذا راعينا ان الارض تعطي محصولين او ثلاثة في السنة. ولكن السدود القائمة آنذاك لم تكن تحمي مصر لا من الفيضانات العالية او نقص المياه. وكان متوسط تصريف النيل في مصر ٨٤مليار متر مكعب سنويا، يرتفع في بعض السنوات الى حده الاقصى ١٥٠ مليار متر مكعب، ويهبط في سنوات الجفاف المدمرة الى ٤٠ مليار متر مكعب.

وتحتم على مصر ان تبذل آخر ما في وسعها لتقتطع من الصحراء بعض مئات

الالاف من الفدادين لتحولها الى حقول وبساتين. كانت مصر بحاجة الى السد العالي ليستمر وجودها الطبيعي...

... أتذكر شهر يناير ١٩٦١. كنا نستقل قطارا ينبعث منه الصرير والقرقعة، والغبار يغطي مقصورتنا، ورحنا نتجادل طوال الليل والنهار، وبين الحين والحين نهرع الى النوافذ لنلتقط بأعيننا صورة المناظر المصرية ومياه النيل الرمادية وخضرة الحقول البهيجة وخطوط الرمال الصفراء المحدقة بوادي النهر، والقباب الشفافة للكنائس القبطية، والمآذن التي لا حصر لها وهي تعلو فوق القرى العديدة ذات اللون الرمادي المائل الى البنّي.كنا طلبة في جامعة القاهرة من جنسيات مختلفة:روس، وايطاليون وألبانيون، وألمان، ولبنانيون، ويوغسلافيون، وسويديون، وهولنديون، ومعنا بالطبع مصريون، وكنا مسافرين الى أسوان، وراح المصريون يغنون «قلنا حنبني وادينا بنينا السد العالي».

وفي اسوان اخلدت هذه المجموعة المتعددة الاقوام الى السكون قليلا وقد سحقت وضاعت في تلك الدوامة البشرية الهائلة. كان يجري بناء عظيم، بعشرات الالاف من العمال، بدوي الالات والكلمات العربية - الروسية، والسباب، والغبار، والطاقة البشرية المتفجرة والصراخ، والنجاحات الاولى. وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد ضغط منذ سنة على زر في لوحة التحكم مفجرا اولى الصخور الجرانيتية في طريق قناة التحويل، اما الان فقد امتد العمل ليشمل مساحة اوسع، وكنت انا الوحيد من بين افراد المجموعة الذي رأى مشروعا مشابها - فقد كنت مراسلا لجريدة «فولجسكايا كومونا» السوفيتية في موقع بناء محطة كويبيشيف الكهرمائية - ولذا اخذت احاول ان اشرح كل شيء واوضحه لزملائي منتفخ الصدر بعزة الشباب. ثم ركبنا الزوارق الشراعية لنتنزه في النيل، واستحممنا في مياهه رغم تحذير الاطباء، ثم زرنا الاسطورة: معابد فيلة الغارقة الى وسطها في مياهه بحيرة السد القديم: ثم طريق العودة وقد أمتلأت بادراك انك رأيت شيئا عظيما، هائلا.

وعدت لزيارة المكان بعد خمسة عشر عاما. وجدت اسوان مدينة من مدن الريف الهادئة التي يقصدونها للاستجمام، والحدث الرئيسي في حياتها الرتيبة

آنذاك كان تصوير فيلم «جريمة على النيل» للكاتبة آجاثا كريستي. وكانت هناك عدة مصانع قد شيدت، ولكنها ظلت على هامش حياة اسوان. وفي محطة السد كان يعمل بضعة خبراء سوفييت من المختصصين في تصليح وصيانة التوربينات. وكان الموقع محميا بمدافع مضادة للطائرات وصواريخ، وبجوارها نام الجنود.

كانت تلك سنوات الحملات الهستيرية المهينة المتزايدة التي شنها الرئيس السادات على الاتحاد السوفيتي. وكان يحرق جسوره مع موسكو ويشق طريقه نحو القدس، نحو كمب ديفيد. لقد ارادوا ان يمحوا من اذهان المصريين سنوات تعاوننا المشترك، وكم كذبوا... ولكن اسوان....

على شاطيء البحيرة يقوم تمثال الصداقة السوفيتية المصرية الذي يشبه بخطوطه زهرة لوتس ضخمة. وفي داخل المبنى تشع الاحرف الذهبية من كلمات تشيد بهذه الصداقة.

ولم يجرؤ احد حتى في ذروة الحملة الموتورة على الاتحاد السوفيتي ومحاولات النيل من السد العالي ان يرفع يده على زهرة اللوتس الاسوانية الكبيرة.

لقد ردّ لنا المصريون دينهم بالكامل مقابل اسوان.

ولكن لا! ان بناء السد العالي لم يكن عملية بيع وشراء معدات بالتقسيط مع تأجيل السداد. ولم تكن عملية نقل المعارف التكنولوجية على طريقة «Know how» حسب المصطلح الانجليزي. بل كانت عملية تبادل روحي وعملي سام، رغم صعوبته، بين شعبين جد مختلفين، عملية ابداع مشترك في اكبر واهم مشروع في تاريخ مصر. كانت عملية اتحاد سياسي وان كان مؤقتا. ولم يكن العمل المشترك يسيرا، ولا البحث عن سبل للتفاهم والتعاون، ومع ذلك تم تجاوز كل شيء وتشييد البناء! ومن الممكن محو الكثير من الذاكرة البشرية ولكن لن ينسى احد، ولا حتى الاعداء، ان السد العالي في اسوان هو ثمرة التعاون بين شعبينا. دعونا لا نظن، كما يعتقد البعض في سذاجة، ان التعاون السوفيتي المصري كان شارعا باتجاه واحد. فالقضية لا تنحصر في تسديد قرض بناء السد العالي. ودعونا جانبا من الاستناد

الى مبادىء سياستنا، فقد كان التعاون الاقتصادي والسياسي متفقا لا مع مصالح مصر فحسب بل مع مصالح الاتحاد السوفيتي ايضا. ودور السد العالي في هذا التعاون لا يقدر بثمن. مع العلم بانه لم يكن من السهل على الاتحاد السوفيتي ابداً توفير الموارد والامكانيات للقيام بهذا المشروع الضخم خارج الحدود.

لقد قال لي الكاتب الصحفي المصري المعروف لطفي الخولي في عام ١٩٧٦: «كنت اقرأ محاضرات في الولايات المتحدة عن الوضع في مصر، فسألني احد موظفي الخارجية الامريكية «ما الذي نستطيع نحن الامريكيين ان نفعله في مصر لنترك اثرا كذلك الذي تركه الروس الذين شيدوا مع المصريين السد العالي؟».

فأجبته: «ساعدونا على بناء سد عال ثان».

كان لطفي الخولي يمزح. فلن يبني في مصر سد عال ثان، فجميع السدود الاخرى - كمنشآت للري - هي سدود ثانوية وقليلة الشأن. والسد العالي هو قمة ترويض النيل وثمرة جهود بذلها الشعب المصري على مدى آلاف السنين. وكان لا بد ان يبنى هذا السد في كل الاحوال. فبدون الاتحاد السوفيتي كان سيبني لا في الستينات - السبعينات، بل في الثمانينات - التسعينات او في القرن الحادي والعشرين في نهاية الامر. بالطبع كانت مصر ستدفع ثمنا اجتماعيا - اقتصاديا لهذا التأخير، ومع ذلك كان السد سيبنى حتما، لان مصر لا تستطيع ان تعيش بدونه، بيد ان واقع مشاركة السوفييت، كما كانوا يسمّون آنذاك، للمصريين في بنائه سيبقى الى الابد لؤلؤة تعاوننا المشترك واستثمارا انسانيا وسياسيا لروسيا في مصر رغم جميع تقلبات الدهر.

لم يكن بناء السد العالي من حيث عدد العمال أضخم مشروع بناء في تاريخ مصر. فقد شارك مائة الف شخص في بناء هرم خوفو على مدى ثلاثين عاما. لكن السد العالي وهرم خوفو اشبه باللاصحراء والصحراء في مجال الابداع البشري.

لقد عقدت المقارنات بين السد العالي وهرم خوفو. فكلتا المنشأتين تبهر العقل بضخامتها وابعادها. ومثل هذه المقارنة جائزة بالنسبة لمصر، اما على مستوى

البشرية فليست في محلها، اذ سوف تكون مشروعات مائية وتوجد بالفعل منشآت اضخم واعظم من السد العالي.

ان السد العالي هو وليد العقل البشري.

والهرم شيء رهيب ولده الجنون.

السد العالي شيء عقلاني من حيث الغرض منه: ان يعطي الماء والطاقة للبشر.

والهرم شيء لاعقلاني. لقد شيد لاشباع الغرور المتضخم لدى انسان فان واحد اراد ان يكفل لنفسه الخلود.

السد العالي رمز الحياة.

والهرم رمز الموت.

وليكن ان «الاهرام هي آثار العصور الخوالي وتحف فنية واسرار لم تكشف بعد للهندسة القديمة، وتجسيد مادي للدين والفلسفة لدى المصريين القدماء». انني موافق. واني على استعداد لان اتملى مبهورا زوايا الاهرام على خلفية السماء الزرقاء وابدي اعجابي بعظمة اشكالها وبساطتها ووضوحها. وبوسعي ان اتصور بريقها الاسطوري الخيالي في تلك المجموعة الرائعة المؤلفة من المعابد وابي الهول، عندما كانت ما تزال بعد مكسوة بالرخام الملون المصقول المغطى بالنقوش الهيروغليفية (مكتبة كاملة من النقوش! ويشهد الرحالة بان ما تبقى منها حتى القرن الثامن الى العاشر الميلادي كان يكفي لو نقل الى الورق لملء عشرة آلاف صفحة!). وقد ينعقد لساني امام الفكرة الهائلة، الكونية تقريبا، فكرة تأليه الذات، وامام الخيال الجهم الذي لا يعرف حدودا، والرغبة الجامحة في ان يأخذ الفرعون معه الى العالم الاخر كل الثروة والسلطة وجميع الخيرات المترفة التي كان يملكها في الدنيا.

لقد اهلك الفرعون خوفو على مذابح جنونه الشيطاني الشره القوى الحية لجيلين من المصريين وضحى باعداد لاحصر لها وبدّد موارد الدولة وكل ثروات المعابد، بل وحسب رواية هيرودوت ضحى بابنته الجميلة فجعل منها بغيا لتجميع

الموارد اللازمة لبناء الهرم. وكان صفير الاسواط في ايادي الحراس يتجاوب مع اناشيد الكهنة وصلواتهم. كانت تجري عملية غسيل مخ للرعية، كما تقول بلغة اليوم، حيث كانت القوة وحدها غير كافية، بل يجب اقناع الناس بأنهم يعانون هذه الالام لا من اجل الفرعون البشر، بل الفرعون الاله، وانهم يموتون لا في سبيل فكرته المجنونة بل في سبيل المثل العليا، اي من اجل انفسهم كما زعم لهم.

وتجسدت الفكرة المستحيلة في بناء الحجر، واحس الفرعون المحتضر بالظفر وقد اقنع نفسه والاخرين بطبيعته الالهية.

وسخر التاريخ منه... فقد نهبت مقبرة خوفو، مثلما نهبت معظم مقابر الفراعنة الذين حكموا مصر خلال ثلاثة ـ اربعة آلاف سنة، باستثناء مقبرة توت عنخ آمون التي نجت بالصدفة. فقد تسلل الى مقبرة خوفو اناس صفيقون ولكنهم ذوو عقل دنيوي راجح، والاقرب الى الظن انهم هم نفس الكهنة والمهندسين الذين اشرفوا على البناء ودبروا شيء الفخاخ الماكرة والممرات الخفية ليوقعوا فيها الاخرين. وهل كان يعنيهم في شيئ غرور الفرعون الراحل الجنوني! وهل كان يعنيهم العالم الاخر! لقد كان التحرق الى الثروة والمتع في هذا العالم لا في العالم الاخر هو دافعهم.

ولكن سخرية التاريخ تكررت. فقد شيد الفراعنة الجدد اهرامات جديدة ومنشآت لا ضرورة لها تضم خمسة آلاف غرفة، واغلقوا على التحف الفنية اغطية التوابيت الحجرية. وحصل اللصوص الجدد على الكنوز التي جمعها الفراعنة للحياة الاخرة.

وربما كان بوسع هذا الجنون ان يستمر طويلا، وطويلا جدا، ولكن ليس الى ما لا نهاية، لقد ذبلت مصر القديمة وافلت، وانهدّ حيل الفارعنة. وليس بمقدورنا، وربما لن يكون بمقدورنا ابدا، ان نقدم جوابا شافيا على السؤال عن سبب ذلك. اما بالنسبة لي فلا شك عندي في أمر واحد: ان اهدار قوى الاحياء بلا حدود في سبيل فكرة الموت كان أحد اسباب هلاك مصر الفرعونية.

غير أننا استطردنا فابتعدنا كثيرا عن السد العالي الدنيوي الوظيفي الرشيد.

ولن ننسى ان هذا المشروع كان في زمنه اكثر المشاريع الهندسية التصاقا بالسياسة في العالم كله.

لقد اقترح العالم الانجليزي المعروف بدراسته للنيل هيرست في عام ١٩٤٦ بناء سد في اعالي النيل الابيض، وعلى بحيرة البرت. لكن حكومة مصر الثورية التي وصلت الى السلطة عام ١٩٥٢ رفضت هذه الفكرة، اذ كانت تعني تسليم التحكم في مياه النيل الى ايد غريبة، هي ايدي الانجليز، فقد كان السودان واوغندا آنذاك ضمن نطاق الامبراطورية البريطانية. وعلاوة على ذلك فالكمية الرئيسية من مياه الفيضان تأتي من مياه النيل الازرق.

لقد اشارت كل من السياسة والهيدروجيولوجيا الى اسوان باعتبارها المكان الامثل لبناء سد عال، جديد، اما هيرست، فقد اعترف، كمهندس شريف، في عام ١٩٥٧، بأن «مشروع السد العالي في اسوان هو افضل مشروع، فسوف يساعد على تخزين جزء كبير من مياه الفيضان القادمة من النيل الازرق وعطبرة، حيث انه لا يمكن الا قرب اسوان بناء خزان مياه بحجم مناسب».

في ذلك الحين انتهت لجنة دولية مشكلة من افضل الخبراء العالميين الى استنتاج امكانية تنفيذ المشروع من جميع وجهات النظر. وكانت فوائد المشروع بادية للعيان، اذ سيصبح الري مستقرا وستحصل الارض على كمية المياه اللازمة بغض النظر عن نزوات الطقس في افريقيا الاستوائية. وستزداد الاراضي الزراعية زيادة كبيرة تصل الى ١,٣ مليون فدان، بينما سيمكن تحويل من ٧٠٠ الف الى مليون فدان من ري الحياض الى الري الدائم.

اما محطة توليد الكهرباء فسوف ترفع توليد الطاقة الكهربائية بمقدار ١٠ مليارات كيلوواط/ساعة في مقابل مليار كيلوواط/ساعة هي مجمل انتاج الطاقة الكهربائية في مصر كلها عام ١٩٥٢. وسيزداد المنتوج القومي الاجمالي بنسبة الربع.

وكانت مصر بحاجة الى المال، الى مال كثير، الى ٢١٠ ملايين جنيه مصري، بل الى ٤٠٠ مليون جنيه اذا حسبنا حساب المشاريع الاضافية المكملة. وكان هذا المبلغ آنذاك مبلغا هائلا بحسابات ذلك الزمن الذي لم تكن فيه دولارات النفط والتضخم قد حولت بعض القروض الى ارقام ذات عشرة اصفار.

وكانت الاموال متوفرة لدى البنك الدولي للانشاء والتعمير، ولكن هذه الهيئة المالية الدولية كانت تحت سيطرة الولايات المتحدة. وكانت الشروط التي ابدى البنك استعداده لتقديم القرض على اساسها تعني فرض الوصاية على الاقتصاد المصري والشئون المالية المصرية.

وكان وزير الخارجية الامريكية آنذاك هو جون فوستر دالاس، صاحب سياسة فرض الارادة الامريكية في الشئون الدولية. وكانت «الحرب الباردة» مستعرة آنذاك، وفي معمعان تلك الحرب رفض عبد الناصر المشاركة في احلاف عسكرية مثل «قيادة البحر المتوسط» و«حلف بغداد»، وبدأ يتعاون مع الاتحاد السوفيتي واعترف بالصين الشعبية.

وكان لابد من معاقبة عبد الناصر على عدائه للامبريالية، فرفضت الولايات المتحدة وانجلترا والبنك الدولي للانشاء والتعمير تمويل مشروع السد العالي، وبدا ان مصر قد حصرت في الركن ولكن الموارد المالية كانت متاحة. انها اموال كسبها المصريون بعرق جبينهم وبدمائهم، بكدهم هم واباؤهم واجدادهم، ولكنها كانت تصب في جيوب غير جيوبهم. لقد كانت قناة السويس تمر عبر الاراضي المصرية. وقد شقها المصريون، ولكنها اصبحت ملكا لرؤوس الاموال البريطانية والفرنسية. ولم تكن مصر تحصل في بداية الخمسينات الا على مليون جنيه مصري فقط من الدخل السنوي للقناة الذي يبلغ ٣٠ مليون جنيه.

كان قناة السويس ملكا مشروعا للشعب المصري، وكان لا بد ان يعود اليه. وفي خطابه الشهير من شرفة بورصة القطن في الاسكندرية في ٢٦ يوليو١٩٥٦ اعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس. «وسوف نستخدم هذه الاموال لبناء

السد، وليمت الامريكيون بغيظهم، فسوف نبني السد. ان شركة قناة السويس اصبحت منذ هذه اللحظة ملكا لنا». وكانت هذه العبارات شفرة للامر الصادر لمجموعة العمليات العسكرية باحتلال جميع مباني شركة قناة السويس.

ولن نتوقف هنا عند ما حدث بعد ذلك من عدوان انجليزي فرنسي اسرائيلي في عام ١٩٥٦ ومقاومة المصريين له. سنشير فقط الى الانذار السوفيتي الى انجلترا وفرنسا الذي اجبرهما على وقف العدوان ثم الانسحاب من مصر في نهاية المطاف.

وتبع ذلك حصار اقتصادي فرضته الدول الغربية على مصر. واغلقت قناة السويس مؤقتا في وجه الملاحة، ومنيت مصر بخسائر كبيرة.

وظلت معلقة مسألة من سيمول بناء السد العالي، بل ومن الذي سيشارك في بناء السد بتوريد الالات والمعدات. وراحت الولايات المتحدة تبتز مصر. واعلن جون فوستر دالاس: «طالما بقيت وزيرا للخارجية فلن تحصل مصر على سنت واحدة لسد أسوان».

وفي هذه المرة كذلك، كما اثناء العدوان «الثلاثي» ظهر الاتحاد السوفيتي على ساحة الشرق الاوسط. وكان لقراره بمد يد المساعدة لمصر في بناء السد العالي جانب اقتصادي (تقديم قروض لتغطية تكاليف الالات والمعدات والعمال) وجانب سياسي، اذ كانت مساعدة لبلد يناضل متحديا نظام الغرب الاستعماري.

وفي ٢٧ ديسمبر ١٩٥٨ تم توقيع اتفاقية بين الاتحاد السوفيتي والجمهورية العربية المتحدة يمنح الاتحاد السوفيتي بموجبها قرضا طويل الاجل لمصر قيمته ٩٠ مليون روبل لتغطية توريد المعدات، والمعونة التقنية في بناء المرحلة الاولى من المشروع على ان يبدأ تسديد القرض في عام ١٩٦٤ بأقساط سنوية متساوية خلال اثنى عشر عاما وبفائدة سنوية ٢,٥٪. وفي عام ١٩٥٩ ادخل الخبراء السوفييت تعديلات جوهرية على المشروع الاول. فانطلاقا من خبرة بناء السدود الضخمة اقترح الخبراء السوفييت شق قناة تحويل مكشوفة جزئيا بدلا من الانفاق الستة المقترحة، كما غيروا موقع المحطة الكهرمائية، الامر الذي من شأنه ان يؤدي

الى تبسيط عملية البناء وتوفير الاموال. وفي نفس السنة عقدت مصر اتفاقية مع السودان بشأن استخدام مياه النيل بعد انتهاء بناء السد، بحيث تصبح حصة مصر ٥٥,٥ مليار متر مكعب من المياه وحصة السودان ١٨,٥ مليار متر مكعب.

وفي عام ١٩٦٠ وافقت الحكومة السوفيتية على المشاركة في المرحلة الثانية من المشروع.

وواجهت البناء بعض المصاعب. فقد تطلبت طبقة الترسبات الرملية والغرينية التي يبلغ سمكها مائتي متر بناء ستار مثلث ضد الرشح. اما خزان مياه اسوان القديم الذي يبلغ عمقه ٤٠ مترا فقد زاد من صعوبات العمل، الامر الذي تطلب ردم مئات آلاف الاطنان الاضافية من الحصى والتراب. وبلغ الحر في كبائن الحفارات درجة ستين مئوية، الامر الذي تطلب ايجاد ظروف لتأقلم الميكانيكيين ابناء الشمال الروسي البارد. واخذت المعدات المعقدة تتوقف عن العمل بسبب اهمال العمال المصريين من الذين تنقصهم الخبرة او نتيجة اعمال تخريب من جانب اجهزة المخابرات الغربية. ولذلك بدأ تدريب العمال المصريين «على الماشي» واقيمت حراسة مشددة في مواقع العمل. ولم تكن المعدات تشحن من الاسكندرية الى اسوان في الوقت المناسب، فتطلب الامر تدخل الرئيس بعد عدة مذكرات تقدم بها الخبراء السوفييت. واثناء حفر عاجل لبعض الابار الاضافية اوقفت الشركات البريطانية توريد رؤوس الحفر الماسية... وكان على اناس جد مختلفين، كالروس والمصريين، ان يجدوا لغة مشتركة ويذللوا الاختلافات السيكولوجية ويتوصلوا الى حلول وسط ومساومات...

وتم تحويل مجرى النيل في الموعد المحدد، في مايو ١٩٦٤، في الشهر الذي تبلغ فيه المياه ادنى مستوى. ومع الموعد المحدد للتحويل كان قد تم بناء جميع الانفاق واقيمت البوابات الست عشرة وروافعها. وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد ألقى في ٩ يناير ١٩٦٣ بأول حجر جرانيتي في مجرى النيل ايذانا بالبدء في بناء السد، ثم وضع حجر الاساس للمحطة الكهرمائية.

اما عملية تحويل مجر النهر نفسها فاستمرت ٦٢ ساعة. واستخدمت في هذا

العمل ٨٥ شاحنة قلابة حمولة ٢٥ طنا، و١٢ صندلا ذاتي التفريغ من أفضل المعدات الحديثة لذلك العهد. لقد اتحدت العقول الهندسية مع الارادة السياسية لعشرات الالاف من الروس والمصريين فأعطت الثمرة المرجوة: ففي ١٥مايو ١٩٦٤ بدأ النيل يتدفق في مجرى جديد.

ان مجلة «لايف» الامريكية التي انهت حياتها الان، اما آنذاك فكانت في ذروة مجدها، هذه المجلة الصفيقة والمعادية للاتحاد السوفييتي ولكن بذكاء، كانت قد كتبت في تلك الايام تقول:

«خلال السنوات الاربع الاخيرة استطاع شعبان... وحدا جهودهما، ان يصنعا تحفة لم يكن يعتقد بامكانية تحقيقها الى وقت قريب سوى عدد قليل في العالم الغربي».

كانت تلك اللحظة مجد الرئيس عبد الناصر شخصيا، وراح يخاطب المصريين «يا أهل مصر، يا رجالها ونساءها واطفالها. ها هنا، امام انظار العالم اجمع، رمز حي لارادتكم وعزمكم وقدرتكم على الكد والتضحية. ها هنا، في هذا السد ذكرى لانتصاركم على كل قوى العدوان، على كل الصعاب. ايها الاصدقاء، ايها المواطنون. اننا نقف على سد اسوان العالي. هنا تداخلت واتحدت هنا معارك الشعب المصري السياسية والاجتماعية والقومية مثل كتل الصخور الضخمة التي ستسد مجرى النيل القديم وتحجز مياهه في اكبر بحيرة صنعها الانسان لتصبح موردا دائما للرفاهية».

وقال الرئيس مخاطبا الضيوف السوفييت الكبار: «لقد قدم الاتحاد السوفييتي لمصر معرفة شريفة نزيهة غير مشروطة، تدعم الصداقة العربية السوفييتية».

ان الحياة السياسية في مصر لم تكن قط ملساء كسطح القناة ولا وردية اللون دوما. ولكن ذلك موضوع آخر يحتاج الى ابحاث جدية. وسنكتفي فقط بالاشارة الى انه في عام ١٩٦٤ بدأ الافراج عن الشيوعيين وغيرهم من الشخصيات اليسارية من السجون ومعسكرات الاعتقال، بل ان بعضهم انتقل من فرشة السجن الى كراسي

الوزارة مباشرة. وكان لبناء السد العالي تأثيره على السياسة الداخلية لمصر.

واستمر بناء السد ايضا بعد عدوان يونيو ١٩٦٧، بعد الصدمة التي سببتها الهزيمة في الحرب العربية - الاسرائيلية، وكان بمثابة بارقة الضوء بالنسبة للمصريين في ظلام المهانة القومية والانسانية.

وفي صيف عام ١٩٦٧ ولّدت محطة اسوان الكهربائية التيار الكهربائي لاول مرة، وفي عام ١٩٧١ تم الانتهاء من بناء السد العالي تماما. وبارتفاع منسوب المياه تدريجيا في بحيرة السد الصناعية تزايدت قدرة مولدات المحطة. واخيرا بلغ حجم مخزون المياه في بحيرة ناصر ١٦٥ مليار مكتر مكعب.

وظلت محطة السد الكهرمائية لفترة طويلة المصدر الاساسي لتوليد الطاقة الكهربائية في مصر. وتم على اساس طاقتها بناء عدد من المشروعات الصناعية، بما في ذلك مجمع الالومنيوم في نجع حمادي الذي شيد بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي. وتمت كهربة الريف المصري كله تقريبا. ان قيمة الوقود الذي وفرته المحطة خلال ١٢ سنة من بدء انتاجها قد فاقت جميع نفقات تشييدها هي وخطوط نقل التيار ومحطات التقوية الفرعية.

اما الزيادة في الرقعة الزراعية فكانت أقل مما كان منتظرا.

فقد التهم الزحف العمراني غير المحكوم آلاف الافدنة الزراعية الخصبة. ولكن لولا السد العالي لكان الوضع اشبه بكارثة. واذا كان السد العالي قد بدأ كمشروع مائي ذي طابع سياسي، فقد استمر بعد بنائه يحمل هذا الطابع، وربما كان اكثر المشاريع «تسيسا» في العالم.

ان اهمية السد العالي بالنسبة لمصر كانت فيما يبدو واضحة للعيان، بيد انه في فترة الافتراء على التعاون السوفييتي المصري ظهرت محاولات للنيل من السد العالي. قيل ان الطمي لم يعد يصل الى الحقول ولذلك اخذت تفقد خصوبتها، وقيل ان شواطيء النيل والدلتا تتعرض للنحر؛ وقيل ان فاقد المياه في بحيرة ناصر

«كبيرة للغاية»، وان كمية سمك السردين في البحر المتوسط قرب شواطىء مصر انخفضت.

وفي تلك الفترة يكتب الصحفي المصري فيليب جلاب كتيبا بعنوان: «هل نهدم السد العالي؟» متهكما على الذين يكيلون الاتهامات للسد العالي.

ان بناء مشروعات ضخمة مثل السد العالي يؤدي عادة الى آثار جانبية كبيرة بالفعل ولا يمكن دائما التنبؤ بها. بيد ان جوقة الحاقدين عددت بالذات تلك الاثار الجانبية التي امكن التنبؤ بها باعتبارها من الاثار التي يمكن احتمالها.

وبالفعل فمياه النيل اذ تبطىء من تدفقها في بحيرة ناصر فانها تترك فيها ثروتها: الطمي. وبالفعل ستمتلىء البحيرة بهذا الطمي بعد ٥٠٠ - ٦٠٠ سنة وسوف تنخفض خصوبة الحقول بدون الطمي. غير انه في البلدان التي لا تعتمد على الري بل على الامطار، وتعتبر الزراعة فيها عالية المحصولية، لا تأتي الامطار بالطمي او الاملاح المعدنية، بل تعتمد الزراعة على الاسمدة المعدنية والعضوية وعلى الوسائل الزراعية العالية التطور. وفي مصر تبلغ تكاليف تطهير الترع والقنوات من الطمي اكثر من تكاليف بناء مصانع الاسمدة المعدنية. واذا وضعنا القضية هكذا: اما حقول بدون مياه ولكن ذات طمي خصب، اما حقول بمياه ولكن بدون طمي العام السابق (لاننا لا نتحدث عن طبقة الطمي التي سمكها عشرة امتار والتي تكونت على مدى آلاف السنين) فان الخيار يبدو واضحا.

لقد اصبحت بحيرة ناصر والسد العالي جزءا من التضاريس التي صنعها الانسان في مصر. اما بخصوص امتلاء بحيرة ناصر بالطمي فما زال امام البشرية الكثير من الوقت للاهتداء الى حل ما.

وهناك نحر لشواطىء النيل. ولكن الدراسات الميدانية أظهرت انه في معظم الاماكن اقل مما كان عليه قبل بناء السد العالي.

وقد ازداد النحر في الجزء الشمالي من الدلتا، ولكنه قبل بناء السد العالي كان يسير بمعدلات سريعة.

وبالفعل هجرت اسراب كثيرة من السردين شواطىء مصر المطلة على البحر المتوسط لفترة من الزمن. وبعد ذلك عاد جزء منها. ولاشك ان اسباب هجرة الاسماك تتطلب دراسة، والعلاقة بين هذه الهجرة ونقص تدفق الطمي الى البحر المتوسط مسجلة تحتاج الى اثبات. بيد انه بدلا من السردين اعطت بحيرة ناصر وتعطي عشرات الاطنان من سمك البلطي النيلي الكبير.

وحتى قبل ان يتم تحويل مجرى النيل راح كثير من الصحف الغربية يتباكى على «روائع الفنون المعمارية المصرية القديمة التي ستندثر تحت مياه السد». فقد كانت مياه بحيرة ناصر ستغمر تماما معبد ابي سنبل وجزيرة فيله. وابو سنبل معبد يضم اربعة تماثيل ضخمة جالسة وقاعات داخلية محفورة في الصخر ومزينة بلوحات جدارية لا مثيل لها. اما جزيرة فيله فتضم معبد الالهة حتحور والالهة ايزيس وآثارا من العصرين اليوناني والروماني. ولم يتباك أحد عندما شيد سد اسوان القديم واصبحت جزيرة فيله شبه غارقة واخذت الاثار القديمة في التآكل بسرعة. على ان التباكي في هذه المرة كان ايضا «مسّيسا».

وقد تمكن المصريون بالتعاون مع منظمة اليونسكو والمنظمات الدولية الاخرى من انقاذ الاثار المعمارية القديمة. واصبحت اعمال الانقاذ نفسها تحفة من تحف التنفيذ الهندسي. فقد قسمت التماثيل الى كتل وقطعت قطعا جرى نقلها الى اماكن آمنة ثم اعيد جمعها.

وفي البداية احيطت جزيرة فيله بسور حديدي وضخت منها المياه.

ولم يتم انقاذ الاثار وحدها بل والتضاريس كذلك، حفاظا على وحدة المعمار والبيئة المحيطة. ففوق ابى سنبل السابق اقيم تل، هو صورة طبق الاصل من التل السابق»«ركّب» فيه المعبد القديم.

وبالقرب من فيله عثر على جزيرة اعلى واضفى عليها بشكل وابعاد فيله القديمة، واقيمت عليها المعابد بنفس التوزيع السابق. ولو كان المعماريون القدماء هم الذين وزعوا الاثار في الجزيرة لربما وجدوا طريقة افضل، غير ان جوهر اعمال

الانقاذ كان ينحصر في الابقاء على كل شيء مثلما هو عليه وكما وصل الينا تاريخيا.

ومرة اخرى نقول: كان من المستحيل التنبؤ بكل شيء.

والتغييرات الايكولوجية التي تتسم بهذه الضخامة لا بد وأن تسفر عن مفاجآت، ولكن... ان كل تلميذ يعرف ما هو مقياس النيل. وقديما كتب المؤرخ الروماني بلينوس انه اذا ما اشر مقياس النيل الى اثنى عشر ذراعا (الذراع حوالي ٦٠سم) فذلك معناه الجوع، والى ثلاثة عشر فمعناه اليسر، والى اربعة عشرة فمعناه الفرحة الشاملة، والى خمسة عشر فمعناه القلق، والى ستة عشر فمعناه الكارثة والفيضان الرهيب. لقد علّم النيل المصريين ان الشح والزيادة المفرطة كلاهما مهلك. وجاء السد العالي فأزال خطر الشح والزيادة المفرطة في تزويد مصر بالمياه وحولهما الى ما يسمى بلغة المهندسين «النظام الانسب». وهذا هو المهم، اما ما عدا ذلك فالشعب الخبير بشئون الري على التكفل به.

لقد كرّس المصريون القدماء نشيدا مهللا للنيل الذي عبدوه، للاله حابي:

ايها النيل، مياهك الجارية في الحقول اشبه بالعنبر وعذبة كالعسل.

شاطئاك بوابة الجنة،

وواديك اجمل مكان في الدنيا.

ايها النيل، حبك كالنسيم العليل.

فاذ غابت المياه غابت الحياة في الارض.

ايها النيل، من ذاق مياهك مرة

فسيبقى معك الى الابد.

النيل خالد في حياة المصريين، في اشعارهم واغانيهم وامثالهم وحكمهم الشعبية.

النيل خالد كجزء من الطبيعة، كالتاريخ، كدم الاقتصاد .

والنيل يقطع خمسة آلاف كيلو متر قبل ان يصل الى حدود مصر، ولكن قدرته على بعث الحياة لا تتجلى بأقصى طاقتها الا في مصر.

وذلك بفضل كدّ الفلاّح.

الباب الثاني

قاعدة الهرم

لم يسلم (الفلاح) من الهلاك التام الا بالانحناء إلى الارض في وقت العاصفة كما ينحني العود الضعيف الذي ينثني ولا ينكسر. والمثل يقول: «الناس كالسمسم، ينبغي عصره لتستخرج منه الزيت» ولكن الشعب، خلافا للسمسم، أعطى كل ما طلبوه منه من دسم وظل سليماً من أعماق الروح الغاضبة تنطلق لا اراديا صرخة الشفقة والعطف. الرحمة والرأفة للشعب المضطهد! العدل والانصاف! للشعب الذي عمل من أجل تقدم البشرية بامانة واخلاص! له المنهوب والمجرد من الثياب حتى العري! له المهزوم بطيبته ووداعته!

اي. ن. كلينجين. بين آباء الزراعة - شعوب الشرقين الاوسط والاقصى ومصر والهند وسيلان والصين. موسكو، ١٨٩٨.

تسيطر الارض، والانتماء للارض، على جميع مشاعر الفلاحين... ان الفلاح، المستقر على عاداته، والمنغلق في قراه، هو اقرب إلى الارض التي يعرفها منه إلى الدولة التي لا يعرفها. والطمي لم يصبح بهذه الدرجة من الخصوبة الا لأن الفلاح «انغرس» فيه. ومصر هبة النيل، ولكنها ايضاً، وبدرجة لا تقل عن ذلك، هبة الفلاح ذاته. ولان الارض «تجسدت» في الفلاح وقد أصبح صبورا إلى هذا الحد، ولكنه أصبح أيضاً ماديا ومحافظا.

ا. آيرو. فلاحو مصر. ١٩٥٢.

كانت أرض مصر على مدى التاريخ وفيرة المحاصيل متنوعة الخيرات وذلك لان الفلاح رواها بعرقه في سخاء.

ان كلمة «فلاّح» العربية أصبحت كلمة دولية. فهي مشتقة من فعل «فلح» أي شق الأرض وحرثها. وأصبحت كلمتا «فلاح» و«كادح» مترادفتين في ذهن العرب والاجانب. والفلاح المصري بكده لا يجعل الارض تجود بالخيرات فحسب ولكنه يضفي عليها «طابعا انسانيا».

لقد ظهر في الحقول المصرية الكثير من الجرارات وتزداد مضخات الري، ولكن الاعمال الزراعية الرئيسية ظلت، كما في ايام الفراعنة، تتم يدويا. ظلت ادوات الانتاج الرئيسية لدى الفلاح هي الفاس نفسها والمحراث نفسه الذي تجره الجاموسة. والجاموسة يمكن أن تعطي لبنا دسما غزيرا ولحما طيبا، ولكن الغرض الاساسي منها هو جر المحراث.

وحتى القرن التاسع عشر ساد في الزراعة ما يسمى بنظام ري الحياض، أي اقامة احواض كبيرة تغمرها مياه الفيضان التي تتسرب في التربة وتترك فيها الطمي وعندما تنحسر مياه الفيضان تبذر البذور. وأدى الانتقال من نظام الحياض إلى الري الدائم إلى اطالة أمد السنة الزراعية وضغط وقت العمل، لكنه لم يغير طابع العمل تغييرا جوهريا.

والحقل بدون الماء لا شيء. والسهر على تشغيل نظام الري، وضخ المياه من الترع إلى الحقول هو جزء من عمل الفلاح. واذا كانت الحدود بين الحقول قد استقرت منذ اجيال ورسمت بدقة ووضوح كافيين بحيث نادرا ما تثير المنازعات، فان الخلافات حول المياه ليست بالشيء النادر، بل وقد تتحول إلى مصادمات دامية. ان المياه تحيي الأرض عن طريق كد الفلاح وكد اسلافه، لان آلاف الكيلومترات من الترع لم تشق في مصر ولم تشيد فيها كل هذه السدود خلال حياة جيل واحد! وصيانة منشآت الري ليست بالعمل السهل. فرغم ترسب الكمية الاساسية من الطمي في بحيرة ناصر فهناك جزء منه يصل إلى الترع والقنوات التي يجري تطهيرها على حساب الدولة ولكن بأيدي الفلاحين. وقد ألغي نظام السخرة في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن بقيت الاشغال العامة - مثل تقوية السدود والجسور وحفر الترع وتطهيرها. اما قنوات الري فلا يمر يوم من ايام الفيضان الا والفلاح عاكف على تقويتها وتصليحها وتحسينها والمحافظة عليها في افضل صورة.

وتغلق الترع في يناير - فبراير. من كل عام، وعندئذ يقوم الفلاحون بتطهير القنوات من الطمي بأيديهم - بالمعنى الحرفي للكلمة - ويلقون به على الشواطئ.

وحينما يكون منسوب المياه منخفضا عن مستوى الحقول يقوم الفلاحون برفعها بواسطة تلك الادوات نفسها، التي كان يستخدمها الفراعنة.

فاذا كان الارتفاع قليلا، حوالي نصف متر، يستخدم لولب ارخميدس (الطنبور) الذي ينغمس احد طرفيه في الماء، ومن الطرف الآخر يتدفق الماء على القناة. ويدير الطنبور فلاح او اثنان وهما ممسكان لساعات طويلة بذراع الطنبور المتصلة بمحوره الحديدي الذي يدور حوله لولب داخل اسطوانة خشبية.

واذا زاد الارتفاع عن متر ترفع المياه بواسطة الشادوف. والشادوف اشبه برافعة، يثبت في ذراعها القصيرة حجر او جوال مملوء بالرمل أو حتى مجرد كتلة كبيرة من الطين، ويثبت في ذراعها الطويلة دلو جلدي او سطل يغرفون به الماء ويصبونه في قناة الري. ويقف الفلاح ساعات طويلة وهو يغرف الماء بحركات بطيئة رتيبة. وخلال اثنتي عشرة ساعة من العمل المضني طوال النهار يستطيع فلاحان، يتبادلان العمل، ان يرويا بهذه الطريقة خمسمائة متر مربع. ان وطن الشادوف - على الاقل في الشرقين الادنى والاوسط - هي مصر. ومن هنا انتقل إلى البلدان المجاورة.

واحيانا تستخدم عدة شواديف لرفع المياه من مستوى ما إلى مستوى آخر، ومنه إلى مستوى ثالث وهكذا دواليك بحيث ترفع المياه لعدة امتار. ولكن هذه الانتاجية المتدنية في العمل - حتى مع ابخس الاجور - لا تبرر استخدام نظام الري بالشادوف.

اما الساقية فلعلها الاصل القديم لجميع انواع تروس نقل الحرك في الآلات الحديثة. تُرى في أي عهد سحيق قبل الميلاد ظهرت؟ يبدو انها ظهرت في الالف الثاني قبل الميلاد. وبالنسبة لذلك العصر كان اختراع الساقية مساويا للاختراع التقني الثوري للعصر الحديث الا وهي الآلة البخارية او محرك الاحتراق الداخلي. بيد ان الساقية ليست شيئا من مخلفات الماضي البالية، ليست معروضا نادراً في متحف ادوات الحضارة. انها آلة تعمل وتكدح حتى يومنا هذا. وصريرها الثقيل

الاشبه بصرير عربة جر، مألوف لسمع الفلاح مثل هدير المحركات لصاحب المزرعة في بلد متقدم.

تتألف الساقية من عجلتين، واحدة تدور افقيا والاخرى تدور رأسيا. والعجلة الافقية تديرها جاموسة او زوج من الجاموس في حركة دائرية. وهذه العجلة متصلة بواسطة تروس بالعجلة الرأسية، التي تثبت عليه جرار أو دلاء تغرف الماء عندما تكون في اسفل العجلة ثم تصعد به فتفرغه في مجرى خاص او قناة.

والاخت الشقيقة للساقية هي الناعورة. واشهر نواعير الشرق الاوسط تقع بالقرب من مدينة حماة السورية. وتدور هذه العجلات الشاهقة الارتفاع بقوة تيار المياه في النهر. وهي تغرف المياه في الاسفل وترفعها بجرارها إلى قناة السور. والنواعير تستخدم في شمال افريقيا وجنوب افريقيا، اما في مصر فعددها قليل.

والفلاح يعرف ان اساس المحصول ليس الماء وحده بل والسماد أيضا. وحتى عندما كان النيل يترك بعد الفيضان طبقة من الطمي الخصب على أرض كل فدان كان الفلاح يسمد الحقل بالسماد العضوي. وهو يستخدم روث الجاموس وزبل الحمام والدجاج، والطمي المستخرج من القنوات عند تطهيرها، ولكنه، خلافا لفلاحي شرقي آسيا، لا يستخدم ابدا براز الانسان. وتستخدم انقاض المباني القديمة ايضا في التسميد لانها شيدت من مخلوط الطمي والطين والقش والروث والمخلفات العضوية التي كانت تجمع في القرى. ومع بداية القرن العشرين اخذ الفلاح يستخدم الاسمدة الكيميائية (المعدنية) حتى اصبح معدل استخدامها الآن بالنسبة لوحدة المساحة من أعلى المعدلات في العالم.

ان اساس حياة الفلاح، وحياة المجتمع، وحياة مصر هو العمل، ثم العمل، ثم العمل. فهل هي حقيقة بديهية؟ هل هي مقولة معتادة؟ ربما، ولكن هناك فرقا بين عمل وعمل. فالفلاح الاوروبي او الروسي يرتاح ايام الاحاد - باستثناء موسم جني المحصول - وفي الشتاء تتقلص مشاغله او تنتهي تماما، اما الفلاح المصري، سواء كان مسلما ام قبطيا - فلا يعرف للراحة طعما لا أسبوعيا ولا موسميا - والامثال

الشعبية تنصح بالعمل: ازرع يوماتي تشبع يوماتي» و«اشتغل في الجمعة وفي العيد تعيش سعيد» و«خلي الكسل لعدوك».. الخ.

ان حياة الفلاح هي سلسلة من الكد المتصل طوال العمر فيه جميع الاوقات وجميع الفصول. فهذا ما يفرضه مناخ مصر ونظام الزراعة فيها، وتلك هي متطلبات مواقيت الاعمال الزراعية.

... غادرت مصر ذات مرة في ١٤ نوفمبر ١٩٨٤، وحين فتحت الجريدة التي ابتعتها في المطار وجدت ان هذا التاريخ يوافق ٢٠ صفر سنة ١٤٠٥ هجرية و ٥ هاتور سنة ١٧٠١ قبطية.

لقد جاء العرب المسلمون إلى مصر بالتقويم الهجري وأقروه، وهو تقويم قمري يبدأ من عام ٦٢٢ الميلادي، العام الذي هاجر فيه الرسول محمد من مكة إلى المدينة. وهذا التقويم الذي يصلح للبدو من الرعاة الرحل لا يلبي متطلبات حتى سكان الواحات المستقرين في شبه الجزيرة العربية. فقد كان تبدل الفصول اهم لديهم بكثير من تعدد منازل القمر. وفي مصر يستخدم التقويم الهجري لتحديد مواقيت الاعياد والطقوس الدينية وبدء الصيام والحج. اما الفلاح فتمضي حياته على اساس التقويم الشمسي القبطي.

وبداية التقويم القبطي هو عام ٢٨٤ الميلادي، العام الذي هبّت فيه مصر ضد طغيان روما، لكن التقويم الشمسي وضع من ايام الفراعنة، وقد اشار إليه هيرودوت في «تاريخه»، ولكن حتى في أيام هيرودوت كان هذا التقويم، الذي يقسم السنة إلى ٣٦٥ يوما، معروفا لدى المصريين من عهود سحيقة منسية، وكانت اسماء الشهور مرتبطة احيانا ارتباطاً مباشرا باسماء الآلهة المصريين القدماء. وقد ابقى جميع غزاة مصر على هذا التقويم. ولم يتغير نظام الحياة لدى الفلاحين المصريين حتى بعد ادخال التقويم الجريجوري رسميا إلى مصر عام ١٨٧٥ مع اسماء الشهور اللاتينية. وهكذا أصبح الشعب المصري يعيش وفق ثلاثة تقويمات دفعة واحدة تنشر كلها يوميا على صدر الصحف.

لقد تعلم المصريون كيف يتابعون حركة الشمس والاجرام السماوية الاخرى ويقرنون حركتها بنظام تصريف النهر، ويبدو انهم كانوا أوّل من ربط بين المجهود الانتاجي وتواريخ التقويم في تاريخ البشرية.

وتبدأ السنة القبطية من شهر توت، الذي يوافق شهر سبتمبر، وذلك حين يبلغ فيضان النيل ذروته، وتمتد السنة القبطية ١٢ شهر. ولكل شهر من هذه الشهور محاصيله الزراعية المحددة، بل وامثلته الشعبية ايضا. فالمصريون يقولون: «برمهات - روح الغيط وهات» أي اذهب لجمع المحصول. وهذه الامثال في غاية الشاعرية وفي الوقت نفسه ترتبط ارتباطا وثيقا باسماء الاشهر بحيث تصعب تماما ترجمتها وتفقد معناها. ولكن هناك ملاحظة طريفة للغاية، وهي ان كثيرا من هذه الامثال المرتبطة بعمل الفلاح تتضمنها الكتب الدراسية لكليات الزراعة في مصر.

لقد ترك لنا المؤرخ المصري العظيم في القرنين الرابع عشر - الخامس عشر تقي الدين المقريزي وصفا للاعمال الزراعية مقسمة حسب المواسم والشهور. والمعلومات التي أوردها تتفق والاعمال التي يمارسها الفلاح حاليا إلى درجة تبدو معها وكأنها نقلت عن الواقع الحي لثمانينات القرن العشرين اللهم الا مع بعض الاستثناءات القليلة:

توت: في هذا الشهر يجمع الزيتون، وتشقق اشجار البلسم لاستخراج عصيرها، ويجهز كل ما يلزم لاصلاح السدود. وفي توت «يجري حصر زمام الأراضي وترسل الخرائط والكشوف، وتجهز بذور الغلال للبذار. وينضج الرمان والبلح والبرقوق والقطن والجوافة». وفي ١٧ توت تقريبا يتوقف ارتفاع المياه في النيل.

بابة: «في أوله يحصد الارز ويزرع الفول والبرسيم والغلال التي لا تتطلب زراعتها حرث الأرض. وفي هذا الشهر تنحسر المياه عن الارض، وتأتي اللقالق المهاجرة ويزرع الكتان ويبدأ حرث الأرض في مصر العليا استعدادا لزراعة القمح

والشعير. وتنعقد حلاوة الرمان... ويملّح في هذا الشهر سمك البوري، وتصبح الغنم والمعيز والابقار هزيلة ولحومها غير لذيذة الطعم. وتنضج الموالح».

هاتور: «الخامس من هاتور يوافق بداية نوفمبر... وفي السادس منه يزرع الخشخاش، وفي السابع منه تنحسر المياه عن الأرض المخصصة لزراعة الكتان، وفي منتصف الشهر يبذر الكتان وفي آخر الشهر تسمد الأرض». ويرتدي سكان مصر الملابس الصوفية، ويزداد استهلاك قصب السكر المخصص لصناعة «البوظة» والحلوى والعسل. «وفي هذا الوقت يهتمون باعداد العلف للمواشي والجمال بعد بيع النياق العجوز والمريضة وشراء أخرى بدلا منها. ينضج السبانخ، وتظهر الحملان الجيدة، ومن قوص يجلب عنب كثير».

كيهك: في هذا الشهر تحل اعياد البشارة والميلاد. «وفي هذا الشهر يزرع الخيار عندما تنحسر المياه عن الأرض وينتهي بذر القمح والشعير والبرسيم.. وفيه ينضج النرجس والموالح والفول الاخضر والكرنب والجزر واللفت.. وتولد الجداء التي تعد أفضل منها في أي وقت آخر.. وفي كيهك يجبي الخراج عن البرسيم في مصر العليا».

طوبة: الحادي عشر منه يوافق التعميد، وتبدأ زراعة العدس، ويغرس النخيل. تتوالد الجمال، وتصبح مياه النيل صافية وينضج البرسيم. وفي هذا الشهر تقلم الكروم وتعزق مزروعات الحبوب، وتنقى غرسات الكتان، وتمهد الأرض للمحاصيل الصيفية، ويعتنى بمنشآت الري، وتحفر الآبار وتشترى الثيران. «وفي طوبة يطالب الجباة بالخراج وفقا للكشوف الموجودة لديهم ويستخدمون في ذلك كل سلطانهم وجبروتهم».

امشير: ينتهي تقليم الكروم وغرس الاشجار، ويتوالد النحل. يجنى اللفت، ويوضع البيض في الحضانة لمدة أربعة أشهر، وتصنع الآنية الفخارية لتبريد المياه لان الطين يتميز في هذا بجودة عالية. يبدأ هبوب الريح الدافئة. يدفع الناس ربع قيمة الخراج المفروض عليهم.

برمهات: يظهر دود القز. «وفي هذا الشهر تزرع الخضروات والمحاصيل الصيفية وينضج الفول والعدس، ويجمع الكتان ويزرع قصب السكر في الأراضي التي نظفت واخليت من المزروعات منذ وقت طويل». يطالب الجباة الفلاحين بالربع الثاني من الخراج وبثُمن الخراج.

برمودة: يبدأ جني الفول وحصد القمح وقلع الفجل. «وفي هذا الشهر يعنى باجتثاث اشجار السنط في الخمائل ونقلها إلى الشاطئ لكي تنقل بعد ذلك في النيل إلى ساحل الفسطاط لبناء المراكب او لاستخدامها وقودا لمطابخ السلطان». وتزرع القرفة والملوخية والباذنجان، وتجنى أول قطفة عسل وينفض الكتان. يستمر جمع نصف الخراج.

بشنس: يزرع الأرز والسمسم. «وفي هذا الشهر تدرس الغلة وينفض الكتان... تغرس اشجار البلسم وتقلم وتروى». تنضج بعض انواع التفاح والشمام والبطيخ والخوخ والمشمش. وتجبي السلطات مزيدا من الرسوم على الكتان والبرسيم وعلى المراعي. ينتهي الحصاد.

بؤونة: يشتد الحر ويبدأ فصل الصيف. «في هذا الشهر تمضي المراكب محملة بالقمح والتبن والحلوى والعسل وغيرها من مديرية القوصية ومن مديريات مصر السفلى. يجمع عسل النحل وتقلم الكروم وتدفع عنها الزكاة، وينقع الكتان ويقلّب طوال بؤونة وأبيب... وفيه تزرع النيلة في مصر العليا ويجمع المحصول بعد ١٠٠ يوم». ينضج التين الفيومي والخوخ والكمثرى والبرقوق وغيرها من الفواكه ويبدأ الزعفران في النضج.

أبيب: ينتهي قطع الاشجار ويستمر نقع الكتان «وتكثر الكمثرى السكرية، ويصبح البلح لذيذا... يجمع ما تبقى من العسل، وتعلو مياه النيل تدريجيا... ينضج العنب وينتهي جمع ثلاثة ارباع الخراج».

مسرى: يجنى القطن وينضج الليمون والموز. تدفع الزكاة عن الفواكه الناضجة. يبدأ نضج الرمان. من العنب يصنع النبيذ والخل. «وينتهي نفض الكتان

احيانا في مسرى (وأحيانا في أبيب)». ويسدد الفلاحون ما تبقى من الخراج على الأراضي الزراعية.

ان كلينجين، الدقيق الملاحظة، قد أدرك جيدا الفرق بين عمل الفلاح في مصر وفي روسيا آنذاك فكتب يقول: «الفلاح مضطر للعمل طوال أشهر السنة الاثني عشر كلها بشكل منتظم من الشروق إلى الغروب، وعلاوة على ذلك يعيش فترة من القلق اثناء موسم الفيضان إلى ان تنتهي تماما عملية غمر الحقول بالمياه، والتي تحدد نهائيا مصير المحاصيل الرئيسية... وما أقل ما لديه من ماشية عمل، وما أبسط ما يملكه من أدوات، ولكنه ينجح في انجاز كل شيء، في المقام الاول بفضل ذراعيه القويتين الطويلتين الملتصقتين بمنكبين عريضين إلى درجة غير عادية، ذراعيه اللتين لا تتقاعسان عن اداء أي عمل ولكنهما «لا تتمزقان في العمل» حتى درجة الاعياء التام، كما يحدث في فورة الاندفاع، مثلما هو الحال لدى فلاحنا الذي ينبغي عليه خلال موسم الزراعة القصير ان يسطر آيات الجسارة والمقدرة والمهارة...

أما الفلاح المصري فعلى العكس من ذلك، يعمل على مهل، بصورة منتظمة، هادئة، دون اجهاد، وفي كل يوم مثلما في غيره من الايام، وكأنه يوزع قواه مسبقا على مدى عمره الطويل في خدمة الأرض المطعمة. فما ان تبزغ أولى أشعة الشمس على الحقول حتى يكون الفلاح هناك وقد بدأ العمل. وما أن تمس شمس الغروب حافة السماء وتميل إلى الراحة، حتى يهرع الفلاح مسرعا إلى بيته الذي يقع دائما على مقربة من الحقل، والا دهمه الظلام حتما وهو في الطريق، لان فترة الغروب هنا قصيرة جدا، والليل يحل محل النهار بسرعة.

والفلاح المصري لم يعرف ابدا رحابة الحقول. فما ان تترك احدى القرى خلفك وتسير مع الجسر او بحذاء القناة ثلاثة او أربعة كيلومترات، وربما اقل، حتى تجد أمامك قرية اخرى. وهكذا دواليك في مصر كلها. والفلاح يقضي النهار كله في الحقل، ويتغذى هناك ويستريح فترة القيلولة، ولكنه لا يبيت خارج قريته الا نادرا، وفي الظروف الاستثنائية، عندما يتطلب الامر حراسة المحصول.

وبيوت الفلاحين البنية الغبراء تشكل قرى يسكن القرية منها خمسة عشر او

عشرون ألف فلاح (وهذه القرى عددها في مصر أربعة آلاف علاوة على ثلاثين ألف عزبة).

والخشب مادة بناء غالية جدا في مصر، ولذلك لا يستخدمه الفلاح الا لتسقيف البيت، وفي احيان نادرة في هيكل المبنى. وهو يستخدم في ذلك جذوع النخيل. والفلاح يعيش بالأرض، وعلى الأرض، وبمعنى من المعاني يعيش في الأرض. فهو يبني بيته من ذلك الطمي النيلي نفسه بعد خلطه بالتبن والروث والطين. وتصنع الجدران من قوالب الطوب اللّبن على أساس من أعواد الذرة أو أعواد القصب الجافة، ثم تطلى القوالب بالطين. ومادة البناء الهشة هذه تتطلب ان تكون الجدران سميكة نسبيا، بعرض ثلاثين أو أربعين سنتيمترا. ويصنع الاساس من الطوب المحروق (الاحمر) او قطع الأحجار الصغيرة، وذلك لمنع تسرب المياه إلى المنزل. وبدلا من النوافذ تصنع فتحات صغيرة (طاقات) لا تزيد مساحتها عن نصف متر مربع، وتسدّ بالخرق في ايام الشتاء الباردة. وفتحة الباب تسدّ بحصيرة لان الأبواب الخشبية غالية. ويغطى السقف بسعف النخيل وأعواد الذرة الجافة وحطب القطن أو أعواد الغاب، وتفرش فوقها الحصر ثم تغطى بطبقة من الطين المخلوط بالرماد، وتدك جيدا. ولما كان المطر لا يسقط تقريبا فان الاسطح مستوية، وتستخدم كمخازن للوقود: القش والحطب والروث الجاف. وعلى الاسطح قد يربى الدجاج، ويبيت الناس هناك في الليالي الحارة.

وفي الجو المصري الجاف والحار يشكّل الوقود المتراكم على الاسطح الملتصقة مادة قابلة للاشتعال، ولذلك تلتهم النيران كل سنة منازل الفلاحين في عشرات القرى وتسقط ضحايا بشرية. وغالبا ما تنهار البيوت بفعل البلى أو انقضاض صاعقة مفاجئة. وعمر بيت الفلاح لا يزيد عن عشرين - ثلاثين سنة. وفي مكان المنزل المنهار يقيم الفلاحون بنفس الطريقة بيتا آخر، مثل البيت السابق، ويفضلون عدم ازالة الانقاض بل يدكونها ويعلون الاساس.

واذا نظر أحد الرحالة إلى القرية المصرية فقد يقول: «القرية المصرية تتألف كلها من منازل جديدة»، بينما قد يعترض آخر قائلاً: «بل تتألف كلها من منازل

قديمة». وسيكون كلاهما على حق. فالقرى المصرية جديدة من حيث المباني وقديمة من حيث التخطيط والشكل والطابع. فالمبنى ـ الاطلال ـ البيت الجديد تلك هي الدائرة الابدية لوجود الفلاح المادي. والقرى هي أثر من آثار الحضارة المصرية مثلها مثل وادي النيل الذي زرعه المصريون، بحقوله وغابات نخيله، بقنواته وجسوره. وتبدو القرى وقد ظللتها قمم النخيل جميلة جذابة المنظر، ولكنها لا تختلف احداها عن الاخرى على امتداد الريف المصري من الاسكندرية إلى اسوان. فكلها ذات وجه واحد، وتصميم واحد، ومعمار واحد، سواء في مصر العليا ام في الدلتا. ليس ثمة تفرّد في القرى أو البيوت، فهي جزء من كل، عين في خلية نحل، وليس من الطبيعي ان تتفرد إحداها عن الاخريات. ولا نجد اختلافا الا في الاماكن التي يعيش فيها الاقباط، حيث ترتفع قباب الكنائس إلى جوار المآذن البيضاء.

اليوم مثله مثل الأمس، مثل امس الأول، ومثل ألف عام مضى. فهل يكون الغد كاليوم؟ لا أستطيع ان أتنبأ بثبات القرية المصرية وبقاء منازل الفلاحين المصريين مثلما هي عليه الآن. ولو فكرنا بمقاييس حياة جيل واحد فسوف تبقى كما هي الآن. فالفقر شديد، ومواد البناء الاخرى باهظة الثمن، وتعلق الفلاح بالعادات والتقاليد قوي. بيد ان الفلاح، وقد رأى العالم والحياة الافضل، لن يفضل ابدا بيته الطيني على بيت من الحجر. وقد اخذت الهجرة والاجور المرتفعة في الخارج تغيّر بسرعة حتى المظهر الخارجي للقرية المصرية. فبيوت الموسرين من الفلاحين أصبحت تشبه بيوت البلدان الاخرى في حوض البحر المتوسط من حيث العمارة ومواد البناء، وان كانت المنازل هنا، بسبب ضيق مساحة الأرض، تنتشر رأسيا لا أفقيا. والهياكل الخرسانية الممتدة من الأسطح والمخصصة لتشييد الطوابق الثانية والثالثة والرابعة هي الآن سمة مميزة لبيوت اغنياء الفلاحين الجدد مثلما كانت في الماضي ابراج الحمام!

ان ابراج الحمام الطينية، المستطيلة او المدورة، هي التي تبعث الحياة في المنظر الرتيب للقرى المصرية. واحيانا تطلى هذه الابراج بالجير الأبيض أو تزين

بالنقوش البسيطة. وتثبت الجرار المكسورة القعر في جدران الابراج كأعشاش جاهزة. وفي مصرياكلون الحمام، ويعتبر لحمه من اللحوم اللذيذة. ولكن احدا لا يعرف مدى الخسائر التي يلحقها الحمام بالحقول.

وعبر القرية يمر شارع رئيسي او شارعان او ثلاثة، واحيانا يمر هذا الشارع بحذاء الترعة. وقد تتسع هذه الشوارع لمرور سيارة، ولكن في الحارات الضيقة اذا مددت يديك، لمست الجدارين المتقابلين. ومن الصعب ان تمر هنا حتى عربة الجر، ولولا الشمس والجفاف والحرارة لاصبح الوحل والقاذورات في الحارات والازقة غير المرصوفة مصدر تهديد لحركة النقل ولصحة البشر.

وفي القرى الكبيرة توجد بضعة مساجد وكنائس. وليس من الضروري أن ينفرد المسجد بمبنى مستقل، اذ تكفي للصلاة أي مساحة أرض مستوية ونظيفة نسبيا.

ولكن نداء المؤذن للصلاة لا يستجيب له جميع السكان في كل مرة، بل ولا حتى اغلبيتهم، بيد ان صلاة الجمعة يحضرها تقريبا جميع الرجال المسلمين، وصلاة الاحد في الكنيسة يحضرها الاقباط مع افراد عائلاتهم.

في وادي النيل الضيّق تبتعد القرى عن الحقول لتوفر الأرض الثمينة للزراعة، وتلتصق هي بأطراف الصحراء. ولكن الصحراء عالم غريب معاد، تسكنه الارواح الشريرة والعفاريت، وهناك يمكن اقامة المقابر، غير ان الفلاح لا يحب الصحراء ولن يذهب إليها، بله ان يعيش فيها. وفي دلتا النيل قد تجد المقابر في وسط القرية، وان كانت بيوت الاحياء هي التي زحفت في الحقيقة على المقابر واحاطت بها بحثا عن متسع من المكان. وفي المقابر قد يقوم ضريح ابيض ذو قبة لاحد أولياء الله الصالحين المحليين.و يتولون كنس الضريح وتبييضه وانارته بالكهرباء. والفلاحون «المحترمون» يترددون على المقهى احيانا فيتناولون الشاي عادة والقهوة نادرا. والمقهى الحالي، المزود بجهاز تليفزيون، ليس مجرد نوع من النوادي، بل هو مركز من مراكز صياغة الرأي العام بما قد يتفق وقد يتعارض مع الاراء التي تفرضها التقاليد والشيوخ وأئمة المساجد ومؤذنوها وعمدة القرية.

وفي ساحة قريبة من المسجد عادة يقع سوق القرية، حيث تباع اللحوم والمواشي والآنية الفخارية وقصب السكر والجبن المنزلي والسمن البلدي والسلال والمنسوجات. والاسكافي يخيط لك الصندل وأنت واقف امامه، والحلاق يحلق لزبائنه. بيد ان أيام عزلة مصر عن السوق العالمية قد مضت إلى غير رجعة. ففي أسواق القرى النائية لا تباع الدراجات الاجنبية أو المنسوجات الزاهية فحسب، بل وأجهزة الترانزستور المستوردة من هونج كونج، والبطاريات والمصابيح الكورية الجنوبية ومعلبات اللحوم الارجنتينية أو معلبات السردين الايسلندي. وأصبح أزيز الدراجات النارية والشاحنات هنا أكثر من نهيق الحمير وهدير الجمال الغاضبة.

فلندلف إلى دار الفلاح لكي نتعرف عليها من الداخل. وقبل ان نقدم على ذلك ينبغي ان نتذكر ان عالم الفلاح كان، وما زال على الارجح، عالما غريبا وغير مفهوم للمثقف ابن المدينة، فضلا عن الاجنبي، وكتابا بلغة غير معروفة نادرا ما يستطيع الغريب ان يقرأه. ولنأخذ على سبيل المثال رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، التي أصبحت جزءا من الادب الكلاسيكي المصري:

«فدخل مترددا وجعل ينظر إلى المكان، فرأى رحبة صغيرة مغطى نصفها بسقف من حطب القطن والاذرة الجاف، ثم قاعة صغيرة!... وكان باب القاعة مفتوحا كذلك... فالقى «محسن» عينيه على ما بها فألفى منظرا لن ينساه، رأى ان تلك القاعة انما هي قاعة النوم لاصحاب الدار، اذ بها فرن وفوق الفرن حصير واغطية، الا انه رأى كذلك في ركن منها بقرة امامها حمل برسيم، وبين رجليها الخلفيتين عجل رضيع جميل يشب إلى ضرعها...

غير ان ما ادهش «محسن» انه شاهد بجانب هذا العجل الرضيع طفلا رضيعا أيضا ـ لعله ابن أصحاب الدار ـ وهو يزاحم العجل ويدفعه على ضرع البقرة، والبقرة ساكنة هادئة لا تمنع هذا ولا ذاك، وكأنها لا تفضل احدهما على الآخر، كأنما الطفل كلاهما ولداها... ما أجمله منظرا! وما أروع معناه!..

لكن أليس فلاحو مصر الآن يمجدون الحيوان بقلوبهم ولا يأنفون العيش معه

في مسكن واحد، والنوم معه في قاعة واحدة؟...

أليس ان مصر الملائكية ذات القلب الطاهر ما برحت مصر؟.. وانها ورثت ـ على مر الاجيال ـ عاطفة الاتحاد بدون ان تعلم؟...»

ان هذا الكاتب الكبير «الفرانكوفوني» من حيث ثقافته، الليبرالي من حيث معتقداته السياسية، قد قرر في أيام شبابه أن يغوص» في أعماق شعبه. وعندما فعل ذلك كان أول ما شعر به هو الفزع، ولكنه دفع عنه الرهبة وخيبة الأمل بان شعر بالتأثر ورسم بريشة موهبته وخياله صورة مثالية للفلاح، وكأنه وعاء احتفظ بكل الفضائل دون ان تنسكب منه أو تراق. ومع ذلك فقد اتسمت مؤلفات الكاتب الاخيرة عن الريف بمسحة واقعية. وحينما تقرأ «عودة الروح» تتذكر لا اراديا تلك العبارات المريرة التي قالها أ. آيرو الذي عرف الفلاح وفهمه أكثر من أي شخص آخر: «عندما تطرق الشعراء والفنانون إلى موضوع «الزارع» و«جمال الحقول»، وخلطوا الفلاح بالمنظر الطبيعي... فقد عملوا على تزويق الواقع الريفي. لقد رسموا لوحات رائعة، ولكنهم عودونا الا نرى في حياة الفلاح سوى جوانبها الجميلة والعاطفية وان نأخذ الصورة مأخذ الواقع. فكانت «حركة الباذر المقدسة» تخفي عنا في العادة الباذر نفسه».

مسكن الفلاح الفقير يتكون من غرفة واحدة، يعدون فيها الطعام على النار فوق موقد يتصاعد دخانه ويخرج من فتحة في السقف. وفي هذه الغرفة ينام الفلاح واسرته، وفيها كذلك تعيش ماشية الفلاح التي اثار منظر التفاهم بين الطفل الرضيع وبينها اعجاب بطل رواية توفيق الحكيم. وأرضية المسكن من التراب المدكوك. ومتاع الفلاح هو عدة قدور ووابور غاز وموقد وطبلية، وبضع قلل فخارية وقطعة مرآة وصندوق خشبي. ولدى الاقباط تصادف في الدار خنازير، الامر الذي يستحيل ان تجده لدى المسلمين.

أما البيوت الاكبر من ذلك فتضم غرفتين أو ثلاثا، وبها غرفة نوم ومطبخ في نفس الوقت، ومعلف وغرفة ضيوف أو معلف مستقل وباحة داخلية. ولكن حتى

الفلاح الغني تجده يسكن منزلا ضيقا. فالبيت يستخدم كمكان للنوم أكثر منه مكانا للسكن. فالفلاح يقضي معظم الوقت خارج البيت. وكثيرا ما يتناول طعامه في الهواء الطلق، وفي الصيف ينام على السطح.

وفي هذه الايام تتغير المساكن وتتغير محتوياتها. اذ يحمل الفلاحون إلى منازلهم - بعضهم على الحمير وبعضهم على الدراجات النارية - اسطوانات البوتاجاز، وها هي الفلاحات يعددن الفاصوليا على البوتاجاز لا على المواقد القديمة وتختلط الدلاء المصنوعة من البلاستيك بالجرار الفخارية، وتظهر في غرف الجلوس الكراسي الفوتيل والخزانات وأجهزة الترانزستور. وفي البيت الذي لم تدخله الكهرباء تجد على الأرض الترابية بجوار الجاموسة التي تزفر بصوت عال جهاز فيديو يابانيا من أحدث طراز ويعمل بالبطاريات مع تليفزيون ملون تتصاعد منه الاغاني والصيحات والموسيقى وتتوهج فيه الألوان. لقد عاد صاحبه الفخور بنفسه، من العمل في الكويت أو أبو ظبي حاملا معه هذه الأعجوبة الاليكترونية الاجنبية.

وكمسكن الفلاح الخالي من القسمات المتميزة تبدو ملابسه هي الاخرى أشبه بزي موحد. وهو يضع على رأسه طاقية قد يلف عليها في الأعياد عمامة، واذا كان غنيا فقد يضع على عنقه تلفيعة حريرية. ويرتدي الفلاح جلابية طويلة مسدلة حتى القدمين وبكمين واسعين وبدون ياقة. والفلاحون الاغنياء يرتدون جلابيب من الصوف الناعم الجيد، أما الفقراء فيصنعونها من الأقمشة الرخيصة ذات اللون الأزرق أو الأبيض أو البني في الغالب. وحين يعمل الفلاح في الحقل يحشر طرف جلبابه في خصره أو يخلعه عنه ويبقى بسرواله الأبيض المنسدل إلى أسفل الركبتين وبقميصه القصير وصديريه. وفي القيظ، وخاصة عندما يعمل على الشادوف أو الطنبور يتعرى حتى الخصر. وقد تكون لدى الفلاح «بلغة»، ولكنه عادة ما يسير حافيا. ويرتدي الصبيان جلابيب قصيرة مقلّمة، أو يركضون بالبيجامات مثلما في المدينة. ويقبل الفلاحون الشبان الآن على ارتداء اللباس الأوروبي - السروال والقميص - ولكن هؤلاء لا يشكلون الأغلبية.

أما النساء، حتى الشابات منهن، فاكثر محافظة في ملبسهن. وكلهن تقريبا يرتدين الملاءات السوداء أو البنية التي تنسدل حتى أخمص القدمين. وفي مثل هذا الزي تقف الفتاة بجوار أبي الهول في تمثال «نهضة مصر» ويضعن على رؤوسهن طرحة أو منديلا. وذراعا المرأة مستورتان، وثوبها مضيّق تحت الصدر. وظهور الأقمشة الأرخص والأزهى يساعد على اضفاء لون من التنوع في هذا الزي. وحتى افقر امرأة تحمل حليا، وهي حلى ذهبية في نادرالاحوال اما في الغالب فهي من الفضة والنحاس، اما الخلخال فهو حلية شائعة.

وثياب الفلاحين والفلاحات صحية بصفة عامة، رغم انها طويلة تتجرجر جامعة غبار الطريق، وهي تلائم المناخ تنسجم مع البيئة. وقد كتب أ. آيرو يقول: «الملبس كالعمل، لا يعزل الفلاح عن بيئته الطبيعية. عن الهواء والشمس، والارض، والماء ومن هذا الاندماج مع الوسط المحيط يبدو وكأن الفلاح يستمد قوته البدنية. فجسمه القوي القادر على التحمل متلائم جيدا مع الطبيعة، وهو لا يحتاج إلى مرتبة أو فراش مريح، ولا يصرخ من الالم اذا جرح. وهو يتحمل في صبر نزلات البرد والصداع ولدغ البعوض والبراغيت والقمل ولا تزعجه أفظع الروائح، وهو لا يفقد شهيته مطلقا.

ولكن كثيرا ما يحدث، للأسف، ان تنقلب هذه الطبيعة الودود تجاه الفلاح فتصبح ضده، وتغدق عليه الأمراض التي تهد كيانه وتضعفه».

وبفضل مجهود الفلاح تعطي أرض مصر شتى أنواع الثمار الرائعة. ولكن ما الذي يصل منها إلى مائدة الفلاح نفسه؟

... ذهبت ذات مرة إلى قرية مصرية. السكون يلف المكان، ولا يعكر صفوه سوى صرير الساقية وصياح الدجاج لدى الجيران. صاحب الدار فلاح متوسط الحال، بالمقاييس المصرية، يملك فدانا ونصف من الارض. وبعد ان ثنيناه بصعوبة عن عزمه عن ذبح جدي صغير للضيوف جلسنا لتناول غداء فلاحي عادي. في وسط طاولة منخفضة مستديرة (طبلية) لستة أشخاص وضع طبق به قطع من الجبن الأبيض القديم، لا يزيد وزنها كلها عن مائة وخمسين جراما،

ووضعت ربة الدار امام كل منا رغيفين من الخبز المصنوع من دقيق امريكي في مخبز القرية، وبصلا أخضر يانعا وعدة قرون من الفول الاخضر الكبير اللذيذ، وفلفلا حريفا و... هذا على ما أعتقد كل ما هنالك. وكان الحلو عبارة عن طبق من «العسل الاسود»، كما يسمي الفلاحون هنا الدبس المصنوع من قصب السكر، تمييزا له عن العسل «الابيض» الطبيعي. ثم قدّم لنا شاي مغلي ثقيل إلى درجة السواد وشديد الحلاوة. اما شوربة العدس الحارة فلا يتناولها الفلاحون الا في المساء.

كان الطعام بسيطا، فكيف كان في السابق، وهل يا ترى تغير؟ فلنتذكر ما كتبه المستعرب البريطاني أ. و. لاين الذي قضى في مصر سنوات طويلة في النصف الأول من القرن التاسع عشر وترك لنا مؤلفه الكلاسيكي «حياة وتقاليد المصريين المعاصرين». لقد كتب يقول: «طعام الفلاحين هو الخبز (من دقيق الذرة أو الذرة العويجة) واللبن، والجبن القريش، والبيض، والسمك الصغير المملح، والخيار، والعجّور، والقرع المختلف الانواع، والبصل، والكراث، والفول، والحمص «التركي»، والترمس، والعدس، والبلح (الطازج والمجفف) والمخللات. ويتناول الفلاحون الخضروات في معظمها نيئة. وعندما تنضج الذرة ينزع الفلاحون كيزانها ويأكلونها مشوية على النار أو في الفرن. أما الأرز فهو غال بالنسبة للفلاحين، واللحم نادرا ما يأكلونه. ومع ذلك فلديهم في حياتهم هم أيضا بعض الترف، الا وهو تدخين التبغ المحلي الرخيص. وعلى الرغم من رخص المواد الغذائية المذكورة فكثير من الفلاحين لا يجد ما يغمس به أرغفة الحاف... ومن المذهل انه رغم هذا الطعام البدائي البائس يتمتع معظم الفلاحين بصحة جيدة وبنية قوية وبالقدرة على اداء أشق الأعمال».

وفي الماضي كان الفلاحون يخبزون الخبز من دقيق الذرة مع اضافة قليل من الحلبة والذرة العويجة والقمح. اما فيما يخص اللبن والجبن القريش فلم يدخلا قائمة الطعام الا لدى الفلاحين الذين يملكون الجاموس، اما لدى غالبية الفلاحين فالمعيز هي ماشية الالبان.

لقد تغيرت معدلات التغذية ومركباتها لدى الفلاحين منذ عهد لاين، فتدهور مقنن طعام الفلاحين تدهورا شديدا في النصف الاول من قرننا الراهن. فقد اثرت الحروب والازمات والركود الاقتصادي على مآكلهم. وأدى تطور الري الدائم إلى اصابة الفلاحين بأمراض معينة لم تكن معروفة على نطاق واسع من قبل. واظهرت الدراسات على بعض العينات انخفاض القوة البدنية والقدرة على التحمل لدى الفلاحين، وتزايد تعاطي المخدرات، وبصفة خاصة الشاي الثقيل جدا الذي أصبح بديلا للمخدرات. وهم يتناولونه عدة مرات في اليوم كمنشط صناعي ولكنه مدمر للبدن.

لقد عرفت مصر الفقر والفاقة والجوع، لكنها لم تعرف المجاعة الشاملة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وكان يحدث نقص في المواد الغذائية لكن الناس يصمدون للمحنة. وكان طعام الفقراء والمعوزين والعمال الموسميين من حيث كمية السعرات أقل من المعدل الموضوع لمن يزاولون العمل البدني في هذه المنطقة. وقد تحسن طعام ذوي الدخل المحدود في ستينات هذا القرن، ثم تحسن لدى مجموعات اخرى من السكان في السبعينات. ولكن تركيب الطعام ظل بعيدا عن المتطلبات الحديثة، اذ ان استهلاك البروتين الحيواني والخضروات والفواكه ظل أقل من المعدل عدة مرات لدى الأغلبية الساحقة من المصريين، حتى مع ازدياد كمية السعرات التي يحصلون عليها.

ومن الصعب ان تحافظ على النظافة العامة عندما لا تكون هناك مياه للشرب في الانانيب بل يحمل الماء إلى البيوت في الجرار. بيد ان لدى الفلاحين تقاليد معينة وغرائز نظافة، ثم ان الاسلام يفرض على المسلمين ان يتوضأوا قبل الصلاة. فاذا وجد الفلاح نفسه بجوار قناة بعد الفراغ من عمل شاق، فإنه يحرص على الاستحمام فيها، لكن الفلاّحة لا تستطيع ذلك، لان التقاليد تحرم عليها الاستحمام علنا، ولهذا فسوف تستحمِ في البيت.

أما بخصوص مياه الشرب النقية فما زالت إلى اليوم لا تصل الا إلى ثلث القرى. والغالبية العظمى من الفلاحين يشربون من النيل ومن الترع التي يستحمون فيها

ويغسلون فيها ثيابهم ويلقون فيها بالفضلات. والمياه المخزونة في الاوعية الفخارية ترشح منها فتصبح أكثر نقاء ولكنها لا تتطهر من الجراثيم.

والظروف غير الصحية في الريف تؤدي إلى انتشار الدوسنتاريا. وكثير من الفلاحين مصابون بالتراخوما (الرمد الحبيبي)، وفي كل مكان يمكنك ان تلقى العميان والعور.

وافريقيا الاستوائية ترسل إلى مصر - إلى جانب الخصوبة - أمراضها. وسنذكر واحدا منها، الا وهو مرض البلهارسيا. وتأتي القواقع الحاملة ليرقانات المرض من السودان، وتدخل اليرقانات عبر الجلد إلى جسم الانسان الذي يستحم في المياه او ينزل إليها بقدمين عاريتين. وتتحول اليرقانات إلى ديدان رفيعة طول الواحدة منها قد يصل ٢,٥ سينتمتر وتتحرك مع الدورة الدموية واضعة بيضها على جدران الامعاء والمثانة مسببة جروحا وقروحا ونزيفا دمويا في البول. ان هذا المرض يفتك بأبدان حوالي نصف المصريين، وهو يصيب الرجال أكثر من اصابته للنساء، اذ ان الرجال يعملون في المياه أكثر من النساء. ويستمر المرض حوالي عشرين عاما ويؤدي بالمريض إلى الهزال وفقدان القوة بالكامل. وقد اكتشفت الآن طرق فعالة لعلاج هذا المرض الفتاك ولكن تخليص الريف المصري منه يتطلب زمنا.

وعندما نتحدث عن الفلاحين فاننا نعني بالدرجة الأولى الزراع، رغم ان مربي الماشية هو أيضا فلاح بالمعنى الواسع للكلمة. وكلمة «فلاّح» باللغة العربية تعني الزراع فقط، أي من يفلح الأرض، اما رعاة الابل الرحّل فهم البدو. ورغم ان مصر هي بلد الفلاحين فلا يسعنا الا ان نتحدث قليلا عن الرحّل.

على مدى التاريخ كانت العلاقات المعقدة المتشابكة المتراوحة بين العداء والتعايش، بين السلب الحربي والتبادل الاقتصادي، والقائمة بين الرحل والقبائل المستقرة على امتداد المساحة الهائلة من الأرض في شمال افريقيا والشرق الأدنى... كانت هذه العلاقات عنصرا من أهم عناصر الحياة الاجتماعية - الاقتصادية. وبالنسبة لمصر بعد زحف رعاة الخيل الهكسوس عليها في القرن السابع عشر قبل الميلاد، أصبح معنى الرحل، وخاصة مع بداية العصر الميلادي

مرتبطا برعاة الابل. فقد أدى جفاف السافانا إلى ان تصبح الخيول حيوانات نادرة ودليلا على البذخ وحيوانات حربية للارستقراطية. وأصبح الجمل حيوان النقل الرئيسي، وظل كذلك حتى مطلع القرن العشرين.

ولدى مقارنة القوة الحربية لكل من الفلاحين والبدو فان التفوق عادة ما يكون لأهل الصحراء. وقد مكنهم امتلاكهم لقطعان كبيرة من الجمال من التجمع بسرعة ودون علم العدو وحشد اعداد كبيرة لانزال الضربات، ثم التفرق في حالة الفشل والاختفاء في الصحراء التي لا يستطيع العدو معرفة خباياها. كما ان نمط الحياة نفسه كان يجعل من البدوي محاربا جيدا. واخيرا فان التنظيم الحربي الديمقراطي للقبيلة هو بمثابة هيكل جاهز وملائم لاقامة تشكيل عسكري صرف، كما انه يسهل عملية السيطرة على اعداد كبيرة من الناس خلال الحملات واثناء القتال.

ولم يكن بوسع حكام الاقاليم المستقرة فرض الاستغلال على البدو الرحل لان تربية الابل لم تكن تدر سوى دخل ضئيل، كما ان الحملات العسكرية ضدهم، حتى في حالة نجاحها، كانت باهظة التكاليف. ولذلك كان الحكام المستقرون يفضلون اتقاء شر البدو الرحل بدفع اتاوة لهم ولا يشنون ضدهم حملات تأديبية الا فيما ندر. وعلى العكس، كان البدو هم الذين يفرضون نظم الاتاوة على الفلاحين ورعاةالغنم شبه المستقرين.

وفي مصر المعاصرة يعتبر الدور العسكري والسياسي والاقتصادي للبدو الرحل ضئيلا. وعددهم البالغ من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف شخص يشكل بالنسبة لتعداد مصر البالغ قرابة ٦٠ مليون نسمة نسبة تافهة. لكن هذه النسبة لم تتشكل الا حديثا نسبيا. فقد كان عدد البدو في عهد الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر حوالي ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ألف شخص بالنسبة لتعداد السكان البالغ ٢,٥ مليون نسمة. وقد أعطاهم ذلك، بالاضافة إلى تنظيمهم العسكري، دورا ونفوذا كبيرا في البلاد لا يتفق ونسبتهم العددية. ومنذ الفتح العربي لمصر ساعد البدو الرحل على تعريب الفلاحين وأثروا في بعض المناطق على تشكيل نمطهم الاثنوغرافي. لكن قناعة البدو بنبالة دمائهم حدّت من اندماجهم بـ«زراع الأرض»

والتزوج بهم. وكان أفقر بدوي يأنف من تزويج ابنته بفلاح ثري.

ان الخوف من الصحراء يقترن في لاوعي كثير من الفلاحين بالذكريات شبه المنسية عن غارات البدو. وأصبح التعارض بين مفهومي «الاستقرار» و«الرحل» معروفا في الحياة السياسية وفي الحياة اليومية وفي ايديولوجيا المجتمع التقليدي. ففي العشرينات والثلاثينات حاول بعض الكتاب المصريين الاشادة «بالفرعونية» ورسم صورة مثالية للفلاح، ومواجهة المصريين بجميع العرب، وهم يقصدون بكلمة «العرب» بالطبع البدو الرحل. ولنستمع إلى ما يقوله توفيق الحكيم في الرواية المذكورة:

«... فأجابه الخفير البدوي في صلف بان هذا الفتى الفلاح «عرجاوي» يريد الزواج من اخته البدوية، وان اخته هامت بهذا الفلاح، ولم يفلح في ارجاعها عنه لا الضرب المبرح، ولا النصح، ولا المعايرة بنزولها عن «محتدها البدوي» إلى الاقتران بفلاح!... وفي النهاية اتفقت مع «عرجاوي» على الهرب والزواج به على الرغم من ارادة اخيها «عبد العاطي»، فأقسم «عبد العاطي» الا تقع عينه على «عرجاوي» هذا حتى يقتله، وقد حاولوا الصلح بينهما، وحاولت الفتاة العربية استعطاف اخيها، وساقت إليه من يغير رأيه فيها وفي زوجها الفلاح، فلم ينفع كل ذلك. وأصر عبد العاطي على تنفيذ حكمه!... هذا ما فهمه «محسن» من هذا البدوي، وعندئذ نظر إليه وسأله في رفق:

- بقى البدوي أحسن من الفلاح يا عبد العاطي؟.

فأجاب الخفير وهو يحدق به مستغربا جهله:

- كيف يا بيه، «البدوي» مثل «الفلاح»؟؟!

- ايه الفرق بين الاثنين؟

- كيف يا بيه.. كيف؟ البدوي أصيل!

- والفلاح مش أصيل؟

- الفلاح عبد بن عبد.. احنا بدو ما نرضى الضيم!»

وبعد ذلك يمضي توفيق الحكيم ببطله الشاب إلى شيخ البلد:

ذهب «محسن» بعدئذ إلى «الشيخ حسن» وجلس بجواره على المصطبة، ونظر إليه قليلا وإلى لحيته البيضاء، ثم قال:

- يا عم الشيخ حسن، البدوي أحسن والا الفلاح؟

فالتفت إليه الشيخ، ثم أجاب وهو يسبح بسبحته:

- البدو دول يا جناب البيه جماعة خطافة جرابيع! لا لهم دين ولا ملة، ولا يعرفون رحمة ولا اسلام!

- ازاي؟

- الفلاح منا يبقى خيره عليهم: يكرمهم ويساعدهم ويخاويهم وهمّ يتكبروا عليه، كأن دمهم دم واحنا مية!.. روح الفلاح عندهم ما تسوى أكثر من حق عيار رش بقرش صاغ... أصل البدو لا تعرف تزرع ولا تقلع، ناس لا مؤاخذة ما يفلحوا الا في الضرب والخطف...»

... والفلاح لا يرى في العمل فرضا يقدسه الدين فحسب. فالمثل يقول: «العمل عبادة». وحكمة التجارب والخبرة تحذر من الكسل، رغم ان الفلاح يدرج جيدا ان مردود عمله لا يساوي ابدا ما بذله من جهد. فثمة هرم كامل من الطفيليين الذين يعيشون على حسابه.

كتب أ. آيرو في بداية الخمسينات: «اذا كانت الأرض، التي يمسدها الفلاح بيديه ورجليه بكل معنى الكلمة، ملكا له فانه يقبل على فلاحتها بكل قلبه. لكنها ليست ملكا له ابدا في معظم الأحوال. فهنا ليست الأرض ملكا للانسان بل الانسان ملك للارض. وهنا يكمن سبب كسل الفلاح وفقره».

كسل الفلاح؟ الا يتناقض ذلك مع ما سبقت الاشارة إليه توا من حب الفلاح المصري للعمل؟ كلا على الاطلاق.

الفلاح يعمل لانه لا يمكن ان يعيش بغير ذلك. ولكنه يدرك ان الجهد الشاق لا يكافأ عليه، واذا بذل مجهودا أكبر فلن يعني ذلك ان حياته ستتحسن، بينما قد يخسر قواه. وهو يعمل بأقصى طاقته في ظل طعامه الفقير وأمراضه والقيظ الصيفي المضني اذا كان عائد العمل راجعا إليه. فما الذي يحثه على العمل المتفاني في سبيل مصلحة الآخرين؟

ان عدم تملك الأرض هو المأساة الحقيقية للفلاح. وكانت تلك ظاهرة عامة في بداية الخمسينات عندما نشر آيرو كتابه «فلاحو مصر». وأصبحت هذه المشكلة أكثر حدة بعد مضي ثلاثين عاما وذلك بالرغم من تحقيق الاصلاح الزراعي.

كان الاصلاح الزراعي احدى المهام الأولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. فقد كان الظلم الاجتماعي في القرية صارخا، وبلغ الاستقطاب درجة أصبح فيها اثنا عشر ألف اقطاعي وعائلاتهم يملكون أكثر من ثلث مساحة الأرض. وفي القطب الثاني أكثر من مليوني أسرة، أي حوالي ١٥ مليون شخص لا يملكون شيئا أو يملكون قطع أرض ضئيلة. وكانت شريحة متوسطي الملاك تافهة.

كان احد القطبين يمثل الطفيلية البشعة، والقطب الآخر يمثل أعمال السخرة. في أحد القطبين كانت العائلة المالكة، التي تستحوذ على عشرات الآلاف من الفدادين وتغرق في البذخ والفجور، بما تملكه من قصور وجواهر ويخوت وسيارات وجوار وخدم وحشم، وفي القطب الآخر مواطنون احرار شكليا واشباه عبيد عمليا، يبلغ عددهم حوالي مليون عامل زراعي من عمال التراحيل. وإليكم رقما آخر: كان حوالي مليون رجل وامرأة وطفل يعملون لدى ٦١ عائلة من أغنى العائلات، تملك ٢٧٧ ألف فدان. وما أكبر ما كان يكنه رجال قمة الهرم الاجتماعي في مصر من ازدراء واحتقار للقرية، لاولئك الذين كانوا يطعمونهم ويكسونهم ويكفلون لهم حياة البذخ، لاولئك «الفلاحين الاجلاف». وكانت كلمة «فلاح» في ذلك الوسط تعتبر اهانة وترادف في معناها كلمة «القروي المتخلف» أو «الغبي» أو «الجلف».

وقد انعكس ذلك في عدد من الامثال التي تصور الفلاح حيوانا غبيا بليدا.

واحيانا نجد في هذه الامثال سخرية الفلاح من نفسه، ولكن تلك الامثال في معظمها قد ولدت في بيئة اخرى. وقد اطلق الباحث والاديب المصري ابراهيم شعلان على هذه الامثال وصف «الحرب النفسية» التي يشنها المالكون ضد الفلاحين.

ولم تعرف القرية المصرية تقريبا في ذلك العهد نظم المزارع والانتاج الزراعي الرأسمالي في صيغته الخالصة. فما الداعي لشراء الآلات اذا كانت اليد العاملة الفلاحية رخيصة إلى هذه الدرجة؟ لقد كان الاقتصاد الاقطاعي اقتصادا سلعيا، أي انه كان ينتج السلع للبيع في السوق، لكن استغلال الفلاحين كان يجري بأساليب سابقة على الرأسمالية. وكان نظام المشاركة أو المحاصة شائعا، وبدلا من الاجر كان الفلاحون يعطون نصف أو ثلاثة أرباع فدان ليفلحوه. والاحصائيات عن تلك الفترة غير دقيقة، فمن الصعب وضع حدود بين الفلاحين ذوي الملكية الصغيرة والمستأجرين، وبين المستأجر الذي لا يملك شيئا، والفلاح المعدم الذي يفلح قطعة أرض ليس له.

ولم يكن فقر الفلاح يعني الجوع والامراض وانخفاض انتاجية عمله فحسب، بل ويعني كذلك امكانية محدودة جدا امام تسويق المصنوعات المصرية. فقد كان الفلاح ينتج، ولكنه، باستثناء المواد الغذائية، لم يكن يستهلك شيئا تقريبا، اما الارستقراطية فكانت تفضل السلع المستوردة.

وبينما القى الاقطاعيون على الاستغلال الاقطاعي وشبه الاقطاعي للفلاحين في القرية مضوا هم، الذين كانوا يعيشون عادة في المدن، إلى مجال النشاط الاستثماري. ويكتب الباحث الروسي ل. فريدمان: «اصبح من المميز للاسر الاقطاعية القديمة تشعب وتعدد روابطها بالشركات المساهمة العاملة في مجالات اقتصادية بعيدة عن بعضها كل البعد، مثل مجال الطبع والنشر، وصناعة التعدين، وتجارة القطن بالجملة، والنقل النهري، والبنوك، وأعمال العقارات وبيع الأراضي في المدن وانتاج الافلام السينمائية».

ووضع الاصلاح الزراعي في عهد عبد الناصر حدا أقصى للملكية الزراعية

١٠٠ فدان وصفى طبقة كبار الاقطاعيين المصريين. وبعد ان صفيت سلطتهم السياسية تم تقويض قوتهم الاقتصادية. كما حرمهم تأميم الصناعة الكبيرة وجزء من الصناعة المتوسطة من رؤوس اموالهم التي كانوا يوظفونها في ميادين النشاط غير الزراعي. وبحلول اواسط الستينات بلغت مساحة الأراضي المصادرة من الاقطاعيين ٨٧٥ ألف فدان.

ووزعت الأرض قطعا تتراوح مساحتها بين ثلاثة وخمسة افدنة وفقا لنوعيتها، وأعطيت الاسبقية لمستأجري هذه الأرض أو للاجراء الزراعيين من أبناء القرية التي تقع هذه الأرض في نطاقها، وكذلك لذوي العائلات الكبيرة العدد. وبحلول عام ١٩٧١ كان قد تم توزيع حوالي مليون فدان، منها أكثر قليلا من ٨٠٠ ألف فدان من الأراضي المصادرة من الاقطاعيين، وحوالي ٢٠٠ ألف فدان من الأراضي التابعة للدولة وحوالي ٣٠ ألف فدان من أراضي طرح النهر.

لقد أعطى الاصلاح الزراعيي الأرض لحوالي ٣٢٠ ألف اسرة فلاحية. كما ان الأرض التي تم استصلاحها في الستينات قد ساعدت كذلك على سد رمق الجائعين إلى الأرض.

بيد ان الزيادة السريعة في سكان الريف لا يمكن ان تصحبها زيادة مماثلة في مساحة الأراضي المزروعة. فخلال عشرين عاما لم تزد الأراضي الزراعية الا بمقدار مليوني فدان، وجاءت الزيادة اساسا بفضل تحويل أراضي ري الحياض إلى الري الدائم. ويحدث أيضا تفتيت للملكية، واذ يقسم الفلاح المتوسط فدادينه الخمسة بين أولاده فانه يحكم عليهم بان يصبحوا من المعدمين. ويسخر الفلاحون قائلين أن كثيرا من الحصص يمكن ان تغطيها بالجلباب. وثلث الفلاحين تقريبا لا يملكون أرضا، وهم بذلك يمثلون البروليتاريا الريفية أو اشباه البروليتاريا من عمال اليومية والاجراء والمستأجرين. ولا تزيد ملكية أكثر من نصف المزارع الفلاحية الآن عن نصف فدان أو أقل. ويطلق الباحثون السوفييت على هذه الملكية عن حق وصف «الملكية المزعومة». فالعائلة التي تملك فدانا لا تستطيع ان تلبي سوى ثلث احتياجاتها.

ويأتي حنين الفلاح إلى ملكية ماشية العمل في المرتبة الثانية بعد حنينه إلى ملكية الأرض. بيد ان فقراء الفلاحين لا يملكون جاموسا أو بقرا.

ان «فيض» الايدي العاملة في الريف لم ينشأ في الثمانينات ولكنه أصبح يمثل عنصر ضغط متزايد خاصة في هذه الأيام. وقد اظهرت الدراسات على بعض العينات في نهاية السبعينات ان الزراعة نفسها لا تشكل سوى نصف دخل سكان الريف، اما النصف الثاني فيأتي من الأعمال العارضة والحرف وقطاع الخدمات والبناء ومن مصدر آخر يتزايد حجمه الا وهو تحويلات العاملين في الخارج. ويبدو ان هذه النسبة قد مالت أكثر في الثمانينات في غير صالح الزراعة.

ولكن قطاع متوسطي الملاك الذين عزز الاصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي المستصلحة في الستينات مكانتهم قد تقلص فيما بعد، وأصبح عدد الفلاحين الذين يملكون من خمسة إلى عشرة فدادين الآن أقل مما كان عليه في بداية الخمسينات.

بيد ان الاحصائيات مسألة ماكرة. وانا مثلا لا أستطيع ان أجزم في مسألة تحديد وضع الفلاح المتوسط انطلاقا من حجم ملكيته فحسب. فملكية مزرعة خضروات أو ازهار على مساحة فدانين قد تجعل من الممكن نسبة هذا المالك إلى عداد اغنياء الفلاحين، بينما ملكية خمسة أو سبعة افدنة من الأراضي الفقيرة التربة أو الأراضي الملحة قد لا تكفي لاطعام اسرة واحدة. و«الفلاح الاحصائي المتوسط» والفلاح الحقيقي شيئان مختلفان وليسا دائما شيئا واحدا. لكنك لن تستطيع تعميم النتائج الا باللجوء إلى قدر من التجريد مع احتمال الخطأ.

واذ اتحدث عن عمل الفلاحين وآلات الري القديمة اجد نفسي اتساءل لا اراديا: ألست بذلك أضفي طابع القدم على حياة الفلاح وعمله ونفسيته؟ بالطبع لم تعد القرية المصرية الحالية ولا الفلاح نفسه مثلما كانا عليه منذ ثلاثين سنة. ولكن كما هي العادة حين تدرس المجتمع في احدى البلدان العربية او الاسيوية او الافريقية فانك لا تجد اجابات قاطعة عن الاسئلة القاطعة.

ان مستوى معيشة غالبية الفلاحين وحياتهم اليومية ونفسيتهم ما زال إلى حد

كبير يتناسب وعصر الطنبور. بيد انه في حقول مصر يعمل اليوم عشرات الوف الجرارات وآلاف مضخات المياه وأجهزة الري المختلفة. صحيح ان ثلاثة ارباع الجرارت وأكثر من نصف المعدات الاخرى تتركز ملكيتها في أقل من ٥٠ ٪ من المزارع. وهذه المزارع تملك أكثر من خمسي المساحة المزروعة، وهي تنتج ما يزيد على نصف الدخل القومي في قطاع الزراعة في مصر. ويبلغ عدد اصحاب هذه المزارع اقل من مائتي ألف عائلة، ولكنهم يسيطرون على جميع المواشي المعروضة للبيع وعلى القسم الأكبر من انتاج المحاصيل الزراعية، ويحصلون على الجزء الاكبر من العلف الذي توزعه الدولة باسعار مخفضة، وعلى معظم قروض البنك الزراعي، والتقاوى المنتقاة، والاسمدة الكيميائية.

لقد اجتث الاصلاح الزراعي الناصري القمة العليا لكبار ملاك الأراضي. ولكنه ساعد موضوعيا على نمو الرأسمالية في الريف. وانشئت ومازالت تعمل الجمعيات المسماة «الجمعيات التعاونية للاصلاح الزراعي» التي جمعت الفلاحين الذين حصلوا عن طريق الاصلاح الزراعي على أرض الاقطاعيين السابقين، دون ان تصبح هذه الجمعيات مزارع جماعية. وتوجد كذلك الجمعيات التعاونية للتموين والاستهلاك والتي تضم في عضويتها أكثر من نصف مليون فلاح. بيد ان المسيطر على هذه الجمعيات وتلك هم موظفو الدولة واغنياء الفلاحين (الكولاك).

ومن الطريف ان كلمة «الكولاك»، الروسية مستخدمة لدى كثير من الباحثين المصريين الذين يطلقونها على أغنياء الفلاحين ممن يستخدمون العمل المأجور ويشكلون شريحة من البرجوازية الريفية. وقد تعزز هؤلاء الكولاك في عهد الحكم الناصري وازدادوا غنى واشتروا أراضي الاقطاعيين السابقين والملاك المفلسين. وتحول من تبقى من الاقطاعيين إلى الطريق الرأسمالي بعد ان قسموا أراضيهم بين أقربائهم متحايلين بذلك على قانون الاصلاح الزراعي وافلتوا من مصادرة أراضيهم. وعندما تعززت البرجوازية الريفية وجمعت على لحمها الشحم تحولت من نصير للاصلاحات الناصرية إلى خصم لها لان هذه الاصلاحات كانت تعوق نموها وسعيها إلى نهب الآخرين من بني قومها دون قيد. واصبحت هذه

البرجوازية السند الاجتماعي العريض لنظام السادات.

وهناك قسم من الأراضي والعقارات ورؤوس الاموال العائدة لملاك الأراضي لم يقع تحت طائلة الاصلاح الزراعي ولكنه صودر لصالح الدولة ووضع تحت الحراسة. بيد انه صدر في عام ١٩٧٤ قانون الغاء الحراسات، واعادة أكثر من مائتي ألف فدان وكذلك القصور والفيلات والحسابات المصرفية والسندات والاسهم المصادرة إلى اصحابها أو تعويضهم عنه تعويضا مناسبا.

واصدر الرئيس السادات في عام ١٩٨١ مرسوما جمهوريا بالغاء الحراسات تماما، وحصلت حوالِي ثلاثة آلاف اسرة، من بينها كثير من أصحاب الأراضي، على ممتلكاتها السابقة أو على تعويضات عنها. وفي ١٩٧٨ و ١٩٨٢ صدرت قوانين بتخفيض الضرائب على كبار الاغنياء المصريين.

وفي يونيو ١٩٧٥ صدق البرلمان على اضافات على قانون الاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٢، فسمح رسميا بنظام الشراكة وزيدت الضرائب وايجار الارض، واصبح من حق المالك طرد الفلاحين والمستأجرين من الأرض في حالة تأخرهم عن سداد الايجار لاكثر من شهرين. ومثّل هذا القانون انتهاكا صارخا لمصالح فقراء الفلاحين بحيث اجّل تنفيذه، ولم يبدأ العمل به الا في عام ١٩٧٩ بعد اصرار وضغوط من جانب نواب الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم في البرلمان.

ومن الخصائص المميزة للاقتصاد المصري ان انتاج بعض انواع السلع الزراعية ـ كالقطن والقمح وبعض السلع الاخرى ـ يخضع لتقنين صارم من قبل الدولة. وهناك معدلات ثابتة لتوريد هذه المحاصيل إلى الدولة وفق أسعار محددة ولكنها أقل بكثير من أسعار السوق الحرة. ويقع عبء هذه التوريدات على عاتق افقر الفلاحين بالذات. ويمقت الفلاحون محاصيل التوريد هذه، كالقطن والقمح، لانهم لا يجنون منها سوى الخسارة وذلك بسبب انخفاض مستوى الانتاج الزراعي الحالي وبالتالي ضعف المحاصيل. واحيانا كنا نرى ونحن نمر بالدلتا مشهدا كان لا يمكن بالامس ان نتصوره، حين يقوم الفلاحون بقطع اعواد القطن المحملة باللوز الذي لم

يجمع بعد، ويجمعونها اكواما ليستخدموها كوقود. ذلك ان اتلاف القطن احيانا يصبح اقل ضررا من جمعه.

وينتقل المستثمرون الريفيون الآن إلى انتاج محاصيل أخرى وإلى تربية الماشية والدجاج مستغلين مزايا المناخ والأرض. فمنذ عام ١٩٥٢ ضاعفوا انتاج الخضروات أربعة اضعاف وانتاج الفواكه حوالي ثلاثة اضعاف، واخذوا يزرعون المزيد من الأعشاب الطبية المخصصة للتصدير والخضروات المبكرة والازهار وكذلك البرسيم لعلف ماشية الالبان واللحوم. وفي الوقت نفسه افلست كثير من المزارع الفلاحية المتوسطة والصغيرة لافتقارها إلى رؤوس الاموال والآلات والاسمدة والتقاوى الجيدة ووقوعها تحت ضغط التوريدات الحكومية للمحاصيل غير المربحة. وقد يقال انْ هذه المزارع محكوم عليها بالزوال، ولكن ارتباط الفلاح وتعلقه الشديد بالأرض، واقدامه على أي تضحية في سبيل الاحتفاظ بأرضه بالاضافة إلى بساطة متطلباته وصبره ومحافظته، يجعل من الممكن القول بأن هذه المزارع الصغيرة ستبقى قائمة في المستقبل المنظور.

ان أرض وادي النيل، هذه الأرض المطعمة التي فلحتها وسمدتها مئات الأجيال وروتها بعرقها، وانشدت فيها الاغاني وعبدها القدماء، هذه الأرض لم تعد تطعم مصر، أو بالأحرى لم تعد قادرة على اطعام جميع المصريين. ومصر التي كانت مزرعة القمح للامبراطورية الرومانية اصبحت اليوم تعيش على استيراد القمح والمواد الغذائية. وكان معدل نمو المحاصيل في بداية الستينات قد فاق معدل النمو السكاني، ولكن هذه النسبة تغيرت بعد ذلك، وفي السبعينات ازدادت الهوة بينهما. والفلاح المصري لا يستطيع ان يطعم الآن سوى ستة اشخاص من كل عشرة، ولا يمكنه ان يكفل رغيف الخبز الا لثلاثة اشخاص من كل عشرة مواطنين.

تستورد مصر أكثر من خمسة ملايين طن من القمح في السنة، وبحلول عام ٢٠٠٠ ربما يرتفع الاستيراد إلى ١١ مليون طن من الحبوب معظمها من القمح. وبسبب ازدياد الاستهلاك الداخلي انخفضت بصورة حادة صادرات الارز والموالح. والادهى من ذلك ان مصر التي كانت مصدّرا للمواد الغذائية اصبحت

مستوردا لها: اذ ان قيمة جميع المحاصيل التصنيعية (بما فيها القطن) والغذائية المصدرة من مصر أقل بسبعة أمثال من قيمة السلع الغذائية المستوردة. وتنفق البلاد أكثر من ملياري دولار سنويا على استيراد السلع الغذائية بينما هي في أشد الحاجة إلى هذا المبلغ لانفاقه على التنمية الاقتصادية والتصنيع. ولكن علينا ان نراعي هنا ان الارقام لا تعكس دائما الصورة الحقيقية وقد تشوهها. فالدولة تدعم اسعار الدقيق، كما انها تحصل على جزء منه ضمن المساعدات الامريكية. وقد ادى ذلك إلى ان اسعار القمح في السوق المصرية أصبحت اقل من اسعار التبن، ومن ثم اقبل الفلاحون على اطعام الماشية خبزا.

فهل الوضع ميئوس منه إلى هذا الحد؟ من الناحية النظرية قد لا يكون كذلك فمن المقرر حتى عام ٢٠٠٠ استزراع اربعة ملايين فدان جديدة من الحقول والبساتين والمزارع الصغيرة في سيناء والدلتا وواحات الوادي الجديد الواقعة غربي النيل في مصر العليا. وهذه الخطط ليست مستحيلة التنفيذ، لكن القليلين هم الذين يؤمنون بامكانية تنفيذها. وعلاوة على ذلك يتطلب الامر نفقات باهظة على المرافق، كالطرق وشبكة الكهرباء والمواصلات والاسكان. والفلاح لا يقبل على استيطان الأراضي الجديدة، وهو يحسب حساب الارباح والخسائر، ولا يريد ان يستبدل امرا مجهولا بحياته المستقرة رغم ما فيها من شقاء. ولهذا تباطأت عملية استصلاح الأراضي في السبعينات.

فهل تغيرت الظروف في الثمانينات؟ وهل ستتغير في التسعينات؟ ليس هناك إلى الآن وقائع تبعث على التفاؤل. ولكن مصر مضطرة إلى توسيع رقعة الأراضي الزراعية حتى لو كانت معدلات التوسع أقل من المخطط لها.

ومع ذلك نكرر السؤال: هل الوضع ميئوس منه إلى هذا الحد؟ ومرة اخرى نقول لا. فلم تستوعب بعد كافة الامكانيات لانتاج المحاصيل التصديرية العالية المردود مثل الزهور وزيوت العطور والبطاطس البدرية. وفي هذا المجال تستطيع مصر ان تستفيد من وضعها الجغرافي الملائم ومناخها المعتدل وطبيعة تربتها الخصبة بشرط ان تعرف كيف تستفيد من ذلك. ومن الممكن تحويل ميزان

الصادرات والواردات لصالح مصر. ومن العوامل الحاسمة في هذا الصدد ان الفلاح - رغم ما يبدو في ذلك من مفارقة للوهلة الأولى - لم يستنفد خصوبة الأرض بالكامل. فمصر لا تدخل في نطاق الدول العشر الأولى في العالم من حيث المحصولية بالنسبة للقمح والأرز والذرة. فهل الجو او التربة في مصر أسوأ مما في هولندا أو المانيا أو اليابان؟ كلا، ان القضية ليست في التربة او المناخ، بل في مستوى الحضارة الزراعية وفي الآلات والمبيدات والتقاوي والاسمدة، وفي مستوى ثقافة الفلاح روح المبادرة لديه ومصلحته في نتيجة عمله. اما الآن فانتاجية عمل الفلاح المصري ادنى بمائة مرة تقريبا من انتاجية المزارع الامريكي. وهذا يعني ان المشكلة هي في الهيكل الإجتماعي الإقتصادي للريف المصري، وبدون إعادة صياغة هذا الهيكل لن يمكن حل المشاكل اللعينة الموروثة عن السبعينات.

... كان ذلك في أول ايام الربيع المصري الموافق لعيد الفصح القبطي. واستيقظت مبكرا اذ كنا ننوي الذهاب إلى واحة الفيوم في عيد شم النسيم، لنرى كيف يحتفلون بهذا العيد «على الطبيعة» كما يقال، أي وسط الناس الذين لم تطبعهم حياة العاصمة بطابعها. وحسب العادة المصرية القديمة شققت بصلة نصفين وشممتها، والقيت بها وراء ظهري وخرجت من البيت دون ان التفت تاركا خلفي كل الهموم والمتاعب. وربما فعل الشيء نفسه في هذا اليوم ملايين المصريين مسلمين واقباطا.

عندما وصلنا إلى الفيوم وجدناها قد غصت بكتلت البشر المرحين المتنزهين. وتعالت صيحات باعة الحلوى واللب والفول السوداني. وعزفت فرقة من عازف على الربابة وضارب على الدف تدعو الجمهور إليها. وتجمع عدد كبير من المتفرجين حول جماعة من مروضي القرود الجوالة. لقد خرج المصريون بعائلاتهم إلى المتنزهات القليلة والحدائق والحقول القريبة في نزهات جماعية. والوجبة الاساسية في ذلك اليوم هي «الفسيخ» (سمك مملح وعفن الرائحة بعض الشيء) والبيض الملون. وامتطى الأطفال المسرورون الحمير والجمال. وعلقت

فوق الابواب حزم البصل، واحيانا كان يضربون البصل بالعصي لتسقط بضع قطرات من عصيره على عتبة الباب فتحل بالبيت السعادة.

واحتشد اكبر تجمع في ذلك اليوم على شاطئ «بحر يوسف»، فكانت الزوارق المزينة بالاشرطة الملونة والاعلام تذرع هذه القناة طولا وعرضا، بينما راح الرجال يستحمون في مياهها العكرة. والناس هناك يعتقدون ان مياه بحر يوسف تجلب الشفاء وخاصة من الرمد والحمى وغيرهما من الاوجاع. ولذا فقد اخذوا يصيحون وهم ينزلون إلى الماء: «بركة، بركة، بركة!» معتقدين ان مياه القناة في هذا اليوم بصفة خاصة تحل بها البركة فتصنع المعجزات.

وتقول احدى الاساطير ان القديس يوسف كان يتريض هنا وهو يسحب عصاه على الأرض، واذا بالمياه تتدفق في الخط الذي خلفته عصاه على الأرض حتى بلغت بحيرة قارون. ولكن اسطورة اخرى تتحدث عن منشأ آخر للقناة. فعندما بلغ يوسف المائة من عمره اخذ المحيطون به في بلاط الفرعون يحيكون الدسائس ضده متهمينه بالعِجز والضعف بسبب كبر سنه. ولكي يثبت لهم يوسف طاقته جمع العمال وأبدى آيات من الاعجاز العملي والتنظيمي فشق هذه القناة في سبعين يوما وحوّل مستنقعات الفيوم إلى بساتين غنّاء وحقول خضراء وضاعف دخل الفرعون.

ان قدم بعض التفاصيل المادية في حياة المصريين وعراقة عاداتهم تثير العجب. فلم يبق لديهم من ايام الفراعنة عيد شم النسيم واسطورة يوسف فحسب، بل والساقية (الناعورة) التي يتردد صريرها في وسط مدينة الفيوم، والطنابير، وعادة تكحيل العيون وختان الاطفال والوشم على الجلد والوجه، واقامة المصاطب الطينية امام البيوت، وحلاقة شعر الاطفال مع ترك خصلة واحدة بدون حلاقة، واقامة اعياد وفاء النيل.

وقد يبدو ان هذا كله دليل على رسوخ الفلاح واستقراره وعدم تغيره منذ القدم وحتى الآن.. الفلاح الذي يمثل قاعدة الشعب المصري و«ملح الارض» المصرية.

لقد كتب أ. آيرو منذ ما يزيد قليلا عن اربعين عاما: «ان فلاح اليوم ما يزال كما كان عليه منذ ايام الدولة القديمة في فترة اوج ازدهارها. وتبدلت عهود سيطرة الفرس والاغريق والرومان والبيزنطيين والعرب والاتراك والفرنسيين والانجليز. وكانت هذه السيطرة او تلك تمتد من عدة سنوات إلى عدة قرون، ولكن الفلاح ظل كما كان...»

لقد أصبح هذا الحكم الذي اصدره ذلك الباحث الذكي الشريف المخلص لقضية الفلاح حكما باليا بالنسبة لليوم الحاضر. فلم يعد الفلاح كما كان بالأمس فضلا عما كان عليه من ثلاثين سنة. لقد ورث الكثير عن الماضي، ولكنه لم يعد ينتمي إلى ذلك الماضي.

والفلاح بطبعه محافظ، يميل إلى التقليد ومحاكاة القديم لا إلي التجديد والاختراع. بيد ان رياح التغيير هبت على مصر، وبلغت كذلك الريف المصري، وراحت وتائر هذا التغيير تتسارع وتمتد لتشمل الاقتصاد وادوات العمل ونمط الحياة والقدرات ـ وبشكل أبطأ بكثير ـ العلاقات الاسرية، والصفات السيكولوجية. وربما تكون التغيرات الحالية أعمق تغيرات حدثت منذ فتح العرب لمصر ودخول الاسلام إليها. ولكنها لا تعني دائما تحطيم القديم، فالجديد يتجاور مع القديم رغم ما يبدو احيانا من استحالة هذا التعايش. فالعادات الاقتصادية القديمة والعلاقات الاجتماعية والتقاليد تتلاشى او تتغير اشكالها، ولكنها تبقى لدى بعض شرائح السكان بالرغم من رياح التغيير المتزايدة.

ان تعدد طبقات الريف المصري، وتعايش القديم والجديد، والبالي والعصري، الركود والتفجر، لا يمكننا من التنبؤ للفلاحين بحياة هانئة. فقد تراكم في الريف الكثير والكثير من التشوهات والمرارة والسخط. والهوة سحيقة بين الامال والواقع. واتسع افق الكثير من الفلاحين فاصبحوا لا يقبلون باذعان ذلك الوضع الذي يفرضه المجتمع عليهم وتلك الهوة التي تفصل المالكين عن المعدمين والقصر عن الحظيرة.

لقد سبق ان اشرت إلى ان أكثر من نصف سكان الريف لا يفلحون الارض الآن ولا يربون الماشية كسبا لقوت يومهم. فاذا اضفنا إلى ذلك زحف المدينة الجبار المستمر على القرية وسرعة تنامي سكان المدن فلن يكون بوسعنا ان نقول عن مصر - بالمعنى الدقيق للكلمة - انها بلد الفلاحين، بل هي تتحول إلى بلد الحضريين.

الباب الثالث

رأس عملاق على جسد ضعيف

وفي هذا المكان ولدت القاهرة العظيمة «المحروسة». شوارعها الضيقة الطويلة الملتوية غاصةببالحوانيت ودكاكين الحلاقة والمقاهي والكراسي والمناضد والبشر والحمير والكلاب والجمال. ومنشدوها ورواتها يروون بطولات «علي» صهر النبي المعروفة للعالم اجمع. ولاعبو الشطرنج فيها والمدخنون صامتون وحكماء. واسواقها تضاهي في ضوضائها وغناها اسواق اسطنبول ودمشق. اما الشيء المهم فهو ان في القاهرة نصف الف مسجد ومئات الآلاف من المقابر التي تثوي في سكون الصحراء المحيطة بها. وتسمو المساجد والمآذن فوق كل شيء. والمساجد عريضة المناكب، مخططة كالعباءات، تعلوها كثرة من القباب - العمائم، والمآذن مزخرفة، عالية ودقيقة كالحراب. أليست هذه هي العصور الاسلامية القديمة؟

ايفان بونين. الضوء البروجي. ١٩١٥

ليس هناك معيار يمكن ان نطبقه على القاهرة لان لها معيارها الخاص الذي تتعامل به مع نفسها... ان المدينة الحديثة تصطدم كالخفاش بجدار السماء المتربة والصحراء القائظة الذي يشل حركتها. وهي تنمو كالصبار وتصبح صاخبة، فظة، ريّابة، عملية، تستنشق بنهم رياح القدر الاربع... القاهرة، مثلها مثل المصري الحقيقي، تقدم للضيف قلبها لا عقلها.

جيمس أولدريج. القاهرة. ١٩٦٩

القاهرة هي مركز جاذبية للبلاد بنفس الدرجة ان لم يكن أكثر مما هي عليه باريس بالنسبة لفرنسا. ففيها ربع مجموع السكان اما الدلتا والصعيد ففيهما عدد متساو تقريبا من السكان. وتبدو القاهرة كأنها تمسك بمروحة الدلتا و«يد» مصر العليا في نقطة اتصالهما.

الدكتور جمال حمدان. شخصية مصر. ١٩٦٧

ظلت أرض مصر الخصبة على مر العصور مكسبا لا يقدر بثمن. وكانوا

يقتطعون منها على مضض الرقع المخصصة للبناء. ولذلك فاهم مدن الدلتا تقع اما بقرب البحر او بقرب الصحراء. ولم يتبدل الحال الا في الربع الاخير من هذا القرن عندما اندفع طغيان الحضر والانفجار السكاني ليجعلا من طنطا في وسط الدلتا مدينة ضخمة. أما المدن الأخرى فعلى أطراف الدلتا: الاسكندرية، رشيد، دمياط، الزقازيق، مدن قناة السويس. وعلى مدى التاريخ لم تكن في مصر العليا مدن ضخمة باستثناء طيبة (الاقصر حاليا). اما الآن فالوضع هناك يتغير مثلما في الدلتا، اذ تقترب اسيوط من حدود النصف مليون نسمة، وتنمو اسوان وقنا. وعموما فالأراضي التي اضافها السد العالي إلى مصر لا تكاد تغطي فقد الأراضي الزراعية الخصبة التي يلتهمها البناء.

بيد انه اذا لم تكن هناك سابقا مدن ضخمة لا في الدلتا ولا في مصر العليا، فقد نشأت في نقطة الوصل بينهما مدينة القاهرة. ففي نطاق القاهرة الكبرى الحالي وجدت في الماضي عواصم مصر الموحدة السابقة: مدينة أو (عين شمس)، وممفيس، والفسطاط والقاهرة الاسلامية في العصور الوسطى. وأصبحت القاهرة مركزا قوميا طبيعيا. والعاصمة ليست همزة وصل بين الصعيد والدلتا فحسب. فاحيانا ينتقل المسافرون من طرف الدلتا إلى طرفها الآخر عبر القاهرة، لان خطوط المواصلات داخل الدلتا يصعب التوسع فيها بسبب كثرة الترع والقنوات، بينما تنطلق من العاصمة، كالاشعة، طرق السيارات الجيدة.

وكانت الاسكندرية عاصمة لمصر في العصور الرومانية ـ اليونانية ـ البيزنطية. اذ ان سادة البلاد آنذاك قد جاءوا من البحر، وكانوا في حاجة إلى تدفق مستمر للجنود من الخارج، كما كانوا يخشون ان يذوبوا في كتل المصريين التي تستوطن المركز. وفي العصر الاسلامي - بعد القرن السابع الميلادي - بدأت الاسكندرية تفقد اهميتها، ولم تبعث نسبيا من جديد، كبوابة مصر البحرية، الا في القرن التاسع عشر. ولكنها كانت تعد إلى عهد قريب مدينة «الخواجات» بسبب كثرة الاجانب المقيمين فيها وخاصة اليونانيين والايطاليين، ولم يكن من الممكن ان تصبح مركزا للحياة القومية.

وللقاهرة من حيث عمرها كعاصمة منافسون. فدمشق تستطيع ان تتباهى بانها كانت عاصمة لآلاف السنين، اما بغداد، او المدن القريبة منها، فقد استطاعت بفضل موقعها الجغرافي ان تصبح مركزا طبيعيا لبلاد ما بين الرافدين (العراق).

لكن اهمية القاهرة لمصر كانت دائما اكبر بكثير من اهمية دمشق لسوريا او بغداد للعراق. فخلافا عن سوريا او العراق لم تعرف مصر في العصر الميلادي مظاهر الاقليمية واستقلال المقاطعات الذاتي او جنوح بعض الأطراف الى الانفصال. فمحافظات مصر لم يكن بامكانها وليس بامكانها ان تتواجد بصورة مستقلة، الامر الذي كان ممكنا في سوريا او العراق.

ولعل مصر هي البلد الوحيد في العالم الذي حافظ على كيانه كدولة موحدة على امتداد ستة آلاف سنة دون انقطاع تقريبا باستثناءات نادرة. حتى عندما كان الغزاة يستولون عليها لم تكن تقسم بينهم بل تبقى من نصيب طرف واحد. اما سوريا والعراق القريبتين فكان الغزاة يستولون عليهما كليا او جزئيا، ويقسمونهما، ويفتتونهما ثم يعيدون توحيدهما. ان الجهاز الاقتصادي في مصر، ونظام الري المركزي وتضاريس المكان والمواصلات النهرية عبر النيل والترع الملاحية، وسهولة الوصول إلى أي جزء من اجزاء البلاد.. كل ذلك تطلب وافترض الوحدة، وكان غيابه يعني التدهور والانحطاط. ولم تكن المشكلة التي تواجه الغزاة الاقوياء هي فرض سيطرتهم على مصر بل مشكلة الوصول إليها. اذ كان يكفي احتلال العاصمة حتى يتم احتلال البلاد والسيطرة عليها. فلم يكن هناك في الاطراف اساس مادي لابداء أي نوع من المقاومة الطويلة الامد. والاستثناء الوحيد هم الهكسوس، الذين اقتصر احتلالهم لمصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد على الدلتا فقط، بينما انتقل مركز المقاومة طوال ثلاثمائة عام إلى مصر العليا. بيد ان ذلك العهد بعيد غاية البعد عن ايامنا هذه وكثير من الامور فيه غير واضحة. وربما كان سبب ذلك الغزو راجعا إلى كارثة طبيعية ادت إلى انحسار مياه النيل فتحولت أرض الدلتا من مستنقعات وحقول إلى مراع ملائمة للهكسوس الرعاة.

ان البنية المركزية لمصر، وابعادها، وطابع النشاط الاقتصادي فيها تؤدي إلى

سيطرة العاصمة في جميع المجالات، لا في المجال السياسي فحسب، بل وفي الصناعة، والتجارة، والحياة الثقافية. ولذا يقال ان لمصر رأسا عملاقا وجسدا هزيلا. هكذا كان الحال في عهد الفراعنة، وفي عصر البطالسة وفي ظل الحكام المسلمين. وهكذا الوضع اليوم أيضا.

لقد كان تاريخ مصر تاريخا لعواصمها. وكانت الاقاليم تطعم العاصمة وتمدها بالمواد الغذائية والسلع والموارد المالية وتحصل على مقابل قليل جدا وربما لا تحصل على شيء. ويشهد على دور العاصمة في مصر الحديثة والمعاصرة اساطين علم التاريخ المصري عبد الرحمن الجبرتي ومن قبله جلال الدين السيوطي وابن اياس. وبالطبع فقد لعبت بعض اقاليم مصر دورا هاما من بعض الوجوه، غير ان ذلك جرى في حدود ضيقة للغاية. وفي المائة سنة الاخيرة مثلا نمت منطقة قناة السويس، ولكنها كانت هي أيضا خادمة القاهرة الفقيرة.

وفي عصر البطالسة بلغ سكان الاسكندرية حوالي مليون نسمة، بينما لم يزد الحد الأقصى لسكان مصر عن عشرة ملايين نسمة. وفي العصور الوسطى كانت القاهرة واحدة من أكبر مدن زمانها، على الرغم من التقلص الشديد لوزن مصر بالنسبة للدول الاخرى من الناحية السكانية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وكتب الرحالة الايطالي بيلوتي في القرن الخامس عشر:« القاهرة هي أكبر مدينة بين مدن العالم التي نعرفها».

وفي عهد الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، عندما كان سكان مصر لا يزيدون عن ٢,٥ مليون نسمة ظل سكان القاهرة مع ذلك يمثلون عشر سكان البلاد. وتوقفت المدينة عن النمو نصف قرن بالرغم من ازدياد عدد الفلاحين بمقدار الضعف. وفي النصف الثاني من القرن الماضي اخذت النسبة بين الاقاليم والعاصمة تميل لصالح القاهرة. فمن عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩١٤ تضاعف عدد سكانها، وخلال الخمسة والعشرين عاما التالية تضاعف العدد مرة اخرى، ومازال معدل النمو في ازدياد. ويسكن القاهرة الكبرى (بما فيها الجيزة وشبرا

الخيمة وغيرها من المدن المحيطة بها) حوالي اكثر من ١٢ مليون نسمة حاليا، بينما تبلغ الزيادة السنوية ٢٠٠ ـ ٣٥٠ ألف نسمة.

وتدخل القاهرة حاليا في عداد اكبر عشرة مدن في العالم، وهي اكبر مدينة لا في الشرقين الاوسط والادنى فحسب، بل في العالم القديم كله حتى الهند.

ان زحف العمران هو احد ملامح عصرنا ـ وقد انتشر في العالم اجمع واخذ يغير صورة العالم وطابعه وبنيته الاجتماعية تغييرا جذريا. ومن الممكن ابراز فترتين مختلفتين تماما في هذه العملية خلال القرن العشرين: فقبل اواسط القرن كان معظم الزيادة العامة لسكان المدن في العالم يأتي من الدول الصناعية المتقدمة والاتحاد السوفييتي، اما ابتداء من الخمسينات فتأتي هذه الزيادة من الدول النامية. وفي عام ١٩٢٠ كانت هذه الدول تقدم اقل من ثلث زيادة سكان المدن في العالم، وفي منتصف القرن قدمت حوالي خمسي الزيادة. والآن تقدم حوالي النصف، اما في عام ٢٠٠٠ فسوف تضم هذه الدول ما لا يقل عن ثلثي سكان المدن في العالم.

والقاهرة ليست استثناء من القاعدة. فمن السمات المميزة للبلدان النامية تفوق معدلات نمو العواصم والمدن الكبرى. وحتى نهاية هذا القرن على الاقل ستظل معدلات نمو المدن الضخمة في «العالم الثالث» اعلى مما في الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة. وحسب تنبؤات الامم المتحدة فمن بين اكبر ثلاثين مدينة عملاقة في العالم ستوجد تسع عشرة منها في البلدان النامية. وستكون «الزعامة» فيها لمكسيكو (٣٢ مليون نسمة) وسان بالو (٢٦ مليون نسمة) وريو دي جانيرو (١٩ مليونا) وبومباي وكلكتا وجاكرتا (كل منها حوالي ١٧ مليونا)، اما القاهرة فسوف تبلغ حدود ٢٠ ـ ٢٨ مليون نسمة.

وفي القاهرة يتركز الجزء الاكبر من الطاقات الصناعية. وتشكل القاهرة وضواحيها مركز جذب رئيسي لبناء المؤسسات الجديدة، الامر المميز للدول النامية. وفي القاهرة ايضا فروع الشركات المتعددة الجنسية والبنوك الاجنبية.

والقاهر مركز جبار للتقدم وللتحولات الاجتماعية والاقتصادية ومولّد للافكار

وللاشكال الجديدة لاستهلاك السلع والخدمات، ولكن نموها متضخم بصورة مَرَضية.

ومثل هذا النمو للعاصمة يسمى احيانا بـ«العمران الزائف». فهو نمو كمي لا يتواءم مع النمو الكيفي لوظائفها الاجتماعية ـ الاقتصادية. وبمعنى من المعاني فهذا نمو لشريحة طفيلية في البنية الاجتماعية للمدينة على حساب البلاد بأسرها. فمصر تعيش من اجل القاهرة وليست القاهرة هي التي تعيش من اجل مصر.

ومن حيث الثقل الثقافي والسياسي والاقتصادي تطغى القاهرة على مصر كلها. ولو احصينا الاجور التي تنفق في القاهرة، ومجالات الخدمات، والمواصلات، وعدد العلماء والمهندسين والاطباء، فسوف يكون ثقل القاهرة اكبر بكثير مما لو وضعنا في اعتبارنا الحسابات السكانية البحتة. ففي القاهرة يتركز خمس سكان مصر وثلث الموظفين ومن النصف إلى اربعة اخماس الاطباء والمهندسين، اذا لم نحسب حساب المهاجرين للعمل في الخارج. وقد أدى تمركز الكوادر والادارة في القاهرة وغيرها من المدن إلى حرمان الريف المصري من كثير من الاجهزة والخدمات.

لقد افرخ الاقطاع المصري في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين نوعا من الاقطاعيين الغائبين، الذين كانوا يعيشون في القاهرة او الاسكندرية، وهناك يربون اطفالهم ويعلمونهم وينفقون اموالهم التي تأتيهم من ريع املاكهم الزراعية. وانقسم المجتمع المصري بين المدينة التي تنفق والقرية التي تنتج. وحتى في الثمانينات فما زال الاقطاعيون وجزء كبير من البرجوازية الريفية يفضلون انفاق اموالهم في العاصمة، اما على شراء سلع استهلاكية اغلى ثمنا واما بتحويل النقود الى اقربائهم الذين هجروا الريف.

وفي عهد الرئيس عبد الناصر بدأ في مصر تشييد مراكز صناعية على امتداد النيل: في نجع حمادى (مجمع الالومنيوم) وفي أسوان (الصناعات الكيماوية) وفي حلوان (مجمع الحديد والصلب) وغيرها. كما تطورت منطقة قناة السويس التي هدمت اثر عدوان ١٩٦٧ ثم أُعيد تعميرها. وجرى تشجيع الصناعات المحلية والفن

الشعبي والفنون عامة. وقد ادى ارتفاع اسعار الأرض في القاهرة بصورة خرافية وازدياد اجور الايدي العاملة في السنوات الاخيرة إلى ابعاد جزء من الصناعات باتجاه الاقاليم، بيد ان الوضع بصفة عامة لم يتغير، اذ ان العاصمة لا تتفوق او تسيطر فحسب على البلاد بل وتقهرها قهرا.

ان المجتمع المصري تكوّن تقليديا وفق مبدأ القاعدة العريضة المنخفضة والقمة الضيقة المرتفعة عاليا، ولا توجد هناك تقريبا طبقات او فئات وسيطة. وفي العصر الحديث ايضا لم تعرف مصر ولا تعرف تقريبا ما يسمى في الغرب بـ«الطبقة الوسطى». فقمة المجتمع المصري كانت جماعة من كبار الاغنياء يعيشون على حساب القاعدة المتكونة من الفلاحين الاجراء الفقراء او المعدمين او اشباه البروليتاريا. وقلّص العهد الناصري ملكية كبار ملاك الاراضي، ولكن في عهد السادات ظهرت فئة «الاغنياء الجدد» في قمة الهرم، وهي الفئة التي تكدس ثرواتها مباشرة او غير مباشرة من عرق الفلاحين والعمال.

وفي مجال التعليم تقوم نفس البنية الهرمية بدون «الطبقات الوسطى». فمصر تكاد تكون اكثر الدول النامية رقيا من حيث نسبة الحاصلين على تعليم عال. وفي الوقت نفسه تعتبر نسبة الامية في مصر من اعلى المستويات. وقبل الثورة كانت مصر تنفق على التعليم العالي ضعف ما تنفقه على التعليم العام والمدارس المهنية. وقد تغير هذا الوضع قليلا ولكن دون تحول جذري. وهكذا نشأ في التعليم ايضا نظام يقوم فيه الرأس الكبير على جسد هزيل وسيقان ضعيفة.

وفي أحوال غير نادرة فاق دور مصر الدولي امكانياتها الحقيقية. فقد كانت طموحات الحكام اقوى من عتادهم. وكثيرا ما كانت مصر تنفق على الخارج اكثر مما تنفق على الداخل. لقد كان الرأس الكبير يحاول دفع الجسد الهزيل والسيقان الضعيفة إلى التحرك وكأنما الجسد جسد عملاق جبار.

وفي عهد عبد الناصر كانت القاهرة بمثابة عاصمة غير رسمية للعرب جميعا. وفي هذا الصدد عاد عليها وضعها الجغرافي بل وحجمها الكبير بالنفع. ولكن في

عهد السادات ظهر بصورة مجسمة الخلل بين العاصمة الضخمة وبقية البلاد التي كانت بمثابة ضاحية.

ولن نبالغ اذا قلنا ان مصر هي القاهرة. والمصريون يطلقون كلمة «مصر» (باللهجة العامية: مَصْر) على القاهرة وعلى البلاد معا. فالمساحة المسكونة في مصر جد قليلة، ولذلك تصبح مصر كلها مثل ضاحية «للمدينة العملاقة»، خاصة اذا وضعنا في الاعتبار ان القاهرة والاسكندرية قد تحركت كل منهما نحو الاخرى، اذ ظهرت حول القاهرة عدة مدن تابعة، بينما اقتربت منطقة قناة السويس منها بفضل شبكة الطرق الحديثة. والقرى التي كثرت فيها المنازل المتعددة الطوابق والتي لا يعمل اكثر من نصف سكانها في الزراعة تزيد هي الاخرى من الاحساس بطغيان العمران والمدن الضخمة في مصر كلها.

ان النسبة بين العاصمة وبقية البلاد هي تقريبا كالنسبة بين القصور والمعابد والاهرامات في مصر القديمة وبين البيوت الطينية لبسطاء المصريين. فالمركزية المطلقة وسيادة مدينة واحدة كانت مجرد تعبير اداري وحضري عن البنية الاقتصادية والاجتماعية لمصر. وكانت سماتها المميزة هي استغلال السكان جماعيا من قبل السلطة الحاكمة، وتوزيع الدخل من اعلى إلى أسفل، والاستبداد السياسي والبيروقراطية الجبارة.

لقد تميزت مصر دائما بجهازها البيروقراطي الكبير. فمنذ ايام الفراعنة والدولة تؤدي وظيفة موزع اعمال الري إلى جانب وظائفها الاخرى، مما ادى إلى ظهور جيش من الموظفين. ولكن البنية البيروقراطية، بالاضافة إلى الغرض الوظيفي من وجودهلة كانت ذات قدرة على حماية النفس وعلى «اعادة الانتاج الموسعة» للذات. فكان الموظفون يتكاثرون جيلا اثر جيل ويعيشون لا من اجل المجتمع بل من اجل انفسهم وعلى حساب المجتمع وفوق المجتمع. وكثير من المؤرخين والباحثين الاجتماعيين يعتبرون البيروقراطية المصرية في عهد الدولة الجديدة - الالف الثاني قبل الميلاد - اصلا لجميع البيروقراطيات الحديثة. والظاهر ان سيكولوجية الموظفين ذاتها بدأت تتكون في ذلك الزمن السحيق البعيد عن زمننا بعدا لا يصدق.

وفي مصر القديمة كانت كلمات: الاداري، الموظف، صاحب السلطة تعتبر من المترادفات. وهي كذلك إلى حد ما في عصرنا الراهن. ولنتذكر رسالة الكاتب الموظف في مصر القديمة إلى ابنه: «ان نقّاش الحجر يصادف احيانا حجارة قاسية... والحلاق يمارس عمله حتى في ساعة متأخرة من الليل... والبستاني ينقل اشياء ثقيلة ولذلك تؤلمه يداه وعنقه... والفقير الذي يعمل في الحقل لا يرتاح ابدا من عمله الشاق... وحظ الناسج العامل على نوله اسوأ من حظ المرأة، وحظ الرجل الذي يعبّد الطريق بالحصى اسوأ الحظوظ، فهو دائما يطلب الصدقة... وذلك الذي يغسل ثيابه على شاطئ النيل يقف قريبا من التماسيح. فانظر، ان مهنة الكاتب وحدها هي التي تخلصك من العمل الشاق».

أليس الموظف البيروقراطي المصري المعاصر مستعدا لتكرار نفس هذه الكلمات؟

لقد كانت العاصمة، وهي المركز العسكري السياسي والحرفي والتجاري لمصر دائما، مركزا ايضا للجهاز الاداري البيروقراطي. وكانت القاهرة مدينة للموظفين، والموظف في مصر تمتع دائما بالهيبة اكثر مما في الغرب، وكان اجره دائما افضل من غيره. وقد تنهار اسعار القطن ويفلس الفلاحون، ولكن القاهرة تعيش حياة مزدهرة بفضل اجور الموظفين الثابتة، بل وتكسب من انخفاض اسعار السلع الزراعية. وفي عهد الملك فاروق كان نصف النفقات الحكومية يخصص لصرف رواتب الموظفين. وكان للحكومة وسلطة الدولة في مصر دائما هيبة كبيرة وكانت تثير الرهبة اكثر مما تثيره الحكومات في البلدان ذات النظم البرلمانية. وكان بريق السلطة العليا ينعكس كذلك على الموظف الذي يمثل التجسيد الحي للجهاز الحكومي، وكان الشبان من خريجي الجامعات يتسابقون على الالتحاق بفئة الموظفين طمعا في الامتيازات التي تتمتع بها، فكانت نسبة الموظفين ذوي المستوى التعليمي العالي نسبيا في الجهاز الحكومي المصري أعلى مما في الدول الغربية المتقدمة، الامر الذي ضاعف من وزن وهيبة البيروقراطية في مجتمع تنتشر فيه الامية. وظهر في مصر تعارض بين «الميري» ـ أي كل ما يتعلق بالدولة ـ

وبين «لطين»، أي كل ما يتعلق بالارض والهموم المرتبطة بحياة الكد.

وفي الثلاثين ـ الاربعين سنة الاخيرة حدث في مصر، وبالتالي في القاهرة ـ تضخم سريع للغاية للجهاز البيروقراطي. وقد حدث ذلك من جهة لانه كان لا بد من ايجاد عمل لخريجي الجامعات والمدارس حتى لا يتحولوا إلى شريحة متمردة تهدد بالخطر، ومن جهة اخرى لان نمو القطاع العام في الاقتصاد أدى إلى ظهور الدمّل المعهود: البيروقراطية الواسعة العاملة في الشؤون الاقتصادية والمالية.

ويبلغ عدد اصحاب الاجور في الدولة، بما في ذلك العمال والمعلمين، حاليا حوالي ٢,٥ مليون شخص، منهم حوالي مليون يتمركزون في القاهرة الكبرى. والجزء الاكبر من هذا المليون هم الموظفون بالمعنى المعهود لهذه الكلمة. ويقول الباحث المصري الدكتور جمال حمدان بمرارة في دراسة له عن الجهاز البيروقراطي في القاهرة: «كلما ازداد عدد الموظفين انخفضت كفاءتهم» ويقترح بحسم «وضع حد لتكاثر البيروقراطيين، فذلك هو الحل الوحيد!».

ويبقى اقتراحه صرخة من قلب مصري معذب. اما جميع القرارات، بما فيها القرارات الثانوية التي تخص الاقاليم، فما زالت إلى الآن تصدر في القاهرة. ولحل ابسط مشكلة ينبغي السفر من الاقاليم إلى القاهرة. ومن الممكن اغراق أي مسألة في بحر الاوراق أو نقلها من مكتب إلى مكتب ومن طاولة إلى طاولة. هذا اذا لم يكن لديك مرشد كفوء في متاهات البيروقراطية وكيس نقود محشو باوراق البنكنوت الجديدة والتي تفتح لك جميع الابواب وتضع كافة التأشيرات المطلوبة على كل الأوراق في غمضة عين، وذلك لان الجهاز البيروقراطي مرتش بقدر ما هو عديم الكفاءة. واذا كان الموظفون في حلقاته الدنيا يأخذون جنيها أو خمسة جنيهات مقابل وضع التأشيرة في الجواز أو استخراج أي شهادة تافهة فالرشاوي في مستوياته العليا قد تبلغ عشرات الملايين.

ويوم العمل لدى الموظف المصري يبدأ بتناول فنجان القهوة التركية أو الشاي مع كوب ماء وقراءة الصحف. ويقوم الساعي باعداد القهوة والشاي تحت الدرج أو في احدى الغرف الخلفية ليزيد بذلك دخله المزري بتقديم المشروبات «للافندي»

الجالس على مكتبه. ويتلخص عمل الموظف في قضاء ساعات العمل المحددة والتنصل من حل المشاكل لا محاولة البت فيها. فاذا ما راح احدهم يعمل بهمة تنهال عليه السخريات ويعتبر من معكري الصفو العام. اما الحديث عن واجبات الوظيفة والمصالح العليا فيستخدم للتستر على الدسائس والمكائد والعلاقات الاشبه بعلاقات المافيا وعلى الصراع من أجل المناصب المريحة ـ وتعتبر صلات القرابة والولاء الشخصي القوة المحركة الرئيسية للموظف في صعوده على سلم الوظيفة.

وها هو المؤذن يؤذن لصلاة الظهر، فينزع الموظفون احذيتهم، ويصطفون مستقبلين الكعبة في الممرات وغرف المكاتب، مظهرين بذلك حرصهم وغيرتهم على الدين. اولئك الذين يحملون في جباههم «زبيبة» داكنة اللون من كثرة السجود يعتزون به اعتزازهم بوسام حربي.

وتنتهي الصلاة فيعود الموظفون إلى تناول الشاي والقهوة، ثم تحل فترة الغذاء التي تمتد ساعة أو ساعتين، اما بعد الظهر فمن المستحيل ان تجد احدا من المسؤولين في معظم المكاتب.

وتنصب العجرفة البيروقراطية والتعالي على رؤوس الاهالي المساكين اصحاب الشكاوى. فهنا يستعرض الموظف ماذا يكون «الميري» وماذا يكون «الطين». ويا لها من لهجة متعالية، ويا للاهلية التي يتظاهر بها، وكم هو مشغول بشؤون الدولة! اما اسلوب عمله فهو: التهرب من حل المشكلة، ودفع الشاكي إلى الحضور مرة ثانية وثالثة، والاجابة بـ«لا» قبل النظر في الموضوع. ولن تستطيع استدرار رحمة «موظف الحكومة» الا بورقة مالية ذات قيمة مناسبة.

ان غياب المسؤولية الفردية وتوزيعها بين عدد كبير من الاشخاص والحرص على ان يكون الجميع مسؤولين عن الامر الواحد وبالتالي فليس هناك مسؤول... ذلك هو الاساس الذي يعمل عليه ـ او بالاحرى لا يعمل ـ الجهاز البيروقراطي. ويقترن سحق روح المبادرة بالايمان بالتعليمات كترياق يشفى من كل العلل. فاذا ظهرت مشاكل وتعقيدات فلا بد اذن من تعليمات جديدة، يصدرونها بكل «الحماس

الاداري». ولو اتبعت هذه التعليمات حرفيا لتحول الكبار إلى أطفال صغار، ولكنهم لحسن الحظ ينسونها بنفس السرعة التي اصدروها بها.

ويبقى الجهاز الحكومي المصري محصنا ضد الرقابة الشعبية. وتضطر السلطات العليا إلى مراعاة المصالح الخاصة لهذا الجهاز. وقد غرق الكثير من اصلاحات عبد الناصر في روتين البيروقراطية وأحبطها التخريب السافر من جانب جهاز الدولة، اما طفيلية الطبقة الحاكمة في عهد السادات فقد ضاعفت منها طبيعة البيروقراطية المصرية ذاتها.

ومهما يكن من أمر البيروقراطية المصرية فلندعها الآن وشأنها ولنعد إلى القاهرة.

لو كان لديك ما يكفي من القوة والطاقة فتجولت في انحاء هذه المدينة الضخمة وارجائها، لروت لك احجارها وتماثيلها وآثارها الكثير عن التاريخ العاصف الخصب بلا حدود لهذه المدينة العريقة. فاذا مضيت من ناطحات السحاب الصغيرة عبر الحدائق المنقولة عن حدائق شوارع باريس في النصف الثاني من القرن الماضي، متجها إلى متاهات حواري وأزقة الغورية في قاهرة العصور الوسطى ومصر القديمة، وأينما وليت وجهك فستجد هنا وهناك جواهر متفرقة أو مجموعات منها في صورة أروع آيات العمارة. ولكن درب الفضول والمعرفة أو المتعة الجمالية قد جذب إليه عددا لا يحصى من الرحالة والعلماء، فتركوا لنا من المذكرات ما يجعل المرء غير راغب في تكرار ما قطعوه من شوط.

سأقول فحسب انه مثلما أصبح برج ايفل عن غير وجه حق رمزا لباريس، كذلك اصبحت قلعة محمد علي، المشيدة في عهده، بطاقة سياحية للقاهرة، وايضا عن غير وجه حق. فالقلعة ومسجدها هي نسخة طبق الاصل عن مساجد اسطنبول بمآذنها الاشبه بالحراب وصحون قبابها المقلوبة. اما النموذج الذي اخذت عنه المساجد التركية فهو مسجد ايا صوفيا في اسطنبول. وكان المصريون منذ العصر الفاطمي وخاصة منذ العصر المملوكي قد توصلوا إلى اسلوبهم الخاص في عمارة

المساجد، وهو الاسلوب الذي يجمع بين المآذن ذات الزخارف المعقدة المحفورة في الحجر وبين قاعات الصلاة المستطيلة. والمساجد المصرية حتى يومنا هذا تكرر نماذج ذلك العصر.

بيد انه باستثناء مساجد العصور الوسطى، والمدارس الدينية القديمة والخانات و«السبل» (جمع سبيل)، يصعب ان نجد اسلوبا معماريا «مصريا» او «قاهريا». فالنزعة العصرية تطبع كل شيء بطابع الكسموبوليتية والوظيفية المجردة. ففنادق «الميريديان» و«هيلتون» و«شيراتون» يصعب ان تميزها عن اشقائها في العواصم الاخرى. وانعكاس رسم الجزء الاوسط العصري من مدينة القاهرة على خلفية سماء الغروب القرمزية لم يعد هو المآذن والقباب بل مستطيلات المباني العالية التي توشك ان تصبح ناطحات سحاب. وقد تزاحمت هذه المباني على شاطئ النيل في منطقة الجزيرة وإلى الجنوب منها. ولا نستطيع ان ننكر رشاقتها وانسجامها الموفق مع امواج النيل العظيم ومع ادغال النخيل التي تبدو اشبه بالزهور المنزلية عند اقدامها. وقد اندمجت في المنظر العام لمدينة القاهرة، ولكن طرازها المعماري طرازعالمي. اما الأحياء الجديدة المشيدة من الكتل الخرسانية الرمادية في ضواحي المدينة فلا تحتاج لمزيد من الكلام.

ومع ذلك فسأكرر القول المعتاد: القاهرة مدينة المتناقضات. وأضيف من عندي: ان تناقضاتها حادة حدة التناقض بين صفرة رمال الصحراء وخضرة وادي النيل، بين الاضواء والظلال، بين الحياة والموت، بين الماء واليابسة، بين القصر الغارق في الزهور في الجيزة والكوخ المصنوع من الخرق البالية في مصر القديمة، بين الممتطي ظهر حمار والمتربع في سيارة «مرسيدس».

والقاهرة تنمو وتتشعب كالصبّار. ليس هذا فحسب، ولكنها تنتفخ وتغص بالسكان بصورة تفوق كل المعدلات المعقولة. وزحامها البشري ضاغط، تحس به احساسا جسديا والشوارع غاصة بالبشر من الصباح إلى المساء وكأنها تشهد مظاهرات مستمرة. وعبر الكتل الكثيفة تشق طريقك بصعوبة.

وساعة الذروة في شوارع القاهرة تمتد من الصباح إلى وقت متأخر في

المساء. وتقتنع غير مرة بأن السير على القدمين في نزهة غيرة سارة ولمسافة غير قصيرة تحت شمس افريقيا من الجزيرة إلى وسط المدينة هو اسرع من ركوب السيارة التي سيكون عليك، علاوة على ذلك، ان تقضي نصف ساعة بحثا عن موقف لها. وبدأت تظهر في الشوارع طوابق ثانية... كباري علوية احيانا من طابقين. وقد خففت مؤقتا من ضغط الحركة في الطرق الرئيسية، ولكن احيانا تقابل فوق الكباري نفسها «ذيولا» من السيارات تمتد لعدة كيلومترات، بينما تسمم غازات العادم سكان الطوابق الاولى في المنازل الواقعة على جانبي الكباري والتي تبدو وكأنها تسبح في ضباب أزرق. ان نسبة الغازات السامة في وسط القاهرة تبلغ درجة عالية من التركيز حتى انك لتشعر اذا تجولت فيها طويلا، بالغثيان الذي يصيب الانسان في حالة التسمم، وقد رأيت بعيني بعض الاجانب مرتدين اقنعة واقية.

وباصات القاهرة مزدحمة إلى درجة تفوق الوصف، ولا يسعك الا ان تدهش من انها تستطيع ان تتحرك. ويتعلق الركاب بدرجات الباص ويجلسون في النوافذ. والمحصل يشق طريقه بينهم، تارة داخل الباص وتارة خارجه، ويأتي بحركات بهلوانية بارعة، متمكنا من تحصيل الاجرة وقطع التذاكر. وما أن تصل هذه الكتلة المائلة الهابطة إلى مكان خال من الشارع حتى تنطلق بسرعة كبيرة ثم تعود بعد لحظات إلى الوقوف عند تقاطع الطرق حيث يتساوى في زحمة المرور سيارة الليموزين الفارهة وباص الركاب بل وحتى الحمار الذي يجر عربة.

ولا يزال الحمار يمثل وسيلة نقل منتشرة في هذه المدينة الضخمة. وعندما كنت طالبا في القاهرة كنت ارى قوافل الجمال التي يسوقها السودانيون على الشاطئ الغربي للنيل إلى سوق الجمال الشهير، واحيانا أرى جمالا محملة بالخضروات والفواكه. اما الآن فقد اختفت الجمال تقريبا من شوارع القاهرة ولكن الحمير بقيت ويستخدمها جامعو القمامة الذين يجمعون وينقلون مخلفات المدينة العملاقة ويقومون بتصنيفها لاستخدامها مرة ثانية وثالثة في الاحياء التي يقطنها المعدمون. وقد تأتي اسرة فلاحية بكامل افرادها الى القاهرة للتسوق على ظهر

عربة ملونة يجرها حمار، وفي الليل وقرب الفجر يحمل الفلاحون على ظهر العربات التي يعلق فيها مصباح خضرواتهم إلى سوق الخضار في القاهرة: البقدونس والكسبرة والكرات والشبت والخس والجرجير. وبفضل ما تتمتع به الحمير من هدوء وصبر وفطنة فانها تمضي غير عابئة بحركة المرور وزحام السيارات.

والحمار هو اقدم حيوان نقل في الشرقين الاوسط والادنى، وسبق استخدامه ظهور الخيول والجمال. ويرى رجال الاقتصاد ان الحمير تستهلك الكثير من العشب ومن الافضل للفلاح ان يقتني حيوانا آخر اكثر توفيرا وانتاجية، اما اهل المدن فعليهم ان يستخدموا الدراجات النارية. ولكن كيف يفترق الفلاح عن هذا المساعد المريح البسيط؟ ومن أين للناس بالنقود لشراء الدراجة النارية؟ أليس من الأسهل شراء دراجة عادية؟

وراكبو الدراجات في القاهرة نوعان: فريق ادرك منذ زمن طويل انه من الاسهل والاسرع الوصول إلى العمل باستخدام عضلات الساقين مما لو استخدم طاقة البنزين المحترق. وهذا الفريق من الناس يتميز بنوع من الهدوء والانضباط. اما الفريق الآخر فهم السعاة والموزعون وصبيان المطاعم والمقاهي الذين يستطيعون حمل صينية مملوءة بأطباق الكباب الساخن او فناجين القهوة واكواب المياه او كعك السميط ويناورون بحملهم في براعة بين طوابير السيارات التي بحت زماراتها من كثرة الزعيق وكأنهم يسيرون بدراجاتهم في شوارع خالية. وساعي البريد يضع على مؤخرة الدراجة حقيبته الثقيلة، وبائع الخضروات ينقل طلبيات الزبائن من الخضروات والفواكه، وصبي المكوجي يحمل إلى الزبون بدلته المكوية النظيفة.

وانا لم ار حركة مرور اكثر اضطرابا وفوضى مما في القاهرة. ان اسطنبول وطهران المهملتين تبدوان بالمقارنة معها رمزا للانضباط والنظام. وقد حاولت ذات مرة اثناء ساعة الذروة ان اسير بسيارتي في شارع من شوارع القاهرة ذي اتجاه واحد، واذا به غاص بالسيارات القادمة من الاتجاه المضاد. ووقف كل مخالفي قواعد المرور بحسم ضدي انا الذي حاولت التقيد بها. وتراجعت اذ ادركت انه ينبغي ان يتبع المرء في كل بلد عاداته وقواعده وان يخضع ايضا لعدم وجودها.

ان الانعطاف بالسيارة مع وجود اشارة تمنع ذلك امر عادي تماما. فاذا اوقفك شرطي المرور مد إليك يده بكل بساطة فتلقى انت في راحته بقطعة نقود. ورجال الشرطة في مصر ليسوا مثل جنود الامن المركزي المخصصين لقمع الشغب. ورواتبهم منخفضة إلى درجة ان قطعة النقود من فئة الخمسة قروش تعتبر اضافة ملموسة إلى دخلهم.

وحوادث الطرق كثيرة، ولكنها في الغالب لا تسجل في الاحصائيات، فأهل القاهرة لا يحبون تسجيل الحوادث في محاضر الشرطة. والانقاذ من فوضى المرور هذه يتمثل في عدم وجود سائقين سكارى على الاطلاق وفي سرعة ردود الفعل لدى السائقين. ومع ذلك تشعر بالتوتر اثناء قيادة السيارة في القاهرة، فأنت تظل تفكر بأنه ستخرج لك من هذا الشارع الجانبي سيارة مندفعة او عربة يجرها حمار. وعدم انضباط السائقين يفاقم من زحمة المرور.

اما ترامات القاهرة فهي بلا جدران وبلا نوافذ ومحملة بالناس فيما يشبه العناقيد! اما قطارات الضواحي، مثل قطار حلوان - باب اللوق، فتبدو مثل قطاراتنا في بداية العشرينات الغاصة بالبشر داخلها وخارجها وفوق اسطحها!

ان القاهرة بحاجة ماسة إلى مترو أنفاق. وقد تأجل بناؤه عشرات السنين بسبب قلة الموارد. ولكن البناء بدأ اخيرا في الثمانينات. وقد بدأ تشغيل الخط الاول للمترو في اكتوبر عام ١٩٨٧.

لاحظت في زيارتي الاخيرة للقاهرة ان حركة المرور اصبحت اكثر انضباطا إلى حدما. ولم تعد الخمسة قروش تجدي نفعا في حالة المخالفة الخطيرة، بل فرضت غرامات رهيبة تصل إلى خمسين ومائة جنيه! وظهرت تاكسيات الخطوط التي لم يكن لها وجود من قبل، وازداد عدد الباصات. ولكن الوضع في واقع الامر لم يتغير الا قليلا.

ان عذاب المواصلات ليس الا جانبا من الصورة. فقد شيدت جميع مرافق القاهرة انطلاقا من ان الحد الاقصى لسكان المدينة سيبلغ ثلاثة ملايين نسمة.

فمياه الشرب لا تكفي. ولا توفر مضخات الضغط وانابيب خطوط المياه ما يكفي لحاجة المدينة الضخمة رغم ان النيل على مرمى ذراع. وفي احيان كثيرة تتدفق من الانابيب مياه قذرة لان منشآت التنقية قديمة متهالكة او لا تعمل بالطاقة الكافية.

ومياه النيل رائعة اذا ما تمت تنقيتها. ولهذا يكثر الآن في منازل الاثرياء اقامة اجهزة تنقية فردية. لقد كانت «القلّة» بالنسبة لنا في ايام التلمذة بمثابة «الثلاجة» و«المرشح». وترشح المياه على جدران القلة ثم تتبخر فتبرّد الماء داخلها وتحافظ على برودته المنعشة باستمرار وخاصة في ايام القيظ. وتنتشر القلل في جميع انحاء مصر. وتوضع في القاهرة ازيار في كثير من مداخل البيوت ليرتوي منها المارة ويغرفون الماء بعلبة من الصفيح موضوعة بجوارها بدلا من الكوز.

ان انتشار العمران والتصنيع يؤدي إلى تلوث النيل. وبالمقارنة مع الراين او المسيسيبي يبدو النيل نهرا بكرا شديد النقاء، رغم ان بقع الزيوت الصناعية تسبح في مياهه. وليس في القاهرة بعد اماكن ملوثة مثل بحيرة مريوط الوردية الساطعة التي لوثتها المصانع الكيماوية في الاسكندرية. بيد ان انابيب المجاري في القاهرة لا تجري فيها مياه الآبار ابدا.

ومصر مهددة بتلوث بيئتها. ويحمل هذا التهديد طابع الخطورة خاصة وان التوازن هنا هش للغاية بين الارض الزراعية التي فلحها الانسان وبين الصحراء. وبفضل السد العالي لا يزال النيل يعطي بانتظام حتى الآن من المياه ما يكفي لسد حاجة المدينة العملاقة والزراعة. ولكن هل سيكون في قدرته سد حاجة مصر بعد عشر او عشرين سنة؟

والقاهرة تنمو بسرعة وتنقض باحيائها الجديدة على الصحراء، وعلى الحقول ايضا للاسف. ومع ذلك فالمساكن لا تكفي، ولن تكفي خلال الخمسين عاما القادمة على الاقل. وهناك شقق تطل على النيل في عمارات بها حمامات سباحة فوق السطح، وثمن الشقة نصف مليون جنيه وتبقى سنوات في انتظار من يشتريها من الاغنياء الجدد المحليين او من الامراء السعوديين. ومع ذلك فكل يوم - وانا لا ابالغ -

تنهار البيوت البالية المكتظة على رؤوس ساكنيها في بولاق او العجوزة او السيدة زينب. ففي القاهرة ثلاثمائة ألف مسكن في حاجة إلى التصليح العاجل، ولكن معظمها لن يتم تصليحه ابدا. والناس لا يغادرون المنازل الايلة للسقوط ذلك لانه لا توجد مساكن اخرى، واذا وجدت فبأسعار لا يقدرون عليها.

وثمة قوانين تحد من الايجار، وهناك ضرائب عالية على دخل اصحاب العقارات السكنية، ولكن هناك ايضا «خلو الرجل». فأنت مضطر إلى دفع مبلغ معين لصاحب الشقة (اذا شئنا الصدق فهي رشوة) من أجل ان يسمح لك باستئجارها. وهذا المبلغ لا يسجل بأية وصولات وكثيرا ما تزيد قيمته عن قيمة ايجار الشقة لمدة ثلاثين شهرا.

وفلاحو الامس يسكنون اينما كان وكيفما كان. ولا تستطيع مثلا ان تقول ان «القاهرة محاطة بالعشش»، لأن العشش موجودة في قلب القاهرة وفي اطرافها. وهي تزحف على الاحياء الراقية. ولما كان المطر لا يسقط في مصر تقريبا فقد احتلت عائلات باسرها من المشردين اسطح المنازل الفاخرة، وهم يؤدون للبواب شتى الخدمات مقابل السماح لهم بسكنى السطح. وحتى لا تقع عليهم أعين السكان يصعدون عبر سلالم الخدم ويقيمون وسط الصناديق القديمة وقطع الصفيح الصدئة. وكثير ما يربون هنا عنزا او دجاجا، بل وقد يزرعون حديقة خضروات في صناديق مملوءة بالتربة ولا داعي للدهشة اذا ما سمعت في هدأة الفجر في الزمالك أو ميدان الاوبرا صياح ديك او ثغاء عنز.

ان «مدينة الموتى» المصرية، مثوى الخلود والطمانينة الابدية وأرض الدعوات والاحزان، قد لفتت انتباه الكاتب الروسي الكبير ايفان بونين في حينه. ولكن «مدينة الموتى» الواقعة على يسار الطريق القادم من مطار القاهرة الدولي اصبحت الآن احد احياء القاهرة المكتظة بالسكان. ففي تلك المقابر غرف صالحة للسكنى، ومن ثم راح الاحياء يزاحمون الموتى. في البداية اندفع إلى هنا المهجرون من منطقة قناة السويس التي تحولت بعد العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ إلى جبهة قتال فيما عرف بـ«حرب الاستنزاف». وبحلول السلام بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ عاد جزء منهم إلى

بورسعيد والاسماعيلية والسويس بينما بقي الآخرون، واحتل سكان جدد اماكن الراحلين. ويبلغ سكان «مدينة الموتى» حاليا ثلاثمائة وخمسين الف نسمة، وبها خطوط باصات، وكهرباء، وخط انابيب مياه ومدارس.

لقد تبدد سكون المقابر في صراخ ابواق السيارات المزعج وصياح باعة الخضروات او الحلوى وزعيق الصبية وصخب الجمهور. وتوجد في «مدينة الموتى» ورش صغيرة جدا ودكاكين، وبعض اقرباء الموتى من الاثرياء يدفعون اجورا للعناية بمقابر ذويهم فيكفلون بذلك دخلا ضئيلا لبعض سكان المقابر. غير انه لا توجد هنا مدخنة واحدة يتصاعد منها الدخان، ولا ورشة ذات قيمة يمكن ان نسميها «مشروعا». فكيف يعيش معظم سكان المقابر وغيرهم من سكان العشش؟ ان الاجابة على هذا السؤال توجد بالنسبة لي عند حدود الغيبيات الغامضة. فمن الأسهل ان تشرح كيف يعيش شحاذو القاهرة من ان توضح ما هي الوسيلة التي يكسب بها قوت يومهم هؤلاء الذين يطلق عليهم «البروليتاريا الهامشية»: من المعدمين واشباه البروليتاريا واشباه العاطلين عن العمل والاشخاص الذين ليس لهم مصدر دخل ثابت.

ان ثلثي القادرين على العمل من سكان القاهرة ليس لهم مهنة محددة. وخمسهم يعمل في قطاع الخدمات، والعشر فقط يعمل في المؤسسات الصناعية والورش.

وانتشار العمران في مصر، كما في عشرات البلدان الاسيوية والافريقية، يسبق انتشار التصنيع، وهو وضع معاكس للوضع الذي مرت به اوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين. فالفلاحون المعدمون يقذف بهم إلى المدن، وهناك لا يجدون لانفسهم عملا مستقرا فينضمون إلى صفوف «البروليتاريا الهامشية». وحتى تتجنب السلطات انفجارا اجتماعيا فقد تراجعت جميع الحكومات ورضخت لضغوط هذه الكتلة.

والمؤسسات والمصالح الحكومية والشركات مكتظة بالعمال والكناسين والقهوجية والبوابين والحراس الذين لا حاجة إليهم. وزيادة الانفاق على الرواتب

تؤدي إلى خفض ربحية الانتاج، وتقضي على امكانية حفز العمال وتشجيعهم ماديا. ولكن في مقابل ذلك يضعف التوتر الاجتماعي ويحصل المهددون دائما بالبطالة على كسرة خبز. اما الموظفون الزائدون عن الحاجة في المؤسسات البيروقراطية فحدّث عنهم ولا حرج!

ان دعم اسعار بعض السلع مثل الخبز والزيوت النباتية والسكر يتيح امكانية الافلات من الموت جوعا حتى لاكثر المعدمين فقرا. ولذلك تجدهم يفضلون قضاء الوقت في المدينة دون عمل على الكد الشاق في القرية مقابل اجر زهيد. ان عددا كبيرا من «الهامشيين» الحضر مضطرون إلى التطفل، ومكمن الخطورة هنا انهم يألفون نمط حياتهم هذا.

وفي زحام القاهرة تلقي الشحاذين الملحفين الذين يلحون في طلب الحسنة (البقشيش). ونادرا ما تجد وصفا لمصر بقلم احد الاجانب الا وفيه تعبير عن الضيق منهم. ورغم اني ادرك من الناحية الانسانية هذه المشاعر واشاطر اصحابها اياها إلى حد ما، فبودي ان اوضح ظاهرة الشحاذة الشاذة التي لا ترجع إلى اسباب اجتماعية فحسب. فكثير من المسلمين على يقين من ان الشحاذة ليست رذيلة وليست عارا. افليس عمل الخير ركنا من اركان الاسلام؟ ولذلك فطلب الصدقة هو نوع من المساعدة للاغنياء على اداء واجبهم الديني. ولا ينبغي ان تشكر مقدم الصدقة على ما قدمه بل تشكر الله. ان البطالة الاضطرارية التي تستمر اعواما تولد سيكولوجية الطفيلية الاجتماعية والصعلكة في قاع المجتمع، وتجد لها تبريرا سهلا في الطفيلية السافرة لجزء كبير من «أهل القمة».

ومن الاساليب الشائعة للحصول على البقشيش التظاهر بأداء خدمة من الخدمات، كأن يصبح الواحد من هؤلاء «مرشدا» لك في جولتك أو في التسوق، او يمسح لك زجاج السيارة، او يقف نصف ساعة «حارسا» عليها. وفي الاماكن التي يصعب فيها العثور على مكان خال لانتظار السيارات تجد الشوارع مقسمة عمليا إلى مناطق نفوذ بين هؤلاء «الحراس»، وهم يراقبون بدقة اصحاب السيارات

«المحروسة» بحيث لا يغادر احدهم مكان الانتظار الا بعد ان يضع القروش الخمسة في راحة احدهم.

وكثيرا ما يصبح الاجانب بصفة خاصة هدفا لالحاف الشحاذين، فهم يعرفون ان القادم من وراء البحر إلى القاهرة ليس فقيرا، ومن ثم يصبح الحصول على البقشيش الواجب من الديك الرومي الاجنبي السمين مسألة كرامة. وقد تستطيع ان تتخلص من الحافهم اذا قلت بلهجة حاسمة ولكن غير مهينة: «الله يسهّل لك» او «ربنا كريم»، ولكن ذلك لا يفلح في جميع الاحوال.

وعندما كنت طالبا شهدت في عهد عبد الناصر حملة شنتها الصحافة والاجهزة الادارية ضد الشحاذة. اما في عهد السادات فقد خمدت الحملة ولم تستأنف بعد. ان المجتمع يحتفظ في قاعه بالعديد من السكان ويدفع إليه بالمزيد من البشر، وفي الوقت نفسه يقيم المجتمع ويدعم مخففات الصدمات في شكل الاعمال الخيرية والصدقات.

منذ الايام الاولى لعملي في القاهرة اثار اهتمامي حي بولاق. ويقع هذا الحي بين شارع رمسيس المكون من طابقين والمفضي من وسط المدينة إلى محطة السكك الحديدية وبين النيل، ويحده من الجنوب طريق رئيسي هو شارع ٢٦ يوليو، ويتحول في الشمال إلى عشش ضواحي القاهرة. ويمثل بولاق كتلة من المنازل المتداعية ووكرا للجريمة وغرز الحشيش والافيون ودكاكين بائسة وشوارع متربة غير مرصوفة واكوام قاذورات وذباب. واذا كانت القاهرة عموما متاهة فان بولاق جزء من اكثر اجزائها تشابكا وتناقضا وخطورة. والصبية الحفاة الاقدام ذوو البيجامات يلعبون هنا من الصباح إلى المساء بكرة شراب من الخرق، بينما تمتد حبال الغسيل عبر الشارع وتنادي النسوة بعضهن بعضا على عتبات المنازل. ويجلس الرجال بالساعات في المقاهي امام اجهزة التلفزيون ولا يحولون عنها انظارهم احيانا الا على صياح بائع يدفع عربته امامه ويمتدح بضاعته.

لقد ضيّقت القاهرة الحديثة مساحة بولاق. فوراء أبنية مؤسسة «الاهرام» و«الاخبار» الواقعة غير بعيد عن شارع رمسيس تم اخلاء مساحة واسعة بعد هدم

المنازل القديمة وحولت إلى موقف للسيارات، اما بحذاء النيل فترتفع ناطحات سحاب صغيرة انيقة، مكملة حلقة شقيقاتها التي شيدت على النيل إلى الجنوب قليلا. غير ان بولاق نفسه ظل بؤرة للفقر والجهل والغضب المكتوم واليأس.

لقد جمعت مادة خاصة عن سكان بولاق. وقام زميلي ب. ف. بيرمينوف بنفس العمل ونشر نتائجه في كتابه «ابتسامة أبي الهول»، ولذلك سأعتمد على كتابه احيانا في حديثي عن بولاق.

عندما تبدأ في اكتشاف الطبقات التي يتكون منها سكان بولاق يخيل إليك ان السكان، لكثرتهم، قد ضغطوا ضغطا. ولم يحسب احد كم الفا من السكان هنا في الكيلومتر المربع - مائة؟ مائتان؟ مائتان وخمسون؟ وقد حدثتني الباحثة الامريكية اندريا رو عن اهالي بولاق بعينين متسعتين من الرعب، ولكنها كتبت بحثها بموضوعية ودقة. وحسب بياناتها تعيش ٨٠٪ من اسر بولاق في غرفة واحدة، و١٥٪ منها في غرفتين و٢٪ في ثلاث غرف واكثر. ولا توجد كهرباء في معظم البيوت. ودورة المياه كالعادة دورة واحدة في الطابق او في الفناء. وربع المنازل في بولاق غير مزود بالمياه النقية ولا بالكهرباء. وفي ٥٥٪ من المنازل توجد كهرباء ولا توجد مياه شرب، والعكس في ٦٣٪ من المنازل.

وعلى الرغم من ان سكان بولاق لا يعرفون بالاسم سوى جيرانهم المقربين فان روح التكاتف العشائري المأخوذة من الريف نامية لديهم. وقد قالت احدى نساء بولاق للباحثة اندريا رو: «نحن نعيش في بولاق مثلما كنا نعيش في قريتنا. اننا نعرف جيراننا ونساعد بعضنا بعضا». وبالنسبة للكثيرين من سكان بولاق العجائز يعتبر الحصول على المياه مشكلة من اصعب المشاكل، اما المحظوظون الذين لديهم صنابير في بيوتهم فيبيعون الماء للجيران.

ويعاني بولاق من نقص المساكن. فالغرف التي تخلو تسكن على الفور، لأن ايجار الغرف غير المفروشة منخفض. ولكن ظاهرة «خلو الرجل» معروفة هنا ايضا.

اجرت مجلة «الطليعة» اليسارية ذات مرة دراسة اجتماعية ميدانية حول ظروف معيشة الفئات القليلة الاجر من سكان القاهرة. وخلال سنة نشرت المجلة في كل عدد حوارا مع ممثلي فقراء المدينة. واجرت «الطليعة» اول حوار مع العامل عبد التواب، ٣٤ سنة، الذي قال للمراسلين ان اسوأ يوم في حياته يوم قبض الاجر، فهو غارق في الديون إلى درجة انه يضطر إلى توزيع اجره كله تقريبا في نفس يوم صرفه. ويروي عبد التواب همومه قائلا: «عندما يسألونني في البيت هل قبضت الراتب اقول لا، ليس بعد، لأنني وزعته كله» ثم يمضي قائلا: «احيانا يطلب مني ابني ان اشتري له برتقالا او جوافة. ولا يسعني الا ان اقول له: حاضر، ولكنه مؤخرا طلب مني الا اقول له هذه الكلمة ابدا.

وكانت رواية الممرضة نبوية محمد البحر، ٣٧ سنة، ام ثمانية اطفال، اكثر مرارة. كان زوجها يعمل مكوجيا ويحصل على حوالي ١٠ جنيهات شهريا. وتحصل هي في معهد القلب الذي تعمل فيه على اربعة جنيهات و٧٥ قرشا في الشهر.

- كم تدفعين اجر المسكن؟

- مائة وخمسة وسبعون قرشا لغرفة واحدة نعيش فيها جميعا. ننام انا وزوجي والعيال الكبار على السرير، وبقية العيال ينامون تحت السرير.

- هل لديك غرفة مستقلة ام هي غرفة في شقة مشتركة؟

- غرفة في شقة مشتركة. في احدى الغرف تسكن امرأة مع اطفالها وفي الغرفة الثانية امرأة عجوز. والشقة من ثلاث غرف.

- كيف تنفقين راتبك؟

- كل يوم اشتري وانا عائدة للمنزل خبزا. بخمسة عشر قرشا، وبعض الاشياء من السوق.

- هل يدخل اللحم قائمة طعامكم؟

ـ احيانا اشتري بعض الفشة والغتت.

ـ كم مرة في الشهر؟

ـ مرة واحدة.

ـ وماذا تأكلون في الافطار مثلا؟

ـ اسوّي فول واصنع سندوتشات فول واعطيها للعيال الكبار ليأكلوها في المدرسة. واعطيهم ايضا تعريفة لكل واحد. ثم اطبخ للصغار ملوخية او بطاطس عندما لا تكون اسعارها عالية.

ـ وكم تنفقين على الفواكه؟

ـ نحن لا نأكل فواكه.

وعلى هذا النحو تقريبا جاءت اجوبة المصريين الآخرين من سكان قاع المدينة على اسئلة مراسلي «الطليعة».

ويشير ف. بيرمينوف في كتابه المذكور إلى ان الصحفيين الذين أجروا المقابلات قد انتبهوا إلى ان هؤلاء الأشخاص الذين سحقتهم الفاقة المطبقة لا يخطر على بالهم ان يغيروا وضعهم. وهم يقبلون الاوضاع المحيطة بهم بايمان شرقي تقليدي باعتبارها قضاء وقدرا فرضته المشيئة السماوية. وربما لهذا السبب ترجع «عقدة المعلهشية» (من كلمة «معلهش» العامية المصرية) على حد تعبير الباحثين.

لا اظن ان اوضاع سكان بولاق قد تحسنت جذريا خلال السنوات القليلة الماضية. ولكن علينا ان نغير جميع الارقام اخذا في الحسبان ان نسبة التضخم في مصر تبلغ الآن ٢٥ ـ ٣٠٪ سنويا.

ان فلاحي الامس المهاجرين إلى المدينة لا يتخلون بسرعة عن مفاهيمهم السابقة ومعتقداتهم ومجموعة قيمهم. وبينما يتغير نمط حياتهم يبقون هم خارج اطار الانتاج المعاصر في العادة. فليس لديهم المؤهلات المطلوبة للانضمام إلى

الجهاز البيروقراطي. ويظلون اناسا ذوي دخل موسمي او عاطلين عن العمل. ولا يفقدون علاقاتهم الاجتماعية التقليدية والاشكال الاجتماعية السابقة، ويتجمعون حول المساجد ومشايخ الطرق الصوفية والروابط الاقليمية. ومستوى معيشتهم يبلغ حد الكفاف، وايديولوجيتهم هي الاسلام الشعبي، وسلوكهم الاجتماعي هو الاذعان للسلطة مع الاستعداد لانتفاضات التمرد الخاطفة، ومثلهم الاعلى في الحياة ان تكون لديهم ورشة خاصة أو دكان.

والقاهرة بالنسبة للكثيرين منهم مجرد محطة صغيرة في رحلة طويلة. ان المصري المرتبط بالولاء لدلتا النيل وواديه والذي لم يكن يحب السفر وترك الوطن، اصبح الآن مدمن سفر. فإلى فترة قريبة، في الستينات وبداية السبعينات، لم يتوجه إلى الخارج بحثا عن العمل سوى بضعة آلاف من الاطباء والعلماء والمهندسين المصريين. وقد قصدوا الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا، ولم يتوجه الا عدد قليل منهم إلى السعودية وامارات الخليج. اما اليوم فتجد المصري عاملا في ميناء بيريه باليونان وبوابا في فندق بباريس، وغاسل اطباق في امستردام.

لكن المغناطيس الجاذب الاكبر هو الدول المصدرة للنفط. وفي الخارج يوجد الآن اكثر من ثلاثة ملايين مصري، معظمهم في العراق والسعودية وليبيا. فالراتب في الدول التي شهدت فورة النفط اعلى من الراتب في مصر اضعافا مضاعفة. وعندما يتساءلون: هل الهجرة خير ام شر بالنسبة لمصر؟ فان الاجابة عن هذا السؤال ليست سهلة. بالطبع لا يستطيع الاقتصاد المصري ان يستوعب كل الايدي العاملة، ومن ثم فالهجرة تخفض نسبة البطالة. وبالطبع اصبحت تحويلات المصريين العاملين في الخارج (حوالي ٤ مليارات دولار) تشكل البند الاول في الدخل القومي وفي حصيلة العملات الاجنبية، وتسبق في ذلك عوائد النفط المصدّر وحصيلة رسوم قناة السويس والسياحة وتصدير القطن. بيد ان هناك وجها آخر للعملة. فقد دلت استطلاعات الرأي العام على ان ٨٥٪ من الطلبة يرغبون في السفر للعمل في الخارج. ولا يفكر خريجو الجامعات والمعاهد العليا في خدمة الوطن بل يطرقون ابواب مكاتب تشغيل العمال في الكويت أبي ظبي. فما هو الاكثر اهمية

للاقتصاد: رأس المال، أم القوة المنتجة الرئيسية أي الانسان؟ ان مصر تحرم من افضل وامهر عمالها ومهندسيها وفنييها واطبائها ومعلميها وصحفييها. ويهرب الخبراء المصريون الذين تم اعدادهم وتدريبهم بمشقة من المواقع الاقتصادية الرئيسية كمجمع الحديد والصلب في حلوان إلى الخارج. وثمة مشكلة أخرى: كيف وأين تستغل الاموال التي تم تحصيلها في الخارج؟ ومن جديد لا تبعث البيانات الاحصائية على الاطمئنان إلى صحتها، ولكن معظم الباحثين متفقون في الرأي بان جزءا كبيرا من هذه الاموال يضيع على اعالة اسرة المهاجر.

والمهاجر العائد إلى مصر يستقر عادة في القاهرة. وفي أحسن الاحوال يتمكن من بناء بيت او يشارك في جمعية لبناء بيت، ويؤجر شقة او شقتين منه، ويشتري تاكسي، ويفتح دكانا. والمهاجر القادم من القرية والذي اغتنى قليلا يستطيع ان يشتري قطعة أرض ويؤجرها لزملائه الاقل حظا. ولا يستثمر بفعالية الا جزء قليل من الاموال التي جمعها المهاجر بعمله الشاق في الخارج.

ان وضع العمال المستقرين في اعمالهم هو افضل بكثير من وضع معظم سكان بولاق وغيره من الاحياء الفقيرة. وفي ظروف مصر، مثلما في معظم بلدان الشرقين الادنى والاوسط، كثير ما ينظر هؤلاء نظرة متعالية إلى اخوانهم «الهامشيين» وانصاف البروليتاريا.

وكان مستوى البطالة العالي سابقا والقيمة المنخفضة لقوة العمل يقللان من أجر العامل المؤهل. بيد ان وجه الغرابة في الامر ان وضع هؤلاء العمال الافضل من غيرهم، وغياب صاحب العمل المحدد (لان صاحب العمل الرئيسي هو الدولة) بالاضافة الى انخفاض المستوى الثقافي والتعليمي.. كل ذلك يعرقل نمو الوعي الطبقي. فالاضرابات تحدث في مصر ولكنها تحدث في الغالب لاسباب جزئية ولا تتناسب مع التناقضات الاجتماعية الصارخة والاضطهاد في المجتمع المصري.

لقد اوجدت الهجرة والتضخم ظاهرة جديدة تماماً في الحياة المصرية الا وهو الغلاء الحاد في اجور الايدي العاملة سواء في الريف ام في المدينة. فخلال عدة

سنوات فقط كفت مصر عن كونها بلد العمل الرخيص شبه المجاني. فالسباك - وهي مهنة من اندر المهن في القاهرة - يحصل على دخل يعادل دخل الاستاذ الجامعي، اما سمكري السيارات فيحصل على ثلاثة اضعاف ذلك. وارتفعت اجور العمال المؤهلين واشباه المؤهلين في المؤسسات وخاصة في القطاع الخاص، فتلك هي الوسيلة التي يمكن بها صرف العمال عن الهجرة. واتسعت الهوة لا بين الاغنياء الجدد وجماهير الشعب فحسب، بل ايضا بين العمال المؤهلين واشباه البروليتاريا.

وبدلا من الهيبة السابقة للتعليم ولكرسي الوظيفة اصبحت الهيبة الان للجنيه، للنقود الحاضرة. لقد حدث امر اشبه ما يكون بانتقام تاريخي للمجتمع من البيروقراطية الجبارة. واصبح اجر الموظف مختلفا بشدة لا عن نسبة ازدياد التضخم فحسب بل وعن اجور الفئات الاخرى من السكان العاملين. والموظفون الصغار الكثيرو العدد لا يستطيعون بالرشوة والسرقات ان يحسنوا وضعهم تحسينا ملموسا. وانعكس انهيار الحياة العامة على فئات من العاملين ذوي الدخل المحدود تحتاج اليهم الدولة احتياجا ماسا مثل المعلمين واطباء المستشفيات الحكومية. وليس من الغريب ان تجد في القاهرة ميكانيكي سيارات او عامل تركيب ارضية يحمل شهادة جامعية.

ولكن مقابل هذه الاجور العالية يدفع الميكانيكيون والعمال المؤهلون جهدا اكثر تكثيفا واطول وقتا، وتسوء اوضاعهم الصحية في ظروف المدينة الضخمة بهوائها الخانق وبعذاب مواصلاتها وعدم توفر المسكن وغلاء ايجاره. فمن الذي يكسب في هذا الوضع؟ من الذي يأكل القشدة؟ لدي الاجابة على هذا السؤال تتجه الانظار لا اراديا الى التاجر والسمسار، ولكن لا الى صاحب الكشك او «البوتيك» الصغير.

واذا اردنا ان نرسم صورة لاسواق القاهرة فلنتصور سوقا تمتد الى عدة شوارع. هنا تجد باعة البطاطا المشوية والذرة المشوية، وباعة البالونات واللب والسوداني، وعصير القصب وعصير الفواكه المثلج والشربات التي تصب من اباريق زجاجية كبيرة، وباعة الحلى الرخيصة والادوات المنزلية. وأمام محلات

الجزارين تعلق الذبائح من الغنم والبقر، بينما تفرش الخضروات والفواكه على الارض. وهنا تروح وتجيء عربات يد محملة بقدور نحاسية يغلي فيها الفول المدمس او عليها مقال كبيرة تطشطش في زيتها اقراص الطعمية الخضراء. كل ذلك تصاحبه نداءات غذائية من الباعة الذين يمتدحون بضاعتهم.

ومع ذلك فليس من السهل نقل صورة اسواق القاهرة. اذ كيف يمكن نقل الاحساس بهذا الخليط من الروائح والغبار وغازات العادم وعبق الاعشاب الزكية وروائح الطبيخ؟ كيف يمكن نقل الاحساس المتولد عن رؤية جحافل الذباب التي، وياللعجب، لا تقطس من غازات العادم؟ وذلك البائع الذي فرش على الارض صواميل وجلد الحنفيات وراح يغط في نوم عميق تحت اقدام المارة متوسدا جهاز راديو يابانيا يزأر باعلى صوت؟ كيف يمكن نقل الانطباع المتولد عن رؤية الحشود الرائحة الغادية، الفقيرة، الجائعة، التي تستر اجسادها بملابس كيفما كان، ولكنها لا تيأس بل يتعالى صخبها وصياحها المرح؟ او منظر القهوة، حيث يجلس الرواد وهم يمصون النارجيلة وينفثون سحب الدخان، متطلعين بهدوء فلسفي الى الهرج والمرج في العالم الزائل من حولهم، او يقفزون من مقاعدهم في حماس وهم يتابعون مباراة كرة قدم في التليفزيون. وكثيرا ما يتاجرون ويأكلون وينامون على الرصيف مباشرة. وهنا ايضا يصلحون الاحذية او السجاجيد، ويرفون الملابس، ويستذكرون الدروس او يصلون مولين وجوههم شطر الكعبة.

في هذه الجلبة تميز بعض ملامح الصورة التي رسمها لاين منذ مائة وخمسين عاما للقاهرة: «باعة الشوارع يبيعون الخبز والخضروات وغيرها من المأكولات. وهم يعلنون عن بضاعتهم بطريقة طريفة. فبائع الترمس مثلا يصيح: «مدد يا امبابي مدد!». ويمكن فهم هذا النداء على محملين: فمن ناحية هو طلب العون من ولي الله المعروف الشيخ الامبابي المدفون في قرية امبابة على الشاطىء الغربي للنيل مقابل القاهرة (امبابة الان حي من احياء القاهرة المزدحمة - أ - فاسيلييف). وفي ضواحي امبابة تزرع اجود انواع الترمس. ومن ناحية اخرى يعني هذا النداء ان ترمس قرية امبابة انما هو بهذه الجودة بفضل عون الشيخ الامبابي وبركته.

ويمدح هؤلاء الباعة بضاعتهم منشدين: «يا ترمس امبابة يا أحلى من اللوز». اما باعة الليمون الحامض الصغير الحجم فيصيحون: «يا رب سهل له! يالمون» (اي سهل بيع الليمون). ويصيح باعة الحلوى صياحا مضحكاً:

«الحلاوة بمسمار». فبائع الحلوى مشهور بانه شبه محتال، اذ ان الاطفال والخدم يسرقون من منازلهم الادوات الحديدية لكي يبادلوها بالحلوى. اما باعة الورد فيرددون عبارة نادرة: «الورد كان شوك، شم عرق النبي فتح» في اشارة الى معجزة من معجزات الرسول محمد. اما القماش القطني الذي جرى نسجه بنول يديره ثور فيدعو البائع الى شرائه مناديا: «شغل تور يا بنات».

مر على ذلك مائة عام، وها نحن نرى صورة حي الموسكي التي رسمتها ريشة الكاتب المصري توفيق الحكيم في عشرينات ـ ثلاثينات قرننا نفس الملامح القديمة لاسواق القاهرة:

«مرت نصف ساعة و«سوارس» تخرج وتدخل في شوارع وحارات عتيقة، مخترقة الاحياء القديمة لمدينة القاهرة، حتى وصلت اخيرا الى الموسكى، فنزل من الركاب من نزل، واشرأبت رقاب الباقين في العربة الى الخارج، ينظرون على جانبي الطريق الى المتاجر والدكاكين التي لا عدد لها، وقد عرضت بضائعها التي تبهر الانظار من اقمشة الحرير والقطيفة، مزركشة بالقصب اللامع و«الترتر» البراق، ومن مصوغات ذهبية حقيقية وقشر سمكة، ومن احذية وشباشب «بكعب» و«زحافى» على آخر طراز، ومن خردوات ودنتلات وبياضات لزوم البيت، واوان نحاسية واخرى من الصيني، وملاعق ومغارف خشبية ومعدنية، وباختصار كل شيء موجود في هذه السوق الشهيرة.

وكان الزحام شديدا كالمعتاد «وسوارس» تلقى صعوبة في شق طريقها بين امواج الناس المجتمعين كالنمل في شارع «الموسكى» الضيق، يعلو صياحهم، وتشتد حركتهم وضجيجهم، كلهم تجار وباعة ومشترون ومتفرجون، فالتجار والباعة يصيحون منادين على بضاعتهم متنازعين الزبائن، بخالب اقوالهم ورخص

اثمانهم، وحلفهم وقسمهم بالشرف والايمان على جودة الصنف، وعلى انها فرصة حقيقية و«اوكازيون» على ذمة «الخواجة»!...

والمشترون - نساء ورجالا - يشاهدون ويجادلون ويمارسون، متناولين الاقمشة بين ايديهم يفركونها ويفحصون متانتها في عنف، ثم يساومون ويناقشون، فتعلو الاصوات، ويكثر القسم، ويشتد الشد والجذب، ويسيل العرق على الجباه والوجوه، ويضاف على هذا الهرج والمرج صوت صناجات بائع العرقوس، يزاحم الناس بقدرته الحمراء على بطنه، وابريقه النحاسي في يده، ولوح الثلج المركب فوق القدرة لا يبرد شيئا ولا يصل الى الشراب وانما وظيفته مجرد الاعلان: «حاسب على اسنانك!... انا بياع الشربات... ما ليش دعوة بسنانك!...» ثم يدق دقة بصناجته او يملأ كوبا لزبون، ثم يصيح في لهجة اخرى: «الصبر جميل!... فقر بلا دين هو الغنى الكامل!... سنانك حاسب!....

لقد قارنت المنظر الخارجي لدكاكين القاهرة الحديثة بتلك الصورة التي رسمها لاين. كانت الدكاكين آنذاك عبارة عن غرف مفتوحة على الشارع طولها متران وعرضها متر ونصف وبها تجويف من الداخل يستخدم كمخزن وابواب من الشيش تغلق ليلا. وامام الدكان المرتفع قليلا عن مستوى الرصيف توجد عادة مصطبة مبنية من الحجر او الطين. اما في ايامنا هذه فلم اصادف شيئا بهذا الشكل سوى في اليمن. وللاسف فالمنظر الخارجي للدكاكين في القاهرة الحديثة لا يختلف كثيرا عن الحوانيت الاوروبية في بلدان حوض البحر المتوسط، وان كان يخلو من نظافتها وواجهاتها الجذابة وغيرها من الجوانب الشكلية فضلا عن تشكيلة السلع المعروضة. غير انه قد ظهرت اخيرا في الاحياء الراقية متاجر من طراز متاجر الشانزليزيه في باريس او الشارع الخامس في نيويورك.

وتختلف مبادىء التجارة في مصر، كما في الشرقين الادنى والاوسط عموما، عما هي عليه في الغرب.

ففي القاهرة توجد متاجر تبيع بأسعار محددة. فلا يخطر على بال أحد ان يساوم في متجر السلع الغذائية والسوبرماركت. واسعار السلع الاساسية

معروفة تقريبا. اما في الدكاكين الصغيرة العديدة التي تبيع الملابس والاحذية ومختلف السلع المستوردة فالشراء حسب اول سعر يعرضه البائع يعني فقدان احترام البائع لك بالاضافة الى خسرانك مبلغا كبيرا. وأريد مرة أخرى ان استشهد بلاين واقول انه اذا كانت الوسائد والمصاطب قد اختفت من امام الدكاكين، فقد ظلت اجراءات البيع والشراء الى حد كبير كما كانت عليه آنذاك. يقول لاين:

«قد تبدو عملية البيع والشراء لدى المصريين لغير المطلع على التقاليد الشرقية عملية مرهقة للغاية. اذ تبدأ بان يطلب البائع ثمنا لسلعته اعلى بكثير مما يعتقد انه سيحصل عليه. ويغضب المشتري ويطرح سعره هو، الذي يقل بمقدار الثلث او النصف. عندئذ يخفض البائع سعره قليلا ويرفع المشتري المبلغ الذي عرضه بعض الشيء. وتستمر المساومة بهذه الطريقة الى ان يتفق الطرفان على سعر وسط بين المبلغ الذي طلبه البائع والمبلغ الذي عرضه المشتري في البداية. وعندئذ تعقد الصفقة في آخر الامر. ان الرحالة الاوروبيين يعربون دائما عن سخطهم على الباعة المصريين، وفي رأيي انهم غير محقين في هذا ابدا... فعلى الرغم من المساومات المرهقة لا يحصل البائع في النهاية على نسبة ربح اعلى من واحد في المائة. وحينما يعجب المشتري بسلعة من السلع فانه يستعد لمباحثات طويلة. عندئذ يتسلق المصطبة ويضطجع هناك على البساط، ويحشو النرجيلة على مهل ويدخن. ثم تبدأ مباراة كلامية تستمر نصف ساعة او اكثر.

ان بسطاء الناس يعقدون اتفه صفقة بنوع من الحماسة، ويثورون ويصرخون ويشيخون بأيديهم حتى أن الاجنبي الذي لا يعرف اللغة العربية قد يظن ما يراه خلافا او شجارا. والفلاحون، اذا سألتهم عن سعر السلعة، يفضلون ان يردوا: «من غير فلوس». والجميع يعرفون انها مجاملة فصيحة ولا يخطر ببال احد ان يستغل هذا الجواب حرفيا. ويعاد طرح السؤال، وعندئذ تسمع السعر المبالغ فيه الى حد كبير».

والتجار المصريون جحفل جرار. وقد فشلت كل محاولاتي في التوصل الى ارقام موثوق بها ولو قليلا تشير الى عددهم.

وقد يبدو لي احيانا ان التجار في مصر اكثر من المشترين، رغم ان هذا انطباع خادع. ولكنهم، على اي حال، اكثر بكثير مما يحتاج اليه المجتمع. ولكن التجارة مهنة لها مكانة، فقد عمل الرسول محمد بالتجارة وتزوج من تاجرة غنية. والتجارة مربحة. ولست ادري من اين جاء لاين - المشهور عادة بدقته - بهذا المعدل لارباح التجار المصريين في ذلك الوقت الذي قدره بواحد في المائة. واعتقد ان هذا الرقم قليل حتى بالنسبة للنصف الاول من القرن الماضي. وفي زمننا الحاضر لم تعد تثير الدهشة نسبة الربح التي تبلغ خمسين او مائة او حتى ثلاثمائة في المائة من بيع السلع الاجنبية خاصة. وفي خاتمة المطاف تضفي هذه الارباح نوعا من الطفيلية على فئة التجار بكاملها، ولكنها تفسر لنا لماذا ينتظر التاجر زبونه بصبر وكيف يتمكن من تجنب الخسارة في ظل عدد المشترين القليل.

ولم تستطع الشركات التجارية وشركات التأمين ان تستقر في التربة المصرية الا بصعوبة. فالتاجر المصري لا يحب الشريك، ويفضل الاستقلالية الكاملة. وظل رأس المال الفردي يحدد نمو التجارة لسنوات طويلة. وكانت روح المنافسة والتسابق تعود احيانا بالفائدة على المشتري واحيانا بالخسارة.

وانعكست تقاليد البيع والشراء والقدرات والكفاءة التجارية والعلاقة بين البائع والمشتري في العادات الشعبية والتركيبة النفسية القومية والحكم والامثال.

اذ تنصح الحكم والامثال بشراء السلع المتينة وتحذر من شراء الاشياء السيئة الصنع لان السلع الغالية افضل (الغالي ثمنه فيه)، وتدعو الى اقتناء العقارات لا الحلى الذهبية.

وتنصح الحكم والامثال بالتدقيق والتمحيص في السلع قبل شرائها.

ومن خصائص التجارة الايمان بالحظ ومحاسن الصدف. وذات مرة دخلت متجرا جديداً وشرعت انتقي حذاء. وطلب مني البائع سعرا عاليا، ولكنه عموما سعر معقول. ولكني عرضت بصورة آلية تقريبا نصف السعر، ولدهشتي وافق صاحب الدكان فوراً. واضطررت لشراء الحذاء. وتناول صاحب الدكان النقود مني والقى

بها على الارض بفرحة ثم رفعها وهتف: «اول استفتاحنا ذهب». لقد كُنت اول زبون يدخل متجره، ولذلك حرص على ان اشتري منه حتى لا يضيع الحظ. وربما كنت ممن يجلبون الحظ، او ربما لأن المكان هنا مزدحم، فقد ازدهرت احوال ذلك المتجر.

ان اصول التجارة تقتضي ان يكون التاجر سريع الحركة والاستجابة لتقلبات السوق، مستعدا للكسب والخسارة. وعليه ان يقتنص الفرص والا يهدر الامكانيات المتاحة. ويجب الا يكون الربح مبالغا فيه.

وعندما نستعرض الامثال الشعبية المصرية التي تتحدث عن التجارة نكتشف بسهولة ان بعضها ذو طابع عام، بينما نجد البعض الاخر متعلقا بالتجارة الصغيرة التقليدية في القرية والمدينة. ولكن التغيير يطرأ على المجتمع، وعلى الاخلاق، وعلى اصول التجارة والنظرة اليها. غير أن السليقة الشعبية الحية لا تتقبل الجشعين النهابين النهمين. والادخار امر مطلوب ومشرف ولكن الرأي العام يعارض كنز النقود. اذ لا ينبغي ان تستعبد النقود البشر. والمصريون، مع احترامهم للنقود والثروة، يرفضون سلطانها، ويرفضون بصفة خاصة الاثراء غير المشروع.

لقد أعلن السادات بعد مجيئه الى الحكم بفترة قصيرة سياسية «الانفتاح» القائمة على اطلاق حرية التجارة والنشاط الاقتصادي للرأسمال المحلي والاجنبي والبنوك الخاصة.

واذ نزعت سياسة الانفتاح كافة القيود عن اصحاب رؤوس الاموال الخاصة فقد ادت الى نمو هائل في المضاربة. واصبح شارع الشواربي في وسط القاهرة رمزا للاغنياء الجدد السماسرة، فقد فتحت فيه عشرات المتاجر الصغيرة المسماة «بوتيكات» على الطريقة الفرنسية، والتي تتاجر بالسلع المستوردة. وفي الحارات القذرة تلألأت في الطوابق الارضية في المنازل ذات الواجهات التي لم ترمم منذ زمن طويل وعلى اسطحها، واجهات مضيئة بالنيون تحمل داخلها قطعا من الحياة

الاجنبية «الجميلة» ولكن تلك السلع لم تكن في متناول حتى ذوي الدخل المتوسط من المصريين.

وانتشر سرطان شارع الشواربي الى احياء القاهرة الاخرى، واصبحت التجارة بالسلع المستوردة او المهربة شبه علنية وجرت على نطاق واسع.

وتحولت «المنطقة الحرة» التي اقيمت في بورسعيد الى قاعدة وسيطة ضخمة للسلع الاجنبية التي كانت تدخل البلاد بعيدا عن رقابة السلطات الجمركية فتفقد الدولة بذلك دخلا وتتقوض ركائز الصناعة الوطنية. وعبر ايدي التجار السماسرة تسربت من مصر الى الخارج الاموال التي جمعها الفلاحون والمهاجرون وعمال ومهندسو النفط بعرق جبينهم.

ولم يتجه رأس المال المصري الخاص الى الصناعة او الى الزراعة بل إلى المجالات التي كان معدل الربح فيها عاليا، اي الى المجالات التقليدية بالنسبة له مثل بناء المنازل، والسمسرة في العقارات الثابتة، والتجارة. أما رأس المال الاجنبي فقد اتجه ايضا الى التجارة، والى الفندقة والسياحة والبنوك. وتكونت ثروات كبيرة من عمليات الإستيراد والتصدير وظهر في مصر اصحاب ملايين... وفي البداية كانوا عشرات، ثم أصبحوا مئات، فآلافا. واطلق عليهم اسم «قطط الانفتاح السمان». ولم يكن بامكانهم ان يسمنوا وتلمع اجسادهم بالدهن لولا الاداري البيروقراطي بما فيه جهاز الشرطة.

لقد اصبح كبار الموظفين ستارا يحمي السماسرة والمهربين وكبار التجار وذلك عندما دخلوا في شراكة معهم وصاروا اعضاء في مجالس ادارة شركات حقيقية او وهمية. واحيانا كانت تتفجر فضائح كبيرة عن رشاوى بالملايين مقدمة من شركتي «لوكهيد» و«وستنجهاوس» الامريكيتين وبعض شركات الصناعات الحربية الكبرى او شركات اصغر حجما. وتبدأ محاكمات قضائية تغرق في بحر من من اوراق التحقيقات، وتصدر احكام ضد صغار المتهمين، بينما يواصل «القطط السمان» حياة الرفاهية، وعلى قمة هرم السماسرة والبيروقراطيين كان يقف

اساطين المال المرتبطون ارتباطا مباشرا واحيانا بعلاقات القرابة بأسرة السادات، والذين اصبحوا يعرفون باسم «عشيرة السادات». وحتى بعد الرصاصات الدامية التي دوت اثناء الاستعلااض العسكري في اكتوبر ١٩٨١ وأودت بحياة السادات نفسه، لم يستطع الرئيس الجديد ان يقوض النفوذ الاقتصادي لـ «عشيرة السادات».

وبالطبع حتى في اوج ازدهار السمسرة حدثت حالات ثار فيها الرأي العام ضد «القطط السمان» فاضطر هؤلاء الى طي ذيولهم. ففي السبعينات وقعت محاولة درامية لبيع هضبة الاهرام التي تمثل جزءا من الثروة القومية المصرية.

فقد استطاع رجل الاعمال الكندي بيتر مونك، الذي أسس في هونج كونج شركة«ساوووث باسيفيك بروبريتز» ان يستأجر مقابل مبلغ زهيد ولمدة ٩٩ سنة بضع عشرات الهكتارات عند سفح الهرم مباشرة، وذلك بغية انشاء مدينة سياحية. فما الذي تعنيه بالنسبة للموظفين قطعة الصحراء هذه برمالها وحصاها واحجارها؟

لقد صمت التاريخ المصري ولكن الكلمة كانت للدولارات التي اخرجها الكندي من محفظته. وانتظر بيتر مونك قليلا، ثم اخذ يبيع الارض التي أستأجرها بعد ان قسمها قطعا صغيرة.

وكان تقديره ان الاثرياء العرب وغيرهم لن يبخلوا بالمال مقابل بناء فيلا تطل على الاهرام، في هذا المكان الراقي ذي الهواء الرائع. وكان مصيبا في هذا التقدير.

ودون ان تشق الشركة قناة واحدة، ودون ان تضع اساسا واحدا، انهالت عليها الملايين. وتصدت الدكتورة نعمت فؤاد استاذة التاريخ بجامعة القاهرة لفضح خبايا هذه القضية القذرة.

واتضح ان مونك مرتبط بالحكومة المصرية وبالاسرة المالكة في السعودية. واخذت الصحف تكتب عن هذه الصفقة وشرع البرلمان في مناقشتها. واوقف بيع الهضبة ولكن العقاب لم ينزل بأحد.

ويبدو ان الحياة كررت موضوع القصة الخيالية التي كتبها الاديب المصري

الشاب جمال الغيطاني، الذي ادرك سيكولوجية الانفتاح وامزجة «القطط السمان» وجنون المزاد وقرصنة التجار.

ففي روايته اللامعقولة «ذكريات عن الماضي» يجري بيع مصر للاجانب في مزاد علني. بيعت بيوتها وآثارها ورمالها وأرضها الخصبة، والنيل والهواء والكورنيش والثروات الباطنية. وبدأ الناس يدفعون رسوما على سيرهم في الشوارع وعلى سير الحمير في الطرق الزراعية. وعبئت مياه النيل في زجاجات من البلاستيك وصدرت.

واقيمت اماكن للاستشفاء ومزارع من اعلى المزارع انتاجية في العالم. وسار كل شيء على خير ما يرام، ولم يعكر الصفو الا شيء تافه. هو هؤلاء المصريون. الفلاحون والشعراء والعلماء والعمال، الذين اصبحوا زائدين عن الحاجة. عندئذ طلبت الشركة المشرفة على ادارة مصر من منظمة دولية ما طرد هؤلاء الناس الذين يحتلون بصورة غير مشروعة ارض الشركة، اذ لم يعد المصريون يملكون شبرا واحدا من الارض. ولكن الدعوى رفضت فقد اتضح ان مصر لم تبع كلها. ففي مكان ما في الصعيد بقي فدان واحد لم يبع، وهو آخر فدان. ولم يعرف بالضبط من هو صاحبه،اهو شيخ عجوز عمره مائة وخمسون سنة ام هو حفيده. ولكن الجميع علموا ان الفدان الاخير يملكه مصري، وقد سمي هذا الفدان «ارض مصر». وارسلوا اليه مشترين وعرضوا عليه جبالا من الذهب، ولكنه رفض. وسلطوا عليه طائرات ترش مواد سامة، ولكن رياح مصر حملت الغازات السامة بعيدا عن «ارض مصر». وقطعوا عن الفدان المياه، ولكن افضل علماء مصر اخترعوا وسيلة ري غير معروفة قبلا فازدهر الفدان وأثمر. وبعثوا بقاتل ولكن الرجال والنساء هبوا للدفاع عن آخر مصري يملك «ارض مصر». وارسلوا جحافل من الجرافات ليزيلوا هذا الفدان الاخير من على ظهر الارض، ولكن الرجال والنساء والاطفال صنعوا من اجسادهم سدا في وجه هذه الالات الصماء...

ان هذه القصة اللامعقولة عن بيع مصر قد عكست الحقيقة المريرة للسبعينات. ولكن الحقيقة ايضا انعكست في هبة المصريين للدفاع عن «ارض مصر»، رغم ان

المؤلف تجنب في ذكاء ان ينهي القصة بانتصار هذا الطرف او ذاك.

لقد تساءل المثقفون الوطنيون: الى اين يقود الانفتاح الاقتصادي مصر؟ وماذا يعني بالنسبة لمصر استمرارها في النهج الذي اختطه السادات؟ لقد تبقى من عهد عبد الناصر السد العالي والمصانع والمشروعات التي شيدت بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي. فما الذي تبقى بعد حكم السادات الذي استمر عشر سنوات؟

لقد حصلت مصر على قروض من الغرب كثمن لتبديل الخط السياسي و«أكلت» هذه القروض. واخذت البلاد تستورد المزيد والمزيد من المواد الغذائية وفي نفس الوقت المزيد من السيارات والسلع الكمالية. وفي اواسط الثمانينات زادت مديونية مصر الخارجية عن ٣٠ مليار دولار. والقي اعتماد مصر على واردات الاغذية الامريكية بثقله على النهج السياسي الخارجي للقاهرة ولكن ذلك حديث آخر يخرج عن اطار هذا الكتاب.

ومن خلال «الانفتاح» حدث تكامل لم يسبق له مثيل لمصر مع الاقتصاد الرأسمالي العالمي. فالبلد الذي كان بلدا زراعيا في الماضي لم يعد يعيش من كد الفلاحين بل يستمد دخله ويعيش ببساطة على حساب تصدير النفط وتحويلات المصريين العاملين في الخارج ورسوم قناة السويس التي تعبرها في الغالب ناقلات نفط او سفن تحمل السلع الى الدول المصدرة للنفط.

واي تقلبات طفيفة في سوق النفط العالمية تؤثر على مصر. غير انه بعد عشر سنوات لن يصبح النفط في مصر كافيا للتصدير وستضطر ازمة الطاقة مصر الى استهلاك نفطها كله محليا. وماذا عن المحطات النووية؟ حتى الان لم يعرض احد من «اصدقاء» مصر الغربيين عليها ان يقوم ببنائها. وعلى مصر المستقبل التي سيزحف عليها العمران، ان تبدأ هي نفسها بتصدير السلع الصناعية بعد الشروع في التصنيع السريع اذا ارادت ان تبقى على قيد الحياة. ولكن ذلك لا يحدث .

ان النمو السريع نسبيا للمنتوج القومي الاجمالي بنسبة ٧ - ٨ في المائة سنويا عند تخوم هذا العقد يرجع اساسا الى ارتفاع اسعار النفط. وقد ادى هبوطها الحاد الى اغراق مصر في بحر الازمة. وفي منتصف الثمانينات انخفضت تحويلات

المصريين من الخارج وعائدات تصدير وحصيلة رسوم قناة السويس والسياحة. واصبح تسديد اقساط القروض ونسبة ارباحها عبئا لا يحتمل. واذا قارنا بين ديون مصر ومستوى اقتصادها لوجدناها في وضع أسوأ من الدول صاحبة الأرقام القياسية في المديونية مثل البرازيل والمكسيك والارجنتين. والحل الجزئي لبعض مشاكل مصر يصاحبه تراكم لمشاكل اخرى ذات ابعاد هائلة وقوة تفجيرية لا مثيل لها. فالرأسمالية التي عادت الى مصر عودة المنتصر في السبعينات والثمانينات يصحبها التهليل والطبل والزمر، قد اتسمت بطابع اكثر تشوها وقبحا من الرأسمالية في عهد الخديوي اسماعيل في ستينات وسبعينات القرن الماضي الذي شهد وقوع مصر في قبضة الدائنين الاجانب، بل واسوأ من الرأسمالية الكومبرادورية المتعفنة التي حكمت قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢.

ان التجارة في مصر تنمو. ثمة تحسن في بعض المرافق كالطرق والكباري العلوية والمواصلات الهاتفية. وتشييد العمارات السكنية. ولكن اين أهم شيء، اين الانتاج؟ لا نستطيع ان نقول أنه لا يوجد إنتاج بالمرة، ولكن هل يتفق نموه ومستواه ومستقبله مع متطلبات البلاد المحرومة تقريبا من القاعدة الزراعية العريضة، والتي سيبلغ سكانها في مطلع القرن القادم حسب التقديرات حوالي ٦٠ـ٦٥ مليون نسمة؟ ان «قطط الانفتاح السمان» الذين يكسبون مئات الملايين من الدولارات في عمليات الاستيراد والتهريب، والمضاربات في الاراضي، وبناء المنازل، وفي علميات التدليس المالي ونهب الدولة السافر، يتفوقون على اسلافهم في اساليب النهب الجشعة. ان معبودهم هو الدولار وقبلتهم هي المصرف الاجنبي الذي يحولون اليه ارباحهم ولا يستثمرونها داخل اوطانهم. وثروتهم الوقحة المستفزة تفوح منها رائحة الفضيحة من الناحية الاجتماعية، وجوهرهم اشد عداء للقومية مما كان عليه التجار الايطاليون واليونانيون في عصر الخديوي اسماعيل او البيوت التجارية اليهودية في عهد الملك فاروق. وقد يكونون مصريين من قمة رأسهم الى اخمص اقدامهم، وقد تبدو ملامحهم وكأنها نسخة منقولة عن الرسوم الجدارية في المعابد الفرعونية. وهم بذلك اشد خطرا على المجتمع واكثر استفادة من التشابه

القومي للملامح، ولكنهم يبقون في واقع الامر اجانب بوجوه وجوازات سفر مصرية.

لقد عاودت قراءة المقاطع الآنفة التي كنت قد كتبها في بداية الثمانينات والانطباعات لا تزال طرية في الذهن، فقررت الابقاء عليها رغم وجوب تعديل بعض الامور. فقد خيل لي اني لم اكتب فيها عن مصر السبعينات، بل عن روسيا التسعينات. والتطابق قائم حتى التفاصيل. بيد ان الحرية الاقتصادية كانت لها فاعليتها رغم كل سلبيات الانفتاح ومشاعر الرفض التي آثارها. فمصر باتت غير ما كانت بداية السبعينات، والناس عموماً تحسنت معيشتهم.

والعواقب السلبية لسياسة الانفتاح اقل وطأة منها في روسيا، والاخطاء والهفوات اصغر حجماً.

وربما مردّ هذه الى كون التجربة الاشتراكية لعبد الناصر لم تطل اكثر من سنوات عشر، كما لم تطبق بحذافيرها، فيما استمرت عندنا ستة (وفي بعض جوانبها) سبعة عقود من الزمن. ولعله لهذا السبب ما انقطع في مصر نسل حملة طباع العيش في ظل علاقات السوق واقتصاد والسوق.

ولكن دعنا من الاسترسال في هذا الموضوع. فالحديث عن الانفتاح بصفته الروسية يستدعي كتابا آخر، وربما كاتبا آخر ايضاً.

الباب الرابع

ستة آلاف سنة من الصبر

«الصبر خير»

اكثر الامثال الشعبية المصرية انتشارا.

عندما خلق الله الدنيا اعطى لكل شيء فيها زوجا. قال العقل: «سأذهب إلى سوريا». فقالت الفتنة: «سأذهب معك» قال الفقر: «سأذهب إلى الصحراء». فقالت الصحة: «سأمضي معك». قال الرخاء: «سأذهب إلى مصر». فقالت الطاعة: «سوف اصحبك».

تقي الدين احمد المقريزي. المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. القرن ١٥ م.

ان الاستبداد والعنف من ناحية والخضوع والتسليم من ناحية اخرى هي ملامح من اعمق واسوأ ملامح الحياة المصرية على مر القرون. وعلينا الا نهرب من هذه الحقيقة او نخجل منها، بل علينا ان نتناولها بالتحليل العلمي والشرح الموضوعي لكي نعرف إلى أي مدى هي ملامح مؤقتة عابرة وإلى أي مدى هي جزء لا يتجزأ من حضارتنا.

الدكتور جمال حمدان. شخصية مصر. ١٩٦٧

يتحلى المصريون... بالفطنة والذكاء والذاكرة الممتازة وغيرها من الصفات الذهنية.

لاين. طباع وعادات المصريين المعاصرين. ١٨٣٦

يعرف حتى البدوي، الذي يعتبر تجسيدا للفردية، ان امنه الشخصي ورخاءه المادي رهن بأبناء قبيلته وعشيرته. ومن ثم فعليه ان يخضع لعادات القبيلة ولقواعد السلوك فيها والاخلاق. وفي كل مجتمع ترتبط الشخصية بالجماعة بعلاقة تبعية. وهذه الحقيقة المعروفة تكتسب طابعا مطلقا بالنسبة لمصر. فتحويل وادي النيل من مستنقعات إلى واحة غنّاء، واقامة نظام ري واحد لجميع البلاد والعناية به قد تطلب ويتطلب توحيد جهود الشعب بأسره. وفي ظل هذه الظروف التي كانت

حياة الانسان فيها متعلقة بكد الكثيرين وتعاونهم اصبحت روح الجماعة السمة المميزة للمجتمع المصري.

ان النزعة الفردية مناقضة لطبيعة الفلاح، ولكنها لا تتفق ايضا وطبيعة فقراء المدينة والحرفيين والتجار. فحياتهم ونشاطهم الحرفي في الماضي - وفي الحاضر إلى حد كبير - محكومة بصرامة بمقومات التركيب الورشي او شبه الورشي او بقاياه، ومكبلة باحكام الشريعة وقوة الرأي العام. ان البيروقراطية وبيئة الموظفين تستبعد النزعة الفردية في اي مجتمع.

ومهما بدا ذلك غريبا للوهلة الأولى فقد كانت النزعة الفردية بعيدة ايضا عن طبيعة الفئات العليا للمجتمع، عن الدوائر الحاكمة، وذلك على الأقل لان مصر على مدى التاريخ وحتى نهاية القرن الماضي فقط لم تعرف الارستقراطية الاقطاعية الزراعية على الطراز الاوروبي.

وفي القرون الوسطى تحول حرس السلطان المماليك إلى فئة حاكمة في مصر دون ان يحصلوا على حق وراثة الأراضي الزراعية. ولم يتغير الوضع جذريا حتى بعد الفتح التركي العثماني لمصر. فقد قام الاقطاع المملوكي، ومن بعده العثماني - المملوكي، على تبعية الفئة الحاكمة للدولة وللسلطة العليا، وعلى الاستغلال الجماعي للسكان وتوزيع الدخل من أعلى إلى أسفل: من السلطة العليا إلى مستوياتها الادنى.

ان عبارة مثل: «تقاعد عن العمل ورحل إلى ضيعته» لها عبارة عادية ومفهومة للاقطاعيين الاوروبيين الذين كانوا يخدمون في وظائف الدولة، ولكنها ليست بذي معنى في جو الحياة الاجتماعية في مصر العصور الوسطى. فلم يكن احد «يتقاعد» من الوظيفة الحكومية في مصر الا بسبب الشيخوخة او فقدان القدرة على العمل، وفي هذه الحالة يفقد تقريبا كل المزايا والدخل. وكتب الاقتصادي المصري الدكتور فؤاد مرسي يقول: «في جميع المجتمعات البشرية تعتبر الثروة مصدرا للسلطة، اما في مصر فالسلطة هي مصدر الثروة». فمركز الشخص في سلم الهرم المدني

والعسكري هو الذي حدد حتى نهاية القرن التاسع عشر وما زال يحدد بقدر كبير في ايامنا هذه رفاهية «القمم العليا» ووضعها الاجتماعي.

وفي العصر المملوكي والعثماني ـ المملوكي، عندما لم تكن الفئة العسكرية ترتبط تقريبا بروابط القرابة والدم، سادت في اوساطها روح التكافل. اما في الظروف الراهنة فتقترن هذه الروح لدى «القمم العليا» المصرية بروابط القرابة والدم والعلاقات والالتزامات الشللية.

وبالنسبة للمصري فمن الطبيعي ان يخضع مصالحه الخاصة لمصالح الجماعة، ويراعي آراء الآخرين، ويتبع الانضباط العام. وقد يبدو ان هذا القول مناقض للواقع. فالاجنبي يصطدم في مصر منذ ان يخطو اولى خطواته بالنزعة الفردية الفوارة، وبفوضى المطار او الميناء البحري، وبالاضطراب الذي لا يتصور في حركة المرور، حيث يتجاهل كل من فيها الآخر، والجميع يتجاهلون جميع القواعد. وعدم التزام المصري وعدم انضباطه في الوظيفة والعمل ظاهرة منتشرة. وكما لو كان المصريون يسترشدون في سلوكهم بعواطفهم ومصالحهم الخاصة وحدها.

بيد اننا نتعامل في المدينة بالذات مع مجالات للنشاط البشري غير تقليدية وجديدة على المصريين. فالفلاح المصري محافظ على الانضباط فيما يتعلق بمواعيد الاعمال الزراعية وتبدل الفصول وفيضانات النيل، ويخضع دون مناقشة لنظام الحياة والعمل في الريف، ذلك النظام الذي استقر منذ آلاف السنين. ونزعة الجماعية لدى الفلاح توجد في اطار الجماعة، والقرية، والعلاقات الاجتماعية التقليدية. ولكنه عندما يصل إلى المدينة وينفصل عن النظام المألوف لديه، ويصطدم بحضارة المدينة وحياتها الحديثة الغريبة عليه، والتي هي فوق ذلك غير مستقرة بعد، لا يستطيع ان يجد لنفسه الموقع المناسب. وفي المدينة قد يصبح الفلاح، اذا ما فقد الصلة بالرابطة الاقليمية او الجماعة الدينية، في غاية الفردية وخاصة في الحياة اليومية. ان المجتمع المصري لم يمر بعد بمرحلة الانضباط

والتنظيم العصري للحياة وللانتاج الحديث. وعملية تغيير نفسية الشعب وطباعة عملية طويلة، معقدة وحساسة.

وازدحام السكان ايضا يساعد على خلق روح الانتماء للجماعة، اذ يتطلب من الفرد التكيف مع الجموع والعشيرة والطائفة ويوجد العادات والمهارات المناسبة والمعايير الاخلاقية.

وكانت مصر مزدحمة وما زالت، وستصبح اكثر ازدحاما. فكثافة السكان في وادي النيل اكبر مرتين مما في هولندا. ولا مهرب من البشر الا إلى الصحراء، ولكن الصحراء موحشة وعدائية ولا تطعم. وليس في مصر جبال او غابات او سهوب او جزر او اراض غير مستوعبة يمكن اللجوء إليها او الاختفاء فيها.

ان البدوي الذي استقر في المدينة يعود إلى الصحراء ليسترخي ويرتاح. اما المصري - ابن المدينة او القرية - فيرتاح في الجموع...

وهو يعيش دائما، جيلا اثر جيل، في الكتل البشرية. وهو جزء من هذه الكتلة، وحتى وقت قريب لم يكن يتصور لنفسه حياة اخرى. والهجرة تغير طباع البشر، ولكن هذه الظاهرة لم تنتشر الا في السنوات الاخيرة.

على المرء ان يتعايش مع الجيران، اذ لا يمكن التخلص منهم. وهم دائما على مقربة، في السرّاء والضرّاء، في المودة والعداوة، في العوز والكفاية.

وهناك الكثير من الامثال والحكم الشعبية عن الجار والجيران. فالحكمة القائلة: «الجار ثم الدار» (أي اسأل عن الجار قبل ان تشتري الدار) معروفة في العالم العربي، ولكنها في مصر تكتسب معنى الحكمة الراسخة والنصيحة التي لا تقبل الجدل. وتنصح الامثال الشعبية المصرية بالتكيف مع الجيران والتفاهم معهم والصبر عليهم. «النبي وصّى على سابع جار» و«ان كان جارك مرتاح تبقى انت مرتاح» و«اطلب الخير للجار تلقى الخير عندك في الدار». فمصالح الناس متشابكة، وفي القرية تتوقف حياة الجيران بعضهم على بعض.

وفي مصر يعرفون الحديث النبوي القائل: «وظل جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه مورثة».

والتعايش يتطلب القدرة على التنازل وتجنب التطرف، والمصريون هم كذلك فعلا، فهم اساتذة التنازلات والمساومات والحلول الوسط. انهم يبحثون دائما - وكثيرا ما يعثرون - على الوسط الذهبي. وهم يسعون إلى قبول الجديد دون التفريط في القديم، وإلى اتباع الاساليب العصرية مع الابقاء على التقاليد، بل ويريدون حتى القيام بالثورة دون عنف و... بدون تغير يذكر. وعلى الرغم من تفجرات التعصب فالمصريون الآن وفي الماضي البعيد اظهروا دائما انهم يتحلون بقدر كبير من التسامح الديني.

وينطبق هذا في المقام الأول على القرية. فالعمران يغير ويهدم نمط الحياة السابق. افلا تعطي المدينة الكبيرة قدرا من الاستقلالية للفرد؟ وأهل المدينة، أليسوا ينفصلون عن العشيرة والعائلة الكبيرة؟ نعم ولا. فبعد الانتقال إلى المدينة يبقى الناس على صلاتهم بعشائرهم وجماعاتهم وروابطهم، ولا يتخلون بسرعة عن معتقداتهم السابقة. وتمارس هذه الصلاة تأثيرها على سلوكهم ونمط حياتهم. وتستمر العادات والطباع التي اكتسبوها في القرية قائمة في المدينة لمدة طويلة حتى ولو فقدت مغزاها الاجتماعي الوظيفي السابق.

ان المجتمع المصري - وليس في الريف وحده - تتخلله من اعلاه إلى اسفله منظومة من العلاقات الجماعية. وهي تقوم على رابطة القرابة والدم، اقوى الروابط، رغم ان العصبية والروابط القبلية بالمفهوم الشائع في الجزيرة العربية فضلا عن المفهوم الافريقي لا وجود لها هنا تقريبا. كذلك تقوم تلك العلاقات على رابطة الدين والانتماء إلى الطرق الصوفية، وتصبح العلاقة الشخصية اهم من الكفاءة المهنية، بالرغم من ان الانتاج والتنظيم الحديث يفرضان احيانا متطلبات حديثة لدى اختيار الاشخاص. والفرد قوي طالما كانت الجماعة التي ينتمي إليها قوية. وأحيانا يفاجأ الاجنبي بعدم رغبة المصري في القيام بخطوة مربحة، ولكن السر هنا ليس في «لاعقلانيته»، بل في حرصه على مراعاة مصالح الجماعة ايضا لا مصالحه وحده.

والمصري يخشى الوحدة والعزلة سواء بالغريزة ام بالوعي والادراك، فهو، منفردا ليس له وزن في المجتمع او هيبة، اما في الجماعة فيكتسب الثقة في نفسه والاحساس بالامن والطمأنينة. وحتى كبار الفنانين والكتاب والمطربين والممثلين فلا بد ان يكون لديهم دائرة من الاصدقاء والاتباع والحماة.

وسلطة الجماعة تعتمد على قوة الرأي العام المطلقة في الريف والنسبية في المدينة. فالرأي العام اذ يدين او يمتدح شخصا ما، انما يفرض عليه بذلك قواعده الاخلاقية ولا يترك له الا هامشا ضيقا لحرية اختيار السلوك. وفي الريف لا يوجد جهاز لصياغة الرأي العام وفرضه، ولكن لو حاول الشخص ان يتنصل من قواعد السلوك المتبعة فانهم يذكرونه بها ولو بواسطة العقاب الجسدي اذا لم تفلح الادانة الجماعية.

والمصري - سواء عن وعي أم عن غير وعي - يوازن بين اقواله وتصرفاته وبين ردود فعل الآخرين عليها. وهو مشغول دائما بالتساؤل: «وماذا سيقول الناس؟». ولهذا فهو يحرص على كرامته. ويقول الباحث الاجتماعي المصري عزت حجازي «ان هذا الحرص يعني حساسية مفرطة تصل إلى حد رد الفعل المرضي على كل ما يمس شرفه، والخوف من آراء الجيران، وهي ظاهرة يتميز بها المصريون اكثر من بقية الشعوب». واعتقد انه من الممكن ان نتفق معه دون ان نخص مصر وحدها بذلك. ففي اليابان والصين وفيتنام يلعب الحرص على الكرامة دورا اكبر مما في مصر. ويستطرد عزت حجازي قائلا: «ان الحرص على عدم الوقوع في الخطأ وعدم الظهور بمظهر مضحك او غير لائق كثيرا ما يدفع المصري إلى القيام بتصرفات غير معقولة وإلى الانتحار في بعض الاحوال الاستثنائية، الامر الذي يفوق التصور بالنسبة للمسلم». وهو يعتبر مثلا ان لجوء الطلبة إلى الغش اثناء اداء الامتحانات لا يرجع فقط إلى حرصهم على النجاح في الامتحان بل وإلى الخوف من ان يظهروا بمظهر مهين في اعين زملائهم ومدرسيهم.

واذا ما قام المصري بعمل ما لا تتوقف عليه رفاهيته بصورة مباشرة فكثيرا ما يصبح من المهم له ليس اداء العمل بل رأى الآخرين بأن العمل قد انجز. وهذه السمة

المنتشرة من سمات طباع المصريين تصبح سمة عامة في الجهاز الاداري، واذا كانت البيروقراطية عموما تتسم بمظهرية الاداء والخداع والتضليل وذر الرماد في العيون، فان البيروقراطية المصرية ليست استثناء القاعدة.

ان الخوف من اهانة الكرامة وكذلك الايمان بان كل شيء مقدّر ومكتوب يجعلان المصري لا يسلّم بخطئه علنا. فالنقد الذاتي مستحيل، او بالأحرى هو استثناء من القاعدة. فاما ان المصري محق، واما ان المخطئ شخص آخر او شيء آخر: القدر او القوى الغيبية، او هي مشيئة الله. وفي ظل وضعية «الحرص على الكرامة» تصبح معايير الصدق والكذب امرا ثانويا. ان الصدق أفضل، وهو المثل الاعلى. والشخص الصادق يثير مشاعر الاحترام. ولكن الصدق وفقدان الكرامة امران لا يجتمعان. ولهذا فالكذب مسموح به لانقاذ الكرامة. حتى علماء الدين يمكن ان يجدوا حجة للنكوص عن الصدق في بعض الظروف المعينة.

وعندما يصبح الكذب لانقاذ الكرامة مستحيلا، مثلا عندما ينبغي ابلاغ الرئاسة العليا خبرا سيئا، فكثيرا ما يسعى البيروقراطي غريزيا إلى تأجيل اداء هذه المهمة الخطرة والمزعجة. وكتب محمد حسنين هيكل في «الاهرام» بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٦٨ ان الاسرائيليين وضعوا في اعتبارهم هذه الخصيصة من خصائص طباع المصريين عندما شنوا حرب ١٩٦٧. فهم لم يستطيعوا ضرب القواعد الجوية المصرية كلها في وقت واحد، فهاجموها على موجات مع فاصل زمني بينها لبضع دقائق، مقدرين تقديرا سليما ان قادة القواعد لن يبلغوا القيادات الاعلى فورا بالانباء السيئة، ولن تعلن حالة التأهب الشامل على الفور. وبالفعل كانت الضربة مباغتة حتى عند قصف المطارات البعيدة. وكتب هيكل: «ان هذا العيب اعطى للعدو عشر دقائق كان في حاجة إليها لشن الهجوم المباغت على احدى عشرة قاعدة جوية. ووجهت الضربة الأولى إلى المطارات الامامية في سيناء، لكن عيب السلوك لعب دوره في عدم انذار المطارات الاخرى بسرعة، واهدرت الدقائق الثمينة». ان مطالب الحياة الحديثة تملي طريقة السلوك، وليس بوسع الشخصية القومية، ان تبقى ثابتة بل هي تتغير، ولكن هذه العملية تستغرق زمنا طويلا.

ومع ذلك يعتبرون في مصر قول الحقيقة في وجه الحاكم اسمى مظاهر الكرامة الانسانية.

وبالطبع فليس الحرص على الكرامة في مصر امرا مطلقا بل هو امر نسبي. وهو يتعلق في المقام الاول بشرف الاسرة وشرف المرأة. وعندما كنت طالبا في القاهرة، وفيما بعد ذلك، شهدت حالات استخدام الضرب من الكبار ضد الصغار ومن صاحب الدار للخادم، وذات مرة شاهدت ضابطا يضرب جنديا. وليس ثمة مجال للكلام عن الكرامة في هذه الحالات. فالكادحون المصريون يعرفون جيدا كيف يصبرون على الظلم الواقع من أعلى وعلى انتهاك الكرامة الانسانية، ولذلك لا يثير الضرب فيهم تفجر العنف المضاد. اما اذا تطاول اصحاب السلطة على شرف العائلة او الام او الزوجة فسيواجهون الرد.

ان الحياة في الجماعة وارتباط الفرد بالمجموع قد اوجدا قواعد للتعامل البشري بين المصريين لا يمكن الا ان تثير فينا الاعجاب بهم وبغيرهم من العرب. فالكرم والادب خصال تسري في دماء المصريين، ناهيك عن العناية والاهتمام بالاصدقاء. فاذا كنت تسير في الشارع واومأت برأسك مبتسما لاحد «الغلابة» ممن يتكسبون من عارض الاعمال، وكان في تلك اللحظة يعد لنفسه شايا ثقيلا ـ هو فرحته الوحيدة ـ على «وابور جاز»، فسيكون رد فعله الفوري قوله: اتفضل، عارض عليك بذلك ان تشاركه وليمته المتواضعة.

ولم اصادف وصفا لمثل هذه العادات في مصر القديمة. والاقرب إلى الصواب ان العرب هم الذين جاءوا بها إلى مصر وادخلوها في طباع الشعب العربي المصري. ان الكرم يعتبر واجبا وشرفا يمليه الوضع الاجتماعي. فمن العار بالنسبة للمصري ان يشتهر بانه بخيل او لم يكرم وفادة الضيف. ومع ذلك فالفلاح حتى في ايامنا هذه لا يستطيع ان يتفوق على البدوي في الكرم.

والكرم يسير مع الادب جنبا إلى جنب. ونادرا ما تصادف الوقاحة المتعمدة، الا اذا خلطت بينها وبين الاستهتار. وقد يظهر ذلك في باص غاص بالركاب او في ادارة حكومية نسيت ان تدفع فيها البقشيش. اما في مجال الخدمات، حيث تدفع

مقابل الخدمة، فمن المستحيل تقريبا ان تصطدم بالوقاحة ولكن خشونة الاعلى درجة تجاه الادنى امر ليس نادرا في الاوساط البيروقراطية خاصة.

ان الادب لا يعني التبسط. والمصري يقدّر بدقة الوضع الاجتماعي للشخص في السلم الاجتماعي. فالتبسط في معاملة الاشخاص الادنى درجة محفوف بخطر ان تفقد الاحترام في اعينهم وتسمح لهم بالتسلط عليك.

والمصري يعطي للجماعة ويأخذ منها، يخضع للجماعة وينعم بثمرات هذا الخضوع. ولكن الوضع يختلف في معاملته للدولة وللسلطة وللآلة البيروقراطية. فلقد اشار كارك ماركس في حينة إلى الوظائف الخاصة للدولة في الشرق باعتبارها موزع الاشغال العامة ومنظم شبكة الري على المستوى القومي. ولكن وظائف كبير مهندسي الري التي كان يتولاها، في الغالب، حاكم مصر في عصر ما قبل الاسر، قد تراجعت منذ آلاف السنين إلى المركز الثاني مفسحة الطريق لوظائف الاستبداد الطبقية البحتة. اما بالنسبة للبيروقراطية الحكومية فقد اصبحت مهام انشاء وصيانة القناطر والسدود والترع وتوزيع المياه مهام ثانوية بالنسبة للمسألة الرئيسية الا وهي اعتصار السكان ونهب الفلاحين، واستخدام كافة وسائل التأثير العسكري - البوليسي والقضائي - البيروقراطي والعقائدي - الديني، وذلك من اجل تحويل الفلاحين والشعب إلى ماشية عمل مطيعة سلسة القياد. وكان الشعب يعرف او كان يشعر غريزيا انه بدون الري المنظم على مستوى الدولة تستحيل الزراعة والحياة معا. وبهذا المعنى فقط كان الشعب «يأخذ» من الدولة.

وفي أيامنا هذه «يأخذ» الشعب من الدولة امكانية التعلم في المدرسة والحصول على قدر ما من المعونة الطبية ولا شيء اكثر من ذلك. والشعب قد «اعطى ويعطي» اكثر من هذا بكثير وذلك بكونه الاساس الذي قام عليه هرم الطبقات والفئات الطفيلية التي تنهبه وتعيشه على الكفاف لكي تغرق «القمة العليا» في الترف وتستمتع بالنعيم. ورغم تبدل الحكام والانظمة واللغات والاديان فقد ظلت العلاقة بين «القمم» و«الحضيض» على ما هي عليه. وكان نظام الرئيس عبد الناصر المحاولة الوحيدة في التاريخ لتغيير هذا الوضع.

لقد قامت العلاقة بين السلطة والشعب ومازالت تقوم على عدم الثقة والعداوة. وغالبية المصريين على يقين بأن السلطة شر. وليس عجيبا ان السلطة، منذ ايام الفراعنة، اعتمدت على القوات الاجنبية. وانتهى الامر بان اصبحت الشريحة الحاكمة هي ايضا اجنبية (رغم انها متمصرة) وظلت كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولم يبدأ المصريون في دخول الجيش للخدمة العسكرية كجنود فقط الا في عهد محمد علي الذي اصبح بالفعل حاكما مستقلا لمصر في النصف الاول من القرن الماضي. وحتى الآن ما زالوا يقولون عن الجيش «جيش السلطة».

وقد تغير وضع الجيش لفترة قصيرة في عهد عبد الناصر وفي فترة حرب اكتوبر ١٩٧٣. وقد غنى المغني الضرير الشخ امام معشوق الشباب ذي الميول الثورية من كلمات الشاعر احمد فؤاد نجم عن الجنود الذين حاربوا في سيناء: «همّ مين، همّ مين؟ همّ ولاد الفلاحين» ولكن بعد عبد الناصر اصبح الجيش المصري مرة ثانية «جيش السلطة». وحتى في زمن السلم يودّع المجنّد للخدمة العسكرية بالبكاء والعويل. والفقير الذي لا يستطيع رشوة الطبيب او الذي لا يدفع بدل الخدمة هو الذي يجنّد للخدمة العسكرية.

ان لعبة البيروقراطية لم تغير كثيرا في موقف الشعب من السلطة. وقد رسم توفيق الحكيم في كتابه «يوميات نائب في الارياف» صورة مفعمة بالسخرية «للانتخابات» في الريف المصري والتلاعب بأصوات الناخبين، عندما ذكر مأمور البوليس انه يترك للفلاحين «مطلق الحرية» في انتخاب من يريدون، ثم يغير صناديق الانتخابات بعد التصويت بصناديق اخرى معدة سلفا.

وها قد مر نصف قرن منذ ذلك العهد، ولكن جريدة «الاهالي» الناطقة باسم حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي تكتب عن انتخابات مجلس الشعب في مايو ١٩٨٤ انها مزورة، وان الحكومة حصلت على الاغلبية بالقوة والتزوير والابتزاز. وذكرت الجريدة في افتتاحيتها ان الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم «قد وأد الامل في الديمقراطية والحرية في مصر.. ولم يقف الامر عند حد التدخل السافر للوزراء والجهاز الاداري في الحملة الانتخابية واستغلال اموال الشعب والصحافة القومية

والاذاعة والتليفزيون لمصلحة الحزب الحاكم، بل تعداه إلى التزييف المباشر والتزوير للحفاظ على سلطانه». واستطردت الجريدة قائلة: «ان عشرات آلاف الناخبين منعوا من الادلاء بأصواتهم» وفي تلك الدوائر التي كانت للمعارضة فيها فرص كبيرة للنجاح ومواقع قوية ورشح فيها اقطاب النظام انفسهم «لجأ الحزب الحاكم إلى العنف المباشر والتخويف والتهديد». وهناك كان ممثلو المعارضة اما يطردون بالقوة من اللجان الانتخابية واما يمنعون اصلا من الدخول إلى اللجان. واختطف بعض مرشحي احزاب المعارضة واحتفظ بهم كرهائن، وجرت محاولات اعتداء على حياة عدد منهم. وهاجم الاشقياء المأجورون اعضاء اللجان الانتخابية الذين حاولوا التمسك بالقانون. وجرى ذلك كله امام اعين الشرطة التي وقفت بعدم تدخلها هذا «في صف الارهاب» عمليا. ومضت جريدة الاهالي تقول انه في غياب ممثلي المعارضة القى اعضاء الحزب الحاكم في صناديق الانتخابات بطاقات مزورة. وان «الامل بتغيير ديمقراطي هو وهم، واللغة الوحيدة التي يجيد حكامنا التحدث بها هي لغة القوة».

ويفضّل الفلاح حل مشاكله بدون اللجوء إلى السلطات اذ يدرك انه لن يجد في الادارات الحكومية سوى المماطلة والابتزاز. ولهذا تتحدث الامثال الشعبية عن ضرورة الابتعاد عن السلطات، وان من يعيش بعيدا عن السلطات يعيش في امن وسلام. بيد انه من الصعب الافلات من سلطة الحاكم، ومن يفلت من الحاكم لا يفلت من الموت.

والعلاقة بين الشعب والسلطة مفعمة بالخوف والريبة. فالمصريون ايضا يعرفون المثل القائل «الحيطان لها ودان» (للجدران آذان) ويقال ايضا «سيف السلطان طويل». ونجد الموقف نفسه تجاه الشرطة: «حاميها حراميها». والجيش ايضا كان تقليديا قوة قمع فانعكس ذلك في الامثال الشعبية التي تستبعد امكانية اللجوء إلى الجندي طلبا للحماية.

وتتحدث الامثال كذلك عن ضرورة الخوف من الحكام، واذا سببتهم فليكن ذلك همسا. غير انه ينبغي ان تتعاون مع السلطة. واذا احتجت إلى خدمة وكان عليك ان

تدفع رشوة فافعل. ويتحدث كثير من الامثال عن الطاعة والاذعان والاستسلام، وتنصح بعدم مجادلة الحكام وتفضيل الصبر الطويل والتسليم بمشيئة القدر.

ان كثيرا من الامثال التي نبعت من الاحساس باليأس وغياب آفاق الحل قد ساعدت بعد ذلك هي نفسها على ايجاد جو اجتماعي - سيكولوجي مكّن الحاكم من سوء استغلال السلطة دون ان يلقى مقاومة، اي جعله «يتفرعن»... والمعروف ان كلمة «فرعون» في اللغة الشعبية الدارجة تعتبر رمزا للاستبداد والظلم.

والمصري لا يحب تحمل المسؤولية الشخصية لانه يرى فيها مصاعب ومخاطر تهدده هو واسرته. وهو لا يريد ان يكون له رأيه الخاص المستقل. والامثال الشعبية تتحدث عن ضرورة اخفاء الرأس بين بقية الرؤوس حتى لا يطاح بها وتنصح بان يكون المرء اول من يذعن وآخر من يثور، اي نموذجا للشخص الذي لا يرى ولا يتكلم ولا يسمع.

ولكن وضع القريبين من السلطة ومن الجهاز الاداري والذين يعيشون عيشة طفيلية وضع مختلف عما دار عنه الحديث آنفا. فهم يأكلون على حساب الفلاحين ولكنهم خدم السلطة، والشعب لا يحترمهم، لان الذي يقيم رفاهيته على رفاهية الحكام والامراء لا يمكن ان يعيش عيشة محترمة ويتحول إلى انتهازي ومتطفل.

وثمة عدد من الامثال الشعبية التي ترسم صورة مثالية للحاكم. ومتطلبات الشعب تجاه الحاكم بسيطة، ولكن كما يقال: «هو في واد والشعب في واد آخر» ويفصله عن الشعب بطانته وخدمه. والمثل يقول: «اذا اردت ان تطاع فمر بما يستطاع».

والمثل القائل: «اذا تهاون الحاكم تفرقت الرعية» يعني ان الحاكم اذا كان ضعيفا فسوف يدب الاضطراب بين رعيته. ومن ثم يعطي مثل آخر نصيحة قاسية: «اضرب المربوط يخاف السايب».

والانسان البسيط لا يؤمن بقوة القانون وعدل الهيئات الحكومية. والعلاقات

بين العشائر والعائلات تحكمها عادة الثأر التي دخلت مصر، فيما يبدو، مع عرب الجزيرة اكثر مما تحكمها الشريعة والقوانين المدنية.

بيد ان موقف السكان من السلطة معقد ومتناقض، فهم لا يثقون بالحكام ويكرهونهم وفي الوقت نفسه ويحسدونهم ويتملقونهم ولو ظاهريا. ويشير لاين إلى ان «العناد الفائق والتمرد يتعايشان لدى المصريين مع التزلف في الحركات والكلام». فحياة الفرد ومعيشته ونشاطه الاقتصادي ونجاحه وتوفيقه لا تتوقف على قدراته وجهوده بقدر ما تتوقف على حسن علاقاته باصحاب المراكز. والنفاق والتزلف عيب منتشر، رغم انه يصيبب البيروقراطية قبل غيرها. فالتدرج الهرمي للمجتمع يتطلب الطاعة والاذعان، والاستسلام يعزز الاستبداد. فحتى الموظف المصري الصغير يشعر بالفرحة عندما يحصل ولو على قدر ضئيل من السلطة الفعلية. وهو يقرن حصوله على مركز في سلم البيروقراطية بالتشريف والتكريم وبامكانية الاثراء الشخصي. وحتى وقت قريب كان اعظم تكريم لخريج الجامعة ان يحصل على وظيفة حكومية.

واذا كانت السلطة لا تفترض المسؤولية فانها تصبح حلوة المذاق بدءا بدرجاتها الدنيا. بهذا وحده يمكنني ان افسر سلوك احد رواد المقهى البادي الفقر والذي يطلب فنجان قهوة بكل عظمة، او يمد ساقيه لكي يلمّع له منظف الاحذية حذائيه. وبنفس الاستمتاع ينادي احد النظارة في قاعة السينما بائع الكوكا كولا او اللبان، رغم ان هذه البضاعة متوفرة بسعر ارخص في الكشك امام دار السينما. ولكن من الممتع ان تحس بنفسك باشا ولو للحظة.

والمصري لا يتصور المجتمع بدون تسلسل هرمي، بدون سلطة. ويقول المثل الشعبي: «اللي ما لوش كبير يدوّر له على كبير». ويسود يقين بضرورة الحكم والسلطة المدنية او الدينية. والشعب يسخر في امثاله ونكاته من الحكم والحكام، ولكن المصريين يشعرون في احدى زوايا النفس بالحنين إلى حاكم قوي ولكنه عادل وحكيم.

وتتمثل خصيصة البنية الانتاجية والاجتماعية لمصر في ان الكفاح ضد

السلطة المركزية امر في غاية الصعوبة. فهذا الكفاح ينبغي ان يكون شاملا والا فهو محكوم بالفشل، او يكون مؤامرة في القمة، ولكنه في هذه الحالة لن يكون كفاحا ضد السلطة بل صراعا من اجل السلطة. لقد ظل المركز دائما اقوى من اي اقليم. كما يرجع ذلك ايضا إلى استحالة تدمير شبكة الري التي تمد الجسم بالحياة كالعروق بالدم. وقد شهدت البلاد اقصى درجات التدهور في فترات ظهور النزعة الانفصاليةبالذات، كما حدث في القرن السادس عشر الميلادي مثلا قبيل الغزو العثماني، او في نهاية القرن الثامن عشر قبيل حملة نابليون، علما بان وحدة الجهاز الاقتصادي المركزي آنذاك لم تمس، بل فقط لم يحافظ عليه المحافظة الكافية.

ولم يلجأ الشعب وهو في غاية اليأس إلى التمرد ضد السلطة الا في الحالات القصوى، ولكن حتى في هذه الاحوال النادرة كان المتمردون من الفئات الفقيرة في المدينة وليسوا من الفلاحين فالفلاح يفضل الصبر طالما لا يهدده الموت.

ولم يكن بوسع الفلاح ان يهرب إلى مكان آخر، لا لانه كان مربوطا بالأرض بقيود قانونية وانما لانه لم تكن في البلاد اراض اخرى ومصادر اخرى للمعيشة، فالصحراء تمتد محيطة بكل شيء.

لقد انحصرت افكار الفلاح وتطلعاته في البقاء على قيد الحياة. بيد ان الفلاح المصري كان اول من لجأ إلى المقاومة السلبية وإلى العصيان المدني في التاريخ. فالفلاح المصري يجيد اجادة تامة اساليب عدم تنفيذ الاوامر، والتهرب من الضرائب، والتنصل من تنفيذ التعليمات التي ليست في صالحه والتظاهر بالموافقة ثم القيام بعكس المطلوب... الخ.

لقد كان معظم المصريين غرباء في مجتمع يعيش على حسابهم. ولم يكن بوسعهم ان يؤثروا على سير الاحداث. وكانت قوة غريبة معادية تصدر القرارات وتلزم الفلاحين بتنفيذها دون مراعاة لمصالحهم او لآرائهم. وكان ذلك لا يقضي على القدرة على الحركة من اجل تغيير الامر الواقع فحسب بل وعلى الايمان بحقهم في التغيير وفي امكانية تحقيقه.

ويكن الفلاحون الاحترام للماضي في ظل غياب الامل في المستقبل. ويؤكد المثل الشعبي ان «اللي مالوش قديم مالوش جديد».

ويتميز موقف المصريين من الجديد بالحذر والريبة. وعندما سألت الفلاح الذي كان يتابع عمل الجرار: الا يريد ان يصبح مالكا لمثل هذه الالة، اجابني بحذر: «الجرار كويس، وهو احسن من الجاموسة في الحرث، ولا يحتاج لعلف. ولكن الجرار لا يعطي لبنا ولا يلد فحولا كالجاموسة، ولا يمكن ذبحه وبيع لحمه وجلده».

الفلاح يعيش يومه فقط. والتفكير في المستقبل والتخطيط له همّ ثقيل عليه. فالتخطيط الزراعي، اي السنة الزراعية، هي تكرار للماضي، وهي دورة معهودة منذ الازل للاعمال الزراعية حسب فصول السنة.

وعندما يخطط المصري لعمل شيء او يعد بعمله فانه يردد حتما العبارة الشائعة التي يعرفها كل من زار البلدان العربية: «ان شاء الله». سوف يجيئون إليك بعد ساعة، ان شاء الله. ويعدونك باصلاح الثلاجة او الحذاء، او احضار المشتريات، او حجز بطاقة، او تحديد موعد لقاء، وفي كل مرة لا بد من عبارة «ان شاء الله».

واذ يرى المصري ان السلطة تحرمه دوما من حق اتخاذ القرارات، بينما تكبله العادات بقيودها الصارمة، فانه كثيرا ما يفقد روح المبادرة والشطارة. لقد استوعب من خبرة الاسلاف ان العقاب دائما ما ينزل باصحاب المبادرة، وفي احسن الاحوال فهي بلا فائدة، وما اقل ما يتوقف على شطارته. وافضل وسيلة للحفاظ على راحة البال هي الخضوع او التظاهر بالخضوع والقاء عبء المبادرة على الآخرين. وعندما لا يوجد من يستعد لتحمل مسؤولية القرار فان المصري يفضل الخمول.

فاذا كانت السلطة او الدولة ـ سواء كانت قوة مجردة ام قوة محددة تماما ومتجسدة في صغار الموظفين ـ لا همّ لها الا محاولة القاء المسؤولية على الفرد والعامل، فان رد فعله الطبيعي على ذلك هو التهرب من المسؤولية والتنصل منها. افليس الله هو المسؤول عن كل شيء؟ اوليس القدر هو الذي يحدد ترتيب الاحداث وترابطها وتفاعلها؟ اليست الخبرة الذاتية تعلّم ان المسؤولية كانت تعني دائما وابدا

الخسارة لا الربح؟ ان التصدي لاتخاذ القرار يعني تحمل المسؤولية، وهذا بالضبط ما ينبغي تجنبه.

ويكتب عزت حجازي: «ان احدى سمات الفلاح المصري هي التهرب من حل المشكلة وتشتيت الجهود في ظل تفاقم الازمة عندما يتطلب الامر حشد العزيمة او القوى للنضال وللمواجهة». وينعكس ذلك في الفلكلور المصري والاغاني المصرية. فالفلاح يمضي بشكواه إلى ضريح الشيخ المحلي او إلى احد المؤ حوذين... ولكن ذلك يحدث بعد ان ييأس الفلاح من العثور على نفس حية يبثها شكواه.

لا يمكن التنبؤ بفيضان النيل وبإرادة السلطة، وليس للفلاح عليهما تأثير، ولذلك فأفضل شيء ان يعتمد على القدر وعلى الله. فلن تغير الجهود البشرية مهما كانت قوية. ولذلك فالأفضل ان يصبر ويذعن.

«الصبر خير»، «الصبر طيب»، «الصبر جميل» تلك هي الحكم الشعبية الواسعة الانتشار في مصر. تسمعها تتردد باستمرار، وتراها مكتوبة بالزخارف على جوانب الشاحنات وعلى واجهات الدكاكين وفي الدواوين الحكومية. واصبح الصبر، وليس المبادرة او الكفاح، هو السبيل لبلوغ المأمول، والوصية الأولى لدى الشعب، الوصية التي تكاد تسبق الايمان، والفضيلة التي لا تتزعزع. وتضفي الامثال الشعبية على هذه السمة من سمات الطباع مسحة الهية (الله يحب الصابرين). لقد صبرت ايام الفراعنة، وايام الرومان، وايام البيزنطيين، وايام الخلفاء، وايام السلاطين وفي عهد الملك، صبرت دائما وفي كل العصور. فلتصبر الآن ايضا، في ظل الرأسماليين والاقطاعيين، اصبر على البرد والحر، على الجوع والعطش، على الظلم والذل، اصبر واعتمد على الحظ. لذا يقول المثل «قيراط حظ ولا فدان شطارة».

فاذا فاتك الحظ في هذه الدنيا فستنال ما تريد في العالم الآخر. ومن ثم فالسلوى الوحيدة للفلاح هي الامل بالعدالة والغنى في الآخرة. والسلوى الثانية هي

الاطفال. فلتصبر ايها المصري وعندئذ تبقى على قيد الحياة. وفي الصبر يسهل الحفاظ على الكرامة.

والصبر تؤمن به الفئات الدنيا، غير ان القمم العليا تعظ به. وقد سمى الباحث المصري حسن حنفي العظة بالصبر المقترنة بالاتكال على القوى الغيبية «افيون الشعوب». فهي تسهل وتبرر الاضطهاد، وتحوّل الفقر إلى فضيلة، وتدعو إلى القناعة بالقليل وعدم المطالبة بتغيير القسمة، وتقضي على فكرة العصيان والمقاومة، وتبرر الانانية والطفيلية والبذخ الذي يعيش فيه عليّة القوم. فكل ما يجري هو خير في هذا العالم الخيِّر. ولا داعي لتغيير شيء، ونصيب العامل ان يعمل ويعتمد على الله ويصبر.

ان القدرة على التحمل والصبر والنزعة القدرية تجعل من المصري جنديا جيداً. وقال لي الضباط السوفييت الذين عملوا مستشارين في الجيش المصري: «من الفلاحين المصريين يمكن اعداد مقاتلين ممتازين. فالجندي المصري ليس اسوأ من الاسرائيلي اذا واجهه فردا لفرد بل هو، على الارجح، افضل منه». وقد كرروا بذلك الوصف الذي اعطاه لاين للمصريين منذ مائة وخمسين عاما حين كتب: «الفلاحون الخاضعون للسلطة يبدون بسالة وشجاعة في الصدامات التي تنشب بينهم. ومنهم يتكون جنود ممتازون». ولكن الحرب الحديثة تتطلب سرعة اتخاذ القرارات وابداء المبادرة والالتزام بالتنفيذ والدقة في التقيد بالمواعيد وتنسيق التحركات مع توفر عناصر الثقافة العامة والتعليم التقني. ولهذا فكثيرا ما يكون الفصيل الاسرائيلي عموما اقوى من المصري. وتتغير موازين القوى تغيرا حادا على مستوى الوحدات والتشكيلات حيث يمكن ان تؤدي المقارنات الحسابية البسيطة إلى الوقوع في الخطأ.

والصبر يقتضي الرصانة في السلوك وفي الكلام. ان المسلك المحترم الوقور هو سمة لا غنى عنها للكهول او كبار السن.

بيد ان الصبر والحرص على رصانة المسلك والتعبير عن العواطف لا يعني ابدا الخلو من الاحاسيس والبلادة. فالعاطفية لدى المصريين تمضي جنبا إلى جنب مع

صبرهم. وهم سريعو الانفعال والغضب الذي لا يعرف حدودا. ومن السهل ان يثيرهم أي تحرش. وقد اشار لاين إلى ذلك: «من السهل ان تنشب المنازعات بين المصريين، وخاصة بين بسطاء الشعب، وعندئذ تنصب اللعنات على الاباء والامهات واللحى وغيرها، وكلمات السباب مثل «ابن الكلب» و«المعرّص» و«الخنزير»... وعندما يسب احد المتخاصمين ابا الاخر فان هذا بدوره يرد عليه سابا اباه وأمه واحيانا جميع اسرته. وقد تنهال التهديدات كالمطر ولكنها نادرا ما تتحول إلى لكمات. وللحقيقة فقد رأيت عدة مرات اشخاصا من الفئات الدنيا وهم يعضون بعضهم بعضا في سعار ويمسكون بتلابيب بعضهم البعض. كذلك شاهدت نماذج لرباطة الجاش والصبر بين اناس من الفئات المتوسطة والعليا عندما وجهت إليهم اهانات فظة. وسمعت غير مرة قول المصري الذي تلقى ضربة من شخص مثله: «ربنا يسامحك، ربنا يجازيك خير! اضربني كمان»!.

وقد تابعت غير مرة مشاحنات في الشارع، عندما كانت الاهواء تتأجج والسباب ينهمر دون حساب، والصراخ يتعالى، ولكن الامور نادرا ما تصل إلى حد الاشتباك بالايدي. ان التركي مثلا سوف يضرب ردا على نصف هذه الكمية من السباب الذي كيل. لكن المصريين يعرفون الحدود وهم يهدأون بسرعة. والنزاع اذ ينشب سرعان ما يهدأ.

ويكتب الباحث الاجتماعي المصري الدكتور سيد عويس: «نحن المصريين نحب النكتة، ونحن خبراء كبار في النكات. اننا نحب الاغاني والفرفشة، ومع ذلك فنحن شعب كثير الحزن. اننا نبكي عندما نحزن، ونبكي ايضا عندما نفرح.

اننا نضحك عاليا ولكننا قليلا ما نبتسم. واذ بكينا نبكي بعالي الصوت. ونحن كثيرا ما نحزن، ونادرا ما نغضب، ولكن اذا غضبنا فان الغضب يتملكنا ويملأ صدورنا ويشل قدرتنا على التفكير الموضوعي. واذا غضبنا فسرعان ما نهدأ، ويزول غضبنا في سرعة البرق».

ومن السهل اثارة الجماهير المصرية. وهذا ما يعرفه الساسة ورجال الدين. ويجري التأثير العاطفي والتفاعل بين الخطيب والمستمعين بواسطة البلاغة،

ويستطيع الخطيب الجيد ان يتوصل إلى ذلك بسهولة. والخطيب المتمرس يخاطب المشاعر قبل العقل. وليست هذه الظاهرة فريدة، ولكنها مميزة للمصريين. لقد كان جمال عبد الناصر معبودا حقيقيا للجماهير، غير ان السادات ايضا لم يكن خطيبا عاديا. ومواعظ الجمعة في المساجد يمكن ان تستولي على لب المصلين وتبهرهم. والمصريون يحبون التواجد في الجمع وفي الجماهير، والمشاركة في المؤتمرات الحاشدة والمظاهرات، التي يعتبرها الكثيرون منهم عملا ترفيهيا نادرا ما تجود به الحياة. وفي عهد السادات كانوا يدفعون للفلاحين او لفقراء المدينة بقشيشا حوالي جنيه او جنيهين مقابل المشاركة في المظاهرات، حيث كان عليهم ان يصيحوا ويهللوا بل وان يرقصوا احيانا، اي «ان يعملوا» مقابل ما حصلوا عليه، دون ان يفكروا في المغزى السياسي للتجمع الذي اشتركوا فيه. اما الوسيلة المصطنعة الاخرى لاثارة الحماسة فهي استخدام «المشجعين» المتناثرين وسط الجمهور، والذين يقومون عادة باطلاق الهتافات ذات الايقاع والداعية إلى تأييد الزعيم والمتفقة في المعنى مع ما يقوله الخطيب، وان كانت في احوال كثيرة لا تتناسب معه. ويردد الجمهور وراءهم هذه الهتافات بكل استعداد، خاصة اذا كانت الحماسة صادقة او مدفوعة الاجر، وتنشأ وحدة - او وحدة مظهرية - بين المتحدث والسامعين، بين الزعيم والشعب. واخيرا فهناك مخبرون للشرطة او عملاء خصوصيون للحزب الحاكم يراقبون الوضع بحيث لا تردد هتافات مضادة. وليس غريبا ان الاستقبالات الجماهيرية المصرية تثير الاعجاب لدى الزعماء السياسيين الغربيين، حتى المحنكين منهم، والذين لم يألفوا رؤية هذه العواطف المتأججة.

لقد شهدت مصر في ربع القرن الماضي ثلاثة انفجارات لعواطف الجماهير عكست ميولها السياسية. وقد وقع اول هذه الانفجارات اثر خطاب جمال عبد الناصر الذي اعلن فيه تنّحيه عن رئاسة الجمهورية في اعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧. ولم يستطع المذيع الذي قدّم الرئيس آنذاك ان يتحدث بعد خطابه فقد غصّ بالبكاء. وحلت بضع لحظات من السكون في جميع ارجاء البلاد، ثم انفجرت صيحة واحدة من افواه الملايين العديدة: «لا!». وتدفقت الجماهير المعولة فملأت شوارع المدن

المصرية من اسوان إلى الاسكندرية وظلت تهدر في الشوارع طول الليل، معربة عن ولائها للرئيس. واكتسحت الساسة والجنرالات الذين كانوا يبحثون ترشيح خليفة عبد الناصر كما يكتسح الفيضان الشظايا الصغيرة، وبقي عبد الناصر في السلطة.

وخرجت الجماهير إلى الشوارع للمرة الثانية بعد ذلك بما يزيد قليلا عن ثلاث سنوات لتشيع جثمان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. واحتشد في القاهرة خمسة ملايين شخص وقد استولى عليهم حزن حقيقي.

وعرف عهد السادات ايضا انطلاقة العواطف الشعبية، السلبية في هذه المرة.

فثمة حدود لصبر المصريين، وبعدها يتفجر العصيان. والمثال الساطع على ذلك، وان كان نادر الحدوث، هو خروج الملايين الغاضبة إلى شوارع المدن المصرية في يناير ١٩٧٧ ردا على قرار الحكومة بزيادة الاسعار.

ففي ١٨ يناير اعلن رفع اسعار الخبز والسكر والارز والبنزين والغاز. لقد جرى تخفيض الدعم الحكومي لسلع الاستهلاك الشعبي ومن ثمّ ارتفعت الاسعار. وكان الكثيرون آنذاك، ان لم تكن الاغلبية، يعيشون على عشرة قروش في اليوم، الامر الذي يعني تناول وجبتين فقط في اليوم من الخبز والفول وقليل من الخضرة. ورفع الاسعار الذي يؤدي إلى زيادة النفقات ولو قرشا واحدا يضعهم على حافة الجوع. لقد كانت عناصر التوتر تحوم في الجو عشية المظاهرات. فالذين يعيشون على الفول والخبز كانوا يرون امام اعينهم اثرياء الانفتاح الجشعين الذين يعرضون ثرواتهم بكل وقاحة. وبجوار الركاب المعلقين على سلالم الباصات المكتظة كانت تمر العربات الفارهة التي تكاد تماثل الباص طولا ويجلس فيها راكب واحد. والاشخاص الذين يحصلون على خمسة عشر جنيها في الشهر لعائلة كاملة كانوا يقرأون عن سرقات بآلاف بل وملايين الجنيهات. وترقبا لارتفاع الاسعار اخفى التجار السلع في المخازن وبدأ الارز والسكر يختفيان من المتاجر. وبدأت الاضطرابات عفويا فور اذاعة نبأ رفع الاسعار، وانطلقت من حلوان، ضاحية القاهرة الصناعية. وشملت الاضرابات عدة مصانع بما فيها المصانع الحربية.

وخرج العمال إلى الشوارع حيث اقاموا المتاريس. وانطلق جزء منهم إلى وسط القاهرة، إلى ميدان التحرير، حيث انضم إليهم طلبة جامعة عين شمس. ثم توجهوا إلى مبنى مجلس الشعب بعريضة احتجاج، لكن الشرطة فرقت المتظاهرين باستخدام قنابل الغاز المسيّل للدموع.

وملأ مئات الآلاف شوارع القاهرة. واقام المتظاهرون متاريس من اطارات السيارات القديمة واشعلوا فيها النار. وبدأت الشرطة باطلاق النار فقتل وجرح مئات الاشخاص. وتسلح المتظاهرون بالهراوات والحجارة. وفي الاحياء العمالية اضرمت النار في اقسام الشرطة. وحاول المتظاهرون اقتحام مديرية الامن العام لمدينة القاهرة، ولكن قوات الشرطة منعتهم من ذلك. وفي الجيزة خرج إلى الشوارع طلبة جامعة القاهرة.

وراح المتظاهرون ينزعون ويدمرون اعلانات السلع الاجنبية ويحطمون واجهات المتاجر التي تبيع سلع الاستهلاك الترفيهي ويهاجمون الفنادق الفاخرة مثل «الشيراتون»، ويحطمون زجاج السيارات الفخمة ويشعلون النار في سيارات الشرطة والمطافئ.

واتخذت المظاهرات في الاسكندرية طابعا اكثر عنفا واستمرت من الصباح إلى ساعة متأخرة من المساء. واستخدمت قوات الامن القنابل المسيلة للدموع وفتحت النار على المتظاهرين، وأُضرمت النار في اقسام الشرطة وفي بعض المتاجر وفي مبنى الاتحاد الاشتراكي العربي بالمحافظة.

وفي اوج المظاهرات كنت في شارع القصر العيني المؤدي إلى ميدان التحرير، وكان المتظاهرون يهتفون «اولادنا جعانين» و«يسقط السماسرة واللصوص» و«الخبز، الخبز!». وكانوا يحملون صور الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

وسار المتظاهرون من الشاطئ الايمن للنيل إلى الشاطئ الايسر. وكانت السيارات المتجهة نحوهم تسرع بالعودة إلى الوراء بالسرعة الخلفية كما في شريط سينمائي يعرض بالعكس.

وفي اليوم الاول للمظاهرات ظل الوضع في المدينة غير واضح حتى المساء. وكان عليّ ان اجهز مادة اخبارية للصحيفة فغامرت بالخروج إلى المدينة في السيارة مع زوجتي، والتقطنا من الطريق بعض الركاب العابرين. كانت زوجتي تقود السيارة بينما اخذت انا أسألهم عما يحدث وأين. وكانت القاهرة شبه المعتمة ساكنة ولكنها مخيفة ومتوترة. وفي مكان بعيد تردد صوت طلقات قليلة. وفي شارع الاهرام لاحت فجوات سوداء مكان نوافذ النوادي الليلية المدمرة والمنهوبة. وكانت جميع اعلانات السلع الاجنبية التي لا يستطيع السكان العاديون شراءها مدمرة. وكان كوبري الجامعة خاليا. واختبأ سكان الاحياء الراقية وراء شيش النوافذ المغلق. ثم اخذ عدد الناس يتزايد كلما اقتربنا من الاحياء القديمة. ويبدو ان ميدان العتبة كان مسرحا لمعركة حقيقية، اذ كانت ارض الميدان كلها مغطاة بالحجارة والزجاج المكسور. وسدّ متراس مشتعل مدخل احد الشوارع بينما سدت فصيلة من الشرطة المزودة بالخوذات والدروع الواقية من الحجارة مدخل شارع آخر. وامتلأ الشارع المؤدي إلى الازهر بالبشر فانعطفنا بالسيارة نحوه دون تفكير في العواقب. وامتلأت سيارتنا بالصبيان المراهقين بينما جلس عدد من الاشخاص على مقدمة السيارة وعلى مؤخرتها. وأدركت من اقوالهم انهم يعتبروننا اغرابا معادين لهم. وكانت المسألة مرهونة بعدة ثوان، اذ كانوا على وشك ان يفتكوا بنا. وتمكنت من ان اصيح باللهجة المصرية: «حرامَ عليكم! خافوا من ربنا! ايه ده اللي عاوزين تعملوه فينا، دا احنا ناس طيبين!» وانتهزنا فرصة ذهولهم لبضع لحظات، فاستدرنا بالسيارة واندفعنا نحو الشرطة، وقفز الصبيان من ظهر السيارة ومقدمتها ومؤخرتها، وانفلت منهم من كان بداخلها قبل ان نصل إلى فصيلة الشرطة. ثم انعطفنا إلى الشارع الخالي الوحيد، حيث لم تكن ثمة متاريس او شرطة.

وانطفأت المصابيح، وفي بعض الاماكن اشتعلت النيران. ووجدنا كوبري ابو العلا المؤدي إلى الزمالك، حيث كنا نسكن، مغلقا بمتراس من اطارات مشتعلة، فتوجهنا إلى البيت عبر طرق ملتوية ومررنا مرة اخرى بكوبري الجامعة.

وفي اليوم التالي ابلغت المادة التي جمعتها إلى الجريدة فنشرت. وفي يوم ٢٠ يناير بعثت برسالة اخرى نشرت مختصرة للغاية. وقد بقي اصل الرسالة المكتوبة على عجل في ارشيف الجريدة، ويخيل إلى انه على الرغم من بعض العيوب الاسلوبية فانها تعطي صورة للمزاج السائد في تلك الايام. وسوف اوردها هنا كوثيقة، مع بعض الاختصار:

«القاهرة في ٢٠ يناير (من مراسل «البرافدا» الخاص). منذ يومين والعاصفة الرملية تعربد في سماء القاهرة وتقتلع الاشجار من جذورها وتؤجج لهيب الحرائق. وبالامس اندلعت المظاهرات المعادية للحكومة في القاهرة، وفي كل انحاء البلاد واتخذت ابعادا اكبر مما كانت عليه في اليوم الاول. واشتعلت النيران في المتاريس وفي بعض المباني في حي باب الخلق وميدان رمسيس والتحرير والموسكي وعرابي. وقد امتدت النار إلى محطات البنزين والمتاريس المقامة من الاطارات القديمة على خط السكك الحديدية «القاهرة - الاسكندرية» و«الجيزة - الصعيد» وإلى بعض اقسام الشرطة.

وقد وقعت اشتباكات بين المتظاهرين وقوات الامن، وقذف المتظاهرون رجال الشرطة بالحجارة واشتبكوا معهم بالعصي، وخيمت سحابة من الغازات المسيلة للدموع، وسمعت اصوات طلقات الرصاص. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر صدر قرار وزير الداخلية الذي يسمح للشرطة باطلاق النار على المتظاهرين، ويلقي مسؤولية الاحداث من جديد على «الشيوعيين المحرضين» دون ان يقدم ادنى دليل على ذلك. وبدأ اطلاق النار في كل انحاء المدينة. ولم تستطع الشرطة ان تسيطر على الوضع فاستدعيت قوات الجيش من المشاة الميكانيكية والصاعقة ونزلت إلى المدينة، واحاطت بالدوائر الحكومية الرئيسية ومبنى البريد والبرق والبنوك والمؤسسات الصحفية والجسور ومحطات السكك الحديدية. واذيع رسميا ان عدد القتلى في القاهرة بلغ ٢٩ شخصا، بينما بلغ عدد الجرحى في ميادين القاهرة الرئيسية وحدها دون حساب الجيزة وضواحيها ٢٦٧ شخصا. وبالامس لم يعمل النقل العام كله في القاهرة واوقفت الدراسة في جميع المدارس والجامعات.

واغلق القسم الاكبر من الدكاكين والمقاهي والمطاعم ودورالسينما ابوابها، والغيت المباريات الرياضية، وسيطر الشلل على الحياة في العاصمة المصرية. وفرض حظر التجول في القاهرة وضواحيها وفي الاسكندرية والسويس وعدد من المدن الاخرى من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى السادسة صباحاً. وظهر نقص في الخبز في بعض احياء القاهرة، ولذلك استثنى عمال المخابز من الخضوع لنظام حظر التجول.

وعزل حي مصر الجديدة تماما عن بقية المدينة، وانخفضت حركة الطيران في مطار القاهرة الدولي. واصبح ميدان رمسيس احد المراكز الرئيسية لمواجهة الشرطة، حيث التفت سحب الدخان على تمثال الفرعون الضخم. ودمرت فلنكات السكك الحديدية. وفي منطقة محطة السكة الحديد في امبابة بالجيزة استخدمت المصفحات ضد المتظاهرين.

ولا شك ان بعض العناصر الاجرامية او غير المسؤلة قد اندست بين المتظاهرين. بيد ان اتجاه الغضب الشعبي يشهد على طابعه الاجتماعي والسياسي، وان كان يعبر عن ذلك عفويا. وكتب شيخ الادب المصري توفيق الحكيم في جريدة الاهرام:

«ان الانفجار الشعبي في بلادنا يحول الجالسين على اكياس الذهب فورا الى جالسين على نار مشتعلة». وبالامس احرقت في شارع الهرم وميدان الاوبرا الكازينوهات والكباريهات والنوادي الليلية وبيوت الدعارة السرية، حيث كان الاغنياء المصريون الجدد والاثرياء السعوديون ينفقون في ليلة واحدة ما يعادل اجر العامل الماهر طوال عشر سنوات. وهوجمت اقسام الشرطة في كل مكان، وحاول المتظاهرون اقتحام مبنى وزارة الداخلية لكنهم ردوا على اعقابهم. ودمرت بعض مقرات حزب مصر الحاكم، ووزع الاتحاد العام لنقابات العمال المصرية بيانا ادان فيه قرار الحكومة برفع الاسعار.

وفي الاسكندرية نزلت قوات الجيش الى الشوارع ليلة امس واحتلت مواقعها وحاولت بالتعاون مع الشرطة منع المظاهرات.

واندلعت المعارك بين السكان وبين قوات الجيش والشرطة، واقيمت المتاريس. وتحول استاد الاسكندرية الرئيسي الى معسكر حربي تمركزت فيه وحدات الصاعقة. وتشير البيانات المنشورة في الصحف المأخوذة من ثلاثة مستشفيات الى ان عدد القتلى والجرحى في الاسكندرية بلغ ٢٥٠ شخصا ربعهم من الجنود ورجال الشرطة. وتوجه الصحف والاذاعة والتلفزيون بيانات الى السكان تطالبهم فيها بالتزام الهدوء، ولكنها لا تجرؤ على تكرار التلفيق الخاص بدور «العناصر الشيوعية المخربة»، وذلك لان التحرك الشعبي بلغ ابعادا ضخمة بحيث يصبح الحديث عن دور الشيوعيين اقرارا بان لهم نفوذا في اوساط شعبية عريضة.

وقد تحدث شيخ الجامع الازهر عبر الاذاعة والتلفزيون داعيا الشعب الى السكينة... (تلقت الرسالة بترنكو. الساعة ١٤,٤٥. انقطع الاتصال)».

«ومن الواضح ان الدوائر الحاكمة ارتبكت تماما ازاء قوة الانفجار الشعبي. واعلنت الحكومة عن وقف قرارها برفع الاسعار، وقدم نائب رئيس الوزراء الدكتور عبد المنعم القيسوني استقالته، وهو واضع السياسة الاقتصادية التقشفية للحكومة والمعروف بارتباطاته بالبنوك الاجنبية وبكبار اساطين البترول العرب. ولكن رئيس الوزراء ممدوح سالم رفض قبولها. واجتمع رئيس الوزراء ممدوح سالم ورئيس مجلس الشعب سيد مرعي عدة مرات للتشاور....

(تلقت الرسالة بودتياجكينا. الساعة ١٧,٤٠. انقطع الاتصال ثانية)».

وعدت اتصل بالتليفون من القاهرة في ٢٠ يناير ١٩٧٧، وارسلت الفقرة الاخيرة من الرسالة الصحفية:

«استمرت الاضرابات اليوم في مصانع الصناعات الثقيلة بحلوان، بيد ان العاصمة المصرية بدأت تعود الى حالتها الطبيعية. وفي الليل نظفت الشوارع وازيلت آثار مصادمات الامس. وعاد جزء كبير من وسائل النقل العام الى العمل، وخفضت مدة حظر التجول. ولكن الشاحنات والمصفحات المحملة بالجنود ورجال

الشرطة الذين ظلوا في المدينة تشير الى ان الوضع لم يرجع بعد الى حالته الطبيعية تماما».

وبعد وصف احداث الاسكندرية السابق اضيف هاتفيا هذه الفقرة: «ولكن هذه الارقام لا تشمل عدد المصابين باصابات خفيفة او الذين عولجوا في مستشفيات اخرى. وظلت النيران مشتعلة طول اليوم في مبنى الاتحاد الاشتراكي العربي وغيره من الهيئات. ووقعت مصادمات عنيفة بين المظاهرين ورجال الشرطة بجوار محطة السنترال وسقط قتلى وجرحى من الجانبين. وتقول جريدة «الاهرام» ان بعض مستشفيات الاسكندرية رفضت قبول حالات جديدة بسبب امتلائها بالجرحى.

وشملت الاضرابات والمظاهرات مدينة المنصورة، ومحافظة البحيرة ومدينة دمنهور ، واسوان، وقنا، واسيوط، والزقازيق. وفي كل مكان وقعت مصادمات بين المتظاهرين ورجال الشرطة وقوات الجيش، واضرمت النيران في اقسام الشرطة ومقر المحافظين. وفي السويس استولى المتظاهرون على مخزن للاسلحة والذخائر وخاضوا معركة ضد فصيلة من قوات الامن. وبلغ عد القتلى والجرحى في السويس وحدها بضع عشرات» (تلقت الرسالة بترنكو، الساعة ٢٠,٣٠).

واجبر المصريون الحكومة على الغاء قرار رفع الاسعار فهدأت ثائرتهم. ولكن جهاز القمع استمر يعمل بقسوة متزايدة فاعتقل بضعة آلاف شخص بتهمة «تدبير مؤامرة شيوعية». وصبر الشعب ولزم الصمت، ولكن الى حين.

المصريون يثورون بسرعة ويهدأون بسرعة. وهذا ينطبق سواء على الفرد ام على الجماعة. فبعد احداث يناير العاصفة عاد الناس الى شؤنهم وهمومهم اليومية.. ولكن لم يعودوا كلهم . ففي داخل الجيش كان يجري نسج خيوط مؤامرة ضد الرئيس.

وعندما اغتيل السادات شيعت جنازته في العاصمة. ولكن كان من الواضح ان المشيعين قليلون والحزن ايضا كان قليلا. وسار خلف نعش السادات ما لا يزيد عن ستمائة شخص.

ذات مرة عتب الكاتب المصري ابراهيم عبد القادر المازني على ابناء وطنه انهم يستسلمون لحياة الرفاهية والكسل ويتخلون عن النضال. اما عين الكاتب الاخر نجيب محفوظ الحادة واللماحة فقد لاحظت ان هذا اللوم لا يمكن ان يوجه الى الشعب المؤلف في اغلبيته من الكادحين، الذين يعيشون، حسب تعبير الكاتب ، وفق شعار . «من كلّ حسب قدرته، ولكل حسبما يمكن ان يقدم اليه من عون في حياته».

لقد عكس هذا الجدال الذي نشب بين هذين الاديبين المصريين في نهاية الستينات وبداية السبعينات الخلافات القديمة حول تقييم دأب المصريين على العمل. ان اي مراقب منصف لا بد من وان يرفض اتهام الشعب المصري بالكسل باعتبار ذلك نظرة عنصرية. وقد سبق ان تحدثنا عن دأب الفلاح المصري.

وقد اشار لاين من قبل الى ان « الكسل سمة تميز جميع فئات السكان ما عدا الذين يضطرون الى كسب عيشهم بالعمل البدني الشاق... ان الحمال، والسائس الذي يركض امام حصان سيده، والمراكبي الذي كثيرا ما يضطر في الجو الحار الساكن الى شد المركب من الشاطىء ضد التيار.. هؤلاء الناس يكدحون حتى يتصبب العرق من وجوههم».

لقد وصف لاين طباع المصريين من ابناء المدينة في الاساس. ولم يشر هنا الى الفلاحين لان جدهم ودأبهم واضحان للعيان.

الدأب سمة مميزة لغالبية السكان. وقد سبق وقلنا ان الفلاح يكدح في الحر والصقيع، في الوحل او في الحقل الجاف وكثيرا ما يكون شبه جائع. انه يكسب قوته وقوت اسرته بالكد. والتفكير السليم والخبرة والغريزة الموروثة عن الاسلاف تتطلب منه الدأب. فدورة الاعمال الزراعية وانواعها محددة منذ عصور سحيقة.

والاشكال التقليدية للتنظيم الاجتماعي وللايديولوجيا تحثه على العمل سواء بالاكراه ام بالاقناع ام بالحوافز المعنوية.

غير ان الفلاح لا يحتفظ دائما بدأبه عندما يستوطن المدينة وينفصل عن ظروف العمل والظروف الاجتماعية المألوفة لديه.

اذ ان اشكال العمل والانتاج العصرية والجديدة عليه تتطلب منه انضباطا مختلفا ونظرة مغايرة الى العمل وتحطيما للعادات والنفسية المستقرة. وكل ذلك لا يحدث في يوم واحد ولا في عام واحد. ان المصري تضغط عليه وترهقه المواصفات العصرية التي تتطلب انجاز العمل في مواعيد محددة، او مواعيد اللقاء الدقيقة. والاستهتار بالمواعيد سمة منتشرة بين المصريين ولكنها ليست ابدا وليدة هذا العصر. فقد سبق ان كتب لاين: «من النادر جدا ان ينفذ المصري الامر بدقة، فهو على الارجح سيفضل اداء العمل على طريقته ومن غير المحتمل ان ينهيه في الاجل الموعود».

ان جزءا صغيرا من فلاحي الامس، الذين اصبحوا من سكان المدينة يعملون الان في الانتاج الحديث، اي في مجال النشاط المعاصر. ويمتد امد البطالة وشبه البطالة فتصبح حالة مستمرة تؤثر على الناس تأثيرا مدمرا وتقضي على عادة العمل وتخلق ميولا طفيلية.

ويعتبر النظام الاجتماعي ـ السياسي وتركة الماضي العقبة الرئيسية (اذ استثنينا المرض والتغذية السيئة) في وجه زيادة المجهود العملي وكذلك المبادرة والشطارة. فالذي كان يعمل ويكد افضل واكثر كانوا يأخذون منه ضرائب اكثر. وكانت زيادة الجهد بأكثر من المعتاد لا تقابلها في العادة زيادة مناسبة في الخيرات المعيشية.

ولم يكن ثمة حافز لزيادة انتاجية العمل.

ان اخلاقيات العمل لدى المصريين بل ولدى جميع شعوب الشرقين الادنى والاوسط تقريبا لا تراعي حب العمل من حيث هو عمل، بل السعي الى ثمار هذا العمل. وامكانية تقليل المجهود المبذول تقدر تقديرا اعلى من ثمار الجهود الكبيرة. وقد سبق للاين ان كتب: «وحتى العمال، المتعطشون بصفة خاصة الى المال، ينفقون يومين على العمل الذي يمكن انجازه في يوم، وبوسعهم ان يؤجلوا اداء اكثر الطلبات نفعا من اجل ان يتمددوا ومن اجل ان يتلذذوا ويدخنوا الجوزة».

ان التعبير المعروف «الوقت من ذهب» والذي اصبح شعارا للنزعة العملية الرأسمالية لا يجد له صدى في قلوب غالبية المصريين. فلم العجلة اذا كان الهدوء افضل من الاقتناء واذا كان المزاج رائعاً؟ الا يقول المثل: «العجلة من الشيطان»؟

ويوافق المصريون على ان العمل من الامور المحببة الى الله، ولكنهم لن يعتبروا ابدا ان الفراغ وتضييع الوقت سدى ذنب من الذنوب. فهم لا يعتبرون العمل غاية للوجود الانساني رسمتها مشيئة الله.

وسأرجع هنا إلى ملاحظاتي الخاصة. ان بواب عمارتنا رجل يؤدي وظائف البواب والحاجب، ويجلس معظم الوقت على كرسيه في عظمة امام المدخل الرئيسي. ولم يكن يغسل سلم المدخل بانتظام، ولكنه حين يغسله، يغسله بالصابون، اما سلم الخدم فلم يكن يمسه. والقاذورات والفضلات التي يلقون بها كان يجمعها الزبالون الكبار والمراهقون، الذين يأتون بعربات يجرها الحمير. وهذا مثل آخر: في اكثر من مرة كان عامل غسيل السيارات يستأجر بعض العاطلين او الصبيان لينظفوا سيارات السكان، لكي يمضي هو ساعة او ساعتين في الحديث مع البواب وتناول القهوة.

والعمال المصريون المهاجرون يحظون بالاقبال في الدول العربية المنتجة للبترول. وبالطبع تعتبر مهاراتهم المهنية اعلى بما لا يقاس من مهارات بدو الامس. ومرتب العامل المهاجر، حسب المعايير المصرية، مرتفع جدا، ولكن الرقابة على العمل شديدة. واحيانا ما يعمل المصريون في الخارج بصورة مجهدة، ولكن الاغلبية يحلمون بالعودة الى البيت لكي يستريحوا من عناء العمل.

لقد كان العمل دائما امرا جبريا شاقا، وكان العامل عضوا مضطهدا في المجتمع، او بمعنى ادق كان شخصا خارج المجتمع. وليس من الغريب ان تكون ثمار العمل - وقت الفراغ والراحة — بالنسبة للفلاح والعامل والحرفي أهم من العمل نفسه. والمجتمع في مصر، كما في البلدان الاسلامية الاخرى، لا يعرف النظرة الى العمل كفريضة دينية او كواجب اجتماعي ولا يعرف ادانة الفراغ لدى شخص ثري،

على الرغم من وجود امثال شعبية تمجد الدأب والمثابرة وامثلة على ذلك من حياة النبي محمد. والمثل الاعلى للمصري العادي هو التمتع بنعيم الجنة، هذا النعيم الذي يتضمن كل ما يخطر على البال من ملذات، مع الفراغ التام.

والنظرة الى العمل من منطلق نتيجته تتجاوب مع النظرة الى الكسب. فكل مصري، ما عدا بالطبع الدراويش الحقيقيين او الثوريين العقائديين، يود ان يحوز من الخيرات المادية اكثر مما لديه. وتجد بين المصريين احيانا رجال اعمال مهرة ومستغلين لايرحمون وتجارا لا يعبدون الا العجل الذهبي. ومع ذلك فحتى المصري الجشع لا يخلو، على ما اعتقد، من نوبات سخاء. وهو مطالب بذلك من قبل الرأي العام، والدين، والتفكير السليم.

وهذه الصفات لدى المصريين ليست وليدة العصر الحديث. سأرجع في ذلك الى لاين الذي كتب: «ان المصريين كرماء وبخلاء في آن واحد. ومن المدهش ان تجتمع مثل هذه الخصائص المتناقضة في شخصية واحدة، ولكن تلك هي تركيبة هذا الشعب». وهذه الملاحظة منصفة الى حد كبير حتى في ايامنا هذه.

ولا نجد انعكاسا لصورة حياة الزهد والتقشف المميزة لعصر التراكم الرأسمالي الاول او قمة البخل التي يمثلها العجوز جراندية في رواية بلزاك... لا نجد لهما مقابلا في المجتمع المصري.

فالمصري لا يخطر في باله ان يعتبر الربح العالي والدخل الجيد للعمل الذي يمارسه امرا اخلاقيا ساميا محببا الى الله. وعبارة مفكري التزمت الاوربي «عليكم ان تعملوا وتثروا لا من اجل ملذات الجسد والمتع الحرام وانما في سبيل الله» قد لا تثير في مصر سوى ابتسامة الدهشة وهز الاكتاف.

والحياة الشاقة والاضطهاد والفقر وقلة المأكل لا تمنع المصري من الاقبال على الحياة. ان حبه للمزاح والكلمة اللاذعة والفكاهة والسخرية الحادة، اي كل ما تعنيه كلمة «النكتة» المصرية لامر يثير الذهول. ولم اجد لدى اي شعب آخر من الشعوب الشرقية مثل روح الفكاهة هذه التي تجدها لدى المصريين.

فالاتراك تقترب فكاهتهم من الفكاهة الروسية، ولكنها ليست منتشرة كما في مصر.

والنكتة تستخدم احيانا للدفاع، واحيانا اخرى للهجوم. وهي تعين المصري على الاقبال على الحياة حينما تدفعه الظروف الى القنوط واعتلال المزاج، وتساعده في التغلب على الاسى والفجيعة، وشفاء غليله من السخرية بالمستغلين او الموظفين، واستعادة كرامته الانسانية المهانة ولو للحظة. ومن خلال النكتة ينفس الشخص المهان عن غضبه ويستعيد توازنه النفسي، وذلك دون ان يبذل اي جهد.

وبعض المصريين لا يلجأون الى الدفاع الشامل ازاء الواقع الشاق فحسب بل يهربون منه. فالاحساس باليأس والذل واستحالة تغيير الحياة تدفع قسما كبير منهم الى البحث عن النسيان بالاغراق في المخدرات. والاسلام يحرم تعاطي المخدرات بصورة لا تقل صرامة عن تحريمه تناول الخمر. وتجارة الخمور والسكر لا يعاقب عليهما، ولكن الاتجار المخدرات جريمة خطيرة. ومع ذلك فتعاطي المخدرات اكثر انتشارا من تناول النبيذ والويسكي والفودكا.

ولا يمكن رد ذلك الى رخص المخدرات وسهولة الحصول عليها فحسب. فتناول المشروبات الكحولية بكميات كبيرة يؤدي الى التبلد وغياب العقل، اما تناولها بكميات قليلة فيؤدي الى ازدياد النشاط مؤقتا والى تصاعد العدوانية. غير ان المصري يبحث عن السكينة وراحة البال والطمأنينة واحلام اليقظة والخيال. وهذا ما تقدمه له المخدرات. فبدون ان يتحرك من مكانه يصبح حرا، قويا، غنيا، سعيدا. ومدمن المخدرات ليس مجرد شخص ضعيف عاجز عن الكفاح، ولكنه شخص عانى من انهيار المعنويات والخور، ومن مرحلة خيبة امل طويلة، واغتراب عن المجتمع، وفقدان الثقة في السلطة والعدالة. والمدمن يتهيأ له للحظة قصيرة ان جميع قضايا الوجود والفلسفة والدين قد حلت، وان الانسجام حل محل جميع التناقضات، وان آلام النفس تفارقه. وتجد القدرية في المخدرات اسمى تعبير عنها. غير ان ادمان المخدرات يعني تسارعا متزايدا للانحلال البدني والخلقي وانحطاطا للشخصية الانسانية.

وتكاد تجارة الحشيش والافيون في مصر ان تكون علنية. ففي كثير من المقاهي يضعون مع التبغ الذي تحشى به النارجيلة قطعة من الحشيش او الافيون.

وهذان النوعان من المخدرات معروفان في الشرق منذ عهد سحيق. وكان الصوفية يستخدمون الحشيش لبلوغ حالة الوجد والنشوة. ومدخن الحشيش يسمونه في مصر «الحشاش». وفي عصر الحملات الصليبية كان المقاتلون الاشراس من الطائفة الاسماعيلية والذين كان شيوخهم يرسلونهم للفتك بقادة الفرسان الصليبيين، كانوا يخدرون بالحشيش. ومن كلمة «الحشاشين» العامية المصرية ظهرت كلمة «أساسين» في اللغات الاوروبية والتي اشتق منها فعل «قتل، اغتال» في الانجليزية والفرنسية والايطالية.

ولحسن الحظ لا يتعاطى المخدرات في مصر الا عدد قليل، وان كان عددهم في ازدياد. ولكن المصريين يشربون الشاي ثقيلا جدا وحلوا جدا. وقد اخذ المصريون عادة شرب الشاي عن الجنود البريطانيين في الحرب العالمية الاولى. واولعت به الفئات الفقيرة من السكان الى درجة ان الزيادات المتكررة في اسعاره لم تخفض استهلاكه.

ان العالم مدين للعرب بمعرفة القهوة وتناولها. ويبدو ان تأثيرها قد تم اكتشافه فيما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر.

ويتنازع اليمنيون والاثيوبيون قصب السبق في اكتشاف البن. ومرة اخرى كان الصوفيون هم الذين استغلوا خصائص القهوة المنشطة في رقصات الوجد والنشوة وسهر الليالي. ولم تكن القهوة معروفة في عهد النبي، ولذلك تصدى لها بعض علماء الدين المسلمين بعنف في مصر وغيرها من البلدان العربية باعتبارها ليست محللة. وظل المشروب الجديد بين التحليل والتحريم حتى شق طريقه واكتسب مشروعيته. ووصلت القهوة الى اوروبا عن طريق الاتراك. وفي وقتنا الراهن لا يخلو لقاء عمل او جلسة اصدقاء في مصر من فنجان قهوة او كوب صغير من الشاي.

ويقدم هذان المشروبان في افخر مقاهي العاصمة مثل مقهى «جروبي» وفي احقر مقهى في قرية نائية. ويحب المصريون تدخين النارجيلية على مهل مع تناول فنجان قهوة مع ماء بارد في المقاهي المزدحمة ويتطلعون الى الرائحين والغادين في الشارع. ولكننا ابتعدنا عن الموضوع....

ان الاحساس الواعي والغريزي بالتناقض بين مصالح الفرد والجماعة والدولة والسلطة قد دفع المصري الى التمسك بأقصى الحرص والحذر، الامر الذي اصبح جزءا من طباع الكثيرين. وتعلم الناس كيف يخفون افكارهم ومشاعرهم ونواياهم، ويقولون جهارا ما يراد منهم ان يقولوه ولكن ليس ما يؤمنون به، وان يفكروا في شيء ويقولوا شيئا آخر، ويسدلوا ستارا كثيفا بين عالمهم الداخلي والعين الخارجية الرقيبة ويخفوا عنها دائرة اهتماماتهم الحقيقية، ولا يثقون الا في اقاربهم او المقربين اليهم. والغريب عموما يثير الريبة، والحكام دائما غرباء، ولقد شكل المصريون تقليديا الكثير من الجمعيات والمنظمات السرية.

«لسانك عدوك»... هذا المثل نجده في مصر في عدة صيغ. وتؤكد الحكمة الشعبية على اهمية اللسان في المثل الشعبي: «لسانك حصانك، ان صنته صانك، وان هنته هانك».

ويكتب الدكتور حسن حنفي: «اننا نقول ما لا نؤمن به، ونؤمن بما لا نقوله. نحن نرى ولا نتكلم... ونسمع ولا نتكلم... «ولا من شاف ولا من دري»... ونفضل الا نسمع: «ودن من طين وودن من عجين».

وقد تأكدت مرات عديدة من مدى صعوبة الحديث الصريح، هذا الحديث صعب ايضا بين المصريين انفسهم. فكثير ا ما يخفي محدثك افكاره ومعتقداته ويسعي قبل كل شيء الى معرفة افكارك ومعتقداتك انت ثم يؤكد لك انه متفق معك فيها.

والمصري يريد ان يعرف الى اي مدى يستطيع ان يثق بمحدثه، ويصغي اليه ويزن كلماته ويحاول ان يكشف المعنى المختبيء بين السطور ويبحث عما اذا كان فيها ما يحتمل التأويل. ومتى تحمل «نعم» معنى«لا» او «جائز»، ومتى تحمل «لا»

معنى «نعم» او ايضا «جائز». لقد اصبح الحديث فنا ووسيلة لبلوغ هدف ما
اذا كان المصري يتحدث الى اجنبي او مع الحكام او يظن ان محدثه من ا
السلطان. وليست محاولة معرفة النوايا الحقيقية للطرف الاخر بالمهمة السـ

وينتشر في مصر، سواء في الاوساط الشعبية ام في الادب
والصحافة، تحميل الكلمات اكثر من معنى، واخفاء المعنى الحقيقي وراء ا
العادية بحيث لا يدركه الا المطلع.ويرجع احد أسباب ذلك الى تأثير ا
والتراث الصوفي. فقد كان الصوفيون يميلون الى التفاهم بالرموز والايماء
تبقى سرا مستغلقا على غير العارفين وبصفة خاصة على الحكام او رجا
الحنابلة.

وفي هذا الصدد لا تمثل مصر ظاهرة فريدة. فقد لمست في ايران
مماثلا لتمويه الافكار والنوايا الخفية، وهو اسلوب اكثر انتشارا وتفننا ، حيـ
تقاليد الشيعة هناك دورها باعتبارها دين المضطهدين، بالاضافة الى رمزيا
الفارسي ومعانيه المزدوجة، كما يتجلى هنا ايضا تأثير اضطهاد الشيعة
على ايدي الحكام السنيين.

وكثيرا ما يلجأ المصريون الى اللف والدوران في الحديث. وحتى اذا لم
المصري الى ان الحديث تكلل بنتيجة ايجابية وانه بلغ الهدف، وحتى اذا ا
المستمع ما قيل له تلميحا او لم يشأ ان يفهم، فان المصري يشعر بالرضى
يتلق جوابا سلبيا ولم يفسد العلاقات، و«لم يفقد كرامته». ان «جس النبـ
مقدمة ضرورية لاي حديث هام.

ويصعب احيانا ان تجد معنى للعبارات العادية في حديث جدي حاد. ا
الرئيسي للكلمات هو تهيئة السامع لتقبل ما تقوله، اما الهدف الاخر فهو ا
إليك والتقرب اليه. ولذلك نادراً ما يدع المصريون للمنازعات السياسية او
أن تفسد العلاقات الشخصية. فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.

والعلاقات الشخصية لا تتفق دوما مع الانتماء الحزبي فضلا عن المـ

السياسية او الفكرية. والكتاب الصحفيون الذين يتبادلون العبارات والصفات اللاذعة والمهينة احيانا قد تجدهم في المساء جالسين في ناد واحد يلعبون الدومينو او الكروكيت.

ان القدرة على قول ما يريد الاخرون سماعه هي فن يجيده المصريون اجادة تامة، وكثيرا ما يربك ذلك العديد من الاجانب.

وقد هتف دبلوماسي سوفيتي شاب وصل الى القاهرة مؤخرا في السبعينات بعد حديث مع احد المصريين: «أوه، انه ماركسي وصديق حقيقي لنا!». وقال رجل اعمال امريكي بثقة بعد ان تحدث مع نفس الشخص: «هذا هو المدافع الحقيقي عن القيم الغربية وصديق الولايات المتحدة!». وفي كلتا الحالتين كان المصري مخلصا وصادقا... مع نفسه. فقد اراد بكل بساطة ان يدخل السرور على قلب محدثه ويستميله اليه ويكسب صداقته عسى ان يستفيد منها. اما الكلمات فهي ليست اكثر من كلمات ولن تكلفه شيئاً.

وفي مصر تتم الاتصالات والعلاقات الودية الزائفة بسهولة مدهشة حتى في فترة العداء الرسمي بين الدول. ومما يسهل ذلك... الادب المصري التقليدي والكرم. لكن الثقة الحقيقية والصداقة والصراحة مسألة صعبة. فاذا استطاع الاجنبي ان يوحي بالثقة ويكسب اصدقاء حقيقيين فبوسعه ان يعتبر نفسه سلطانا.

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأثير الصوفي مرتبط اوثق الارتباط بما تحدثنا عنه توا، اي انفصال الباطني عن الظاهري، الداخلي عن الخارجي، والجوهر عن القشور الخارجية، عن الشكل. فالداخلي دائما هو الاكثر اهمية. والصوفيون ينظرون باحتقار الى الشخص الذي يفضل المظاهر الخارجية. والامثال الشعبية المصرية تدين اولئك الذين يحاولون ذر الرماد في العيون، والذين لا يتفق محتواهم الداخلي مع سلوكهم الخارجي على الاطلاق: «ولا كل من ركب الحصان خيال»، «عامل زيّ الطاووس، فرحان بريشه»..

«القلب المفتوح على مصراعيه»... تثير هذه الصفة من صفات الطبع عندنا ظلا

من السخرية رغم انها تعتبر في الاساس صفة ايجابية. اما في مصر«فالقلب المفتوح على مصراعيه»، وخاصة مع الغريب صفة لا تعقل من صفات الطبع.

ففي محيط الاسرة يتحدث المصريون عن شيء، وفي وسط الاصدقاء يتحدثون عن شيء آخر، اما ما يقال للاطلاع العام وامام الغرباء فشيء ثالث. ولهذا فغالبية الناس لا يصدقون وسائل الاعلام ويبحثون عن المعاني الحقيقية المكنونة خارج اطار الدعاية الحكومية. وفي مثل هذه الظروف تكتسب الشائعة احيانا مصداقية الحقيقة.

ويؤكد الصوفيون ان اتضاد ابدى بين الظاهر والباطن. بيد ان الغريزة الشعبية والتطلع الى المثال الاعلى يضعان الوحدة بين الظاهر والباطن مع ذلك فوق كل شيء ويدينان الفصل بينهما باعتباره أمراً غير طبيعي.

غير ان المثل الاعلى بالنسبة للمصريين يبقى مثلا اعلى عزيز المنال او مستحيل البلوغ في غالب الامر. وفي الحياة لا نجد الانفصام بين المعتقدات والاقوال فحسب ولكن بين الاقوال والافعال بصفة خاصة، ويكتب الدكتور حسن حنفي: «ان ازدواجية الطبيعة المصرية تتجلى كذلك في الاختلاف الحاد بين الاقوال والافعال. فكثيرا ما يصرحون بما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يصرحون به. واصبحت الكلمات مجالا خاصا للنشاط الزائف تقوم عليه مبان زائفة وتوجد فيه وقائع زائفة. ويكفي ان يتحدث المتحدث ببلاغة عن مشكلة ما باعتبارها مشكلة قائمة. ويكفي ان يشير الى حل المشكلة حتى يتصور البعض انها قد حلت بالفعل».

ولن نأخذ كلمات الباحث الاجتماعي المصري الساخرة على محمل الحقيقة المطلقة. فالحديث عن الخبز لا يشبع الجوعان. ولكن الدكتور حسن حنفي يطرح المشكلة الحقيقية بحدة، وهي مشكلة قائمة في مصر وفي العالم العربي بأسره. فالمثل يقول: «اسمع جعجعة ولا أرى طحنا». ولكن الحديث والكلمات يصبح لها احيانا في الحياة وجود مستقل غير مرتبط بالاعمال. فالتصريح البراق الذي يقدم بالصورة المناسبة يصبح حدثا ولو لفترة قصيرة، حتى ولو لم تثبت الحياة ما جاء فيه.

ان احد أسباب ذلك هو عدم وجود مجال حقيقي للنشاط امام اغلبية السكان. فتتحول الكلمات إلى وسيلة للحركة الوهمية، وتعطي الامل بالهروب من الواقع الذي يستحيل تغييره أو مواجهته. ولذلك اصبحت الكلمات الجوفاء، الكلمات من اجل الكلمات، الكلمات التي لا تعني التحرك، سمة مميزة للمجتمع في مصر وفي كثير من البلدان العربية.

ان دق الماء في المصحن والانفصام بين القول والعمل سمة مميزة للمارسات الدينية النظرية الجامدة، والتي تؤثر تأثيرا كبيرا على تشكيل نفسية وطريقة تفكير المؤمنين. «فتفسير» نص من النصوص الدينية لا يعني في العادة سوى ترديد نفس المعنى بعبارات مغايرة، ولكن المفسر «يكسب» حتى في هذه الحالة، لانه لا يتحمل اية مسؤولية عن «تفسيره» الذي لا يحمل ذرة جديد. والطاقة الاجتماعية الابداعية الكامنة تتبدد على الكلمات اذا ما كان الهدف لا يمكن بلوغه ويستحيل تحقيقه. وينشغل الناس بوصف النوايا وتحديدها لانهم لا يعرفون سبل تحقيق هذه النوايا. هل هذا تراث القرون الوسطى؟ نعم، ولكن أي قرون؟ ففي القرون الوسطى لصدر الاسلام، أي عصر الابداع والاسلام التوليفي، لم يكن هذا موجودا. ولكن الجمود والركود والانحطاط قد أدت إلى التكرار الدوجماتي للكلمات، إلى الكلام من اجل الكلام.

وكثيرا ما تخلب الكلمات ألباب المصريين والعرب عامة. ويشعر كل من السامع والخطيب بالنشوة من الكلمات التي تلقى. والعرب يحبون لغتهم ويفخرون بها عن حق. فدون ان تمر الكلمات عبر مرشحات المنطق أو التفكير، تتجه مباشرة إلى العواطف وتستثيرها. ان اللغة العربية العذبة النغم الغنية بالمفردات والمرادفات كانت احدى الصيغ الرئيسية لتجلي العبقرية الابداعية العربية بعد ان سد الاسلام الطريق امامها نحو التصوير والنحت. ثم ان الكلام اكثر امنا من الفعل، وكما يقول المثل: «الكلب الذي ينبح لا يعض».

والمجتمع المصري مجتمع رجالي. والعلاقة مع المرأة محكومة حكما صارما بالتقاليد والشريعة. ويوجد نوع خاص من الشرطة يسمى شرطة الآداب. وفي

المدن وكذلك في العائلات الغنية في القرى يطلب من المرأة ان تغطي جسدها وشعرها والاّ تسفر الا عن وجهها وكفيها وقدميها. بيد انه كلما ازداد المنع ازداد الاغراء. وكلما كثرت الملابس ازدادت الرغبة في التعري... ولو بالقول في معظم الاحيان. والمتزمتون يدينون «فساد الاخلاق» في الغرب ولكنهم ينظرون بشهوة إلى النساء الأوروبيات المتجردات، وكثيرا ما يتحدثون في قضايا الجنس. والحديث عن الجوانب الحميمة للعلاقات الانسانية يبدأ منذ الصغر، وما اكثر ما يدور حولها من احاديث بين الشباب وخاصة عند الزواج المتأخر!

كيف ينظرُ المصريون إلى انفسهم؟ تعتبر مصر بالنسبة للكثيرين منهم «ام الدنيا» ومهد الحضارة العالمية، والمصريون افضل اهل الأرض، وبالطبع أفضل العرب، ويتحلون بكل الفضائل البشرية المعروفة. واجهزة الاعلام والادب وكلمات الخطباء تفيض بمثل هذه الاحكام الذاتية.

وكتب الاديب القاهري المعروف الدكتور حسين فوزي في كتابه «سندباد مصري» يقول ان السمة القومية الاولى والمهمة التاريخية للمصريين هي بناء الحضارة. ولقدَ كان المصري ذهبا من عيار خالص النقاء، وكان مكانه في ملكوت السماء. والطبع القومي المصري لم يستطع التاريخ ان يغيره، والمصريون يمصرون غزاتهم دائما.

من الصعب ان نجادل في صحة هذه الاحكام مثلما هو صعب ان نوافق عليها. فمثل هذه الخلاصات ليست ثمرة التحليل العلمي بل وليدة العواطف والتجربة الحياتية الشخصية للكاتب أو ادعاءاته، وحصيلة ارائه وافكاره الخاصة او تحيزاته، ونتاج خياله الابداعي.

وبالنسبة لقسم كبير من المثقفين المصريين كانت قضية تقييم الذات وتحديد دور مصر ومكانتها في العالم واحدة من القضايا الاساسية في نظام قيمهم الفكرية. فالولاء للوطن، والفخر بحضارته العظيمة وماضيه التليد، تقترن بمركب النقص الظاهر او المستتر تجاه الغرب. وبعد الهزيمة في الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧ انكب المثقفون المصريون على نقد انفسهم، وهي ظاهرة استثنائية

بالنسبة لمصر، وراحوا يبحثون عن الطرق والوسائل الكفيلة لا بتحديث المجتمع والبنية الاجتماعية السياسية فحسب بل والشخصية القومية ايضا. وسلطت الأضواء الكاشفة على ملامحها السلبية بصورة حادة ومبالغ فيها احيانا، وتعرضت للنقد المدمر او السخرية المرة. وبعد مديح النفس وهدهدة الذات التي استمرت فترة قصيرة بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ حلت فترة تفكير ثقيل الوطأة ومناقشات حول مصير الشعب والبلاد.

وكتب الباحث الاجتماعي المصري عزت حجازي في دراسته «الشخصية القومية المصرية بين الايجابيات والسلبيات» قائلا: ان التناول الرومانسي لمحاولة فهم الشخصية القومية المصرية لن يساعد على تقدير الوضع الحقيقي للامور. فالتحديات الخطيرة التي يواجهها المصريون داخل البلاد وخارجها تتطلب تُناولا واقعيا لشخصيتنا القومية. وينبغي اعطاء تقييم موضوعي سواء لصفاتها الايجابية ام السلبية وذلك من اجل وضع ملامح سياسة سليمة لتغيير المجتمع. ويرى الباحث ان الملامح الاساسية للشخصية القومية المصرية هي نتيجة للظروف الاجتماعية التي عاش فيها الفلاح اجيالا عديدة، وخاصة العلاقة المتبادلة بين السلطة ومختلف القوى الاجتماعية في مصر. ويعتقد الباحث ان «المفتاح الرئيسي لفهم الشخصية القومية هو وحدة البلاد الطبيعية والسياسية، والاستقرار النسبي هو احد الملامح الاساسية للشخصية القومية المصرية. وفي الوقت ذاته يدور صراع مستمر داخل الشخصية القومية المصرية. والملامح المختلفة قد تتجلى بصور مختلفة وفقا للظروف الاجتماعية. وبوسع المصري ان يتغلب على ملامحه السلبية».

اما الكاتب المصري عبد العزيز الرفاعي فقد حاول في كتابه «الجوانب الايجابية والسلبية للشخصية المصرية» ان يقارن بين ملامح الشخصية القومية لدى المصريين والشعوب اللاتينية. وتوصل إلى استنتاج مؤداه ان البساطة والقناعة لدى المصريين تعتبر مطلقة، اما لدى اللاتينيين فهي نسبية، ولذا تتميز الشعوب الرومانية بالتشاؤم اما المصريون فيتميزون بالتفاؤل. والمصري لم يكن متشائما

ابدا كما يعتقد الباحث... واذا كان المصري يبدي ميلا إلى مخاطبة الاحاسيس والعقل فالفرنسي مثلا يخاطب العقل والمنطق.

ويستطرد الباحث قائلاً: «ان المصريين يتميزون بالاعتدال والبساطة وسكينة النفس والرسوخ. ومن هنا ينبع الصبر والجلد والطيبة. وهذا كله يمنح المرء القوة على تخطي المصاعب». ولكن نظرا للهزائم المستمرة التي يمنى بها المصري في كل مرة يحاول فيها تنفيذ طموحاته الاساسية، وكذلك نتيجة لتعسف السلطات تخبو لديه المبادرة والرغبة في بلوغ شيء ما... وهذا ما يدفع المصري إلى «الاحساس دائما بعجزه عن تحقيق أي شيء». ومن هنا ينبع اليقين بان الخضوع هو الذي يكفل الامن والتوفيق... وفي ظل سيادة العنف والاوتوقراطية وفقدان الفردية وهبوط الروح الاستقلالية يبدأ الفرد في الاحساس بان ارادته وشؤونه تتحكم فيهما قوى غريبة عليه وغير مرتبطة به. ومن هنا، في رأي الكاتب، تتولد الجبرية والتخلي عن الشخصية، الامر الذي يعد نوعا من الهروب من العنف والمسؤولية... لقد نشأ الخمول نتيجة الهروب من الواقع والعجز عن مواجهة الواقع. ومن هنا ظهرت ازدواجية الشخصية، والاغراق المفرط في الايمان والاتكال على الاخرين، والجبرية. «وازدواجية الشخصية تعني ان يشعر المرء بشيء ويتصرف على نحو آخر».

اما الباحث الاجتماعي حامد عمر فيؤكد ان المصريين يتميزون بالمرونة والقدرة على التكيف وعلى اخفاء مشاعرهم الحقيقية وراء ستار المعاملة الطيبة، وينظرون نظرة مبالغ فيها إلى تأكيد الذات، وفي الوقت نفسه يسعون إلى التقليل من المسؤولية الاجتماعية. وهم يتميزون بالميل إلى التصرفات الفردية ويرفضون الجماعية.

وهذه التأكيدات، ككثير غيرها مما سبق ذكره، ليست من الامور التي يمكن التسليم بها، بالرغم من ان الباحث يتحفظ قائلا ان كل هذه الصفات تعتبر نتيجة مباشرة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمختلف اشكال تنظيم المجتمع وشتى انظمة الحكم، وانها، أي تلك الصفات، لا تعتبر «طبيعية» عند

المصريين بل تكونت في ظروف معينة، وهي ليست ابدية ويمكن ان تتغير. ولكن تلك الشخصية المصرية التي صممها الباحث تخفي وراءها تناولا شخصانيا يرجع إلى ما يشعر به الباحث من الم ازاء وضع الشعب وحالة المجتمع. بيد ان مقولاته الحادة، وتصنيفه المبسط للمصريين، والصفات السلبية التي الصقها بالشخصية القومية، قد استخدمت غير مرة في الدعاية المعادية للعرب.

ان دراسة الشخصية القومية المصرية في الغرب واسرائيل، مثلها مثل دراسة الشخصية القومية للشعوب الاخرى ليست مجرد اهتمام من جمهور القراء واولئك الذين يخالطون المصريين بفعل بعض الظروف. لقد اصبحت مراعاة الشخصية القومية للشعوب عنصرا ضروريا لدى رسم السياسة الخارجية وتنظيم الانتاج ولدى التدريب العسكري والدعاية والتجارة والتخطيط واقامة الروابط الثقافية والعملية.

لقد بدأت دراسة الشخصية القومية للعرب وللمصريين بوجه خاص دراسة مركزة في الستينات والسبعينات. ولا يجوز ان نقول ان المستشرقين او الساسة المشتغلين بشؤون الشرق الاوسط قد اغفلوا دراسة هذا الموضوع قبل ذلك. ويكفي ان نشير إلى المنشور الذي وزعه نابليون في مصر والذي حاول فيه اللعب على مشاعر العداء لدى العرب نحو الاتراك. اما في الوقت الراهن فقد درسوا في اسرائيل الشخصية المصرية وهم يحضرون للحرب والاحتلال. ودرسوها في الغرب وهم يستعدون ايضا للحرب ولكن على الاكثر من اجل اهداف سياسية واقتصادية وتجارية وغيرها. وكان ذلك احد وجهي العملة، اما الوجه الاخر فقد نقشت عليه بوضوح مهمة استخدام اجهزة الاعلام في اعداد صورة سلبية «للعربي، وللمصري» لاستهلاك المواطن الغربي العادي في مقابل النموذج الايجابي «للشخصية الاسرائيلية». اما الابحاث الممتازة التي وضعها عدد من العلماء الغربيين وكتبوها بروح التعاطف مع العرب فلم تجد سبيلها إلى النشر أو إلى الاذاعة والتلفزيون.

ومما زاد من سهولة رسم صورة سلبية للعربي انها جاءت مكملة للصورة

الخرافية الهرائية للعرب كلهم - من المغرب إلى العراق - والتي رسمتها هوليود والادب الجماهيري والصحف الغربية في فترة ما بين الحربين العالميتين، الصورة التي تظهر العرب على انهم اناس غير جديرين بالثقة، متحفزون للقتل وتجار مخدرات واسرار واسلحة ونساء. وهم يرتدون ملابس طريفة، ويركبون الجمال، ويستسلمون للشهوات مع الحريم، ويدبرون المؤامرات في مدنهم الأشبه بالحصون.

ان فكرة تفوق الاوروبيين والامريكيين على جميع «الملونين»، وتفوق الحضارة الاوروبية على جميع الحضارات الاخرى وتفوق الثقافة الغربية على الشرقية هي اساس العنصرية الاوروبية - الامريكية سواء في بداية قرننا ام في ربعه الاخير.

وعلى ضوء هذه القناعات بدا مضحكا واحمق سعي المتخلفين من المصريين، والعرب عامة، إلى التحرر السياسي والاستقلال الاقتصادي والتقدم الاجتماعي. اذ كيف يمكن بحث هذه القضايا الجدية التي يثيرها اشخاص يتميزون «بالتخلف وعدم الاستعداد للتقدم، وبالكسل، والافتقار إلى ضبط النفس والانضباط، وبالكذب؟». كيف كان من الممكن الوقوف إلى جانبهم في صدامهم مع الاسرائيليين، «هذا الشعب الديناميكي، المحب للعمل والطليعي والمنظم والديمقراطي والمخلص والمستعد للتضحية بالنفس في سبيل المثل العليا»؟

لقد كانت طريقة رسم الصور القالبية مرتبة جيدا. اذ تؤخذ صفة أو صفتان من الصفات الموجودة بالفعل في شخصية المصريين العرب، وتحول إلى صفات مطلقة، وتنزع من السياق ومن علاقة العلة بالمعلول، ويعلن انها «موروثة» و«ثابتة»، وترفض التغييرات وكذلك امكانية حدوثها، وذلك مع السكوت عن كل ما هو ايجابي في الشخصية القومية للمصريين وللعرب الاخرين.

ويستخدم علماء الانثروبولوجيا وعلماء النفس الاجتماعيون في الغرب وفي اسرائيل بكل نشاط الآراء الانتقادية للباحثين العرب حول الشخصية القومية.

وقد اجرى الباحث الاجتماعي المعروف السيد ياسين مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة «الاهرام» دراسة خاصة لاعمال علماء الانثروبولوجيا الاسرائيليين المخصصة للشخصية القومية العربية وتوصل إلى الاستنتاج التالي: «انهم يتجاهلون تماما آراء المصريين فيما يتعلق بالجوانب الايجابية للشخصية القومية المصرية حتى يرسموا صورة سلبية تماما. ومن تحت اقلامهم تخرج صورة للمصري باعتباره تجسيدا للتحجر والثبات طوال قرون، وعدم القدرة على التقدم والتنظيم والتغيير في عصرنا. وهم يحاولون اثبات سيادة الملامح السلبية في الشخصية القومية للمصريين ويؤكدون ان هذه الملامح موروثة. وهم لا يريدون ان يلاحظوا التغيرات العميقة والسريعة في الشخصية القومية». ويستطرد الباحث قائلا: «انه يمكن القول بان الجزء الاكبر من التحليل الغربي للشخصية القومية العربية لم يكن يسعى الا إلى هدف اساسي واحد، الا وهو تشويه الصورة الحقيقية».

ولكن هل يعني الاهتمام المعادي بكل كلمة نقد ذاتي يقولها المصريون واستخدام هذه الاقوال في الدعاية المضادة، هو ان يخفي العلماء المصريون والكتاب آراءهم واحكامهم ويغرقوا في مدح النفس والهرب من الواقعية الى عالم الخرافة؟ لقد كان التنقيب في اعماق النفس والجدال والنقد الذاتي ضمان الرقي والحركة إلى الامام. وهذا أهم بكثير من الحجج الدعائية التي يمكن ان يستخلصها العدو من مثل هذا النقد الذاتي.

ان المصريين الذين حاولوا بالنقد الذاتي احداث صدمة للوعي العربي ظلوا قلة قليلة بين الغالبية العظمى من الذين يعيشون في عالم القيم والمثل العليا التقليدية. وهنا تكمن مأساة هؤلاء واولئك. فقد اراد البعض عصرنة المجتمع والتفكير والشخصية القومية لمصلحة الاخرين، اي لمصلحة الجماهير، ولكن الجماهير نفسها لم ترد العصرنة لانها لم تر فيها سوى تدهور احوالها. وظلت مناقشات المثقفين الطليعيين وتخبطهم بعيدة وغريبة عن الاغلبية. وضيقت المشاكل الدنيوية للحصول على رغيف الخبز والمسكن والمياه النقية والصحة او المرض، ضيقت

هذه المشاكل آفاقهم فاصبحت محصورة في هموم اليوم الحاضر، بينما بدا الغد ملبدا كالسماء التي اعتمت برياح الخماسين. ولكنهم يعرفون ردا جربه الجدود ورضعوه هم مع لبن الام وذوّب في مياه النيل، ردا على جميع تقلبات الدهر، الا وهو الصبر. ففي الصبر اسمى مثال وفيه الكرامة والامل. وفي الصبر الخلاص من المتاعب. وباختصار فالصبر خير!

الباب الخامس

ألدى المرأة روح؟

تتغير التقاليد في مصر ابطأ من تغير ظروف الحياة. وتحكم التقاليد الاسرة المصرية وليس القانون. يُعدّ سلطان الاسرة اقوى من القانون، اذ تملي الاسرة معايير السلوك.

ابراهيم احمد شعلان. الشعب المصري في الاقوال والامثال. ١٩٧٢

ينجم عن التدنية الدائمة التي تعيشها المرأة شعور بغياب الامان والضمان، اذ تخشى المرأة باستمرار من ان يتخلص منها الزوج او يطلقها لتحرم بالتالي من السند الوحيد في الحياة. ولذلك فالطريقة المضمونة لتوطيد العلاقات الاسرية وتجنب خطر الطلاق او الزواج الثاني للزوج هي انجاب العديد من الاطفال لالقاء مسؤوليات وواجبات كبيرة على عاتق الزوج.

كاميليا عبد الفتاح. ملامح المرأة المصرية. ١٩٦٩.

ابقت تبعية المرأة لزوجها عليها في فزع دائم وسعي مستمر لارضاء سيدها - الزوج. ونتيجة لانغلاقها وايضا جهلها وعدم تهيئها للعمل الاجتماعي لم تسطع المرأة الحصول على وسيلة العيش بنفسها ولذلك لم يكن بوسع اي من النداءات الموجهة للتعامل بانسانية مع المرأة المسلمة ان تؤدي الى تغيير الاوضاع القائمة.

شايدولينا ل. اي. المرأة العربية في الزمن المعاصر. ١٩٧٨

لا يعتبر السؤال المطروح في العنوان اعلاه للائمة المسلمين من باب البلاغة، اذ يسمعونه ويطرحونه بانفسهم مستمدين من الرد بالايجاب عليه ايمانهم بالمرتبة العالية التي وضع فيها الاسلام المرأة، في رأيهم. ألم يحتج المسيحيون لعدة قرون للتوصل الى هذا الاستنتاج؟ ألم يكن سؤالنا المطروح اعلاه هو الموضوع الاساسي لنقاشات اباء الكنيسة في القرن السادس الميلادي؟

وألم يوافقوا باغلبية لا تذكر على التسليم بان لدى المرأة روحا؟

غير ان العلماء المسلمين يعتبرون جهنم مسكونة اساسا بالنساء، الامر الذي يشهد على ضلالهن وضعف ايمانهن، وان كانت الجنة مضمونة للنساء الفاضلات. أليس في ذلك برهان على المساواة بين الجنسين في الاسلام؟ أما فيما يخص اللامساواة الاجتماعية فان ذلك يبرر بالخصائص الفسيولوجية المختلفة لدى الجنسين وبالمجهود المتفاوت للغاية الذي يبذله الرجال والنساء والوظائف المختلفة التي يؤدونها. فقد كتب الشيخ محمود شلتوت شيخ جامعة الازهر والشخصية المرموقة في عهد عبد الناصر، الذي كان يتبنى مواقف عصرية«إن الاسلام قد اعلى من مرتبة المرأة باعطائها الحريةوالحق في امتلاك العقارات. وان الجيمع لدينا (في مصر) متساوون طالما تساوت الظروف المناسبة. كما ان التشريعات لدينا ترمي الى حماية الخصائص المميزة لجنس النساء كما ترمي الى حماية وظائفهن التي حددها الله للام والزوجة. فحينما كانوا يتناقشون في اوروبا عما اذا كان لدى المرأة روح مثلما لدى الرجل كان القرآن قد حدد حقوقها وواجبهاتها».

وكان يمكن الا نورد مثل هذه الاقوال لولا ان الاغلبية الساحقة من سكان مصر تتبنى هذه الاراء وان لم تدخل في تفاصيلها الدينية او التاريخية. وليس لكاتب هذه السطور ان يجادلهم والا لكان ذلك منه امرا غريبا على اقل تقدير. ولذلك فمن الافضل ان نتناول العلاقات المتبادلة بين المصريين والمصريات، والاسرة المصرية ومكانتها في حياة الانسان الفرد وفي حياة المجتمع.

فاذا كانت الظروف الاقتصادية غير محتملة والاضطهاد الاجتماعي والسياسي مستمرين، والتمرد شبه مستحيل ولا مجال للهروب، فما هو السند المتبقي للمصري؟ انه في الحياة الروحية: الدين وفي التنظيم الاجتماعي: في الاسرة. ففي الاسرة بالذات، وفيها فقط تعود للمصري الكرامة والثقة في النفس. انه يوجه نحوها مشاعره الانسانية ويجد فيها السند والعزاء، فهي محور همومه وتفكيره واحاديثه. فقبل ثورة ١٩٥٢ كانت مفاهيم «الوطن» و«الوطنية» و«الدولة» و«الحرية»

خارج دائرة اهتمامات اغلبية المصريين. لقد كانت المشاعر المعادية للانجليز تسيطر على جميع السكان تقريبا ولكن لم ينخرط في النضال النشيط سوى جزء من شباب المدن، اما الباقون فقد، تركزت لديهم في الاسرة بداية البدايات ونهاية النهايات.

كتب ابراهيم احمد شعلان ان «المصري المسالم يبدو للبعض على قدر من الجبن ولكن اذا ما مس شرف اسرته او جرت محاولة للتدخل في شؤنها فانه على استعداد للتمرد، بل وللتضحية بالنفس. فالزوجة شرف المصري». وفي ظروف مصر فان «حق الليلة الاولى» او مغامرات العشق التي قام بها ابناء الاقطاعيين في الريف الاوروبي مستحيلة او نادرة الحدوث.

واشار عباس محمود العقاد الاديب والفيلسوف المصري المتناقض، ولكن ذو النظرة الثاقبة الى اننا لا نستطيع ان نفهم مدى محافظة المصري او استعداده للتمرد ما لم نفهم حبه لاسرته واخلاصه للتقاليد والعادات الاسرية. فالمصري محافظ بمعنى الحرص على التراث الاسري، وفي سبيل هذا الحرص وهذه المحافظة فهو على استعداد للمقاومة المستميتة من اجل الدفاع عن تقاليده. ان المصري يستطيع نسيان كل شيء الا نسيان مشاعر التسامح والرحمة ومعايير السلوك في الاسرة.

يقدس الرأي العام المصري الاسرة ويعتبر الزواج اهم واجبات الحياة، ولمثل هذه النظرة الى الاسرة بذور تاريخية عميقة حملتها الى مصر شتى تقلبات الدهر. ويسعى المصريون بطبعهم الى الاستقرار ويفضلونه على التغيير، ويضعون العش الاسري الراسخ فوق اي نعمة اخرى. والاكثر من ذلك فان رجال الدين المسلمين يعتبرون العزوبية عملا لا اخلاقيا وجريمة في حق الدين والمجتمع.

الا انه من العجيب ان حالات الطلاق آخذة في الازدياد في مصر. فعن اي «استقرار» او «اخلاص للاسرة» يمكن الحديث اذن؟ الا يعني ذلك ان الجذور الاسرية اصبحت ضعيفة وان الطلاق اصبح سهلاً؟

لن نتعجل الاستنتاجات.

فالاسرة المصرية لا تتكون عادة من الزوج والزوجة فحسب، بل تمثل جماعة اسرية كبيرة تربطها علاقات القرابة من ناحية الزوج. ويرأس الاسرة الاب الكبير السن وزوجته، وتشمل هذه الجماعة الابناء المتزوجين واطفالهم كما يمكن ان تشمل الاحفاد المتزوجين واطفالهم. وليس نادرا ان يعيش الجميع سويا ويشتركون في الملكية ويعملون معا ويدبرون امورهم معا. لكن ما يجمعهم ليس المصالح الاقتصادية المشتركة او قرابة الدم فحسب بل ايضا ما يسمى بـ «العصبية» - اي «ميثاق الشرف» وكذلك العلاقات الاجتماعية والتزامات الاسرة الكبيرة. ولدى السكان المستقرين تشمل «العصبية» جماعة اسرية كبيرة. اما لدى البدو فهي القبيلة او اتحاد القبائل.

ويعتز المصري كثيرا بانتمائه الى الاسرة والعشيرة، مدركا ان خيره ورفاهيته وحتى حياته نفسها في بعض الاحيان تتوقف على الاسرة والعشيرة وعلى علاقات القرابة، كما يدرك المصري ان العصبية هي واحدة من اهم الوسائل لاقامة تنظيم العلاقات الاجتماعية. فيقول المثل الشعبي «الاقربون اولى بالمعروف».

ان الشعور بالارتباط بالاقارب هو الهيكل الذي تقوم عليه الاسرة. وعلى هذا الهيكل تلتقي المصالح والواجبات المشتركة، وهذا ما يحدد مسبقا قوة الاسرة الكبيرة وضعف الفرد الوحيد المحروم من الدعم الاسري.

ومن الطبيعي الا تتفق دائما مصالح كل افراد الاسرة، اذ تتناقض احيانا. الا ان الرأي العام يعتبر انه لا ينبغي ان يكون هناك مكان للعداء الحقيقي داخل العشيرة.

وبالطبع فانه يجري الصراع داخل الاسرة الكبيرة ولكنه صراع داخلي، عداء داخلي بين اعضاء الاسرة اما عند مواجهة العدو الخارجي فان كل الاقارب لا بد ان يتحدوا.

ومنذ القدم تدعم تلاحم الاسر الكبيرة بضرورة الثأر الدموي الذي يعد من بديهيات «العصبية». فعلى الرجال اعضاء الاسرة الكبيرة ينطبق خطر الثأر الدموي من اسرة اخرى وعليهم ايضا ان يثأروا لاقاربهم. وعادة ما يجري داخل الاسرة

الكبيرة جمع الموارد اللازمة كفدية للثأر. هذا اذا ما استطاع الشيوخ تسوية النزاع بشكل ودي. لكن الآلاف من الناس تموت كل عام من رصاص وخناجر المنتقمين من اجل قريبهم القريب او البعيد. ومع ذلك فان وجود الثأر الدموي وخاصة في ظروف التدخل الهامشي للاجهزة القضائية في وسط الشعب يقلل من الجريمة. اذ ان القاتل المحتمل يفكر الف مرة قبل ان يرفع يده على شخص ما، اذ يعرف جيدا ما الخطر الذي يتهدده، ليس هو فقط، بل وأقرباءه في حالة ارتكابه الجريمة. وينتشر الثأر الدموي بشكل اساسي ليس فقط في القرية المصرية بل وايضا في المدن الكبرى، ويظل الثأر واقعا رغم انه اصبح الان ذا اهمية اجتماعية اضعف مما كان عليه.

وكتب العقاد يقول «ان عداء الاسر وتنافسها بين بعضها البعض هو الدافع لجريمة القتل او لحرق المحصول او لتسميم الماشية. وهنا لا يلعب الثأر الفردي دورا كبيرا. واذا ما جرى ثأر في القرية فان ذلك يعني ان ابن فلان ما ثأر من ابن فلان. ونادرا ما يثأر شخص من آخر بمبادرة منه، غير واضع اعتباره علاقات القرابة او التنافس بين الاسر».

وفي الاسرة المصرية الكبيرة تعتبر من الاهمية بمكان علاقة القرابة من جانب الرجل فقط. فالاقارب المباشرون للزوجة وحتى اطفالها لا يعتبرون غرباء ولكن ينتمون لاسرة اخرى. الا ان اطفال الابن يعتبرون اعضاء في الاسرة والعشيرة.

تقوم الاسرة المصرية التقليدية الكبيرة على سلطة الزوج الذي يعتبر كبير الاسرة. ويسمونه «سيد الاسرة». وكثيرا ما لا يسمون الشاب الفتى باسمه بل يقولون ابن فلان. وحتى وقت قريب كان المصريون يقيمون الشاب على اساس سمعة ووضع ابيه. وكانت العلاقات الاجتماعية للشاب تتشكل على اساس العلاقات الاجتماعية لابيه. ولم يعترف المجتمع المصري حتى وقت قريب باستقلالية الاطفال اقتصاديا او سلوكيا وطالبهم بالخضوع للوالد.

تعد العلاقات المتبادلة بين الاخوة الكبار والصغار كالعلاقات بين الاب وابنائه.

فالعون المتبادل بين الاخوة امر الزامي. والمجتمع يشك في امكانية التعاون مع الانسان الذي لا يعاون اخوته.

ويقول المثل: «انا واخي على ابن عمّي وانا وابن عمي على الغريب».

ان الطاعة والاعتراف بهيبة الكبار تعد واحدة من اهم الصفات الحسنة للشاب. ويعتبر الابن حكيما اذا ما اتبع نصائح الكبار ويطالب الرأي العام «بضرورة احترام الوالد حتى اذا كان مجرما».

والابن بدوره على ثقة تامة بانه سينال نفس الشرف حينما يكبر.

وعموما فنادرا ما نجد العنف كظاهرة في الاسرة المصرية، واذا ما كان الاطفال محببين للوالد فانهم يجدون لديه كل الدفء والرقة.

وتتوافق كل هذه الملاحظات مع ما رآه واشار اليه لاين منذ مائة وخمسين عاما مضت: «مهما قدمت للاطفال المصريين من مشاعر العطف والرقة والتدليل فانهم يكنون باستمرار مشاعر الاحترام العميق لوالديهم. فعدم طاعة الوالدين لدى المسلمين اكبر اثم يعادل عبادة الاصنام او جريمة القتل او اتهام امرأة شريفة بالزنا او التفريط في اموال اليتيم او الربا او التقاعس عن محاربة الكفار».

وتعتبر تربية الاطفال من المهمات الدائمة للوالدين.

وتعد البنية الاسرية في مصر من البني المحافظة ولكن ليست الجامدة. وتتأقلم الاسر الكبيرة في القرية مع الحياة اكثر مما هو ممكن في المدينة. وتحدد حياة المدينة الانفصال المبكر للاولاد عن الاسرة، كما تحدد الاستقلالية الاكبر للاسر الشابة. وتبقى العلاقات العشائرية موجودة مع بعض التغيير في مظهرها اما علاقات القرابة فهي تبقى اوطد واضمن العلاقات.

وحينما يحين وقت زواج الشاب يفكر هو ووالداه في هذه الخطوة من كل الجوانب، فعليه ان يتحمل على عاتقه كل عبء ومسؤليات حياة الزوجة سواء ان كان في اسرة كبيرة ام استقل بأسرته. اما العرس نفسه فيتطلب الكثير من النفقات

ويسخر المثل مؤكدا: «بفلوسك تتجوز بنت السلطان». ويقوم كثير من الشباب لسنوات طويلة يجمع اموال للمهر.

ويعتبر الزواج بدون مهرا امرا غير معقول. الا ان الاغلبية العظمى من المصريين والمصريات لن يوافقوا الرأي القاطع للعالمة السوفيتية شايدولينا التي تساوي بين الزواج وعملية بيع وشراء العروس.

فتقول شايدولينا «ان عملية الزواج منصوص عليها تفصيلا في القرآن. فيفسر الزواج بعمل يتطلب اهتمام المشتري الذي يشتري السلعة المعينة، كما تقول ان القرآن نص على ان يدفع الزوج المهر». وبالطبع فان دفع المهر يعني عدم المساواة بين الجنسين ويعني ايضا تمييزا لحقوق الزوج عن المرأة. ولكن لا يصح اعتبار دفع المهر عملية بيع وشراء للعروس، اذ يظل المهر اما لدى والديها او لديها نفسها، وفي هذه الحالة يعد المهر اساسا ماديا لمعيشتها في حالة الطلاق ويذهب جزء من المهر لدفع تكاليف الزواج او لشراء الاغراض المنزلية الضرورية للعروسين.

وتحذر الحكمة الشعبية من الزواج اللامتكافيء او غير الممعن التفكير فيه: «من يأخذ زوجة ليس من أهله فيموت في غير أسرته»، ومثل آخر يقول « لا تتزوج بنت الارملة، فالزواج يجب ان يكون متكافئاً».

وينتشر في مصر الزواج بين ابناء وبنات العم والخال. يقول المثل «حب بنت العم ولو مضطر تسيل الدم». ويعتبر الزواج من بنات العم والخال من وجهة النظر المصرية ذا افضليات جمة. فأثناء الصبا كالعادة يعرف بعضهم البعض مما يسهل من معرفة الطباع في الاسرة، اضافة الى ان الزوج والزوجة ذوا وضع اجتماعي متساو، ويعتبر المهر في هذه الحالة اقل، اذ تعرف الاسر بعضها البعض. وحينما يكون العروسان من اقارب الاب فان هذا الزواج يكون في اطار اسرة او عشيرة واحدة.

ويعتبر اختيار العروس او العريس في مصر من مهمات الوالدين. الا ان الاوضاع تغيرت الان فقد اصبح المصريون يأخذون برأي المعنيين بالامر.

فيما يخص جمال العروس فللناس ذوق سليم في ذلك، اذ تعطي الاولوية للبنات ذوات البشرة البيضاء والممشوقات وذوات الوسط النحيف والصدر الممتلىء وملامح الوجه السمحة. ورغم ان جمال الجسم ضروري فانه يشغل المكان الثاني بعد اخلاق العروس واصلها وتصرفاتها ووضع والديها.

ولنبتعد قليلا عن عادات العرس وحقوق الزواج ولنتحدث عن الجمال الجسماني للشعب. عادة ما يكون المصريون والمصريات جيدي التكوين وذوي اجسام جميلة، هذا اذا كانوا اصحاء ويتغذون بشكل طبيعي. والمصريات جذابات وتكوينهن متناسب وذوات ملامح وجه ناعمة، وشعر أسود كثيف وعيون سوداء جميلة ذات رموش كثيفة تلهم الشعراء بحق. وتعرف المصريات سحر العيون ولذا فانهن يخططن الجفن والرموش بالكحل كما كان يفعل قدماء المصريين. وفي الماضي كانت النساء من الطبقات العليا والوسطى يزين كفوفهن وارجلهن بالحناء الا ان الفلاحات هن فقط اللاتي حافظن على هذه العادة. فقد انتقلت النساء الثريات الى استخدام مستحضرات التجميل المستوردة.

علما بان مصر هي التي تصدر المواد الخام اللازمة لصناعة مستحضرات التجميل من زيت الياسمين الى النباتات التي تصنع منها الروائح. وعموما فالنساء المصريات يحافظن على رشاقتهن وجمالهن حتى الاربعين وبعد ذلك يذبلن.

ويعتبر الزواج من غير مسلمة (مثل المسيحية واليهودية ومن ذوات الديانات الاخرى-اي من اهل الكتاب) مسموحا للرجل المسلم. ولا تلتزم المرأة غير المسلمة والتي تستعد للزواج من مسلم بالتخلي عن دينها. الا ان ابناءها يصبحون مسلمين.

وفي القرون الوسطى تم بهذا الشكل اسراع عملية ادخال الاسلام في البلدان التي غزاها المسلمون وكانت هذه الطريقة فعالة في الاسراع بعملية نشر الاسلام في افريقيا. الا ان الزواج المختلط اصبح الان نادرا رغم انه موجود.

وفي الماضي حظر على المسلمة ان تتزوج من غير مسلم وهددها ذلك بعقوبة الاعدام. وقد اورد العالم لاين قصة مأساوية لمثل هذا الزواج. فقد حكم على المرأة

التي انتقلت من الاسلام للمسيحية والتي رفضت الندم على ما فعلت بالاعدام. طافوا بها اولا على حمار بالمدينة ثم قادوها في قارب الى وسط النيل وجلدوها ثم اغرقوها.

ومنذ ذلك الحين تغيرت القوانين والعادات. فالمرأة المصرية التي تتزوج من رجل لا يدين بدينها وقبلت بدينه لا يهددها الموت الان. الا ان ذلك يتطلب شجاعة منها شجاعة فائقة اوحبا اعمى. ولدى القيام بمثل هذه الخطوة فان هذه المرأة تقطع بكل علاقات القرابة والعلاقات الاجتماعية القديمة. ولن تستطيع البقاء ايضا في نفس الحي الذي كانت تعيش فيه، هذا ناهيك عن الحديث عن القرية التي كانت تعيش فيها. واذا ما تزوجت المرأة المصرية من اجنبي فانها مصر في معظم الاحوال لان تغادر البلاد.

ويسمح رسميا بزواج المسلمة من غير المسلم في كل من مصر وتونس والمغرب. الا ان هناك قوانين حكومية وهناك شريعة. وقد أكد علماء الازهر في فتوى خاصة توضح منع الشريعة لزواج المسلمة من غير المسلم وايضا زواج المسلم من كافرة او وثنية، كما ان علماء الازهر يعلنون عدم صحة زواج المسلمة من شيوعي.

وقد ترك لنا لاين وصف عادات الزواج في مصر. وقد كانت هذه العادات دقيقة لمصر بداية القرن التاسع عشر وصحيحة حتى وقتنا المعاصر. كما كانت هذه التقاليد صحيحة ايضا لعشرات القرون السابقة. يحرم القرآن والسنة ان يتزوج الرجل من قريباته سواء القريبات منهن او البعيدات محددا بذلك درجة القرابة في هذه الاحوال. الا ان هذا التحريم لا ينطبق على بنات العم والخال. « ان زواج الرجل بالبنت البالغة يعتبر شرعيا بعد ان يقوم الطرفان باعلان رغبتهما بالزواج وذلك على ان تقوم البنت باعلان ذلك امام اثنين من الشهود وبمساعدة الشخص الذي تثق فيه وتتم هذه العملية بعد ان يتم دفع المهر بالكامل ان نصفه. ولا يتطلب الامر موافقة البنت غير البالغة سن الرشد.

اذ يعطي ابوها هذه الموافقة. واذا كان قد توفي فان اقرب اقاربها من الرجال

البالغين او اي شخص يتولى امرها طبقا لوصية والديها او بقرار المحكمة او اي شخص آخر توكله يقوم باعطاء هذه الموافقة».

ويمكن تفصيل ملاحظات المستشرق الانجليزي الا انه عمليا يخيل للمرء ان هذه الملاحظات قد سجلت بالامس. صحيح ان القانون حدد عمر زواج البنت بستة عشر عاما والرجل بثمانية عشر عاما، لكن من سيراجع شهادات الميلاد بدفاتر تسجيل المواليد في الريف؟ ويعد ارغام البنت التي لم تبلغ من العمر الستة عشر عاما على الزواج جريمة جنائية. الا انها قضية استثنائية فالوالدين ليسا قساة وزوج المستقبل عادة ما يكون انسانا عاديا، لكن اذا ما تسنى لهما التخلص من فم زائد في الاسرة، فمن ذا الذي سيعطي اهتماما للقانون؟

شتان بين عرس وعرس فقد اتيح لي ان احضر عرس ابن احد الفلاحين الاجراء كما حضرت عرس ابن احد جنرالات الجيش السابقين بفندق «الميريديان» وهو في نفس الوقت مالك كبير للاراضي. ففي العرس الاول كان الرجال والنساء يجلسون كل على حدة، وتجمع الضيوف في فناء المنزل المبني من الطين من اجل ان يلتهموا لحم الخروف المسلوق بالارز. وقد احيا الليلة موسيقى اعمى عزف على الربابة ذات الوتر الواحد بمصاحبة الدف. ولم تكن العروس - وهي ايضا بنت فلاح اجير - بين الحاضرين. فقد عرضت جهاز العرس، وكان عبارة عن لحاف منجد وبعض الوسائد، اما هدايا زوجها فكانت عبارة عن غويشة من الفضة عرضتها على اصدقائها ومعارف ام زوجها (حماتها). وكانت بانتظار العريس في صحبة امها.

اما في العرس الثاني فقد تجمعت نخبة من وجهاء المجتمع المصري تحت اضواء الثريات المبهرة وضجيج الفرقة الموسيقية، وتجمع الرجال والنساء معا في صالة الافراح بفندق «الميريديان». وفي اللحظة المناسبة جاء الجرسونات بعربة صغيرة تحمل كعكة من عدة طوابق وأخذ كل من الضيوف قطعة جاتوة مع كوب من الشربات الحلو. ولم يكن هناك خمر او اكلات دسمة للعشاء. وكان العريس يرتدي بدلة سوداء من ثلاث قطع وارتدت العروس فستانا ابيض جميلاً ذا طرف طويل من الخلف، كما زين الماس اذنيها ورقبتها ويديها وجلست هي

والعريس على مكان مرتفع يبتسمان للضيوف وقد بدا عليهما التعب. وقد انتعش العريسان فقط حينما ظهرت الراقصة التي قدمت رقصة البطن، وهي واحدة من افضل الراقصات حينئذ في مصر. وقد رقصت الراقصة بولع انعش والهب الحاضرين. وكانت الراقصة ترتدي بدلة رقص مفتوحة بينت نصف صدرها، ومطرزة بالترتر اللامع، اما الجزء الاسفل من البدلة فكان عبارة عن جونلة مفتوحة من اعلى فخذيها حتى اسفل قدميها. وتحركت الراقصة هنا وهناك وتلوت واهتزت على انغام الموسيقى ضاربة باصابعها الصاجات بوتائر منتظمة ومرتعشة على انغام الدف والطبلة. وقد صاحبها في رقصها وحركتها شعرها الاسود الطويل العجيب ويداها اللولبيتان المعبرتان وكذلك بطنها وفخذاها. وبدت كلها وكأنها الهة الاغراء في شكل امرأة. وخلال نصف ساعة من الرقص حصلت الراقصة على اجر يعادل مرتب عشرة شهور لعامل مؤهل.

وقد تعرف العريس والعروس على بعضهما البعض قبل الزواج. اذ يمكن في مثل هذا الوسط ان يتقابل الشاب والفتاة ويتحدثا ويشاركا في الحفلات المسائية لكن تحت رقابة الكبار. وكان هذا الزواج بعد حب، وبين شخصين من مستوى اجتماعي واحد. وقد دفع العريس مهرا وأخذ على عاتقه تجهيز الشقة.

اما العروس فهي التي وفرت الشقة وكانت على كورنيش النيل، اذ اهداها لها والدها الذي يعتبر مالك عقارات كبيرا. وقد نفذ العريس كل العادات المتبعة قبل الزواج. فقد كان يرسل للعروس زهورا وحلويات وقبل العرس اهدى لها عقدا ثمينا. وقد حدثني العريس عن ادراكه لقدم هذه العادات لكن بتنفيذه لها حصل على بعض الرضا فما بالك بالعروس. وبعد حفلة الزواج ذهب العريسان الى شقتهما وفي اليوم التالي توجه العروسان لقضاء شهر العسل باوروبا.

وفي القرية توجه الفلاح الشاب لزوجته بعد انتهاء المائدة، وفي الصباح قامت ام العروس بعرض ملاية بيضاء عليها بقعة دم حمراء - كدليل على عذرية العروس، ولا يسامح المجتمع التقليدي المحافظ الفتاة اذا ما ارتكبت «اثما». اما اذا ارتكب الابن خطأ غير شريف فالامر يمكن اصلاحه، ولا يعد ذلك فاضحا للاسرة، اما اذا

لحق الضرر بسمعة الابنة فهذا عار مشين للأسرة ويصبح وجودها في القرية مستحيلا. واذا ما اكتشف العريس الشاب ان عروسه ليست عذراء فانه يطردها توا. وفي الماضي كان بامكان والد البنت الآثمة واخوتها أن يجّروها الى الصحراء ويذبحوها. وتعتبر العلاقات الجنسية التي تقوم بها المرأة المتزوجة مع غير زوجها كاللعب بالنار. اذ يحدث ان ترجم الزوجة الخائنة بالحجارة حتى الموت او تغرق في الماء مثلها مثل عشيقها.

وينظر الرأي العام بتسامح، في المدينة وليس في القرية، للعلاقات الجنسية التي يقوم بها الرجال مع النساء غير المتزوجات.

وفي اليوم التالي للزواج حدثني صديقي الفلاح انه كان يجب عليه ان يذهب للعمل في الحقل رغم ان العادات تعطي له الحق في اجازة ثلاثة ايام. ثم قابلته مرة اخرى بعد ستة اشهر، فكان كالعادة نحيفا ورث الثياب. ولكنه كان فرحان وكانت زوجته حاملا، وحالفه الحظ في زواجه. وسألته: «ـ هل كنت تطلق زوجتك اذا لم تعجبك حينئذ؟» فأجاب ـ ان «ربنا امر بالصبر وليس لدي اموال لمؤخر الصدق او لمهر جديد».

ويتزوج الناس ليس من اجل الطلاق. والشيعة فقط هي التي تعطي الحق في الزواج المؤقت (زواج المتعة) واحيانا لعدة ساعات. الا ان سهولة او صعوبة الطلاق يحسب حسابها عند الزواج.

وبخلاف الكاثوليكية لا يمانع الاسلام في الطلاق. وقد ترتبط كثرة حالات الطلاق في مصربعدم امكانية تعارف الزوجين قبل الزواج. اما لدى الاقباط فالطلاق تقريبا مستحيل.

وقد نص القرآن بالتفصيل على قواعد الطلاق وهي ثلاثة انواع. فالطلاق النهائي هو الذي يحدث بعد ان يعلن الزوج زوجته طالقا ٣ مرات بحضور شهود او في المحكمة. وحسب الشريعة توجد ١٧ صيغة للطلاق النهائي، وعبارة «انت طالق» هي اكثرها استخداما.

واذا ما نطق الزوج بهذه العبارة ثلاث مرات وطلق زوجته، فانه لا يستطيع اعادتها لبيت الزوجية مرة اخرى الا بعد ان تتزوج من غيره وتطلق ثم تعود اليه. وصادف ان تعرفت على قصة محزنة ومضحكة في نفس الوقت: ففي عنفوان الغيرة طلق سائس الاحصنة الكهل في احد النوادي الرياضية زوجته الشابة نهائيا امام شهود، ندم على ما فعل في اليوم التالي، وبدأ البحث عن زوج مؤقت (محلل) لها حتى يتمكن من الزواج مرة اخرى بها بعد ان تتزوج هي وتطلق من هذا المحلل. وبعد انتهاء فترة العدة التي طالت ٣ اشهر وجد لها محللا ووعده بدفع مبلغ له مقابل الضرر المعنوي الذي سيلحق به. وتطالب الشريعة بضرورة الالتزام بفترة العدة للتأكد من عدم حمل الزوجة المطلقة. فاذا ما كانت حاملا فانها تظل في منزل زوجها حتى تتم الولادة، اذ ان الطفل سيكون للاب. الا ان الحظ خان السائس. فبعد ان اخذ المحلل مبلغ التعويض مقابل الضرر المعنوي رفض الطلاق. اما الزوجة السابقة فعبرت عن رضاها بالزواج الجديد.

ويوجد لدى المسلمين طلاق مؤقت (ما يسمى بالغضب). بمعنى انه اذا ما ارتكب الزوج خطأ ما فانه يبعد عن اداء واجباته الزوجية لفترة محددة حتى التكفير عن ذنبه وذلك اما بالصوم الطويل، او بالتصديق على الفقراء او التبرع لمسجد محتاج.

ويستطيع الزوج ان يفسخ الزواج في اي وقت لاي سبب وعليه ان يتحمل بعض الاعباء المالية المحددة لزوجته السابقة (ما يسمى بالنفقة). ويمكن للزوجة ان تطلب الطلاق في المحكمة من زوجها في حالتين ودون ان تتحمل هي التزامات امام الزوج:

اذا مالم يدفع المهر المتفق عليه اثناء عقد الزواج او حالة عدم تقديمه لامكانيات اعالتها. وهناك طريقة اخرى لامكانية تحقيق الطلاق بمبادرة من الزوجة وهي رفض «بيت الطاعة»، مجبرة زوجها على فسخ الزواج وديا.

وفي كل الحالات فان على المرأة المطلقة ان تترك له الاطفال. فالمرأة تعد، كالعادة، من اسرة او عشيرة اخرى، والاطفال ملك الاب وهم ورثته. ولو خرج

الاطفال مع امهم المطلقة لوجب تقسيم العقارات.

وحسب الشريعة فعلى المرأة المطلقة ان تهتم باطفالها، اما اعالتهم ماديا فانها من التزامات الزوج. وتستمر رعاية الام لابنها حتى يستطيع ان يهتم هو بنفسه. وعادة ما يعتبر الفتى مستقلا في السابعة من عمره، وبعد ذلك تدخل تربيته في اطار التزامات الاب او اقرب الاقارب. وتظل الابنة تحت رعاية الام حتى تبلغ وبعد ذلك تنتقل للمعيشة مع الاب او أقرب الاقارب.

وحينما تنتقل العروس الشابة للحياة في منزل الزوج بعد الزواج تشعر بغربتها في الفترة الاولى، وقد لا يخلو شهر العسل احيانا من المشاكسات. وتفضل العروس الحفاظ على العلاقات مع اسرتها حتى يكون لها ملجأ تلجأ اليه في حالة الطلاق او الخصام الجاد مع الزوج.

وتتشكل العلاقات بين الزوجة واقارب الزوج من عناصر متناقضة: الاحتكاك، البحث عن التفاهم المتبادل، التحدي والمنافسة.

ويجب ان تخضع الزوجة للحماة، وهي تتحول في الشهور الاولى من الزواج من الابنة المحبوبة لوالديها الى كائن مضطهد. وتقوم الام بادارة شئون بيوت ابنائها المتزوجين حيث تخضع لها كل زوجات الابناء. ولا يمكن ان تجد الزوجة التي لا تحترم حماتها اي تفهم لدى الزوج. ومثل هذه العلاقات تضع الصعوبات امام الاسرة الشابة وللزوج نفسه اذ يصبح بين نارين: فهو لا يريد ان يظلم امه ولا يتشاجر مع زوجته. وكثيرا ما تفوز احداهن. لكن لا يحدث ذلك كثيرا. فاذا ما كان والدا الزوج كبار السن فانهما في حاجة للمساعدة التي تقدمها الزوجة الشابة في البيت. واذا كانت شخصيتها قوية فانها تخضع الزوج لامرتها.

واهم ما تعتمد عليه المرأة لتقوية مركزها في الاسرة الكبيرة هو اطفالها، او بمعنى ادق اولادها الصبيان. فكلما كان عددهم اكبر كلما زاد تأثيرها واحترام الاخرين لها. ويعتبر انجاب الاطفال هو معنى الحياة ومعنى الزواج. فالاب ينتظر خلفه، اذ «لا يموت من له وريث»، والاسرة الكبيرة في حاجة للمعاونين. فالصبية

والشباب سيخرجون للحقل مع الوالدين وهم ايضا الذين سيساعدونهم عند العجز. وحب واحترام الابناء لامهم سيعوضها عن المعاناة والعذاب والاهانات التي عايشتها في شبابها. وستصبح هي بنفسها حماة وستدير الاسرة.

والاطفال هم اساس الاسرة ومصدر السعادة الاسرية. ولذلك فان المستقبل المظلم ينتظر المرأة التي ليس لها اطفال. ويطاردها الفزع ويحرمها من الراحة حتى تفقد عقلها. ولا امل للمرأة المطلقة بسبب عقمها في ان تجد زوجا جديدا اذا ما اصبح سبب الطلاق معروفا. وتلجأ في هذه الحالة لمختلف الحيل والطرق حتى لا تواجه هذه الكارثة. وتعد زيارة مقابر المشايخ (خاصة مسجد السيد البدوي في طنطا) من الطرق العادية «لعلاج» النساء المحرومات من الاطفال. فتصلي النساء على هذه المقابر ويتركن احيانا المناديل او جزءا من الملابس - ما يسمى بالاثر، وينذرون النذور وينظفون المقابر ويكنسونها. كما تعزى احيانا صفات سحرية للاثار المعمارية القديمة. فتطوف النساء المحرومات من الاطفال سبع مرات حول احد الاهرامات على امل ان يساعدها ذلك على الحمل. واحيانا يسرقن قطعا حجرية صغيرة برسومات من المقابر القديمة لان هذه المواد لها فعل الاحجبة. ويعتقد الكثيرون ان «البركة» منتشرة في كل ما هو قديم.

وترتبط كثير من العادات والخرافات بالحمل والانجاب فالمرأة الحامل كثيرا ما تعلق صور الشخصيات المرموقة او الرجال الوسيمين على حائط غرفتها. فالكثيرات من المصريات يعتقدن انه اذا ما نظرن تكرارا الى هذه الصور وتذكرن اياها فسيولد الاطفال بنفس المستوى من الجمال. وعموما فهذه العادة توجد ليس في مصر فقط. فغالبا ما تنظر المرأة الحامل باهتمام الى البنات الجميلات او للرجال الوسيمين. وحينما كنت طالبا في القاهرة كان لي صديق فارع وذو عينين زرقاوين وشعر اصفر ناعم كثيف. وكانت تزعجه النظرات الطويلة التي كانت النساء ترسلنها له، هذا رغم ان العيون الزرقاء في اعتقاد المصريين - عيون حسودة. ويفضل المصريون انجاب الاولاد من البنات، الا ان انجاب البنات لا يعتبر مأساة. اذ يحيطونهن بالرعاية والرقة وتبادلهم الابنة مشاعر الحب. ولا تكفي مستوصفات

الولادة في مصر، خاصة في الريف. ولذلك فكثيرا ما يلجأ للدايات لدى الولادة. ولا يعرف معظمهن اي شيء عن قواعد الصحة الحديثة. لكن ولدت بهذا الشكل امهات البنات وجداتهن وجدات جداتهن.

وفي اليوم السابع بعد الولادة يأتون لغرفة الام بسلال من المواد الغذائية المختلفة. وفي هذا الوقت تقريبا تكحل الداية عيني المولود الصغير. وقد يكون لهذه العملية هدف صحي. ثم يهدي اصحاب البيت للداية سلة من الذرة والخبز والبلح والمكسرات واحيانا يضيفون اليها بعض النقود.

وغالبا ما يعطي الاب اسما للابن اما الام فهي التي تعطي الاسم للبنت. ويستخدم المصريون ـ المسلمون اسماء عربية بحتة او اسماء معربة من الانجيل او الكتاب المقدس. ولم تؤد موجة القومية العربية او التطرف الاسلامي الى تغيير ما في هذا المجال.

وحينما بدأت عملية الأتركة في تركيا بدأت تظهر هناك اسماء «تركية بحتة» مثل ابرتوغول، عطيلة، دوجان بدلا من الاسماء العربية. ومع ازدهار الجامعة الايرانية بدأوا يسمون الاطفال هناك بـ كوروش وداريوش وغيرهما من الاسماء الايرانية. اما العرب فلم يحتاجوا لاي تغيير اذ كان لديهم اسماء عربية. صحيح انه يمكن مقابلة اسماء مثل فيليب وفرعون وانطوان لدى الاقباط في مصرر لكن نادرا ما يستخدم المسلمون مثل هذه الاسماء. ولذلك فانه يمكن التأكيد بالكامل على الملاحظات العادلة ليومنا هذا والتي ابداها المستشرق الانجليزي لاين بخصوص الاسماء : «كثيرا ما يسمون الاطفال على شرف الرسول (محمد، احمد، مصطفى) أو على شرف احد من اسرته (على، حسن، حسين.....الخ) او احد من انصاره (عمر، عثمان، عمرو....الخ) او على شرف احد الانبياء والصالحين القدمى (مثل ابراهيم اسحاق، اسماعيل، يعقوب، موسى، داود، سليمان... الخ). واحيانا يعطونهم اسماء مثل «عبدالله»، «عبد القادر»....الخ. اما البنات فيسمونهن بأسماء زوجات او بنات الرسول المحبوبات، او بأسماء احد افراد اسرته (مثل خديجة، عائشة، أمينة،

طمة، زينب) او يسمونهن بأسماء محبوبة، مبروكة، نفيسة، واحيانا ما يعطون
نات اسماء زهور او اي مادة طيبة اخرى.

ولا تتناقل اسماء الاشخاص من الاباء للابناء، ولذلك فان الاسم الثاني
ستمرار يعكس صفة القرابة مثل ابي علي، ابن احمد.... الخ.

واحيانا ما يكون الاسم الثاني لقبا: نور الدين، الطويل... الخ او عادة ما يرتبط
سم بالبلد التي يعيش فيها الشخص او بمكان اصل العائلة او بالمهنة مثل
شيدي (نسبة الى مدينة رشيد)، الصباغ (نسبة لمهنة الصباغ)، التاجر (نسبة
هنة التجارة) ومثل هذه الاسماء تتناقلها العائلة وتظل موجودة في الاسرة
ستمرار.

وليكن المرء في منأى عن الخداع والدهشة اذا ما رأى الاطفال القذرين ذوي
ياب الرثة بجانب امهم الناعمة المعتنية بنفسها. فالاطفال يحفظون من الحسد.
ما ان عين السوء هي عين الحاسد فلا بد من ابعاد الطفل عنها او خداعها. وهناك
يق اخرى ضد الحسد وهي ان يلبس الاطفال من الذكور ملابس البنات. الا ان
صريين لا يكترثون باخفاء الاطفال القذرين ذوي العيون المعمصة في الاحياء
شعبية من الحسد، فمنظرهم الخارجي يحدد فقرهم المدقع.

وينمو الاولاد حتى عمر ٦ ـ ٧ سنوات بين النساء. وتعتبر عملية ختان الاولاد
، هذه السن بمثابة اول خطوة للانتقال لمجتمع الرجولة. وبعد الختان يبدأ تعويد
لد على العمل، فـ ساعد اباه في الحقل، كما يمكن ان يصطحبوه معهم لصلاة
جمعة. واذا كان قوي البنية يسمحون له بالصوم.

ولم يكن للاسلام فضل في ادخال الختان، اذ عرفه المصريون الفراعنة (فقد
نت رسومه على الجدران) كما عرفه اليهود القدامى ايضا. وقد تكون هناك وظيفة
حية لهذه العملية ثم تحولت لتأخذ شكل طقوس. ويستخدم الاقباط ايضا الختان،
ان هذا يحدث لديهم لدى تعميد الاطفال.

ويقوم الطبيب باجراء عملية الختان لاطفال العائلات الميسوة في المدينة، اما

في القرية فيقوم بها الحلاق. فيأتي قبل الختان بيوم او يومين ليحلق للطفل بطريقة معينة. وقبل هذا يقومون بغسل الطفل ويصبغون كفيه ورجليه بالحناء ثم يأتي الضيوف ويلصقون للطفل عملات معدنية صغيرة على وجهه يجمعها الحلاق لنفسه (وفي الاسر الميسورة الحال كانوا سابقا يضعون عملات من الذهب والفضة).

وقبل الحفلة مباشرة يرتدي الطفل ملابس جديدة واحيانا ملابس نسائية واسعة من اجل خداع العيون الحسود، ويجلسونه على حصان او حمار ويدورون به في القرية في صحبة ضجيج الموسيقى والاصدقاء. واذا ما جرى ختان طفلين معا، وهو الامر المفضل، لتخفيض النفقات، فانهم يجلسون الطفلين معا على الحمار او الحصان. وفي المساء يقيم الوالدان وليمة للاصدقاء الذين يقدمون هدايا للطفل. واحيانا يقضي الطفل جزءا من يومه بالمسجد مع اترابه قبل ان تجري له عملية الختان.

وعادة ما تحرم المرأة من تحقيق ذاتها اجتماعيا، لكنها تحظى بمكانة محترمة في الاسرة. وهي تعرف جيدا ان الرجل هو الكبير والمسؤل في البيت عن الاسرة. وهي تعرف ايضا انه يعولها. وحتى في المدينة فان هناك عددا قليلا من النساء اللواتي يحصلن على راتب. والزوج الذي لا يستطيع ان ينفق على الاسرة يمكن ان يصبح هدفا للسخرية والاستفزاز. رغم ان هذا لا يحدث دائما. وتعيش كثيرات من النساء في الضيق طوال حياتهن، اعتمادا على الصدفة السعيدة او املا في عالم الغيب. وعادة ما تخضع المرأة وتحمل عبأها حتى بعد ثورتها وكيلها العتاب لزوجها.

وكانت المرأة المصرية تبدو دائما، في نظر الاوروبي، اكثر اضطهادا من وضعها الحقيقي. وحينما يتجمع الرجال في المنزل فلا تستطيع المرأة الظهور عليهم. الا ان ام الاسرة هي فقط التي تستطيع، ان تحيي الضيوف.

وكلما كان مستوى معيشة العائلة ارفع كلما تقيدت وقلت حركة ام الاسرة بالمنزل. ومن المفروض عليها ان تصحب لدى خروجها الى الشارع اما زوجها او

سيدة اخرى مسنة. ويبدو هذا الوضع للاوروبيين شكلا الذل والاضهاد الا ان كثيرات من المصريات يعتبرن ان مثل هذه الرقابة اللحوحة شكلا من اشكال الحب والاحترام لهن.

ويتغير اللزمن وتتغير الاخلاق. اذ يجتمع الرجال والنساء معا، وخاصة من الانتليجينسيا المتعلمة في اوروبا. ويمكن رؤية امرأة خلف عجلة قيادة السيارة، او في العمل في اي هيئة حكومية. إلا انه على المستوى الجماهيري العام فان العادات متأصلة. فمعظم النساء مكانهن فقط في الاسرة.

فاذا ما كان لدى الرجل بيت فهي تصبح ربته، ولا تطيق تدخل الرجل في شؤونها. وفي الممارسة تقوم الزوجة بتأثير كبير على زوجها. والوفاق في الاسرة هو رغبة كل مصري ومصرية.

ويقول المثل بالتقريب، من لديه زوجة جيدة فانه يذهب للبيت قبل العشاء. والمثل الاخر يرد: «من يحبها زوجها تشرق لها الشمس». ونادرا ما يتعامل المصريون بجفاء مع زوجاتهم، رغم ان الازواج المستبدين يحاولون ايجاد تبريرات لهم في توصيات القرآن حول كيفية التعامل مع الزوجات غير المطيعات.

إلا ان الرأي العام ضد الزوج المستبد. فالحقوق الكبيرة تفترض مسؤوليات كبيرة. فالزوجة تطالب الزوج بايلاء اهتمام بها، وفي الاسر الميسورة بالهدايا والملابس. واذا ما غضبت فانها تذهب الى منزل ابيها او اخيها. ويتحدث المثل باحترام عن النساء اللواتي في مقدورهن الحفاظ على كرامتهن امام الرجال. واذا رفض الزوج الطلاق فان عليه ايجاد طريقة اخرى لإرضاء زوجته.

وتسمح الشريعة الاسلامية للمسلم بالزواج من اربع زوجات. الا ان زواج المرة الواحدة هو الغالب في مصر. ونادرا ما نجد من لديه زوجتين او اكثر. وتعد الزوجة الثانية تهديدا لسعادة ولكرامة الزوجة الاولى. وتكثر بينهما الاقاويل والتنافس والكراهية. ويمكن ان تتشكل علاقات محتملة الى حد ما بين الزوجة التي ليس لديها اطفال والزوجة الجديدة التي اصبحت تلد الاطفال. ويتزوج المقتدرون

من زوجتين. ويفضل هؤلاء ان يكون لهم بيتان ويعيشون في كل منهما بالدور.

وكان لدي احد المعارف من المصريين وهو مهندس ميسور الحال لكنه طائش اذ تزوج للمرة الثانية دون ان يبلغ الزوجة الاولى بما نوى عليه وايضا لم يبلغ زوجته الجديدة بانه متزوج، واصبح بين نارين. فقرر الطلاق من زوجته الثانية بعد ان دفع مؤخر الصداق وبعد ذلك تركته زوجته الاولى. وانهارت بذلك حياته المادية والاسرية.

ولا تعد علاقة الرجل بالمرأة بالامر السهل اطلاقا، اذ ينتاب هذه العلاقات الشك وعدم الثقة والحذر من الطرفين.

ويعد الزوج المصري غيوراً جدا، وهو واثق من ضرورة مراقبة الزوجة والا فانها على استعداد للخيانة الزوجية. «لا تؤمن للمرأة حتى اذا كانت مصلية ولا للشمس وقت المغربية». الا يبرهن هذا المثال على صحة ملاحظات لاين منذ ١٥٠ عاما؟ فقد كتب يقول ان «النساء المصريات اكثر انحلالا من نساء اي دولة متحضرة. ويعترف بهذا الرجال المصريون ويتشدقون به حتى في احاديثهم مع الاجانب. ومن الطبيعي ان هناك استثناء من هذه القاعدة العامة.... فتعتبر المصريات ماكرات وفي استطاعتهن الاحتيال على اكثر الرجال حذراً ودهاء. وبالرغم من الدرجة العالية من المغامرة فان دسائسهن نادرا ما تفشل».

لقد تسنى لنا اكثر من مرة ان نتأكد من عدالة وآنية قيمة ملاحظات لاين. لكن ملاحظته هذه لا يمكن قبولها دون مناقشة حتى في عصره. فاذا ما كان الحديث يدور عن النساء في الحريم فان سلوكهن مفهوم، ومن وجهة نظر الاوروبي سواء في القرن التاسع عشر او نهاية القرن العشرين فان هذا السلوك يعد مبررا. فالمشاعر النسائية لا يمكن ان يرضيها دور الزوجة الثانية او الثالثة او الرابعة. وقد تحول الحريم لدى الرجال الميسورين الى تجمعات ليس فقط لنساء ماكرات او ذوات رغبات حسية بل ايضا الى تجمع للنساء المحرومات، العصبيات، الثرثارات سليطات اللسان. وكانت هذه مأساتهن.

ولكننا نقابل في عصرنا الحالي مشاكل مشابهة. وكلما زادت القيود والممنوعات زادت الرغبة الدفينة لخرقها.

ويؤدي التنظيم الصارم والمعيشة والحياة الاسرية الى ظهور مشاعر الاحتجاج لدى المرأة. فالمرأة التي تزوجت دون ارادتها وتكره زوجها رغم اعراضها عن الطلاق لاسباب معنوية واجتماعية ليست معيارا لكل النساء من نفس النوع، اذ يمكن ان تسعى مثيلتها لخيانة الحياة الزوجية.

وكتب لاين «ان كل المصريين يتميزون بعدم الكلفة في الحديث بصرف النظر عن الجنس والوضع الاجتماعي. وينطبق هذا حتى على المحترمات، ومن ذوات الوضع الاجتماعي المرموق باستثناء قلة قليلة جدا يعد كلامها غليظا ولكن محتملا».

وبعد مائة عام وبعد ان قضت الباحثة الاجتماعية الانجليزية وابنفرد بلكمان عدة اعوام في صعيد مصر وصلت الى نفس الاستنتاج: «اذا ما وضعنا في اعتبارنا جهل الفلاحين فانه من غير المدهش ادراك ضيق افق احاديثهم... فعادة ما تتناول احاديثهم مواضيع متعلقة بقضايا جنسية ويؤدي هذا إلى تأثير انحطاطي عليهم وعلى اطفالهم، اذ انهم لا يتورعون عن ذكر كل التفاصيل امام الاطفال، الذين يكررون، طبيعيا، احاديث الكبار. وتعبر النساء في هذه الاحاديث بشكل افصح من الرجال. اما البنات الموجودات مع امهاتهن فيسمعن الاحاديث حول دقائق الامور الجنسية».

وتؤيد ملاحظات بلكمان ملاحظاتي الخاصة والاحاديث التي سمعتها وايضا شهادات كثير من الكتاب والباحثين الاجتماعيين المعاصرين. لكن هل من العدالة ذلك الشجب المحافظ القاطع لهذه الاخلاق سواء في القرن الماضي او الحاضر؟ ألا توجد في ذلك الشجب عناصر النفاق؟ قد يكون الحديث امام الاطفال عن المسائل الجنسية هو شكل فطري شعبي من اشكال التربية الجنسية، والا يعترف الان معظم علماء النفس والاجتماع بضرورة المناقشة المفتوحة والصريحة للقضايا الجنسية؟

ولذلك فلنحترم اذن عادات واخلاق الشعوب الاخرى بصرف النظر عن القبول بها او رفضها.

ويسترعي انتباهك في القاهرة ان نظرة البنت او المرأة تتحدث بصراحة عن مشاعرها تجاه الرجل، خاصة حينما يختلط الحابل بالنابل في ازدحام المدينة. فالبنت الروسية او الاوروبية تنظر الى الرجل بشكل غير ملحوظ. فهل يعني ذلك ان المصريات يتمتعن بحرية اكبر من الاوروبيات ؟. بالعكس تماما. فيفسر الكاتب الانجليزي جيمس اولدريج نظرات المصريات، تفسيرا اعتبره مقنعا بالتالي: «فقد نظرت النساء المصريات طوال قرون وقرون عبر فتحة البرقع (الحجاب) للرجال او من بين شيش الشبابيك في البيت ولم تكن هناك حاجة لهن لاخفاء مشاعرهن، اذ لم ير احد وجوهن. اما الان فعملياً اختفى البرقع (الحجاب) وانتهى عصر امتلاك الحريم، لكن نظرات المصريات اللواتي يعشن في المدينة لا تخلو من تعبيرات الحريم المعتزلات في السابق.

وتوحي كلمة الحجاب بالقرون الوسطى الاسلامية والحاضرة، التي استمرت حتى ايامنا هذه. ولم يكن الحجاب اختراعا اسلاميا. ويختلف حتى علماء الاسلام حول تفسير كلمة «حجاب»: فهل هو ـ غطاء، ستارة، حاجز؟

واعتبر علماء الدين المسلمون ان الحجاب صفة من صفات الاسلام نظرا لان الزوجة هي ملكية خاصة للزوج ولا يجب ان ينظر احد لملكية الغير. ويمكن لوجه المرأة ان يهيج مشاعر الرجل. وقد تقبل النبلاء العرب اول حجاب ثم بدأ التجار والمهنيون في تقليده. ثم ثبت الحجاب في النمط المعيشي لسكان المدن.

ولم يصل الحجاب للعرب مباشرة ولم ينتشر بسرعة. فقد توارثوه عن الفرس الزرادشتيين بعد غزو ايران في منتصف القرن السابع الميلادي. وفي ديانة ايران ما قبل الاسلامية ـ المجوسية ـ تلعب النار الدور الاساسي. واعتبرت المرأة لديهم ـ حامية الهدوء المنزلي ـ كائنا شريرا، ومن اجل الا تؤذي «النار المقدسة» بانفاسها، كان يجب عليها ان تغطي انفها وفمها برباط.

ويعتبر علماء التاريخ ان حمل المرأة للحجاب هو احد المظاهر المعيشية لحياة الفرس مرحلة المجوسية. ويمكن ان يكون الايرانيون قد توارثوا عادة حمل الحجاب من الاشوريين القدماء.واذا كان العرب قد توارثوا الحجاب من الشرق فان اعتزال النساء جاء اليهم من جيرانهم الشماليين - الغربيين - البيزنطيين، الذين توارثوه هم من اليونانين القدماء.

فلم يسمح في الاسر البيزنطية المرموقة للبنات ان يختلطن مع الاولاد في مراحل الطفولة. ولم يعلموهن في المدارس بل في البيوت وعلى الاعمال اليدوية واعداد الطعام والاهتمام بزوج المستقبل. وهكذا فقد فضلت العادات البيزنطية الابقاء على النساء بين اربعة جدران في البداية في منزل الاب ثم في منزل الزوج.

وقد اعطى المسلمون طابعا صارما للحجاب والاعتزال بعد ان عملوا به في منتصف القرن السابع. فتقول شايدولينا: « فقد ادى حمل الحجاب واعتزال المرأة الى ايجاد صعوبات في تعامل المرأة مع الآخرين. كما ادى الاعتزال على مدى قرون طويلة بالمرأة لان تصبح كائنا مقيدا محروما من أي اهتمام بما حولها من حياة، وبما كان يَجري وراء جدران بيتها... وكان الاعتزال واستخدام الحجاب دليلا على التخلف الثقافي للمرأة المسلمة مما جعلها حامية للخرافات والوساوس المختلفة. وعلى مدى قرون طويلة فقد ربوا فيها الخضوع لمصيرها، كما اصبحت قيمتها الاجتماعية الناقصة مطلبا».

ولم يعرف البدو، بما في ذلك المصريون، البرقع ابدا ولم يلبسوه. فقد تطلب نمط المعيشة المترحل حرية النقل والتنقل. فلدى ظهور العواصف الترابية كان الرجال والنساء يلفون وجوههم. ولم يكن اعتزال المرأة ببساطة ممكنا في ظروف الرعي والتنقل. ورغم انه لم تكن هناك مساواة بين الجنسين الا ان البدويات كن يتصرفن بحرية اكثر من الفلاحات او من النساء سكان الحضر. ولم تلبس النساء في القرية المصرية البرقع كجزء اساسي من الادوات النسائية. فقد تطلب العمل وتطلبت المعيشة ملابس فضفاضة.

ونادرا ما تقابل في الوقت الحالي حجابا في مصر. فالملابس الاوروبية

انتشرت بازدياد في القاهرة والاسكندرية ومدن منطقة قناة السويس. ورغم متابعة المصريات، كأخواتهن في اوروبا، للموضة الا ان المصريات دائما كن يتذكرن التقاليد. فالجونلة القصيرة التي كانت موضة نهاية الستينات ـ بداية السبعينات لم تحز على انتشار واسع. وفي بداية الخمسينات ناقش البرلمان المصري قضية السماح للمصريات من عدمه بالظهور على البلاجات بالمايوهات. وفي التسعينات لا ترى تقريبا المصريات على البلاجات. وفي المسابح المغطاة فقط بعيدا عن اعين الغيورين على العقيدة يمكن ان ترى المصريات يسبحن معا مع الرجال.

وتملي الموجة الاسلامية الان على المرأة ملابس تقليدية محددة. فالمسلمات الخيرات يجب ان يظهرن على الناس فقط بوجه وكفين مكشوفة والباقي لا بد ان يكون مستورا.

وقد اصدرت لجنة الفتاوى المكونة من علماء الاسلام قرارا: «تؤكد اللجنة ان الكشف عن الوجه والكفين المزينة بمساحيق التجميل هو احدى الطرق لعرض الجمال للجميع، الامر الذي تحرّمه الشريعة تعاقب عليه بصرامة. ففتح الوجه والكفين يسمح في شكلها الطبيعي كما خلقها الله دون اية الوان... وبفضل هذه الاخلاق يمكن الحفاظ على الاساس الخلقي للاسرة». ولا ينفذ الجميع هذه المطالب لكن النساء اللواتي يرتدين الملابس التقليدية يزداد عددهن باطراد في المدينة.

وتبدو القاهرة المطوقة بالجسور والمصعوقة بضجيج الموتورات وغازات السيارات العادمة، والمستكينة لاجهزة التلفزيون في المساء ـ تبدو وكأنها بعيدة تماما ليس فقط عن القرون الوسطى وحتى عن القرن الماضي. الا ان السيكولوجية والعقيدة والوساوس الاتية من الماضي ما زالت قوية الان تجاه المرأة والاسرة اكثر مما في اي شيء آخر.

وما زالت الشريعة التي تشكلت في القرون الاسلامية الاولى هي منظم الحياة الاسرية للمصريين المسلمين، وما زالت هي ايضا واحدة من اكثر القوانين

الاسلامية اعدادا. وسواء كان حجابا ام ملابس تقليدية فكلها من صفات اوضاع المرأة في الاسرة والمجتمع. ويفهم تقليديا من كلمة المجتمع سواء كان في مصر او الدول الاسلامية الاخرى مجتمع الرجال، الذين يعتبر معظمهم ان مكان المرأة في الاسرة وفي المنزل. الم يخلق الله آدم ثم حواء منه؟ والم توجد المرأة لزينة الحياة الدنيا للرجال لحين دخول الجنة والتمتع بالحوريات؟

وقد جاء بالقرآن ان المرأة في كل الظروف المتساوية والملائمة تحصل على نصف حظ الرجل من الارث «وللذكر مثل حظ الانثيين» رغم ان العديد من الايات اكدت على عدم صحة حرمان المرأة من حقوقها وعن حريتها في التصرف في ممتلكاتها. وعادة ما تحاكم النساء بسبب قضايا اسرية، علما بان شهادة الرجل تساوي شهادة امرأتين. ويقول القرآن: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم».

ولنتذكر انه قبل ظهور الاسلام، حينما كانت المرأة في الجزيرة العربية تشارك بشكل ما في الحياة السياسية ـ الاجتماعية، وكانت هناك نساء كاهنات ـ متنبآت وآلهة من النساء. فحينما عاد الرسول عام ٦٣٠ الى مكة حصل على البيعة في اجتماع عام اولا من الرجال ثم من النساء. لكن مثلما ذكر الأكاديمي بارتولد فان « قسما من نساء مكة ظل تقريبا هو المثل الوحيد في تاريخ الاسلام الدال على المشاركة الجماعية للمرأة في الحياة الاجتماعية». وقد قيد الاسلام حوالي ١٣٠٠ عام من مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية.

ولا يقصد بذلك الحياة السياسية والاقتصادية فقط بل وايضا اللهو الاجتماعي. فحينما ننطق بلفظ «رقص» فاننا نربطه بشكل محدد باللهو الذي يشارك فيه ممثلو الجنسين. وطبيعي انه توجد رقصات للرجال واخرى منفصلة للنساء.

وهناك رقصات للنساء ورقصات للرجال في الافراح الشعبية. الا ان محتواها يجمع بين الرقصات الاوروبية ـ من الكورال الروسي حتى الترنتيللا الايطالية، ناهيك عن الحديث عن الرقصات ذات الايقاعات الحديثة، التي تفترض اداء جماعيا. ويختلف الامر في مصر عما هو عليه في البلدان العربية الاخرى.

وقد حاول مصطفى كمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة بنزعه الطربوش من على رؤوس الاتراك وادخاله النظم الاوروبية ان يعود الاذواق على حفلات الرقص. فقد نظم هذه الحفلات في الذكرى السنوية الاولى للجمهورية. وكان معظم الحاضرين من الرجال هم من ضباط الجيش. وقد لاحظ الرئيس انهم لم يحسموا امرهم في دعوة النساء. وقد رفضت النساء الرقص خجلا.

فأوقف الرئيس الرقص وصاح« اصدقائي انني لا اتخيل ان اي امرأة في العالم تستطيع رفض الرقص مع ضابط تركي - للامام، ادعو النساء!» وقام بنفسه بضرب المثل للآخرين.

ومثل هذه الحالة غير ممكنة في مصر الان. ففي رأي معظم المصريين(بما في ذلك احصاءات الرأي العام التي قام بها الطلاب والطالبات) فان الرقص الحديث هو فجر وانحلال. والرقص في مفهوم المصريين مرتبط بما تؤديه الراقصة ببطنها.

ومن المثير ان «رقص البطن» يفهم باشكال مختلفة من قبل الاوروبيين. وقد قيمه السوفييت المعاصرون بتقييمات متناقضة. فالبعض يعتبرونه «حركات جسم فاحشة» «وخاليا من الفن» «ابتذالا» الغرض منه «ارضاء شهوات الاغنياء». ويتوافق هذا الرأي مع رأي روسي اخر، فيرى أ. نوروف الذي كتب منذ ١٥٠ عام: «لا يمكن النظر دون اسف لطبقة الضحايا التعيسة من الفجّر المعروفين بالغوازى او الراقصات... فهن غارقات في الخيال الملتهب ومتعلمات اغراء المشاعر منذ الطفولة؛ ويدعون الى جميع حفلات الاغنياء، ويقومن بتقديم رقصات مغرية امام المضجعين الشاربين وعلى انغام الموسيقى مما يؤدي كثيرا الى النشوة الروحية للمتفرجين ويجعلهم ينعمون بالهدايا الثمينة».

واعتبر البعض الاخر ان «رقص البطن» هو «فن رفيع» و«كل حلة فيه مرتبة ومعدة بدقة متناهية». وكتبوا ايضا «ان هذا الرقص الشعبي جاء الينا عبر آلاف السنين وسيظل مادة للتحسين في المستقبل».

ولا بد من الاشارة الى ان «رقص البطن» منتشر في بلدان اخرى رغم ان المصريات يؤدينه افضل من اية راقصات اخريات.

واضم صوتي لمن يمتدحون هذا الرقص. فهو فن حقيقي، وفي نهاية المطاف فهذا شأن الشعب الذي اسس هذا الرقص وحافظ عليه ان يحدد مدى قدر النزوات الشهوانية الموجودة فيه. ايستطيع ان ينكر احد ان عنصر النزوات بقدر ليس قليلا موجود في اي نوع من انواع الرقص الايقاعي الحديث. واود ايضا التذكر برأي كثير من المختصين في مجال الفن بان الرقصة الاسبانية الساخنة فلامينكو قد اتت من «رقص البطن» بالذات.

الا ان حديثنا سيدور الآن عن أمر آخر: عن الدور الاجتماعي للرقص والذي تنعكس فيه الاختلافات العميقة في اوضاع النساء الاوروبيات والنساء العربيات. ولنعد الى بداية القرن الماضي حينما اصطدمت الحضارتان الاوروبية والعربية - العثمانية.

كان الامام والمرشد الديني للمجموعة الاولى من المصريين الذين ارسلهم محمد علي للدراسة في فرنسا هو رفاعة الطهطاوي. ولم ينغلق رفاعة الطهطاوي في هدوء الجهل وفي عقيدة المسلم وتفوقه على بقية «غير المؤمنين». فقد درس اللغة الفرنسية واصبح من اعظم المثقفين المصريين في القرن التاسع عشر وذلك بفضل عقله المرن المتحرر من الجمود وبفضل سعة اطلاعه ايضا ويعد احد كتبه «تخليص الابريز في تلخيص بارين» دعوة للتحديث. وهو اول من اولى الاهتمام بضرورة تغيير الدور الاجتماعي للمرأة. وواضح ان الرقص الاوروبي قد بهره. فقد رأى كيف ان اكثر من فارس يدعون امرأة واحدة للرقص معهم، وتعجب لعدم غيرة الازواج عليهن وتعجب ايضا لان الامهات لا يمنعن بناتهن من الرقص رغم ان الراقص يحتضن وسط ابنتها باحدى يديه ويسند يدها بيده الاخرى. وقد فسر الطهطاوي سلوك الفرنسيات بالرغبة الجامحة لانحناء الرجل لها، غير مدرك انه في البلد الكاثوليكي يفسد المرافق الدائم في الرقص سمعة المرأة المتزوجة، او يعني ذلك بشكل علني اهتمامه بالفتاة وتلميحه بانه ينوي الزواج منها.

ولم يكتف المصري الذكي بملاحظاته بل استخلص نتيجة مفادها ان لدى الفرنسيين شعورا بالغيرة لكن هناك ايضا ثقة بين الزوج والزوجة، اما في مصر

فانهم يشكون دائما في اخلاص المرأة. وحينما تذكر الطهطاوي العادات المصرية المتعلقة بوقوف المرأة وقت جلوس الرجل ذكر ان في فرنسا يتنازلون عن المكان للمرأة.

وقد رافق الفرنسيين اثناء حملة نابليون على مصر كثير من الفرنسيات. وقد تحير المصريون لدور هؤلاء النساء في مجتمع الرجال. وقد تعامل الجنرال مينو، الذي اسلم وتزوج من مصرية، معها كما يتعامل الفرنسيون مع نسائهم مادا يده لها اثناء الدخول لغرفة الطعام، ومحركا لها الكرسي تهيئة للجلوس ومقدما لها الطعام. واذا ما سقط منديلها، هرع لالتقاطه لها. وحين رأت المصريات الاخريات ذلك توجهن، كما يقال، لنابليون لاجبار ازواجهن للاهتمام بهن كذلك. فهل حدث فعلا «تمرد الحريم» هذا ام انها نكتة تاريخية؟ من الصعب الان البت في ذلك.

ولكنه حدث عرضي يمكن حدوثه. فبعد الاحتكاك بالفرنسيين واجه المصريون مسألة معضلة للآن: ما الذي يمكن تقليده من الغرب؟ فقد اعترض على تحرير المرأة نهائيا واحد من اواخر عظماء المؤرخين المصريين عبد الرحمن الجبرتي وهو الذي شهد الحملة الفرنسية والذي اعترف بكثير من ايجابيات الحضارة الفرنسية. ومن المثير أن معظم المصريات كُن ضد هذا التحرر.

فقد طالبت المتعلمات منهن فقط ببعض صفات وعلامات الاهتمام الرجالي بهن لا أكثر. اما فكرة التحرر فقد قبلنها بشكل سطحي بحت. وبسعيهن لتقبل اشكال السلوك الخارجية عبّرن عن عدم رغبتهن في تحمل المسؤوليات التي تتحملها النساء الاوروبيات. وكان هذا في الوقت الذي قد بدأوا فقط يتحدثون فيه عن المساواة الحقيقية بين الجنسين في أوروبا.

وقد تطلب الامر عشرات السنين لمصر حتى يتغير وضع المرأة المصرية، على الاقل لتلك الفئة منهن التي تعلمت في الغرب. فقد خطا المجتمع خطوة للامام ثم خطوتين للخلف ثم خطوة اخرى للامام.

وطالب الطهطاوي بحسم بتعليم المرأة وبمشاركتها في العمل خارج الاسرة.

وفي كتابه الذي صدر عام ١٨٧٨ تحت عنوان «المرشد الامين للبنات والبنين» طالب الطهطاوي بادخال التعليم المختلط للاولاد والبنات. فقد اعتبر ان تعليم البنات القراءة والكتابة والحساب والقواعد يساعدهن على رفع مستواهن الثقافي والذهني.

وقد تلقف الكاتب المتحمس قاسم امين راية رفاعة الطهطاوي. ويعتبر قاسم امين اشهر مدافع في العالم العربي عن حقوق وتحرير المرأة. وقد عاش وابدع في بداية قرننا الحالي، وما زالت كتبه تصدر للان وتستخدم كمراجع وكمادة للمناقشة والحوار.

وقد تحول اسمه الى لعنة للمحافظين والتقليديين سواء في بداية القرن او الان. وقد انحصرت مطالبه في منع تعدد الزوجات وتقييد حقوق الزوج في الطلاق، وتقديم التعليم للمرأة وضمان حقها في العمل والقضاء على البرقع.

وفي رأي قاسم امين أن اعتزال المرأة وحملها لغطاء الوجه هو «رمز الحماقة والضعف وعلامة للاهانة». لكن كان من الصعب على الرجل ان يعترف بحق المرأة في المساواة وهي التي كانت شيئا يمكله بالامس. ولقد كان الايمان بان الله اعطى الرجل العقل وفعل الخير واعطى المرأة الضعف في العقل والشهوة الطبيعية بمثابة تبرير انانية الرجل. وافترض قاسم امين ان «حرية النساء ستقوى من الصفات الخلقية لهن وستطور فيهن الاحترام لانفسهن وستدفع الرجال لاحترامهن».

وفي دفاعه عن نفسه امام المحافظين حاول قاسم الامين اسناد مقولته وحججه للتقاليد الدينية والجمود العقائدي. فقد حدد موقفه من مسألة المرأة ليس بكونه متناقضا مع الدين بل بالعكس كموقف مستند للدين. اذ اكد ان الاسلام غير مذنب في الوضع المتدني للمرأة. وقد اصبحت هذه الفكرة هي الغالبة في الفكر العربي كله وللتقليديين وللعصريين على السواء.

وقد وجد المفكرون العرب حجة مريحة لتبرير مواقفهم من مسألة تحرير المرأة دون أن يتخلوا عن الاسلام. فقد اصبحوا يؤكدون ويتحدثون عن ذلك اليوم كما لو ان الحريم والبرقع هي امور لم يخترعها العرب ولا الاسلام بل الاتراك.

ويمعارضتهم لذلك يعود العرب ببساطة لجذورهم الاصلية وينقون التقاليد من التزويرات المنقولة لها.

ولم ينظر الى الغرب في مصر المفكرون الليبراليون فقط بل وايضا المصلحون الدينيون. فاذا كان الاولون مساندين للتناول الواسع للنمط الاوروبي وتحرير المرأة، فعلاقة المصلحين الدينيين بقضية مساواة المرأة بالرجل كانت متحفظة. ويرى مؤسس الاصلاحية الاسلامية جمال الدين الافغاني ان «المرأة والرجل خلقا غير متساويين وقت انشاء الخليقة ومن يسعى لتحقيق المساواة بينهما يعمل ضد ارادة الله».

وقد ايد خليفته المصري المفكر الديني الشيخ محمد عبده فكرة تحرير المرأة بحذر، وطالب بتوفير الفرصة للمرأة لان تتعلم كما استنكر تعدد الزوجات. وكتب ان «كل زوجة تستولي على حقوق اطفال الزوجات الاخريات، اذ يقل حب الزوجات للزوج وتنهار الاسرة، ان الميل للتزوج من عدة نساء يؤدي لارضاء نزوات دنيوية وللحصول على متعة مؤقتة، الامر الذي يؤدي بدوره الى الرذيلة ويتناقض مع الحقوق الاسلامية». ان تعدد الزوجات يؤدي الى «الافلاس والى انهيار الاسرة وبالتالي انهيار الامة».

وقد دفع التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي العام للبلاد قضية المرأة في مصر للامام، رغم انه لم يحلها وذلك خلافا لاحاديث الصالونات او احاديث المجلات ذات التوزيع التافه. ودفعت الحرب العالمية الاولى ونقص الرجال الذين جندوا للخدمة في الجيش الانجليزي الى قبول عشرات الآلاف من النساء في العمل، وخاصة في مصانع الغزل والنسيج. وظهرت اولى الطالبات في الجامعات. وحقق تعليم المرأة النجاح خطوة بعد خطوة.

وقد تضمن الدستور اثناء حكم عبد الناصر مواد تنص على المساواة في الحقوق بين كل مواطني مصر. واعطيت المرأة حق التصويت.

واكد ميثاق العمل الوطني الصادر عن المؤتمر القومي لقوى الشعب العاملة

عام ١٩٦٢ مرة اخرى المساواة القانونية والعملية للمرأة مع الرجل في جميع مجالات الحياةالسياسية والاقتصادية الاجتماعية. فقد جاء بالميثاق: «ان المرأة لا بد ان تتساوى بالرجل ولا بد ان تسقط بقايا الاغلال التي تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع ان تشارك بعمق وايجابية في صنع الحياة».

اما المسافة بين هذا الاعلان وتحقيقه عمليا فتقدر بالسنين. في عام ١٩٥٦ كان هناك حوالي ثلاثة الاف امرأة بين الناخبين، وفي عام ١٩٦٤حوالي ١٧ ألف امرأة من سبعة ملايين ناخب. وحتى الان في التسعينات عدد النساء من بين الناخبين قلة قليلة رغم ان هناك عددا من النساء يتمتعن بعضوية البرلمان. وما زال الرجل يستطيع شطب اسم المرأة من قائمة الانتخابات.

وما زالت قضية المرأة في وقتنا تتحرك طبقا لمبدأ خطوة للامام وخطوتين للخلف ثم اخرى للامام. فباعلان السادات الشريعة مصدرا للقانون قضى على تطور الحقوق الاسرية تجاه تحرير المرأة. ولا تساوم الاصولية الاسلامية في مسألة المرأة. فمكانة المرأة كما يرون يحددها القرآن والسنة وخلاف ذلك فمكر ودهاء من الغرب الفاسد او من الملحدين. ويعد هذا ايضا رأي معظم الرجال تقريبا، كما تشاطر هذا الرأي الكثيرات من النساء.

وقد عودت تبعية السنوات الطويلة المرأة على الاعتقاد بانها لا تسطيع فعلا العيش بشكل آخر، ولذا فهن يفضلن تحميل الرجال كل الاعباء والمشاكل الحقيقية، تاركات لانفسهن صوتا في الشئون الاسرية فقط. وكتب شيخ الازهر السابق عبد الحليم محمود في كتابه «اوروبا والاسلام» والذي صدر عام ١٩٧٢: «اننا نخشى من ان اصطدام المرأة الشرقية بالحياة الحديثة سيؤدي لفزعها من رؤية النساء الغربيات الساعيات للحياة في تنافس مع الرجال، ويتحملن العديد من الكوارث والمعاناة...».

ويرفض مؤيدو تحرير المرأة هذه المقولات بحسم. ويؤدي الطلب على النساء كأيد عاملة الى تغيير وجهات النظر على مكانة ودور المرأة في المجتمع. وتزيد

الاستقلالية المادية من وضع المرأة في الاسرة. وتتناسق هيبة العلم مع امكانية استقلالية الحصول على الاجر، الامر الذي يعترف به حتى المحافظون.

وحينما تعمل النساء يبدأن في التفكير في تخطيط الاسرة، الا ان هذه الاسر قليلة العدد. ففي الاسرة التقليدية المتخذة اتجاها نحو انجاب الاطفال لا تجد النداءات بتحديد النسل فيها اذانا صاغية. ويصيب هذا الصم الاغلبية الساحقة في مصر . ويزداد عدد السكان في مصر سنويا بحوالي مليون نسمة في الوقت الذي تئن فيه دلتا ووادي النيل من كثافة السكان. وتقوم وتائر نمو السكان العالية بضغط هائل على قطاع الخدمات الاجتماعية: المدارس، نظام رعاية الصحة، مصادر المواد الغذائية، كما تضع العقبات على طريق التقدم الاجتماعي والاقتصادي وتجعل الفقراء اكثر فقرا خاصة في ظروف طريق التطور الذي سلكته مصر في السبعينات والثمانينات. وكتبت الباحثة السوفيتية شايدولينا: «يلاحظ في جميع انحاء البلاد العربية انتشار الاخلاق التقليدية القديمة التي لا تعترف بالعزوبية وبصغر عدد افراد الاسرة او الاجهاض واستخدام وسائل منع الحمل. كما لا يعترف بحق المرأة في ان تقرر بنفسها عدد افراد الاسرة. اذ عليها ان تنجب بمجرد بلوغها جنسيا وحتى ينتهي عمر الخصوبة. وللرجل فقط الحق في تنظيم الحياة الاسرية». وتضيف شايدولينا ان «النظام الابوي للاسرة يجعلها قوية ومثمرة اكثر. وتتمتع هذه الاسرة بفطرة الحفاظ على الذات والتي تدفعها لان تستخدم اقصى ما يوجد لدى اعضائها من امكانيات جسمانية. وهي توفر لنفسها الضمان ضد خطر الفناء، حيث ترى الحكمة الشعبية ان تعدد الاطفال في الاسرة هو ثروة من عند الله ـ فهل يمكن ان تكون الثروة عبئا؟ وألم يعط الله لكل مخلوق نصيبه في هذه الحياة؟»

لكن ضرورة ادخال تخطيط الاسرة وتخفيض النمو السكاني واضحة من اجل التقدم الاقتصادي ـ الاجتماعي لدرجة ان المعاصرين من علماء الاسلام يبدأون في البحث عن تفسيرات قرآنية لتبريرها.

وها هي بعض الامثلة لما يقولون: «الاطفال هم هبة الهية قيمة، لكن فقط اذا ما انجبوا برغبتنا وبالعدد الذي يناسب امكانياتنا..... فالمضاعفة اللامحدودة للناس

تؤدي فقط للفقر وللقضاء على الجنس البشري...» ثم: «يسمح الاسلام بتنظيم الانجاب في الاسرة وليس في ذلك اثم».

ولم تصبح آراء المفكرين التقدميين المعاصرين والممثلين المستنيرين لرجال الدين الاسلامي آراء عامة. ففي نظر الاغلبية ان خصوبة المرأة هي الصفة الاولى والاساسية لها. وما زال النمو السريع والحاد لسكان مصر والدول العربية الاخرى مستمرا.

وفي قضية الاسرة، مثلها مثل القضايا الاخرى الكثيرة، تشابكت في عقدة كبيرة عدة عناصر: الاخلاص للتقاليد وتحرير المرأة، القواعد الدينية والمطالب الاجتماعية والاقتصادية الحادة لعصرنا، الخرافات والعقل. ولم تعن كثيرا تلك التوصيات والنماذج والقوالب الجاهزة التي جلبت من الخارج لأرض تراكمت عليها التقاليد عبر آلاف السنين وحيث اصبح الاستقرار والتكرار مظهرا من مظاهر الطابع القومي. ولن يستطيع احد سوى المصريين بانفسهم ايجاد الحل المصري لهذه العقدة. وهي واحدة من العديد التي تمثل شبكة تلف خيوطها الشعب المصري. الا ان الحل المصري المعاصر غير ممكن في عالمنا المترابط دون اعتبارا لما يحدث بالقرب من الحدود القريبة والبعيدة لوادي ودلتا النيل، في الصحراء العربية وفي كل آسيا وافريقيا عموماً.

الباب السادس

أركان الايمان

ان التقوى هي اكثر ما يقيّمه المصريون في الناس.

ان رغبة الكثيرين في ان يكونوا اتقياء تؤدي بهم إلى النفاق والرياء الواضحين.
واذا لم يكن المسلم مشغولا بعلم او بحديث ما فانه كثيرا ما ينطق بعبارات دينية.
واذا ما انتابته فكرة سيئة او ما تذكر تصرفا رذيلا فانه يتنهد قائلا: «اللهم اعف عنا يا عظيم!».

لاين. اخلاق وعادات المصريين المعاصرين. ١٨٣٦

لدى مراجعتي للذكريات المصرية اطرح على نفسي سؤالا: ما هو الصوت المميز الذي ظل في ذاكرتي من خلال السنوات التي قضيتها في مصر؟ أي الاصوات كان يتكرر باصرار وتكرار في كل مكان؟ أهو ضجيج السيارات؟ ـ كان في المدن والشوارع فقط. أهو صرير الساقية؟ ـ كان في القرية فقط. أهو نشيد «بلادي بلادي بلادي» الذي كان يذاع بالراديو أو التلفزيون؟ ـ لا شيء من هذا القبيل.

اذا فان الاذان هو الصوت الاكثر تمييزا وتذكرا اثناء الاقامة في مصر والدول الاسلامية الاخرى والذي يتكرر خمس مرات في اليوم، بصوت عال وبأشد قوة للاحبال الصوتية، يؤديه المؤذن المنادي للصلاة بايقاع قائلا. «الله اكبر» يكررها اربع مرات وكل مرة يغير فيها موسيقى الكلمات ثم يكرر مرتين عبارة «اشهد ان لا اله الا الله». ومرتين يكرر «اشهد ان محمدا رسول الله» كما لو كان هابطا بايقاع العبارات. ثم يرفع من صوته مكررا مرتين عبارات «حي على الصلاة، حي على الفلاح، الله اكبر» وناطقا العبارة الاخيرة في ايقاع جديد «لا اله الا الله».

ويتكرر الاذان خمس مرات في اليوم عبر ميكروفونات قوية او باصوات عادية من فوق مآذن عالية او من البيوت الصغيرة المخصصة كمساجد على اماكن مرتفعة في القرى او من بلكونات المنازل او سلالمها العالية. فقد ايقظني الآذان في اول يوم

وصولي إلى القاهرة وذلك في ممر المدينة الجامعية، حيث ادى الاذان احد الطلاب بصوت عال رنان. وسمعته آخر مرة بعد ٢٥ عاما في المطار عبر هدير موتورات الطائرات في مطار القاهرة.

«الله اكبر!»... منذ ذلك الحين الذي اعلن الرسول محمد ان اله القبيلة الوحيد هو الله، اصبحت هذه الكلمات تتكرر كل يوم مليارات المرات فيما يسمى بالعالم الاسلامي.

ولدى البدء في عمل شيء ما، مهما كان تافها، فان المصري يقول تلقائيا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وبانهائه هذا العمل يقول: «الحمد لله!».

وتنطق كلمة «الله» في الاحاديث والحوارات والمنولوجات وفي مناجاة الناس سواء بسبب او بغير سبب وفي اللقاءات الرسمية وغير الرسمية. فالله مع الناس دائما في الاسرة وفي المعيشة، في العمل، في الدراسة وفي الحب والكراهية وفي المنام وعلى مائدة الطعام. الا ان ذكر الله هو في اغلب الحالات - عادة مثل كلمات التعجب والنداء في الروسية.

وفي رأي المؤمن فان الله موجود في كل مكان وقادر على كل شيء ومدبر لكل الامور. ولذلك فان الانسان هو مخلوق مسكين، وعبد الله، وشيء لا يعتد به امام القوة الالهية، ولذلك فعليه ان يخاف الله ويخضع له ويحبه ويمجده في كل الاحوال ويهاب جبروته. ويقول المثل المصري: «ربنا موجود في كل وجود» ويصاحبه مثل آخر «كل شيء بيد الله» ويوحي كل يوم وكل ساعة الجو الاجتماعي النفسي والتبشير الرسمي بهذه الافكار. فالموت او الحياة، النور والظلمة، والصحة او المرض، الثروة او الفقر - كل هذا من عند الله. ولا يتبقى للانسان الضعيف امام الخالق الا الخضوع لارادته، والاعتماد في كل شيء عليه. والايمان بالقضاء والقدر للمؤمن الحقيقي - وهؤلاء هم الاغلبية الساحقة في البلاد - يحدد موقف المصري من الحياة. فهو يفضل الابتعاد عن حل القضايا الحياتية الجديدة، معتمدا على حكمة الله: «انت تريد وانا اريد والله يفعل ما يريد» «العبد في التفكير والرب في التدبير».

ولا يجب ان يشوب الخضوع لارادة الله مثقال ذرة من الشك. ويجب ان يدرك المؤمن انه لا يستطيع التصرف في مصيره. وليس هناك حدود لقدرة الله - ولا تفكر في مجرد حتى معارضته. «يا من تهرب من قضاء الله! لك الاله القادر على كل شيء هو الذي سيحاسبك». والله فقط هو الذي يجعل عبده سعيدا او تعيسا، يطعمه او يحرمه، يصيبه بالمرض او يشفيه منه. فاذا كنت صبورا وحصلت على بعض الاجر فان هذا حكم الله، لكن اذا لم تكن صبورا، اذن فانك المذنب وسيعاقبك الله».

ويؤكد الوعي الديني الشعبي «ان الله يجس النبض ويعطي العلاج»، ويضيف «ان الله هو الذي يبعث البرد ويعطي الغطاء».

والانتحار هو تحد لارادة الله. ولذلك فان نسبة الانتحار في مصر اقل بعشرات المرات مما هي عليه في البلدان الغربية او حتى في بلدان امريكا اللاتينية ذات نفس المستوى تقريبا من التطور. وقد كتب لاين: «بفضل الايمان بالقدر يبدي المسلمون في لحظات العذاب المجهول او الكوارث ثباتا عجيبا وقوة وعزيمة وتسليما قريبا من اللامبالاة. وفي هذه الحالات فانهم يلفظون بعبارة «الله كريم»- هكذا يتصرف الرجال. اما النساء - فبالعكس، فيتجاوبن مع المصائب بعنف فينتحبن ويصرخن على مسمع من الجميع».

والخضوع لارادة الله هو خضوع للقدر وموافقة على وضعك الاجتماعي الذي تفرضه بنية المجتمع المتحجرة والتي قدر فيها الله للاغنياء ان يكونوا اغنياء والفقراء ان يكونوا فقراء، ان يكون البعض اسيادا والبعض الاخر - خدما. ومن الافضل الا تفكر في المستقبل: فاولا هو بيد الله، وثانيا أليس المستقبل تكرارا للماضي؟ ايستطيع الكادح الذي عاش قرون الظلم والاستبداد والفقر ان يأمل في المستقبل في شيء غير الظلم والاستبداد والفقر؟

لكن القضاء والقدر المطلق الذي يفترض السكون والخمول المطلق يصطدم بواقع الحياة. فصحة تفكير الشعب لا تسمح للعقيدة العمياء ان تشل ارادته. فهو يعرف انه يعيش بفضل كدح يديه وعقله، ويقول المثل: «كل من لا يستطيع بنفسه

يعزي كل شيء للقدر» قاصدا بذلك ضرورة ان يكون الانسان نشطا. ويرشد المثل الآخر: «ان الله يحب المجتهدين».

ونقابل امثالا شعبية تسخر بشدة من المهملين والكسالى والمستهترين ومن الذين يتسترون وراء ارادة الله. ان اعزاء السلوك المخزي لله هو امر غير شريف. ورغم ان الله موجود في كل وجود، فليس كل وجود عادل كما تقول فطرة وبصيرة عقل الشعب. فالحق والعدالة والخير لا بد وان ينتصروا. ويرتبط ازدهارهم في الوعي الاسلامي للسكان «بالعصر الذهبي» للاسلام اثناء ولاية الرسول والخلفاء الراشدين الاربعة.

وتعتبر حدة التصوف الديني لدى المسلمين المصريين السنيين اضعف مما هي عليه لدى المسلمين الشيعة، لكن يداخلهم ايمان عميق، احيانا خفي، بنزول المهدي - المنتظر الذي سيقيم العدالة التي يريدها الله على الارض.

ويعتبر الله بالنسبة للمصريين تجسيدا للقوانين المكتوبة وغير المكتوبة، وهو الضمير الاجتماعي وقمة العدالة. ويعتبر تدنيس المقدسات افظع وابشع من الخيانة والردة عن الدين. ويعد الايمان متكاملا، وقويا ومتداخلا في كل شيء بالدرجة التي يعتبر الاعلان في مصر علنا عن الآراء الالحادية امرا غير ممكن حتى اليوم. صحيح ان الملحد لا يهدده قطع الرقبة مثلما كان الامر في الماضي، لكنه يصبح طريدا في المجتمع، وخطيرا من وجهة نظر المؤمنين وشخصا دنيئا يمكن ان يقترف الجريمة. ويقول المثل: «خافوا من لا يخاف الله»، ويضطر الجميع للعمل بذلك.

وعبارة «لا اله الا الله، محمد رسول الله» هي تعريف العقيدة لدى المسلمين، العقيدة الاساسية هي وحدانية الله وفي نفس الوقت التأكيد على المهمة النبوية لمحمد الذي أصبح، في رأي المسلمين، «خاتم الانبياء». ومنذ خلق الكون كان هناك كثير من الانبياء، لكن الاساسيين منهم ستة هم: آدم، نوح، ابراهيم، موسى، وعيسى ومحمد. وكما جاء بالاسلام فقد كشف لكل منهم عن السر الالهي وعن قوانينه. وكانت كلها صادقة حينما جاء بها الانبياء، الا ان الناس نسوا وزوروا

تعاليم الانبياء، ولذلك فان كل نبي تال اعاد اصل تعاليم سابقه، واعاد القيمة التي ضيعها الآثمون لكلمة الاله. بهذا الشكل تفسّر كل الاختلافات التي دخلت العقيدة الاسلامية بينها وبين المقولات المسيحية واليهودية في الانجيل والكتاب المقدس.

واضافة إلى التعرف على العقيدة فان من الواجبات الاساسية للمسلم هي الصلاة والزكاة والصوم والحج. والمسلم الشريف هو الذي يؤدي الصلاة مباشرة من نفسه او بسماع المؤذن بعد غروب الشمس وبحلول الليل اي بعد حلول الظلام وفي الفجر وفي منتصف النهار وفي العصر قبل غروب الشمس. ولا بد من الوضوء وخلع الحذاء قبل الصلاة، ثم الوقوف على المصلية والتوجه نحو الكعبة في مكة. وتتكون الصلاة من ركعات.

وتعطي صلاة الجماعة وحدة التفكير والعقيدة والتكوين الروحي، كما تتكون مشاعر وحدة الجماعة «والمساواة» امام القوة الالهية. وفي المساجد الصغيرة يؤم المؤمنين اثناء الصلاة إمام وهو الذي يلقي خطبة الجمعة. وفي المساجد الكبيرة يؤم المصلين امام - خطيب وهو الذي يلقي خطبة الجمعة.

وقد سمعت هذه الخطب عدة مرات في القاهرة والارياف المصرية. ويتميز صوت الخطيب بالايقاعية والفن تطبيقا لتقاليد القرون الطويلة. وتعد كل حججه التي يسوقها في الخطبة مضبوطة ومستندة للخبرة الدينية والاجتماعية للاجيال، وعقيدة معدة على اسس سيكولوجية واستيعاب المستمع. واذا ما لمس الخطيب في خطبته قضايا معيشية، حياتية او سياسية او معاناة المصلين الروحية الحادة فان شكل الالقاء التقليدي الذي اعتاده المصلون يزيد من قناعة الخطبة.

وقد كتب لاين «أن هناك الكثير من المساجد في القاهرة لدرجة انها لا تمتلئ بالمصلين كاملا ايام الجمعة». لكن في الوقت الحالي لا تكفي مساجد القاهرة في المناطق ذات الكثافة السكانية لكل الراغبين ايام الجمعة، وتمتلئ الشوارع المحيطة بالمساجد بصفوف المؤمنين الذين يفرشون الحصير او المصليات السجادية على الاسفلت. ويصل اليهم صوت الخطيب عبر ميكروفونات قوية يطغى صوتها على

محركات السيارات. واثناء حكم السادات كان عشرات الالاف من المواطنين يتجمعون حول المسجد الذي كان يخطب فيه الشيخ كشك المعارض الذي كان يفضح الرشوة والفساد.

ولا يتساوى رجال الدين الاسلامي برجال الدين المسيحي ولا يتمتعون بنفس حقوقهم وامتيازتهم. وشكليا لا يمثل رجال الدين الاسلامي شريحة خاصة الا انه عمليا فان العلماء المسلمين الذين ينفذ بعضهم وظيفة الامام الخطيب مرتبطون ببعضهم البعض بعناصر التلاحم الطائفي.

وعادة لا يؤدي المصريون المشغولون بقضايا دنيوية الصلاة خمس مرات في اليوم، لكنهم يفضلون الا تفوتهم صلاة الجمعة. وقد خلق آدم يوم الجمعة. ويوم الجمعة ايضا هو يوم الحساب العظيم، يوم البعث من الموت. ويؤدي النساء الصلاة بشكل منفصل عن الرجال في أماكن مخصصة لهن او في المنزل. وبعد الصلاة يقوم المسلمون ميسورو الحال بتوزيع الصدقات على كثير من الفقراء، منفذين بذلك واحدا من أهم الواجبات الاسلامية. وتعتبر الزكاة واحدا من اهم المكتسبات الاسلامية. وفي المسيحية ايضا فان الرحمة ومشاركة الضعيف في معاناته على المحتاجين كلها اعمال يحبها الله. الا ان الاسلام وضع الزكاة موضع المسلمات الدينية الاساسية المحظور مخالفتها. فقد اصبحت اهم المهدئات الاجتماعية في البلدان الاسلامية . ولكونها تصريح مضمون للجنة لمن يقدمها فهي في نفس الوقت تسلب آخذها من سلاحه وتضعف من التمرد الاجتماعي وتعطي وهم التقريب بين الاوضاع الاجتماعية غير العادلة.

واصبحت عملية تقديم الصدقة للمحتاج باسم الله شهادة ضرورية على عقيدة الايمان والنية الخيرة. لكنها تعد ايضا منبعا لتطفل جزء من السكان.

ولا يستطيع المصري الفقير الا ان يشم رائحة اللحم الذي ليس في متناوله بسبب السعر. اما وجبته الاساسية فهي الفول والخبز - ولكن حينما اتوا لجاري جنرال الجيش بخروف او عجل صغير من عزبته في العيد وذبحوه في فناء البيت

فانهم اهدوا البواب والكناس وعامل تنظيف السيارة نصيبهم من اللحم، وطبيعي فهو ليس من احسن الانواع بل من الاجزاء الثانوية.

ويعتبر التصدق في مصر عملا طوعيا الا انه يخضع لرقابة المجتمع. ونادرا ما يقوم افقر فلاح بتقديم صدقة لفقير آخر مثله.

وتُبنى المساجد وتعمر على تبرعات المؤمنين مثلها مثل بيوت العجزة او المستشفيات وبيوت المجانين. وقبل وفاة المسلم او بناء على وصيته يسجل جزء من العقارات المملوكة له لحساب الاوقاف حيث لا تصادر ولا يمكن بيعها ولا بد ان يستخدم العائد منها فقط لغرض البر والاحسان.

ويعد الوضع القانوني للاوقاف قضية معقدة وتمثل جانبا كاملا من القوانين الاسلامية. وسنذكر فقط ان جزءا ذا وزن في الاقتصاد المصري يعد من ملكيات الاوقاف. على الاقل عشر الاراضي الخصبة المصرية تدخل في ملكية الاوقاف.

وهناك وزير في الحكومة المصرية يخصص لشؤون الاوقاف.

ومن المثير ان المصريين عميقي التدين يرون ان في الاثراء الفاحش ما يشبه خرق القانون او شيئا مأخوذا من المجتمع خاصة من فقرائه. الا انهم لا يرون في ذلك تناقضا طبقيا بل مجرد ضرورة ان جزءا من ثروة البعض يجب ان تعاد للمجتمع في شكل صدقات.

ويصوم المسلمون في شهر رمضان، حيث يجب ان يصوموا عن الطعام والشراب والتدخين واستنشاق العطور او الخضوع للمشاعر الحسية وذلك من الشروق حتى الغروب. وتهدد الامثال الشعبية بالعقاب كل من لا يصوم. ويبدأ الصوم منذ «تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود». لكن لا يجب فهم هذا التعبير حرفيا، فالمقصود هو حينما يمكن تفريق الخط الابيض في الافق عن الخط الاسود اي قبل شروق الشمس ببعض الوقت. ويعفى من الصوم النساء الحوامل والمرضعات والمرضى والمسافرون والمقاتلون في الحرب ضد الاعداء.

ويحتفل بالاعياد الدينية طبقا للتقويم القمري ولذلك فان تواريخ هذه الاعياد تختلف من عام لعام.

وأصعب ما في الامر هو حلول شهر الصوم في حر الصيف. وفي الشتاء ايضا تهبط كثيرا انتاجية العمل اذ ينتهي يوم العمل عادة بعد الظهر في المؤسسات وتتوقف عن السير شاحنات المسافات الطويلة. وينسحب هذا الوضع على معظم الدول الاسلامية.

وحاول الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة الغاء الصوم في رمضان، لكن بلا نجاح. وراحت تركيا ايام كمال اتاتورك ابعد من الجميع في القطيعة مع العادات الدينية في الحياة الاجتماعية. حتى يوم العطلة الاسبوعية لدى الاتراك ليس الجمعة. بل الاحد. لكننا نلاحظ في ايامنا هذه في التسعينات، الى جانب الاتجاه نحو اعادة التقاليد الدينية نجد ونلاحظ عودة جماعية للصوم خاصة وسط المثقفين. ترى ما السبب؟ - وطرحت هذا السؤال حينما عشت في تركيا. وأجابوني «اننا نقوى بذلك عزيمتنا». لكن لدى المناقشة الجادة للموضوع اتضح ان هؤلاء واقعون تحت تأثير الرأي العام والجو الديني - النفسي المحيط بهم.

والتقاليد الدينية في مصر اعمق واقوى. لكن لا داعي للمغالاة في تقوى المصريين. فالبعض لا يصوم ولكن بشكل سري. اما الخرق العلني لقواعد الصوم بدون اسباب مقبولة فهو حالة نادرة الحدوث.

وكان لدي احد المعارف في سنوات الدراسة يستعرض عقيدته اليسارية، مدخنا علنا في شهر رمضان رغم انه لم يكن مدخنا بالاصل. اما قوة عزيمته فقد برهن عليها لرفاقه بامتناعه عن الاكل والشرب. لكن لم يساعده ذلك في الحفاظ على سمعته. فقد اشاروا اليه باصابعهم واتهموه بـ «انك احمر» و«ملحد». وقابلته بعد عشرين عاما فوجدته ما زال محافظا على عقيدته لكن لنفسه وفي نفسه. لكنه اعترف بانه مضطر للصوم للحفاظ على وضعه الوظيفي واحتراما لاراء زملائه ورؤسائه في العمل.

ولا يسمح بالصوم لممثلي بعض المهن الصعبة التي تحتاج مجهودا عضليا او عصبيا كبيرا وخاصة الطيارين. في ايام حكم عبد الناصر في السنوات الاولى لم تستطع المقاتلات الحربية المصرية القيام بالطلعات الجوية في شهر رمضان. وتناقضت العقيدة تماما مع الواقع. ولذلك فقد سمح علماء الازهر للطيارين بعدم الصوم مصدرين بذلك فتوى خاصة جاء فيها. ان مصر في حالة حرب مع اسرائيل. والطيارون هم محاربون. وبما انهم في الحرب فبامكانهم الامتناع عن الصوم. ولم استطع تفسير ظاهرة منع الصوم في القوات الجوية المصرية الان وعلى اي اساس يجري هذا بعد توقيع مصر لاتفاقية السلام مع اسرائيل. لكنني اعرف عن يقين ان الطيارين المصريين في ايامنا هذه لا يصومون.

وكنت احب التجول في شوارع القاهرة اثناء شهر رمضان في اللحظات الاخيرة قبل غروب الشمس. فقد كانت الكباري المزدحمة بالسيارات تخلو في هذه اللحظات ويختفي الناس من الشوارع. فالجميع يجلسون الى موائد الطعام. وحتى الفقراء كانوا يجلسون القرفصاء على الارصفة وفي ايديهم اطباق الفول الساخنة التي كانوا قد اشتروها من الباعة الجائلين. وباطلاق مدفع الافطار يهجم المسلمون على الاكل. وبعضهم يفعل ذلك بتحفظ وكرامة ويقوم البعض الاخر بالتهام اول ملعقة او قطعة اكل في الثواني الاولى بعد انتهاء وقت الصوم.

ويخالف الاقباط جو الصيام الاسلامي. الا انهم يحاولون الامتناع عن الاكل والشرب امام الناس حتى لا يضايقوا مواطنيهم.

وبعد الافطار في رمضان يبدأ المرح بين الجميع. وتزدحم المساجد والاسواق والمحلات التجارية. وفي أماكن النزهة العامة يقوم الفنانون المتجولون بنصب الخيام وتقديم العروض الفنية.

اما ميسورو الحال فيذهبون ويملأون الكازينوهات. ويهدر صوت الموسيقى من الراديوهات. وعلى عربات اليد تباع في الشوارع الحلويات والمكسرات المختلفة والذرة والبطاطا المشوية. ويصيح الاطفال صيحات السعادة. ويستمر هذا المرح حتى بعد منتصف الليل.

وتزداد نفقات الغذاء بحدة اثناء الصيام، لان الناس تأكل اكثر من المعتاد حتى تصمد امام جوع النهار.

وبالطبع لا يستطيع الناس الاستمتاع كاملا بالنوم بعد السحور الذي يليه الصيام. فأي عمل يمكن القيام به بعد ذلك؟

اما قمة المرح فتأتي بعد انتهاء شهر رمضان، حينما يبدأ عيد الفطر ـ العيد الصغير. اما العيد الكبير فهو عيد الاضحى. وقد اتت تسمية عيد الاضحى للروسية من اللغات التركية وينطق بكلمات «قربان بايرام»، اما لدى العرب فهو عيد الاضحى او الضحية.

وفي اليوم الاول لعيد الاضحى يقوم المصريون المسلمون في حالة ما اذا كان لديهم موارد كافية، بذبح خروف او جاموسة او جمل. ويجب على الغني ان يقتسم لحم الضحية مع الفقراء، مؤديا بذلك فرض الزكاة.

ويعود عيد تقديم الضحية الى اسطورة سيدنا ابراهيم الذي استعد للتضحية بابنه اسحاق في سبيل الله، الا انه اوقف من قبل الله وأمره الله بان يذبح خروفا بدلا من ابنه. ويفترض العرب ان اسماعيل هو الذي كان ضحية وليس اسحاق ولذلك فيطلقون عليه اسم ابي كل العرب.

ويحدد يوم الضحية بيوم انتهاء الحج في مكة. والحج هو فرض من فرائض الاسلام. وعلى الحجاج ان يطوفوا بالكعبة سبع مرات اثناء الحج، والقيام بالوقوف على جبل عرفات وبالعديد من الطقوس والصلوات والشعائر الاخرى. والكعبة هي عبارة عن مبنى مكعب في احد اركانها يوجد الحجر الاسود قد يكون اصله نيزك. وحول الكعبة ممر الحرم النبوي وهو المسجد الاساسي للعالم الاسلامي. ومن الطبيعي ان مكة لدى ظهور الاسلام ـ وهي مركز للتجارة العربية ومنبع للالهة الوثنية ـ لم تكن مجهزة للقيام بدور المكان المقدس الاساسي لواحدة من الديانات السماوية العالمية. لكن الافكار الدينية كانت لا تكترث بالتصورات الجغرافية او الاقتصادية.

وفي الوقت الحالي يأتي لمكّة سنويا اكثر من مليون حاج من جميع البلدان الاسلامية التي يعيش فيها حوالي ٨٠٠ مليون مسلم. وقبل اكتشاف البترول واستخراجه وظهور الاموال النفطية كان سكان الحجاز - المناطق الغربية من العربية السعودية الحالية - يعيشون على موسم الحج. وقد سهلت المواصلات الحديثة زيارة مكة، التي ما زالت، كما في الماضي، مدينة مغلقة امام غير المسلمين. لكن الحج كان حتى في القرن التاسع عشر عملية شاقة وغالية وخطيرة حقا. فقد كانت القوافل تتوجه من القاهرة تحت حراسة مشددة. وعلى محمل خاص على الجمال كانوا ينقلون كل عام كسوة للكعبة غالية ومطرزة بحروف وعبارات دينية مأثورة انيقة. ولا تسمح الان الحكومة المصرية بالحج لكل الراغبين من مواطنيها نظرا لاحتياجها للعملة الصعبة، فتقوم بتنظيم القرعة لاختيار الحجاج. ومما يزيد من صعوبة الامر ان كثيرا من المصريين القادمين للعربية السعودية للحج يحاولون البقاء هناك كمهاجرين لاشرعيين.

ونظرا لسهولة السفر للعربية السعودية فقد انخفضت قيمة لقب الحاج في مصر الى حد ما، الا انه ما زال يوحي الآن بالاحترام. وتترك زيارة مكة اثرا عميقا في نفوس كثير من الحجاج. واحيانا يقوم الحجاج بالاستعداد للحج طول حياتهم وذلك اقرار لارادة الله وما كتبه لهم معتقدين ان اداء الحج يغفر الكثير من الذنوب التي ارتكبوها. وبعد الوصول لمكة وارتداء ملابس الاحرام على الاكتاف والوسط - وهي عبارة عن قطعتين من القماش الابيض غير المخاط - عادة ما يشعر المؤمن بنشوة روحية دينية بعد ان يجد نفسه في صفوف مليون من الحجاج المجتمعين حول الكعبة.

ويرى بعض علماء الاسلام ان الجهاد - الحرب المقدسة ضد الكفار - هو ركن ضروري ايضا من اركان الايمان. وفي ايام الفتوحات الاسلامية كان يمكن اعتبار هذا الركن من الاركان الثابتة للدين، الا ان الواقع السياسي - العسكري حتى في العصر الذي كان الإسلام فيه يوسع من حدوده، يبين ان هناك حدودا لنشر الاسلام بالنجاح العسكري. وهذا ما يساعد على فهم موقف الحذر من الجهاد في فترة ايقاف

الفتوحات، وفهم الاوضاع المهادنة مع العالم غير الاسلامي والحروب المستمرة للدول الاسلامية بين بعضها البعض. وكثيرا ما اصبح الجهاد في فترة التقسيم الاستعماري ثم في فترة المقاومة للتوسع الاستعماري الجديد شعارا دفاعيا معاديا للغرب ومعاديا للامبريالية ومع ذلك فيمكنه التحول لشعار هجومي. لكن الاسلام ليس فقط عقيدة دينية وطقوسا واخلاقا ووجهة نظر. فتوجد الشريعة كجزء من مكوناته، وهي التي تنظم كافة اوجه حياة النشاط الانساني كما تشتمل على الحقوق المدنية والاسرية والجنائية والتجارية والعامة والخاصة.

ومن الطبيعي ان نظام العقائد الدينية قد انعكس في القرآن، وهي العقائد التي كانت تتسق مع المجتمع العربي في ذلك الوقت ولم يستطع هذا النظام تلبية احتياجات مجتمع اكثر تطورا في البلدان التي فتحها العرب وأدخلوا فيها الاسلام والعروبة بسرعة. وفي هذه البلاد بالتحديد، بما في ذلك مصر، اصبح الاسلام اسلاما بمعنى انه اصبح واحدا من الانظمة الايديولوجية والاجتماعية العامة التي صاغتها الانسانية. وقد قام هذا النظام على اساس الاحاديث النبوية التي نقحت وبوبت بمعرفة المشرعين ورجال الدين.

لكن هل يمكن ان تجد معايير مجتمع الشرقين الادنى والاوسط فترة ما بين القرنين السابع والعاشر استخداما لها في حياتنا المعاصرة؟ وتعطي الممارسة الاجتماعية ردا ايجابيا على هذا السؤال. فما زال جزء كبير من سكان البلدان الاسلامية يعيش في اطار التقاليد المنقولة له عبر البنى الاجتماعية التي ظلت مئات السنين. وتؤثر الحياة المعاصرة على هذه التقاليد، كما تؤثر عليها وسائل الاعلام، لكن هذه البنى التقليدية كثيرا ما تبقى ولا تندثر بل احيانا تتغير ويعاد تشكيلها.

وقد ادخل الطريق الطويل لعملية نقل نمط الحياة الاوروبية لمصر معايير قانونية مستمدة من الغرب من المجال التجاري والنشاط الصناعي ومن التشريعات العمالية والقانون الحكومي. الا ان مصر، مثلها مثل الدول الاسلامية الاخرى، لم تخط تلك الخطوات التي قطعتها تركيا ايام اتاتورك، حيث ألغيت الشريعة تماما

واقيم مكانها نظام حقوقي يقوم على اساس القوانين السويسرية والفرنسية وغيرهما من القوانين.

وظلت الشريعة في مصر كجزء من الاسلام. ويعيش معظم سكان مصر المسلمين خاضعين لقوانين الشريعة. ويعد مصدر القانون الاسلامي بالنسبة لهم ليس ارداة الناس او ارداة الشعب بل ارادة الله ولذلك فان المعايير القانونية تعد جزءا من النظام الديني، المنعم به عليهم من الارادة الالهية.

ولا يمكن ان يكون الدين دينا الا اذا كان له محرماته، وقيوده. ويتعلق احد المحرمات الاساسية بالمشروبات الكحولية. لكن هناك كثيرا من المسلمين يمارسون سرا، وفي مصر علنا، هذا الاثم. الا انه من الجدير بالذكر انني لم اصادف خلال الخمس سنوات التي قضيتها في مصر، الا نادرا ، ان رأيت مصريا شاربا في جو عائلي او في صحبة الاصدقاء، لكن لم ار ابدا سكيراً في الشارع. وقد ادى ازدياد الشعور الديني في السنوات الاخيرة الى الاعراض المتزايد عن الكحول لدى الجزء من السكان الذي كان يستخدمه احيانا. ولم تغلق معظم المحلات التي تبيع الخمر او البيرة. فالمصريون الذين يعتبرون شعب الاعتدال بين أمرين وجدوا تفسيرا لذلك، اذ قالوا: من الضروري اجتذاب السياح الاجانب الذين يريدون اللهو والمرح؛ إضافة الى ان هناك مستهلكين محليين للكحول وهم الاقباط الذين لا يعتبر الخمر بالنسبة لهم اثما.

ويحرم الاسلام بلا شك المخدرات مثل الحشيش. والافيون. ويرفض بعض المسلمين المعتصبين كل انواع الدخان وحتى القهوة، (رغم ان القرآن لم يذكر هذا) وذلك لان هذه الاشياء لم تستخدم في عهد الرسول.

وكالعادة، فان لاين دقق في الممنوعات التي حظرها الاسلام في الطعام، وسنورد هنا بعض ملاحظاته التي سجلها منذ ١٥٠ عاما ولم تفقد اهميتها حتى اليوم فقد كتب: «ممنوع منعا باتا تناول لحم الخنزير في الطعام. وكان يكفي لتبرير ذلك ذكر ان هذا اللحم ضار في الجو الحار، الا ان اشمئزاز المسلمين من لحم

الخنزير يرتبط اساسا بان هذه الحيوانات غاية في القذارة. وتحرم في الاسلام الحيوانات التي حرمت في شريعة موسى.

يمكن استخدام لغرض الطعام فقط لحوم تلك الحيوانات التي ذبحت بطريقة معينة: وعلى من استعد للقيام بالذبح ان يقول «باسم الله حلال. الله اكبر»... وفي حالة الضرورة، اذا ما هدد المسلم خطر الموت جوعا فيسمح له بتناول اي طعام محرم في الظروف العادية.

وحرم الاسلام الميسر والربا والقيام بتقليد او صناعة اي شيء حي. فقد اعلن النبي ان ايا من هذه الاشياء المقلدة ستقف امام صانعها يوم القيامة، وسيؤمر ببث الروح فيها. ولكن بما انه ليس في وسعه ذلك فانه سيعذب في جهنم بعض الحين».

وقد ادى الحظر الاخير الى الشلل التام تقريبا في النحت والفن في البلدان الاسلامية. وفي مراحل معينة فقط في العراق وايران وتركيا وايضا في الهند ازدهرت المنمنمات. ووجد معظم العباقرة العرب تحقيق ذاتهم فيَ الفن المعماري وحسن الخط والنثر والمسرح. وحتى الآن يعتبر فن الرسم والنحت شيئا غريبا عن الغالبية العظمى من المصريين.

والاسلام صارم مليء بالممنوعات. فهل يستطيع العبد في خضوعه لارادة الله وتنفيذه لنصائحه ان يأمل في نصيبه من الحياة في هذا العالم؟ يمكن، فقط اذا عطف عليه الله. فأيا كان مصيرك، عليك ان تحمد الله وتنتظر الثواب... في الحياة الآخرة. وكثيرا ما يقول المسلم «الحمدالله رب العالمين الرحمن الرحيم».

ولن يهرب احد من ساعة الموت. وفي مصر يعتبر متوسّط العمر اقل مما هو عليه في اوروبا بسبب الفقر والمرض. وحينما يلفظ المصري المسلم انفاسه الاخيرة. يصبون له في فمه قليلا من الماء. ويقومون بتغسيل الجثة بعد الموت، والافضل من منبع ماء في المسجد او من بئر مخصصة لذكرى شخصية ما مقدسة او بمياه النيل. ومن الافضل دفن الميت بسرعة: فاذا مات الشخص في نصف اليوم الاول يفضل دفنه قبل حلول المساء. وترتبط هذه العادة ليس فقط بحرالصيف

وبالخوف من تعفن الجثة ولكن ايضا لاسباب انسانية: لماذا نطيل من عذاب ومعاناة الاقارب؟ وحينما يموت شخص مقتولا او في حادث أليم فان الدفن يتعطل انتظارا لمندوبي السلطات.

وتبكي النساء وتولول على الاموات بصوت عال، وتقمن بالـ.رور ٧ مرات حول القرية او الحي المعني بالمدينة. ويمكن ان تكون هذه طريقة لطرد روح الميت، او يكون مجرد ابلاغ الناس بالكارثة التي حلت. وقد لا يخلو الامر من الاستعانة بنادبات محترفات.

ويحمل المسلمون المتوفي ملفوفا في كفن. ويتبادلون نقله بين بعضهم البعض، ويسيرون به بسرعة لانه حسب الاعتقاد التقليدي، ينبغي ان يمثل على عجل امام الملكين ناكر ونكير اللذين سيسألانه عما فعل في حياته. واثناء المحاسبة تعود الروح للجسد مرة اخرى. ويردد الحاملون للجثة عادة: « لا اله الا الله، محمد رسول الله! صلى الله عليه وسلم!».

ويقيم الشيخ صلاة الوفاة على الميت اما في البيت او في مسجد قريب منه. وقبل انزال الجثة الى القبر تقرأ على الميت سور من القرآن.

ويذبح على المقبرة عنز او جاموسة او جمل تبعا لحالة اسرة الميت، وتوزع اللحوم على الفقراء. وتقام مأدبة على روح الميت يقرأ فيها القرآن وتقام الصلوات.

وينتهي الحداد بعد سبعة ايام، ويعود الاقارب لاعمالهم الحياتية، الا انهم يحيون ذكرى الاربعين.

ولا تختلف كثيرا عادات الدفن لدى الاقباط عنها لدى المسلمين، لكن، طبيعي، يقوم الاقباط باحياء قداس الميت.

ويوحي الوعي الديني للمصري المضطهد الذي يعاني من الظلم والجوع والبرد بأنه سيجازى بالخير على ذلك في الحياة الآخرة. وتتحدث العقائد والامثال الشعبية دائما عن الحياة الآخرة وعن يوم القيامة. وما زال سر الموت خارج امكانيات العقل

الانساني الذي يود ان يصدق في وجود الحياة والآخرة. ويقول القرآن: «وللآخرة خير وابقى».

والجنة في مفهوم المصري شيء ملموس ومحدد. وهو لا يستطيع ان يكون هناك وحيدا. فهو في حاجة للناس. وحتى في الجنة للمصري صحبة جيدة.

وطبقا للعقيدة الاسلامية فالجنة هي المكان الذي تتحقق فيه كل الاحلام والرغبات والخيالات الجامحة للانسان، وكل مفاهيمه عن السعادة والسرور ومشاعر اللذة.

وقد يكون مفهوم الحياة الابدية الذي احتفظ به المصريون الفراعنة بجنون في المدافن والاهرامات المظلمة، واضعين على رسومات الحائط كل سعادة الدنيا المنقولة «للعالم الآخر»، قد يكون كل هذا هو ما وضع اساس تصورات المستقبل عن الجنة للشعوب والاديان الاخرى.

وعلى المسلم المؤمن ان يصدق في خلود الروح، وفي البعث بعد الموت، وفي يوم القيامة. وطبقا للعقيدة فان كل حسناته وسيئاته ستوضع في ميزان العدل الالهي وسيجازى على كل ما فعل في حياته. ويمر الطريق للجنة عبر جسر الصراط المستقيم (دقيق كالشعرة وحاد كالشفرة) المعلق فوق هوة. ويلقي بالمذنبين من عليه في نار جهنم، ويمر المتقون عبره الى الجنة.

ويعد القرآن في كثير من السور المتقين، رجالا ام نساء جنات النعيم. الا ان الجنة تظل مجتمعا رجاليا اكثر، حيث لن تستمتع فيه النساء بمشاعر اللذة مثلما سيستطيع الرجال. واذا ما اعتبرنا ان الرجال سيحصلون على الحرية الجنسية في الجنة، فان الاسلام لم يقل شيئا عن نفس الحرية للمرأة، قاصرا بذلك الاحتفاظ بالعديد من الممنوعات على النساء في الجنة.

وسيحصل كل على النعيم واللذات بالقدر الذي قام به بعمل الخير في الحياة. وسيخدمه في الجنة جمع من الخدم. وسيكون لديه ٧٢ من الزوجات من بنات الجنة - الحوريات اضافة الى زوجات الحياة الدنيا، هذا اذا ما رغب في ان تكنّ معه في الحياة والآخرة. وسيرتدي المتقون اصحاب الجنة ثيابا من الحرير الغالي

وسيعيشون في قصور مزينة بالاحجار الكريمة والذهب، وسيتمتعون بطعام وشراب، وسيتناولون الخمر دون اية قيود ولن يكون ذلك مخالفا للممنوعات لأن هذا الخمر لن يسكر ولن تكون هناك رائحة كريهة لعرق الانسان. وسيتمتع اهل الجنة بالشباب الدائم وبعدد الاطفال الذين يريدونهم. ومن اجل امتاعهم سيغنّي لهم الملاك اسرافيل. وتجري في الجنة انهار وينابيع وينمو مالذّ وطاب من الفواكه. ولن يكون هناك مجال للمرض او الموت وسيتحدث الجميع في الجنة بالعربية، واخيرا فان قمة السعادة والنعيم للمختارين هو الاشعاع اليومي الدائم لوجه الله.

لكن ألم يَشُبِ القِدَم هذه الصورة؟ وألم تضعف قوة جذبها للناس الذين يعيشون على ابواب القرن الحادي والعشرين؟ من خلال احاديثي مع المصريين فهمت ان الانجازات التكنيكية الحديثة طورت من التصورات عن الجنة. فاذا ما تحدثت مع اي مصري مؤمن فان الجميع يتحدثون عن السيارات الفارهة في الجنة والتي لا تلوث البيئة ويتحدثون ايضا عن التليفزيونات والجراموفونات وحتى في الأونة الاخيرة فيديوهات الجنة مع الخلاف فقط حول الماركات والانواع!. اما الثلاجات والمكيفات فانها حاضرة في تصور البعض رغم ان الاغلبية واثقة من ان طقس الجنة سيكون معتدلاً ولن تتلف بالتالي السلع. كما تختلف آراؤهم بشأن الغسالات الكهربائية والخلاطات ومواقد الغاز والخ.

وفي نظر المصريين فان جهنم تعتبر مفهوما محددا لديهم. فهي بمثابة سجن تعذيب كبير، حيث يعد التعذيب بالنيران هو الاساس. وفي الاحاديث بين المؤمنين يسمون جهنم عادة «بالنار» او «نار جهنم» وهذه النيران تختلف عن النار العادية في انها تلسع لكنها لا تحرق المذنبين وبالتالي تستمر في عذابهم. ويحترق جلد المعذبين ثم يحيا من جديد للتعذيب ستة آلاف مرة. وهم يقتطفون ثمارا مسممة من شجرة جهنم، ويصبح وجه المعذبين فظيعا ورائحتهم كريهة. وتسمع في جهنم اصوات وصراخ غير محتمل. وتبكي النساء بدموع من دم، ويمكن للسفن ان تبحر في نهر دموعهن. وسألت المصريين: هل هناك تعذيب بالتيار الكهربائي. واتفق رأي معظمهم على انه ليست هناك حاجة لذلك.

وتذكر سور القرآن الشيطان ابليس الشرير والمتمرد ضد ارادة الله، والذي تجرأ على عصيان اوامره. لكن قوى الشر في رأي المؤمنين لا تتمثل في الشيطان فقط: فهو بعيد جدا ومجرد. وهناك أبالسة وشياطين صغار - ايضا يمثلون الشر. وهناك عفاريت وغيلان، وهي كائنات شريرة، تملأ المقابر والانهار والصحراء والحقول. ولكن هناك ايضا اعتقاد - يبدو من قديم - بان قرين الانسان الذي يخرج للحياة مع ميلاد الانسان يحمل الشر. فقد اشارت العالمة الروسية بيلوفا: «في تصور المصريين انه بميلاد الانسان يوهب الروح (با) والشبيه (كا) ، والشبيه هو صورة طبق الاصل من الانسان ويتمتع بنفس الصفات الجسمانية والروحية التي يتمتع بها المولود. فهو يظهر وينمو مع الانسان، وبعد وفاة الانسان فان بقاء (كا) يتوقف على مدى الاحتفاظ بالجسم. ومن هنا ظهرت عادة التحنيط (وبما ان الجسم المحنط لم يبق كثيرا فقد كانوا يعدون تماثيل نصفية تشبه الانسان يمكن ان تستبدل الجسم في حالة فناء المومياء). وفي رأي المصريين ايضا فان الروح (با) التي تطير حيثما تشاء تحط على المقبرة وباستطاعتها ان تمتزج بالجسم. وفقط بعد امتزاج الروح بالجسم يمكن بعث الانسان بعد البعث للاغراض الضرورية لحياته، اذ ان وجود الجسم في المقبرة هو شيء مادي: يجب توفير الطعام والشراب والملابس له. الا انه ليس ضروريا ان تترك مع الميت اغراض حقيقية، اذ تكفي اشياء رمزية. فقد استبدلوا الطعام مثلا بالاواني التي وضع وحفظ فيها».

وفي اعتقاد المصريين المعاصرين يجب محاباة القرين وذكره باحترام والا فانه سيضر بالانسان كثيرا. ولم اصادف لدى اي شعب عربي آخر هذه الاعتقادات، كما لا توجد آثارها في الاسلام الصحيح.

ومجرد الاعتقاد بوجود القرين يميز بين الاسلام الصحيح والاسلام الشعبي. الا ان هناك العديد من الطقوس والاعتقادات التي تخرج عن اطر الاسلام، رغم وجودها الشكلي في هذه الاطر، لكنها تختلف عن الاعتقادات الصحيحة.

لقد ذكرت سابقا «مدينة الاموات» التي اصبحت حيا سكنيا في القاهرة الكبرى. ففي وقت ما كان هذا الحي حيا للمقابر، يضمّ عددا كبيرا من المدافن والاحواش

والمساجد وغرف الصلاة ومقابر الائمة كل هذا مختلط ببعض المساجد الصغيرة والكبيرة. ولا يمكن ان تصادف مثل هذا العدد من المدافن في اي بلد اسلامي آخر. فمقابر ابواب او سكيودار في اسطمبول عبارة عن صفوف من الشواهد المختلطة والمتناثرة وبعض قطع المرمر الابيض.

وتوجد في «مدينة الاموات» كثير من الآثار المعمارية للعصر الاسلامي. احد هذه الآثار مسجد الامام الشافعي وقبره منذ القرن التاسع، وهو من مؤسسي أحد المذاهب في الاسلام الصحيح، رغم انه ينتشر انتشارا واسعا، وما يجذب محبي هذا المكان هو عبقرية الابداع والايمان بها، وليس اناقة الهندسة المعمارية او شهرة الشافعي كعالم في الشريعة الاسلامية. وتقترب الناس وتلمس بشفاهها وجبينها القفص النحاسي للمقبرة، ثم يلقي بعضهم برسائل او بالاوراق النقدية في هذه الرسائل في الضريح. والاغلب هو وصول الرسائل بالبريد للامام. اما الراسلون فيعتقدون بان الامام سيتسلمّ هذه الرسائل والشكاوى وسيجيب عليها. والامام يجب ان يكون قاضيا يشارك في حل النزاعات ويحق الحق ويساعد المضطهدين والذين لا سند لهم، ويكشف عن الجريمة. وقد قام المحامي والباحث الاجتماعي المصري سيد عويس بدراسة هذه الرسائل ووجد فيها آمالا لا نهاية لها في تلقي المساعدة من الحياة الآخرة لحل مشاكل الدنيا. فالوظيفة الوهمية للجزاء في الدين تقف امامنا في هذه الحالة في انقى صورها.

ومسجد الإمام الشافعي هو مثل واحد لسيطرة عبادة الاولياء في مصر. اما اشهر ولي في البلاد، فهو السيد احمد البدوي. الموجد في طنطا بوسط الدلتا. فقد اصبح هذا المسجد مكانا للحج الجماعي، خاصة من قبل النساء العاقرات اللواتي تحلمن بطفل.

وتنسب للسيد احمد البدوي اقوى صفات الثناء والتبجيل. ولكن إمام آخر يتفوق عليه في ذلك.

ويلي السيد البدوي من حيث الاهمية الشيخ ابراهيم الدسوقي، الذي يقال: انه

قال عن نفسه: «حينما كان عمري سبعة اعوام هداني الله وبين لي ما في الاعالي، وفي الثامنة من عمري قرأت اللوح المحفوظ، وفي التاسعة اكتشفت طلاسم السماء وحرفا في اول سورة من القرآن الذي يخافه الانس والجن، وفي الرابعة عشرة كان باستطاعتي بعون الله تحريك الساكن وايقاف المتحرك.

وقد اعطاني النبي سلطة على كل الارض، على الجن والشياطين. وعلى الصين وكل الشرق وحتى حدود بلاد الله تنتشر ولا يتي».

ويمكن ان تكون هذه التصريحات قد وضعت استنادا الى الاولياء بمعرفة مسجلي احاديثهم فيما بعد اذ يمكن الا يكونوا قد امتدحوا انفسهم. ومع ذلك فالمؤمنين يكررون هذه التصريحات عن طيب خاطر.

وتدخل مقابر او أضرحة الاولياء في زمام كثير من القرى المصرية او مراكز المدن. وتتبرع النساء بالخبز او النقود القليلة للفقراء لدى زيارتهن للاضرحة. كما توزع النذر والضحية اذا ما تحققت التمنيات. ويتم الاحتفال بالموالد في كل انحاء البلاد. وطبيعي فان المولد النبوي هو اشهر الموالد. ولكن ايضا مولد الحسن والحسين يستقبل بابتهاجات واسواق شعبية، وسرادقات ومرح جماهيري وذلك بخلاف ما يقوم به الشيعة. ففي المذهب الشيعي يتم التركيز على تاريخ وفاة الحسن والحسين، حفيدي الرسول فهي ايام حزن وحداد وحتى تعذيب نفسي.

وقد اتضح منذ فترة ان الاسلام لم يعرف في بدايته تلك الاهمية التي تولي الآن للاولياء. فقد ذكر عالم الاسلام المجري المشهور جولديتسير: «في بداية الاسلام كان هناك حاجز لا يمكن التغلب عليه يفرق بين الاله الابدي صعب المنال وبين الجنس البشري الضعيف. وعلى الخلق الذين لا حول لهم ولا قوة ان يتوجهوا بانظارهم بخضوع نحو السماء المفتوحة بلا حدود والى المملكة الابدية والمصير الذي لا يمكن تحقيقه. ولا يوجد اي كمال بشري قريب من كمال المملكة الابدية، وليس هناك اي موهبة خارقة لشخص ما مختار تتوسط بين الحياة والموت، كما انه ليس هناك اي ابداع او اختراع يمكن ان يقارن على الاقل وبنتيجته

النهائية مع قدرة وعظمة الرب. ولا يوجد اي ابداع (ايا كانت الخصائص والجودة التي يتمتع بها) يساوي بريق يقارن بذلك الاحترام والتبجيل الذي يحظى به الاله. ولا يمكن تصور اي عبادة لشيء ما غير الله. ولا يمكن التوجه بطلب المساعدة او اللجوء وقت الكارثة الا الى الله. وحتى اكمل البشر الذين اختارهم الله لتعليم كل البشرية فهم ايضا ضعفاء ولا حول لهم ولا قوة كبقية البشر ومن صفاتهم العجز والموت. فهم لا يستطيعون التأثير على قوانين الطبيعة او عمل المعجزات ولا يدركون الاسرار. والله فقط قادر على ذلك».

ومن اجل جعل الاسلام دينا شعبيا كان لا بد من اقامة جسر بين الانسان وربه، وكان لا بد من ظهور وسيط يمكن للانسان ان يتوجه اليه مباشرة، كمفسر للحكم الالهي. وقد تحول محمد الى اول كائن خارق الامكانيات واهل لصنع المعجزات. ولدى انتشار الاسلام بتوسع بدأ الاهتمام بالاولياء والقديسين والآلهة من الديانات الاخرى يعتبر امراً مقدسا. وقد تغذى الاسلام من المعتقدات الدينية والطقوس الاخرى مغيرا اياها ومكيفا اياها طبقا لما يتفق واحتياجاته ومعطيا اياها تفسيرات جديدة لها، او مبقياً على المعتقدات القديمة مع تغيير طفيف فيها يناسب اوضاع تلك الايام.

وعادة ما لا يكترث المؤمنون لدفن الولي الواحد اكثر من مرة في اكثر من بلد. فقد زرت قبر الخليفة الرابع على بن ابي طالب في مدينة النجف العراقية وزرت نفس القبر في مدينة مزاري شريف في افغانستان. ويوجد قبر ابنه الحسين في كل من كربلاء بالعراق والقاهرة بمصر. لكنهم يفسرون في مصر وجود قبرين للحسين في كل من العراق والقاهرة بان جسم الحسين مدفون في العراق ورأسه في مصر.

وقد اصبحت مقابر واضرحة الاولياء مقاصد للزيارة في مصر وفي الدول الاسلامية الاخرى. وبالقيام بالصلاة على قبور الاولياء وبالتبرع بالهدايا لهم يأمل المؤمنون في تلقي المساعدة وقت الشدة منهم او بتوسطهم عند الله لهم، او

حصولهم على الرحمة مقابل هذا الاهتمام. ويحرك الناس ايمانهم بالمعجزات وبالقوى الخارقة ويتدخل قوى من العالم الآخر في شؤون الحياة الدنيا.

وسأورد هنا مقتطفا مختصرا من كتاب «عودة الروح» الذي كتبه توفيق الحكيم في الثلاثينات. لكنه يبدو وكأنه صورة لأوضاع اليوم.

«وفي وسط تلك الحجرة يقوم ضريح «الشيخ سمحان»، ولم يكن ضريحا بالمعنى المعروف، وانما شيء كالقفص محجوب عن الانظار بغطاء أسود كثيف، وعلى سطحه صف من شمعدان نحاسي قديم، وله باب صغيرة كالكوة ذو قضبان في لون الذهب!....

عند ذلك الباب الذهبي للضريح او القفص كانت تجلس امرأة في متوسط العمر، سمينة، ولكن في وجهها بعض ملاحة، هذه كما يقولون امرأة الشيخ، فهي وحدها التي تتصل به بواسطة هذا الباب الذهبي الصغير، وهي التي تنقل كلامه الخفي الى الزوار السائلين.... ولكن الشيخ نفسه لم يره أحد قط، كيف، ولماذا هو محبوس في هذا القفص او الضريح؟.. لا أحد يعلم..

ولعل أحد ما تساءل عن ذلك.. كل ما يعرفه الناس ان الشيخ «سمحان الأسيوطي» ذو قوة خفية وأسرار حقيقية، وأنه على اتصال دائم مع «بسم الله الرحمن الرحيم» أهل تحت.

.... جلست «زنوبة» حيث أشير لها، وعندئذ نظرت المرأة اليها في تحديق، ثم سألتها بصوت متزن خافت:

- شاورت نفسك؟

... فأخرجت «زنوبة» منديلها من صدرها، وفكت عقدة في طرفه وتناولت جنيها من نقود اخرى بالمنديل، ووضعته على الخوان الصغير بيد مرتجفة.

وقربت زوجة الشيخ فمها من الكوة او الباب الذهبي ونادت:

- يا شيخ سمحان!... اسمها زنوبة بنت رجب بن حمودة...

وساد سكون هائل عميق دام لحظة، ثم فجأة ... عاد ذلك الصوت الضعيف

البعيد غير الجلي، وألصقت المرأة أذنها على الباب الذهبي، وجعلت تنصت بانتباه، وأخذت زنوبة تتبعها في اهتمام...

ولم تلبث المرأة أن فرغت وتركت باب الضريح، وأقبلت على زنوبة تفضي اليها بالنتيجة:

- اسمعي!... الشيخ بيقول عايز اثر من شعره!... بس على شرط يكون من صحن الراس عند مفرق الشعر!...

فدمدمت زنوبة خافت في خجل واضطراب....

- شعر مين؟!

فنظرت اليها المرأة في خبث وقالت:

- شعر مين؟!.. شعر اللي في بالك!

وأضافت امرأة الشيخ مؤكدة:

- من صحن الراس عند مفرق الشعر.... اياك تنسي.... ان كنت شاطرة قولي للمزين اللي بيحلق له واغمزيه يجيب لك طلبك. اسمعي كمان يا اختي... الشيخ بيقول يلزم لك كمان قلب هدهد يتيم!

فسألت زنوبة مستفسرة بصوت ساذج:

- قلب هدهد؟

فقالت المرأة مؤكدة:

- يتيم .... قلب هدهد يتيم.. أوعي تنسي....».

ويمكن ان يهزأ المتعلمون والمثقفون بهذه الخزعبلات والخرافات. إلا ان الوعي الشعبي يحيط الانسان بهذه الخرافات والخزعبلات جاذبا اياه للارض ومكملا الى حد كبير ما ينقص الاسلام الصحيح.

ويصدق المصريون فيما يسمى بالعين الحسود التي تعد من وجهة نظرهم هي العيون الزرقاء. وحينما كنت في القرى لاحظت ان الفلاحات كنّ يخبئن اطفالهن خوفا من عينيّ الزرقاوين. وقد يكون الغزاة الذين اتى معظمهم من الشمال وهم من ذوي العيون الزرقاء قد ارتبطوا في وعي الشعب بفعل الشر. ويؤمنون في مصر للآن بمعجزات وقوة الاحجبة، ايا كان نوعها: مثلا عمل يحتوي على سورة من القرآن، او شعر حمار مأخوذ امام مسجد السيد البدوي او أي شيء فرعوني. ويتكون العمل المصنوع ضد الحسد من خرزة زرقاء.

لكن لنعد الى موضوع تقديس الاولياء. الذي يرتبط بشكل اساسي بنشاط متصوفي الاسلام ـ الصوفيين. ففي البداية كما اشرت كان الاسلام مجردا جدا. ففي عصر الفتوحات والحروب المقدسة كان يمكن للاسلام ان يقوم بتأثير عاطفي على المسلمين وبدون الحاجة لاي حيل او تلاعب. لكن ما نقص الاسلام في البداية بالذات هي العاطفية. وقد ملأ الصوفيون ـ الدراويش هذا الفراغ بدعايتهم للحب الصوفي لله والامتزاج به وبالطقوس العاطفية الخاصة بتبجيل الاولياء المقدسين وبالغناء المشترك للاناشيد المقدسة وحفلات الذكر المختلفة. فقد قام الامام الغزالي في القرن الحادي عشر بتوحيد بعض العناصر العقلانية مع الصوفية، وخاصة المرتبطة منها بالحب الصوفي لله مما أضفى على الاسلام صيغة قانونية ما زالت موجودة في ملامحها العامة اليوم.

وقد خرجت الطرق الصوفية عن اطار الاسلام الصحيح، لكن ينظر اليها في كل مكان، ما عدا في العربية السعودية، بتسامح. وفي تركيا فقط استطاع كمال اتاتورك ان يلغي ويحطم الطرق الصوفية، لكن ليس بسبب صوفيتهم، بل بسبب مشاركتهم في النشاط السياسي الموجه ضد الاصلاحات التي قام بها. وتضم الطرق الصوفية في مصر الآن حوالي ٥ ملايين مصري، مشكلة بذلك قاعدة عريضة للاسلام الشعبي. ويمثل الذكر قمة الدراويشية الصوفية في الامتزاج بالله.

وتوجد امام مسجد الحسين القريب من جامعة الازهر سرادقات كبيرة وبعضها مفتوح للزيارة العامة. وتملأ هذه السرادقات جماعات من الناس بقيادة

شيخهم وتحت علمهم الخاص. وهاهم يجلسون سويا النساء والرجال على كراسي يهمهمون بالتسبيحات والصلوات(لا اله إلا الله محمد رسول الله). ونادرا ما ينهضون ويؤدون ركعات الصلاة ثم يجلسون مرة اخرى. ثم تزداد اصواتهم ارتفاعا وعلوا. وتصل احيانا اصواتهم الى حد الصراخ تتساوى فيها بوضوح ايقاعات النداء: «الله» وها هم يقفون بناء على امر من الشيخ ويبدأون في الخطو الدائري في المكان. وتصبح كلمة الله اكثر ايقاعا وحدّة وسرعة. ثم تسرع خطواتهم ايضا. وفي لحظات يتطلعون بأيديهم للسماء وينزلونها بحدة وسرعة لأسفل. وتزداد الدورات وانضمامهم لبعضهم البعض او ابتعادهم القليل بعضهم عن بعض. وتزداد وجوه الناس اندماجا بما يجري.

كما لو كان التشنج يسرس في ابدانهم، وتزداد سرعة كل شيء. ويضيع ايقاع كلمة «الله». ويظهر لدى كل منهم ايقاعه الخاص فهو يرقص ويرتعش ويلتوي ويخضع لايقاعه الخاص به. او يتحرك بدون ايقاع بالمرة. وفي حاله تصوفية انسجامية وبصوت مبحوح يصيح الناس للمرة المائة والالف نفس الكلمة «الله!!!»

ورأيت امرأة مسنة نحيفة تسقط على الارض مسبلة عينها تتخبط في تشنجها. ويقوم اثنان من الرجال الشباب بانهاضها وبرفع جسمها المرتعش ويرقدانها على الكراسي المصفوفة ويغطيانها ببطانية سميكة. ويسقط بعد ذلك الشخص الثاني والثالث وفجأة وبدون امر مسموع او واضح ينتهي الذكر. ويلقي الناس بأنفسهم على الكراسي بوجوه بعضها ما زال منـ ـجا وبعضها سعيدا ويستمرون في هذا الوضع لفترة طويلة الى ان يستعيدوا انفاسهم.

ثم سألت جاري المراقب للذكر بلا مبالاة ولكن ببعض حب الاستطلاع: ـ من هذا؟

ــ انه احد اعضاء الطريقة الاحمدية.

ــ اتباع السيد احمد البدوي؟

ــ نعم هم.

ومرة اخرى حضرت مع احد معارفي وهو طبيب حفلة ذكر الطائفة الرفاعية. ومبدئيا فان ذكرهم يشبه ما رأيته قبل ذلك. لكن لم يشارك فيه كل الحاضرين بل مجموعة من الرجال عراة الصدر يرتدون البنطلونات وحفاة القدمين. اما الرفاعية الآخرون فقد كانوا يدقون الطبول الصغيرة. وفي منتصف الذكر قام احد الدراويش بغرز سكين في جسمه دون ان يترك ذلك اثرا. وبعد ان جرح يده قام بحركة خفيفة اوقفت الدم. وهرع زميلي الدكتور اليه ومسح الدم بالمنديل... لكن لم يكن هناك جرح تحت الدم. وقدم لي الدرويش السكين طالبا مني ان اطعنه في بطنه. لكنني لم استطع فعل ذلك. وكان انطباعي شديدا للغاية. هل يمكن للتدريب الطويل والانتقال النفسي ان يؤدي الى تغيير خصوصيات الجسم البشري والنظام العصبي؟

لكن بعدما رجعنا للبيت قام زميلي اول الامر بوضع المنديل المبلل بالدم تحت الميكروسكوب واتضح ان هذا الدم هو دم دجاجة....!

اين هي الحدود الفاصلة بين خفة اليد البارعة وبين ظاهرة النفس البشرية والجسم الانساني التي لم تدرس فعلا؟

فلقد رأى بعض الرحالة الدراويش الذين رقصوا حفاة على جمرات النار. وقفز الذين لم يصدقوا هذا في النار خالعين احذيتهم، مفكرين ان هذه خرافات وكانت النتيجة انهم قضوا شهورا في الفراش نتيجة الحروق الكبيرة التي اصيبوا بها. وكما شاهد البعض ايضا بعيدا عن العرب، في جنوب شرق آسيا «رقصة السيوف» والتي لا يمكن اثناءها اختراق الجسم البشري بسن السيف. وألم يرقد السحرة الهنود على المسامير؟

ان خبرتي الخاصة ودقة ما لاحظته لا تكفي بالقدر الذي يمكنني من الاجابة على السؤال التالي: هل ما يجري اثناء الذكر هو حيلة ام حقيقة؟ لم ار الرفاعية مرة اخرى لكن شهود العيان الذين رأوا طائفتهم في سوريا ذكروا لي ان الدراويش الذين كانوا يرقصون اخذوا مسدسات محشوة بالطلقات وعرضوا على الحاضرين ان يطلقوا عليهم الرصاص دون ان يصيبهم ذلك بأذى. أهذه حيلة؟ وقد ترك لنا

رحالة الماضي مذكرات عن الرفاعية وغيرهم من الدراويش الذين كانوا يغرزون المسامير أو السيوف في ابدانهم او يبتلعون الجمرات الساخنة او الزجاج المكسور.

ويمكن ادراك مدى تأثير الطوائف المختلفة على ارواح الناس العاطفيين ضعيفي الارادة، الخاضعين للايحاء الذاتي. ومرة اخرى اكرر الرقم الذي ذكرته - هناك ٥ ملايين مصري اعضاء في الطرق الصوفية. وكالعادة فهم بعيدون عن السياسة. لكن يا له من أساس لاستغلال هذه الميول في أغراض سياسية او ببساطة للابتزاز المغرض!

ولنحتكم لمرجع مثل طه حسين في كتاب «الايام»، بعرض مختصر لمقطع منه، فقد كتب: «... وشيوخ الطريق، وما شيوخ الطريق!! كانوا كثيرين منبثين في اقطار الارض، لا تكاد تخلو منهم المدينة أسبوعا... وكانت المنافسة حادة في الأقليم بين اسرتين من اصحاب الطريق، لاحداهما أعلاه، وللأخرى أسفله... وكان زعماء الأسرتين يتنقلون في الأقليم يزورون اتباعهم وأشياعهم... وكان أبو الصبي من اتباع صاحب العالية، أخذ عنه العهد، وأخذ عنه ابوه من قبل. وكانت أم الصبي من اتباع صاحب العالية ايضا، بل كان أبوها من أنصاره وحوراييه المقربين اليه. ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنه الحاج ... وكان أنشط من أبيه، وأقدر على الكيد واللؤم، وانهض للخصومة.

وكان أبو الصبي قد هبط الى السافلة واستقر فيها، فكانت لصاحب العالية عادة ان يزوره مرة كل سنة. وكان اذا أقبل لم يقبل وحده ولم يقبل في نفر قليل، وانما أقبل في جيش ضخم، ان لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها الا قليلا. ولم يكن يتخذ قطر السكة الحديدية ولا سفن النيل، وانما كان يتخذ الجياد والبغال والحمير، يسير ومن حوله اصحابه فيمرون بالقرى والدساكر... فاذا الشارع ممتلىء بهم قد أخذوه من القناة الى أقصاه الجنوبي، واذا الشاء تذبح، واذا السمط ممدودة في الشارع، واذ هم الى طعامهم في شره لا يعدله شره، والشيخ جالس في المنظرة ومن حوله اصفياؤه وأولياؤه، وبين يديه صاحب البيت واخصاؤه يأتمرون أمره. فاذا فرغوا من الغداء وانصرفوا عنه، فنام حيث هو، ثم نهض فتوضأ. فانظر الى الناس

يستبقون أيهم يصب عليه الماء! فاذا فرغ فانظر اليهم يستبقون ويختصمون أيهم يصيب من وضوء الشيخ جرعة! والشيخ عنهم في شغل، يصلي فيطيل الصلاة، ويدعو فيطيل الدعاء. حتى اذا فرغ من هذا كله جلس للناس وهم يتقاطرون عليه، منهم من يقبل يده وينصرف خاشعا، ومنهم من يتحدث اليه لحظة أو لحظات».

ويعود وصف طه حسين لبداية القرن العشرين، فكيف الاوضاع اليوم؟ هل ما زالت هذه الطباع والعادات موجودة؟

وذات مرة راقبت وصول احد المشايخ الدراويش مع صحبته في القرية. وتكرر نفس الوضع السابق ذكره حينما استقبلوه. فقد رفرفت الاعلام الخضراء المطرزة بعبارات دينية من اسماء الله الحسنى. وايضا حملت الرياح للانوف المنتفخة لصحبة الشيخ رائحة الخروف المسلوق من منزل احد الفلاحين الاغنياء حيث سيقيم الشيخ. ولم استطع البقاء حتى نهاية الحفلة. فقد كانت في قرية في الدلتا بعيدة عن الطريق العام حيث توجد لافتة «ممنوع الدخول للاجانب».

ومنذ ايام وصف طه حسين تغيرت الملابس التي ترتديها الحاشية، ولم تتغير ملابس الشيخ، وتغيرت وسائل النقل اذ انهم قدموا في سيارات وليس على خيول او حمير. وبدلا من ان يطعموها علفا، قاموا بملأ خزانات السيارات بالبنزين. لكن لم يتغير كثيرا ايمان الفلاحين الاميين، رغم ان الحياة الحديثة تقتحم وعيهم عن طريق الراديوهات الترانزيستور او التلفيزيونات في مقاهي القرى او بفضل السفريات البعيدة او حكايات من كانوا في سفر بعيد. وهكذا تتشكل المعتقدات الايديولوجية للسكان المتناقضة واحيانا غير المتسقة من خليط من الاسلام الصحيح والصوفية والخرافات والافكار والمفاهيم المعاصرة.

ومما يعقد الصورة الدينية ـ الايديولوجية للمجتمع المصري الوجود الكبير والمؤثر للسكان الاقباط (حوالي ٣ملايين نسمة). ويشغل الاقباط في الجيش المصري مكانا ثانويا، وايضا في البوليس والوظائف الحكومية وفي السياسة.

ويعتنق عدة مئات او عدة الاف من الاقباط الدين الاسلامي كل عام والسبب ـ

هو زواج البنات القبطيات من الشبان المسلمين اضافة الى الضغط الاجتماعي - النفسي العام للمجتمع والذي يعطي المسلمين الافضلية - الا ان الاقلية القبطية اكثر نشاطا وذات مستوى ارفع من التعليم وبينهم نسبة كبيرة من الاغنياء، ويعتبر هذا عاملا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وروحيا ذا وزن في حياة البلاد.

في نهاية السبعينات جرى حوار بين المثقفين المصريين عن من هم سكان مصر: هل هم مصريون ام عرب، وعن دور الدين في الحياة الاجتماعية وفي تاريخ البلاد. كما شهدت مصر تكرارا لمناقشات الستينات عن الطابع القومي لمصر، وتصادم آراء العشرينات والثلاثينات بين مؤيدي الطابع «الفرعوني»، المختلف عن العرب، للشعب المصري وعروبته. هل يمثل المصريون امة مستقلة ام هم جزء من الامة العربية؟ وهل الاقلية القبطية الدينية في مصر عربية ام لا؟ هل نرفع من معرفة السكان للغة الادبية العربية الى مستوى افضل، او بالعكس نعمل على نشر اللهجة العامية المصرية، كلغة مستقلة؟ هل نسير على طريق «إدخال النمط الاوروبي والغربي» في الحياة ام بالعكس نعود للتقاليد والتراث الحضاري الاسلامي؟ وخلف كل هذه النقاشات كان هناك سؤال في غاية الالحاح يواجه المصريين: ما هو الموقف من الوضع الدولي المصري الجديد، من الاتفاقيات المنفردة مع اسرائيل من العزلة العربية التي واجهتها مصر في العالم العربي ؟ كيف يمكن التنسيق بين هذه الامور وبين المعتقدات الدينية والقومية، لم يكن من الممكن طرح كل هذه الاسئلة مباشرة ايام ديكتاتورية السادات، بل طرحت بشكل غير مباشر، لكن في ايامنا هذه تطرح وتناقش علنا.

ولدى تكرارك لهذه الاسئلة تشعر بضرورة التوقف والسؤال: هل هذه الاسئلة تهم غير المستشرق - المستعرب او المختص في شؤون السياسة والاجتماع والايديولوجية والدين والجغرافيا وعلم الاجناس والتاريخ؟ هل هي تهم القارىء العادي ايضا؟ إنني اجرؤ على الاجابة بنعم على هذا السؤال.

اننا نسمع ونقرأ عن مصر ما يعكس ادراك العالم الخارجي لها، وهذا صحيح ومبرر. لكن من اجل استكمال وتأصيل الصورة من المفيد تفسير ومعرفة كيف

ينظر المصريون انفسهم الى انفسهم، وكيف يرون مكانهم ومستقبلهم في العالم.
وقد يساعدنا ذلك في التحديد الصحيح لعلاقاتنا تجاه مصر والمصريين ولمستقبل
علاقاتنا عموما.

ولنبتعد من اجل هذا الهدف عن الصور الزاهية للواقع المصري وعن الرقصات
الساخنة ولنعمق الانطباعات الشخصية بقدر اكبر مما سبق بحكمة الكتب
والمجلات. وليتطرق حديثنا عن مصر والمصريين لتلك المجالات والجوانب
الحياتية التي كثيرا ما تعوّد الكتّاب ـ الرحالة والصحفيون على تجنبها متعجلين في
وصف الحياة اليومية المعاصرة فقط.

الباب السابع

مصريون أم عرب؟

مصر هي رق: القرآن كتب عليه فوق الانجيل.

والانجيل فوق ما كتبه هيرودوت وتتخلل كل

هذه الطبقات الحروف الهيروغليفية لمصر القديمة.

ب. نيوبيري. مصر كحقل للابحاث الانترويولوجية ١٩٢٤.

كل من ينتمي للأقطار العربية ويتحدث العربية فهو عربي، بصرف النظر عن اسم الدولة التي يعد

مواطنها رسميا وبصرف النظر عن الديانة التي يعتنقها، او الطائفة او العقيدة التي ينتمي اليها، وبصرف النظر عن اصله او نسبه وحسبه.... لا يحق للمصريين ان يولوا ظهورهم للعروبة استنادا لارتباطهم بالحضارة الفرعونية.

ساطع الحصري. العروبة اولا. ١٩٦٠

اننا لا نستطيع الحديث الآن عن امة عربية او وطن عربي.

يمكننا ان نتحدث عن ذلك فقط بعد اختفاء الحدود السياسية في العالم العربي، وبعد تأسيس دولة عربية واحدة مركزية... لا توجد وحدة عربية ولا توجد قومية عربية واحدة. توجد قوميات عربية مختلفة داخل وحدات سياسية مختلفة.

لويس عوض. الاساطير السياسية. ١٩٧٨

ان مصر لا تعتبر بداية او نهاية .... واذا كانت الامة العربية عظيمة بمصر فان مصر يمكن ان تكون عظيمة فقط بوجودها مع الامة العربية.

من البيان المشترك للقاء القمة العربية في طرابلس. ١٩٧٧

من ذكريات سنوات الدراسة: وقف سائس الحمير امام عدسات تصوير

السائحين وخلفه احد التماثيل المصرية القديمة في الاقصر. فيصبح
هو «الخلف والسلف!» ويقدمون البقشيش التقليدي للمصري.

ومحت آلاف السنين ملامح وجه التماثيل العملاقة الجبارة،
موجودة بعد بالقدر الذي يسمح باستشفاف التشابه الصوري بين ا
والمعاصر.

وبعد عودتي حينئذ من رحلة لصعيد مصر، دخلت سينما «رية
حفل فرقة «رضا» التي حاولت ان تحيي الرقصات المصرية القديم
ان الراقصات خرجن توا من الرسومات الموجودة على الجدر
وللدهشة الرهيبة كن يشبهن قدماء المصريين ليس فقط بملابسه
وجوههن.

وفي نهاية العشرينات قام الدكتور والعالم المصري حسن
صور تمثال الفرعون اخناتون وصورة احد مرضاه الذي كان يبلغ
عاما مرتديا نموذجا يشبه تماما تاج فرعون. واتضح بعد ذلك انه
التفريق بينهما. وقد حدد الخبراء ليس فقط التشابه بين الاثنين بل
بينهما.

ولنتذكر قصة اكتشاف التمثال الخشبي لأحد وجهاء المد
والمحفوظ الآن في المتحف القومي في القاهرة. فقد اعتبر ع
الفرنسي الشهير ماسبيرو هذا التمثال احدى التحف الفنية النادر
وفي علم المصريات فان هذا التمثال معروف باسم «شيخ البلد»، ول
الذين اكتشفوا التمثال من درجة التشابه بينه وبين شيخ البلد حتى
«اوه، شيخ البلد» وهكذا احتفظ التمثال بهذه التسمية.

ولقد ذكر الاكاديمي السوفييتي كاروستوفتسيف ان النوع ال
المصري الذي تكون في فترة المملكة القديمة منذ اربعة آلاف عام ؛
خليطا من عدة قبائل وقوميات سكنت دلتا ووادي النيل في فترة

الفرعونية. وبمجرد ان تشكل اكتسب متانة وشخصية ذاتية فريدة واضحة ظلت عمليا دون تغيير على مدى ستة آلاف سنة.

ان علماء الانتربولوجيا قاطعون في آرائهم حول انه على مدى آلاف السنين هذه لا يمكن ايجاد تغييرات ملحوظة في جمجمة الانسان المصري. وكل المصريين ينتمون الى جنس واحد من البحر المتوسط. وتبرهن رسومات الجدران والتماثيل على هذه الحقيقة. ولقد كانت التغييرات كبيرة في النوع العرقي لاي جزء من اوروبا خلال الالف عام الاخيرة اكثر منها في مصر على مدى التاريخ المعروف لوجودها. وقد كتب عن ذلك كثير من علماء الانتروبولوجيا والاثنوجرافيا.

وفعلا، شهدت مصر حوالي ٤٠ غزوا ولم تعرف هجرة الشعوب. وفي القرن الثامن عشر فقط قبل الميلاد تعرضت مصر لغزو الهكسوس الرحل الذين احتلوا الدلتا ٣٠٠ عام. وكم كان عددهم ٢٠٠-٣٠٠ الف؟ لقد ذابوا كالمطر في الصحراء. ما هو سبب ظهورهم؟ هل بسبب ضعف القوة العسكرية للمملكة الوسطى للفراعنة، او أن الهزيمة العسكرية كانت نتيجة مرض عام في المجتمع وليس سببه؟ او لأنه في هذا الوقت بالذات ضحلت وجفت نسبيا مياه النيل مما ادى الى انهيار اقتصاد مصر؟ او لهذه الاسباب كلها مجتمعة؟ قد يكون ان النوع العرقي للهكسوس لم يكن بعيدا عن النوع العرقي المصري وان الجزء الاكبر من سكان مصر ظل في صعيد مصر بالذات حيث انطلقت من هناك حملة لطرد الغزاة واعادة تسكين الدلتا، من جديد، لكن الهكسوس لم يتركوا آثارا واضحة في مصر.

وكانت الغزوات الليبية والاثيوبية والاشورية والفارسية عبارة عن غزوات عابرة. فقد جاء الغزاة ليسيطروا وينهبوا وليس لكي يشاركوا في العمل. فاليهود الذين هاجروا الى مصر في القرن الحادي عشر قبل الميلاد عاشوا في معسكرات منعزلة دون ان يتزاوجوا مع المصريين. وهاجروا من مصر دون ان يتركوا اثرا في الوادي او الدلتا.

وقد كتب د. بريستد في كتابه (تاريخ مصر القديمة):

«إن البلاد عجت بالعبيد الساميين وغيرهم من الاصل الاسيوي، اما التجار

البيزنطيين وغيرهم من الاجانب فقد كانوا كثيري العدد لدرجة انه كان هناك حي خاص في ممفيس للاجانب به معبد بعل وعشتار». واستقرت العناصر الاجنبية بشكل اساسي في المدن. فقد ازدهرت حياتهم ونما عددهم وماتوا مع السكان، الا ان الاصل ـ اساس الشعب المصري بفلاحيه ظل قليل الاستجابة للتأثير الخارجي.

ولعله كان هناك تأثير ملموس من الخليط العرقي الآخر ذي البشرة الداكنة والشعر المجعد والانف المبطوح. وتعود علاقات مصر بالمناطق المتاخمة للجنوب والجنوب الغربي من النيل الى فترة المملكة القديمة حيث استمرت عملية جلب العبيد من هناك حتى القرن الماضي. لكن العنصر الافريقي ايضا ذاب سريعا في المصري رغم ان بشرة سكان الصعيد اكثر سوادا اليوم من بشرة سكان الدلتا.

وماذا عن الاغريق؟ لقد استمرت سيطرتهم على مصر بعد فتوحات الاسكندر الاكبر عام ٣٢٢ قبل الميلاد عبر اسرة البطالمة. وانضمام مصر الهيلنية الى روما ثم انتقالها الى سلطة البيزنطيين كل هذا استمر حوالي الف سنة.

الا ان الاغريق كانوا ايضا اقلية تناثرت في مدن ناوكراتيس (في الدلتا)، والاسكندرية وبطليموس. ومن اجل ان يحافظ الاغريق على الركيزة الاجتماعية ـ العرقية كان محظورا عليهم الزواج من مصريين او مصريات. وقد ذابت الاقلية الاغريقية بسرعة وسط بحر المصريين خارج هذه المدن الثلاث المذكورة وخاصة في واحة الفيوم. وقد كان هذا نفس مصير كل ممثلي شعوب البحر الابيض المتوسط او مناطق آسيا القريبة من مصر والذين عاشوا في مصر ايام الامبراطورية الرومانية. وبدراسة صور المصريين الذين عاشوا بالفيوم في القرن الاول حتى الثالث الميلادي يجد العلماء انواعا من العرق الاغريقي من ذوي الاصل من شبه جزر الابنين وايبريا، وحتى من الهند. وقد ذهب هذا الجمع المختلف مع رياح الصحراء.

كان هذا هو الوضع لحين ان جاء العرب في القرن السابع الميلادي. واذكركم بان عددهم كان ٤ آلاف مقاتل تحت قيادة عمرو بن العاص. وقد اكملت الامدادات التي اتت هذا العدد الى حوالي ٢٠ الف مقاتل. وهذا مقابل ٦ ـ٧ ملايين نسمة هم

سكان مصر حينذاك، وكما هو واضح، كقطرة في بحر. ولم يكن ظهور العرب غزوا، فقد اعتبر المصريين قدوم العرب انقاذا لهم وتحريرا من الظلم البيزنطي. ومنيت الجيوش البيزنطية المنحلة بهزيمة تلو هزيمة، اما سكان المدن فقد فتحوا للعرب بوابات القلاع.

وطبقا للعديدمن الاحصاءات فقد قدم لمصر خلال عدة قرون حوالي ١٥٠ الف عربي، رغم ان هذا الرقم يعد مادة للنقاش تجاه تخفيضه وتجاه زيادته. وقد عاش العرب في البداية في معسكرات حربية تحولت الى مدن على اطراف الصحراء لكنهم بمرور الزمن انتشروا في عمق البلاد واختلطوا بالسكان الاصليين. لكنهم ايضا كانوا اقلية، واستطاعوا في بعض القرى وقليل من المدن ان يغيروا من الشكل العرقي للمصريين. ولا ينطبق هذا بالطبع على المصريين الفقراء الذين لم يختلط معظمهم بالقبائل العربية التي رحلت وتنقلت في شمال افريقيا.

وقد ثبت ان اختلاط المجموعتين العرقيتين المصرية والعربية كان قد تم بسهولة نظرا لتقاربهم كما لو كانوا «ابناء عم» «او ابناء العم». ومن الاسهل تحديد العربي القادم للسودان بين السودانيين عن العربي القادم لمصر بين المصريين، خاصة بسبب الاختلاف الكبير بين العرب وبين السكان الاصليين للسودان في ذلك الوقت.

وقد مثلت الهجرات الاخرى بعد قدوم العرب تدفقا جديداً للمدينة فقط سواء كانت هذه هجرات الاتراك او الاكراد، او الشراكسة او السلافيين او الموجات الجديدة من هجرة الاغريق والايطاليين لمصر في القرنين التاسع عشر والعشرين وحتى الخمسينات والستينات من هذا القرن. وكان الفتح الفاطمي الآتي من الغرب في القرن العاشر الميلادي استثناء من هذه القاعدة، اذ انه اتى بالدم ليس فقط العربي بل وايضا البربري الى مصر. الا ان الدم البربري كان قليل التأثير على مدى القرون التي اختلط خلالها بالمصريين.

ويعد السبب الاساسي في ثبات النوع العرقي للمصريين هو تغلبهم العددي الدائم على كل من اتى لمصر من العناصر العرقية الاخرى. فلم تكن هناك بجوار

مصر اي احتياطات كبيرة من السهول والوديان التي كانت على استعداد لاستيعاب الشعوب المهاجرة مثلما كانت على مدى آلاف السنين سهول قارتي آسيا واوروبا التي هاجرت منها اعداد غفيرة من السكان عبر السهول القريبة من البحر الاسود الى اوروبا، وعبر القوقاز ووسط آسيا الى جنوب غرب آسيا، وعبر مضيق خيبر (بين باكستان وافغانستان) الى جنوب آسيا، وفي الجنوب الشرقي الى الصين.

وكانت مصر بعيدة عن مرجل شعوب آسيا المركزية العاصف، محمية بمنطقة امينة جافة تحولت تدريجيا إلى صحراء سهلية وسافانا. ونكرر ان مصر شهدت الكثير من الغزوات والفتوحات لكنها لم تعرف عمليا التدفق الجماعي للشعوب التي كانت قد استقرت فيها.

ويبدو ان هناك سببا آخر. فان نفس نظام ري الاراضي الزراعية افترض تنظيما اجتماعيا محددا لم يكن موجودا لدى اي من الغزاة، فقد ظل البدوي الراحل بدويا سواء في سهول التاي او سهول نهر الدون. وكان يمكن للقبائل الزراعية الالمانية ان تستقر في غاليا او في ايطاليا او في بريطانيا، لكن من من القادمين لمصر كان يمكن ان يتسق مع بنية القرية المصرية دون ان يفقد نفسه وثقافته ولغته؟ العرب فقط استطاعوا ذلك، الا ان ذلك لم يتحدد بقدراتهم الاقتصادية.

فقد كانت الفتوحات العربية في القرنين السابع والثامن من الميلاد كالفيضان الذي غمر مساحة ممتدة من المحيط الاطلنطي حتى الهند، وما زال يحتوي للآن على ألغاز متعددة لعلماء التاريخ. فالامر لا يتعلق بنجاح النشاط العسكري ذاته الذي ادى الى هذه الفتوحات، فهو على اي حال مفهوم، اذ انهكت امبراطوريتا القرون الوسطى - البيزنطية الايرانية الساسانية - بعضهما البعض في المعارك اضافة الى انحلالهما الداخلي وضعفهما مما استثار الشعوب المضهدة ضدهما. وقد تحدت الجماهير البدوية هاتين الامبراطوريتين وحطمتهما بقوتها العسكرية القبلية المنظمة التى مرت بمرحلة التمايز الطبقي المبكر. وقد جرى نفس الشيء، لكن على نطاقات جبارة اكبر في القرن الثالث عشر الميلادي، حينما تأسست اكبر امبراطورية في التاريخ البشري وهي الامبراطورية المغولية. الا ان المغوليين لم

يفرضوا نمط حياتهم على الشعوب التي اخضعوها لانفسهم، خاصة المستقرة منها، بل بالعكس هم الذين اختلطوا بهذه الشعوب وتحدثوا بلغاتها مثل التركية والفارسية والصينية كما استوعبوا ثقافاتها.

لكن العرب عرّبوا شعوبا كانت تفوقهم بكثير من حيث العدد والنمو والثقافة. ويتحدثون عن غنى اللغة العربية، الا انها باستثناء الاشعار الجاهلية والقرآن لم تتميز بنجاحات خاصة حتى عصر الفتوحات الاسلامية.

وكانت مصر هي المهيمنة في الشرق الاوسط لمئات وآلاف السنين، الا ان لغتها وثقافتها لم تنتشرا خارج حدودها الجغرافية. طبعا، لا يسري هذا على المصطلحات المشتقة في المجال الفني والثقافي والعلمي والديني والفلسفي التي نجد آثارها في العديد من اللغات والحضارات بدءا من اليونان حتى اليهود والمسيحيين. وعموما فقد ظلت مصر محددة لدلتا ووادي النيل.

وقد ظلت الدول الهيلينية التي تأسست على فتوحات الاسكندر الاكبر مئات السنين. وقد اعتمدت هذه الدول على التكنيك والتنظيم العسكري للهيلنيين وعلى بناء الدولة وعلى الانجازات العلمية والثقافية لها. الا انها لم تندمج بالشعوب التي اخضعتها لها. ولم يتغير الوضع في عصر الامبراطورية البيزنطية. وقدظلت اليونان الصغيرة الحالية هي الخلف الوحيد لبيزنطية واليونان القديمة في المعنى الضيق للكلمة (اذا لم نأخذ باعتبارنا تأثير الحضارة الرومانية القديمة على كل الثقافة الاوروبية والارثوذكسية).

فاذا كانت روما كدولة عسكرية قوية قد اخضعت اليونانيين واللدول الهيلينية فان اليونانيين قد استعمروا روما القديمة ثقافيا.

ولتسهيل وتقسيم القضية يمكن التأكيد على أن الرومانيين اقتبسوا حضارتهم من الحضارة اليونانية وتطوروا على هذا الاساس. الا ان اللغة اللاتينية التي انتشرت في عدد من البلاد الاوروبية التي افتتحت اصبحت اساسا للغات الاسرة الرومانية. لكن اللغة اللاتينية لم تستطع ان تثبت جذورها في اي من آسيا او أفريقيا.

اما اللغة العربية فقد تغلبت على اللغات المحلية على الاراضي الواقعة من الاطلنطي حتى آسيا الصغرى والمرتفعات الايرانية. فلماذا توقف انتشار اللغة العربية على هذه المنطقة؟ لماذا لم تستطع دمج الاتراك او الايرانيين؟ قد يكون لان سكان المناطق الاسيوية المتاخمة للعرب كانوا من الساميين اي اخوة اشقاء للعرب، اما سكان الشمال فكانوا ينتمون بلغاتهم لاسرة اللغات الافروآسيوية، اي بخلاف الايرانيين والاتراك (الآريين) كانوا اقارب بعيدين للعرب.

وقد سار العرب تحت علم دين جديد اكد دون هوادة ان كتاب الله المنطوق باللغة العربية لا بد وان يتكرر فقط باللغة العربية. لكن الا يستطيع القس ان يتحدث في المعبد بلغة ويتحدث الشعب في حياته اليومية بلغة اخرى؟ ألم يقرأوا الصلوات في الكنائس باللغة اللاتينية في الدول الجرمانية حتى عصر الاصلاحات، وألا يقرأ الفقهاء الاتراك لليوم الصلاة في تركيا باللغة العربية رغم ان الشعب التركي يتحدث التركية؟ ان انتصار الاسلام على مساحات شاسعة عنى ان الازمة العميقة شملت ليس فقط الطبقات الحاكمة بل وايضا حضارات الشعوب التي أخضعت. ولقد تم الترحيب بالاسلام الخارج من اعماق الجزيرة العربية في الدول ومن قبل الشعوب الاكثر تحضرا، كما استوعب لنفسه كثيرا من عناصر حضاراتها المنهارة. ومما لا شك فيه ان الاسلام قد اتى ببدايات ابداعية في الثلاثة او الاربعة قرون الاولى بعد الهجرة، مستفيدا من العناصر الحضارية المسيحية والرومانية ـ اليونانية القديمة ومن الحضارة الهندية. وخلال تلك السنوات تحول الاسلام الى نظام عقائد دينية ونظام حقوقي وحكومي ونظام للاخلاق والتهذيب منظم للعلاقات المعيشية والاسرية والى نظام فلسفي ايضا. واتضح ان العدد القليل من العرب كانوا بمثابة خميرة لعجينة، او شرارة لحطب جاف ومشعل مضيء لحضارة من نوع جديد.

لكن، لنعد الى مصر. لقد استخدمنا تعبير«ازمة حضارية» ومما يبرهن على عمق هذه الازمة واستمرارها ان المصريين في الحضارة العربية ـ الاسلامية نسوا انفسهم وماضيهم ولغتهم وكتابتهم وعاداتهم وديانتهم. فقد اصبحوا عربا مصريين. وفي غيبوبتهم التاريخية وحتى القرن التاسع عشر فانهم فضلوا ان يبدأ

التاريخ منذ محمد (ﷺ) وفي الوعي الشعبي الجماهيري يبدأون التاريخ من عهده حتى الآن. ومن وجهة النظر العرقية ظلوا كما هم مصريين قدماء، لكن من وجهة النظر الحضارية فقد ولدوا من جديد في نوعية جديدة، اصبحوا عربا مصريين.

وقد يعارضني البعض: وماذا عن الاقباط؟ وأجيب بان الاقباط ايضا اصبحوا كذلك رغم ان إجابتي لن تكون قاطعة بنفس المقدار.

ان نفس كلمة «قبط» تعود الى اللفظ الاغريقي القديم بجيبتوس (مصر)، لكنها تعني في الوقت الحالي الانتماء إلى المصريين المسيحيين.

ان فكرة التوحيد ظهرت كوميض البرق وقت الرعد في الصحراء اول الامر في مصر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وقد تقدم بهذه الفكرة الفرعون المصري اخناتون الذي خرج عن التقاليد محاولا التحرر من جبروت الكهنة. وقد انتهت هذه المحاولة بهزيمة دون عواقب مرئية ، وعرفت البشرية اكثر من اخناتون نفسه اسم زوجته الجليلة نفرتيتي التي اصبحت احد معايير الجمال النسائي، كما عرفت البشرية ايضا اكثر من اخناتون خلفه توت عنخ آمون، الذي حافظت مقبرته على بهائها ورونقها كاملين ليومنا هذا وظلت المقبرة الوحيدة التي لم يشملها النهب من بين كل مقابر فراعنة مصر القديمة.

وقد جاءت عقيدة التوحيدة الى مصر بعد ١٥٠٠ سنة مع المسيحية التي تمصرت هنا مباشرة. ويجد الباحثون علاقة بين المسيحية وديانة قدماء المصريين. ففي مصر الفرعونية كان الصليب حرفا هيروغليفيا يعني الحياة.

لقد تحدثنا عن مملكة الآخرة لدى المصريين القدماء. وقد وضعوا بذلك الاساس للاسطورة المسيحية عن البعث، وعن العذراء ووليدها عيسى المسيح، تلك الصورة الواضح توارثها عن ايزيس (زوجة واخت اوزيريس، اله الطبيعة المبعوثة والميتة) ووليدها حور.

لقد رفض المصريون الطبيعة الثنائية ـ الالهية والانسانية ـ لجوهر المسيح

قابلين فقط الطبيعة الالهية له. وقد اصبح مغزى مسيحيتهم التي سميت بالأحادية هدفا للمطاردات الفظيعة التي اخذت احيانا طابعا دمويا من جانب الرومان اولا ثم البيزنطيين فيما بعد. وقد عكس صدام الاحادية المسيحية مع الارثوذوكسية البيزنطية كما يحدث هذا عادة، ليس فقط مناقشات عقائدية دينية ولكن عكس ايضا تناقضات سياسية - اجتماعية واقعية، اذ كان الشعب المصري يئن تحت الظلم المتنامي للعبودية الزراعية البيزنطية. وقد أقام الاقباط اشكالا تنظيمية دينية جديدة هي الاديرة التي انتقلت فيما بعد الى اوروبا.

وباعتناق المصريين للمسيحية نسوا ماضيهم. وقد عبر الاقباط عن كراهيتهم ونفورهم من الديانة المصرية القديمة بهدمهم للمعابد والآثار القديمة، فهم بالذات، وليس المسلمون، هم الذين قضوا على قسم كبير من الروائع المعمارية والفنية للفراعنة القدماء.

وقد تحدث الاقباط بلغتهم وكتبوا بها، وهي اللغة التي اختلفت عن اللغة الشعبية قبلها. وعند قدوم العرب كان سكان دلتا ووداي النيل شعبا من نوعية اخرى يختلف تماما عن المصريين القدماء.

وقد قوبلت الفتوحات العربية لمصر كتحرر من سلطة البيزنطيين، مما ادى الى اعتناق الاقباط الجماعي للاسلام، الامر الذي كان بمثابة الخطوة الاولى لتعربهم. الا ان اللغة القبطية قاومت خمسمائة عام الى ان تغلبت عليها اللغة العربية تماما. وحتى القرن الثامن عشر كانت الخدمة الدينية ما زالت تؤدى باللغة القبطية لكنها اصبحت الان تؤدى باللغة العربية، اضافة الى ان القليل من القساوسة يعرفون لغة اسلافهم.

وقد احتفظت بعض الاديرة والكنائس باللغة القبطية قراءة وكتابة، حيث تصدر كتب دينية بالكتابة القبطية (معظم حروف اللغة القبطية مقتبسة من اليونانية، وتسع حروف اقتبست من اللغة الشعبية لمصر الفرعونية). واذا كانت عملية تعريب مصر شاملة وكاملة فان ذلك لا ينطبق على الاسلام وانتشاره في مصر. فما زالت

الكنائس للآن تجاور المساجد في القرى والمدن المصرية، وخاصة في صعيد مصر. وفي احد اسواق القاهرة الرئيسية في باب اللوق يبيع الاقباط لحم الخنزير وبجوارهم محلات اللحوم التابعة للمسلمين تبيع لحم الخرفان والجاموس، «الطاهر» الذي لا يمكن ان يباع في مكان واحد بجوار لحم الخنزير «النجس».

وكان اسلام مصر « طواعية» بمعنى ان الدخول في الاسلام كان يكافأ مباشرة ماديا - برفع الجزية، كما كان يعني في المرحلة الاولى ايضا الانضمام للفئة السكانية المسيطرة. وفي بعض الاحيان كان اعتناق الاسلام يحدث بشكل مكثف وجماعي كبير لدرجة ان نواب الخليفة في القرون الاولى للاسلام كانوا يلجأون الى فرملة هذه العملية، حتى لا يقللوا من ايرادات الخزانة. وعلى اية حال عرفت مصر ايام الخلافة الفاطمية مطاردات دموية للمسيحيين وغلقا وهدما للكنائس. وما زالت الديانة القبطية تواجه ضغطا للآن من قبل الوسط الاسلامي المسيطر. وحتى في ايامنا هذه لا يمكن ان يكون رئيس الدولة مسيحيا. ويقل تدريجيا عدد الاقباط نسبة الى عدد السكان. فقد كانت نسبتهم عام ١٩٤٧ تبلغ ٨٪ والآن حوالي ٦٪. وعلى اية حال فالاقباط انفسهم يعتقدون ان هذه النسب منخفضة.

وقد حاول كثيرمن الغزاة بث الفرقة بين المسحيين والمسلمين في مصر، معتمدين على ان الاقباط سيتحولون الى«متعاونين» مع الغزاة. ولم يستطع الصليبيون تحقيق ذلك في القرون الوسطى، حينما كان الاقباط حوالي نصف السكان، كما لم يستطع الانجليز ايضا تحقيق ذلك رغم ان جزءا من الاقباط تعاون معهم. وتجاه العالم الخارجي كان الاقباط والمسلمون مصريين قبل كل شيء.

وهكذا، فقد ازاحت اللغة العربية اللغة القبطية، لكن لم يحدث ان اعتنق كل المصريين الاسلام. وفي المغرب العربي كانت العملية عكسية تماما. فمع الانتشار الكامل للاسلام هناك الملايين من الجزائريين والمغاربة يتحدثون البربرية، رغم ان كثيراً منهم يعرفون اللغتين العربية والبربرية.

ولا تغير المناطق الصغيرة في واحات سيوة والنوبة بالصعيد التي تنتشر فيها اللغة البربرية والنوبية من الصورة العامة التي تجسد الوحدة اللغوية في مصر.

ويعتبر النوبيون والبربر الذين يعيشون في مصر من ذوي اللغات المزدوجة، وقد ادت عملية هجرة النوبيين للحياة في المناطق التي تكونت بعد ظهور بحيرة ناصر الى الاسراع بادماجهم وذوبانهم مع بقية السكان المصريين.

ولدى استخدامنا لمفهوم «اللغة العربية» فاننا ننقل دون ارادتنا تصورنا الاوروبي عن اللغة في الحالات المختلفة في الدول العربية. فنحن الاوروبيين - الروس والفرنسيين والانجليز نفكر ونقرأ ونكتب كل بلغته بالروسية والفرنسية والانجليزية. والحال يختلف بالنسبة لمصر والبلدان العربية الاخرى.

فبعد وصولي كطالب الى مصر طلبت في الفندق كوبا من الماء وذلك باللغة العربية الفصحى التي علمنا اياها العالم والبروفيسور الكبير بارانوف الذي وضع قاموس اللغة العربية - الروسية وقلت «اثتنى كوبة من الماء» ولم يفهمني احد، لكن الآن حينما اكون في مصر فانني اقول بسهولة«جيب كوباية مية» ويحضرون لي ما اريد.

وتحتوي اللغة العربية على ما يمكن تسميته بمستويين: اللغة الدارجة واللغة الفصحى. واللغة الدارجة - اللهجة - تختلف من بلد لآخر لدرجة ان العرب من بلدان مختلفة احيانا لا يفهمون بعضهم البعض. في عام ١٩٦٣ قمت بالترجمة بين اثنين من العرب جزائري وعراقي. فالجزائري تحدث العربية بلهجته وبالفرنسية، والعراقي تحدث بلهجته وباللغة العربية الفصحى. ولم يستطيعا فهم بعضهما البعض. وانا لم افهم هذه اللهجة او تلك، لكنني ترجمت من الفرنسية الى اللغة العربية الفصحى.

وقد ثبتت الاوضاع في الدول العربية تقريبا بالشكل الذي كان يمكن للشعوب الرومانية ان تكون عليه او أنها استمرت في التحدث بلغاتها الاسبانية والفرنسية والايطالية والرومانية، بينما كل ادبياتها كانت قد ظلت باللغة اللاتينية. او كما لو تحدث السلاف الشرقيون باللغات الروسية والاوكرانية والبيلوروسية في الوقت الذي كتبوا وقرأوا فيه باللغة السلافية القديمة. لكن لا يوجد هناك تشابه مطلق بين الوضع في الدول العربية الآن وبين الحالات الفرضية المذكورة. وعموما فالافلام

المصرية الناطقة باللهجة المصرية مفهومة بشكل أو بآخر في الدول العربية الاخرى. وما زال القرآن بالنسبة للعرب هو اساس اللغة العربية الفصحى الثابت وغير المترجم، اما اللهجات الدائمة التأثر به فان التباين بينها اقل حتى من اللهجات الرومانية في القرون الوسطى او اللغات السلافية.

لكنني لم اذكر الافلام السينمائية عبثا. فلغة المعيشة والتعامل اليومي والتفكير - هي اللهجة العامية. ولذلك فان المسرحيات والافلان والحوار المرتجل في التليفزيون او الراديو يجب ان يكون باللهجة «العامية» العربية، من اجل ان تجذب اهتمام المشاهدين والسامعين وتصل لقلب وروح كل منهم. ولا يمكن رواية النكات والجناس باللغة العربية الفصحى، فاذا ما أراد اي شاب ان يعبر عن عواطف حبه باللغة العربية الفصحى فانه سيبدو على الاقل غير طبيعي. فالغناء والجدال والسب يمكن ان يكون فقط باللهجة العامية.

وقد اصبحت الازدواجية الاغوية كابوسا مزعجا للكتاب المصريين وغير المصريين. فهم يكتبون باللغة العربية الفصحى التي لا يتحدثون بها ابدا، والحوارات الحية لا بد ان تكون باللهجة العامية.

لكن المفردات والمصطلحات العلمية والمفاهيم المعقدة لم تعد بعد باللهجة العامية. ولذلك فان العلماء في الاحاديث المهنية المتخصصة - سواء العلوم الانسانية او الفنية - يخلطون بين اللغتين الفصحى والشعبية. اما الخطيب السياسي فيمكن ان يخلط بخطابه الذي يلقيه باللغة العربية الفصحى تعبيرات باللهجة العامية.

ولم تكن اللغة العربية الفصحى حتى قبل عصر الراديو والتليفزيون مفهومة لجماهير السكان. لكن شكلها المخفف بالاسلوب الصحفي والاذاعي التليفزيوني يعتبر سهل الاستيعاب لاغلبية المصريين. وكثيرا ما تدخل كلمات وتعابير فصحى الى اللغة الدارجة عن طريق الراديو والتليفزيون. لكن اعماق اللغة العربية الفصحى كثيرا ما تظل صعبة الاستيعاب حتى للانسان المتعلم. وذات مرة شكوت لمدرس

اللغة العربية الذي كان يعلمني في القاهرة من انني لا افهم الشعر باللغة العربية الفصحى الا بصعوبة وكثيرا ما لا أفهمه على الاطلاق. «وهدأني» بقوله: «أؤكد لك ان اغلبية خريجي الجامعة لا يفهمون لغة الشعراء».

ويعتبر الشعر للاجنبي حتى باللهجة العامية صعب الفهم، لكنه مفهوم للمصري ومحبوب «وواصل» في احسن معنى لهذه الكلمة. وذات مرة بدأت أقرأ في حضور عدد من الصحفيين شعرا لاذعا للشاعر احمد فؤاد نجم المنقوم عليه، وقد اثارت هذه الاشعار عاصفة من الاعجاب لزهاء الصور الشعرية ودقة المقارنة فيها، خاصة وانه لفظ بها اجنبي. لكن لن نطرح الاشعار المكتوبة باللغة العربية الفصحى في الارشيف المغبر. فلهذه الاشعار سامعوها ومحبوها، فهم يتمتعون بجرسها في حد ذاته وباناقة الاسلوب وبتعقد الاشكال الشعرية. ويفتن سحر الكلمات كثيراً من المصريين، وكذلك الاصوات العظيمة للغة جميلة بحق. وقد حاول شيخ الادب المصري الكاتب والمؤلف المسرحي توفيق الحكيم، الذي استندت كثيراً الى مقتطفات من اعماله، ان يتخذ طريقا آخر. فقد اختار من اللهجة العامية كلمات وتعبيرات موجودة في اللغة الفصحى وبالعكس. وبالتالي فان نفس النص كان يمكن قراءته باللغة العامية وبالفصحى. وقد سمحت الكتابة العربية، التي تستخدم الحروف الساكنة دون الحروف الصوتية والتي تسمح ايضاً بان تقرأ نفس الحروف باكثر من طريقة، بتنفيذ هذه التجربة الفريدة، التي ظلت «تجربة القلم» للكاتب المبجل والقلة القليلة التي تبعته.

وقد تقدم مؤيدو القومية المصرية المتطرفون بفكرة رفض اللغة العربية الفصحى نهائيا والكتابة العربية والانتقال الى اللهجة العامية وحروف الابجدية اللاتينية. وقد برهن هؤلاء على صحة الفكرة بتجارب الاصلاحات اللغوية التي اجريت في بعض الجمهوريات السوفييتية وفي تركيا. وفي نهاية الامر فان اللغة المالطية التي تعتبر شكلا من اشكال اللغة العربية تكتب باللاتينية. لكن مثل هذه الآراء لم تجد من يتبناها ويدافع عنها. ولا تعتبر الابجدية العربية مريحة للغات التركية لكنها مريحة اكثر لبنية اللغة العربية. ويعني الانتقال للهجة العامية التخلي

عن كل التراث الثقافي العربي كما سيعني العزلة الثقافية للبلدان العربية بعضها عن بعض. وأخيراً، وهذه هي العصى الغليظة في ايدي المعارضين لمثل هذا التغيير، ماذا سيحدث للآيات الالهية التي جاءت على لسان النبي محمد باللغة العربية الفصحى؟ ما العمل مع القرآن الشريف؟ ان نفس فكرة ترجمة القرآن هي اهانة.

ماذا سيفعل العرب بلغتهم ـ هذه قضيتهم. اذ انه من الصعب على الاجنبي واحيانا من المستحيل ان يحكم في هذه القضية الصعبة مثل الاصلاح اللغوي الجذري. لكن مع استمرار النقاش حول هذا الموضوع ما زال معظم المصريين اميين ومعزولين عن لغة الكتابة عن الكتب والجرائد وبالتالي عن الثقافة. وتشير الاحصاءات الشكلية الى ان ثلثي السكان البالغين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة. الا انني لا اصدق هذه الاحصاءات. فالطفل القروي الذي تعلم ٤ او٥ فصول في المدرسة حيث عرف مبادىء اللغة العربية الفصحى الغريبة عليه يعود لبيئته حيث يسمع ويتحدث اللغة العامية فقط وينسى بسهولة كل ما علموه اياه. فهو يعرف مبادىء القراءة والكتابة وكذلك ايضا من وجهة نظر الاحصاءات فهو وحدة غير أمية في المجتمع، لكنه امي عمليا. اما البنات فان معظمهن لا يذهبن الى المدرسة.

وقد جاء بأمر اللواء الشاذلي رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة المصرية الخاص باقتحام قناة السويس وتدمير «خط بارليف» في ٦ اكتوبر ١٩٧٣ المقدمة التالية: «ابنائي الضباط والجنود يا ابناء مصر، يا افضل جنود على الارض! يا احفاد الفراعنة العظماء!، يا ابناء العرب الامجاد!».

لقد كتبت لتوي عن ان العرب المصريين في الاسلام نسوا ماضيهم الفرعوني. والآن في اهم امر تاريخي ذي اعظم مسؤولية نقرأ ـ «يا احفاد الفراعنة العظماء!» الا يوجد هنا تناقض؟

حتى القرن التاسع عشر كان هناك صمت مطبق على العصر الفرعوني والماضي المصري القديم. ولم تفصح عن محتواها آلاف وآلاف الكتابات الهيروغليفية على الجدران والتماثيل والمقابر وعلى اوراق البردى، ولم يستطع احد

من سكان الارض ان يقرأها. وكانت المعابد والاهرام التي مثل بها الاقباط غريبة عن العرب المصريين. والآن وحتى اليوم يعتبر الفلاح المصري ان الاهرام من بناء الجن، ومنذ مئتي سنة كان هذا هو رأي الجميع تقريبا.

وفي تلك السنوات نظرت اوروبا باحتقار وتكبر الى الشرق «المنحط» متباهية بقوتها العسكرية وقدرتها الاقتصادية وتنظيمها الاجتماعي. وكان الشرق بالنسبة للرأسمالية الفتية المملوءة بالطاقة عبارة عن هدف للتوسع الاستعماري والنهب العسكري والاقتصادي. لكن اوروبا كانت محبة للاستطلاع. فهي لم تأت بجنود غلاظ وموظفين استعماريين وتجار جشعين فحسب بل اوجدت ايضا رحالة شجعان ممتازين، وعلماء في الجغرافيا والاستشراق والفلسفة والتاريخ والبحث والتنقيب والادب. حقيقة، ان البحث العلمي البحت للشرق كان يحمل في طياته «مهمة اضافية» لم يدركها الباحثون انفسهم وهي التأكيد على فكرة ان الحضارة الغربية هي تتويج لتطور كل البشرية وان تفوقها الحالي هو نهائي مما يعطيها حقا الهيا لا جدال فيه للتصرف في مصائر العالم. الا ان التنفيذ النهائي لهذه «المهمة الاضافية» حمل في طياته نواة لعملية القضاء على النفس. فبعد اكتشاف ماضي شعوب الشرق، الذي نسيته هي نفسها، اعاد علماء الاستشراق الاوروبيون لهذه الشعوب امكانية الفخر باسلافهم العظماء، واعطوهم ثقة اضافية في قواهم، وفي قدرتهم على مقاومة الغرب القبيح وفي نهاية المطاف لرفض التكبل باغلال الاضطهاد الاستعماري.

لقد اكتشف المستشرقون الاوروبيون للعرب والاتراك والايرانيين ماضيهم ما قبل الاسلامي العظيم. وعلى هذا الطريق سار كثير من علماء الشرق الممتازين رغم ان استنتاجاتهم كثيرا ما استخدمتها المجموعات والقوى السياسية المختلفة لتحقيق اهدافهم المغرضة. وكان علماء التركيات المجريون هم المؤسسين الحقيقيين، وان لم يعترف بهم، لدعوة الجامعة التركية الايرانية (التي تقلصت الى حدود الجامعة التركية فحسب).

وقد اصبح الاتراك الذين راحوا يدرسون ماضيهم قبل الاسلامي يبدأون العد

لوجودهم التاريخي ليس منذ تاريخ هجرة محمد من مكة للمدينة عام ٦٢٢م بل من تاريخ دول الهون والخزر الرحّل حتى وصل عدد امبراطورياتهم الى ١٦ «امبراطورية تركية عظيمة» استمرت على مدى آلاف السنين. وتعيش هذه الاساطير الآن في قاعة البرلمان ـ المجلس الوطني العظيم لتركيا ـ الذي تضيئه ١٦ ثريا تعبيرا عن الـ١٦ امبراطورية القديمة.

ويعد اسم جان فرانسوا شامبليون من اعظم اسماء المستشرقين بالنسبة للعرب المصريين. وفي عام ١٩٥٦ وبعد العدوان الثلاثي على مصر القى الطلاب والجنود بتمثال ديليسبس من على قاعدته في قناة السويس، كما ازال العمال اليافطات الفرنسية من على الشركات المؤممة واعطوا الشوارع اسماء عربية. لكن لم يرفع احد صوته مناديا بتغيير اسم احد الشوارع الرئيسية في العاصمة والذي يصل بين المتحف القومي وشارع ٢٦ يوليو، لانه شارع شامبليون الفرنسي الذي وهب حياته لمصر والذي اكتشف للمصريين وللعالم كله مصر القديمة.

وقد عرف شامبليون اللغات اللاتينية واليونانية والقبطية والعربية والامهرية واللغة السانسكريتية واللغة الكلدانية وغيرها من اللغات.

وقد صاحب معرفته لهذه اللغات عقل محلل ومتحرر وقدرة فائقة على العمل. فحينما كان عمره ١٧ عاما اصدر في جرينوبل كتابا عن الاقباط وفي العشرين من عمره اصبح بروفيسورا في الجامعة.

وقد جلب له شهرة اوروبية ذلك الكتاب الذي كتبه عن «مصر في عصر الفراعنة او بحث في الجغرافية والدين واللغة والحفريات وتاريخ مصر حتى غزو الهكسوس». وكان شامبليون جديرا بمأثرته العلمية.

وحينما وقعت في يديه صورة حجر رشيد الذي اكتشفه جنود نابليون وسقط فيما بعد في ايدي الانجليز والذي كانت عليه نقوش اغريقية وهيروغليفية وباللغة المصرية القديمة، انكب شامبليون على دراسته.

وقد درس نقوش حجر رشيد عشرات من العلماء. واقترب العالم الانجليزي

يونج من تفسير النقوش. لكن كأي اكتشاف عظيم، ظلت امكانية اكتشاف سر اللغة المصرية القديمة تحوم في الهواء الى ان حققها جان فرانسوا شامبليون.

وقد زار شامبليون مصر عدة مرات. وهو اول من استطاع، ربما على مدى الفيّ سنة، ان يقرأ الحروف الهيروغليفية المنقوشة. وقد عمل طوال حياته بدأب ومثابرة لدرجة انه توفي في عمر لم يتجاوز الـ ٤٢ عاما.

ولقد سمح اكتشاف شامبليون بتمديد تاريخ البشرية المكتوب الى الفين او ثلاثة آلاف عام اي بمرتين تقريباً. لكن هذه الفترة كانت ثلاثة آلاف عام اضافية للتاريخ المصري بالذات حيث خاطبت آثار القدم العظيمة عقول وقلوب العرب المصريين الذين حلموا ببعث وطنهم.

ان التعرف على عبقرية وعظمة المصريين القدماء قد اصبح يغذي القومية المصرية. انني لم أخطأ وأكرر المصرية وليست العربية.

ويطمح كثير من المفكرين المصريين الى دور اب القومية المصرية. وان لم يكن الاب فعلى الاقل فان الرائد الاول او الأب في العماد هو نابليون بونابرت. فقد اعلن في ندائه المتفاخر الموجه للشعب المصري والذي كتبه باللغة العربية المستشرقون الفرنسيون والمالطيون: «على مدى قرون عديدة تضطهد هذه الطغمة (المقصود المماليك ــ الكاتب)... أفضل دولة في العالم.... وبعون الله العليّ القدير سيستطيع كل مصري من الآن فصاعدا ان يشغل المناصب العليا ويحصل على الشرف العظيم. وسيقوم المتعلمون والاذكياء منكم بادارة شئون البلاد، وبهذا الشكل تتحسن اوضاع كل افراد الشعب».

ان الفكرة الاساسية لاعلان نابليون هي مواجهة العرب المصريين المضطهدين بالمماليك. وقد قدمت هذه الفكرة لغرض غير نزيه: وهو اقامة قاعدة للتعاون بين الفرنسيين والعرب المصريين، أي بين المستعمرين الفرنسيين والسكان المضطهدين.

وقد عرفت الامبراطورية العثمانية طريقة تقسيم الناس الى جماعات دينية ــ

او ملل، لكن لم تعرف التقسيم بالمعيار القومي. فالمسلمون العرب ينتمون مع الاتراك لملة واحدة، اما الاقباط فينتمون لملة اخرى، واليونانيون لثالثة، والارمن لرابعة، وقد تشكلت عناصر القومية تحت طيات الملابس الدينية، لكن القضية تعقدت امام العرب نظرا لسيطرة وجهة النظر الدينية ولوجود الاقليات المسيحية وسط بيئتهم، خاصة وان هذه الاقليات تنتمي لشعوب ذات تقاليد تاريخية مختلفة، ناهيك عن الحديث عن نوع عرقي آخر.

وقد كانت محاولات علي بك الكبير، باشا مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للتخلص من سلطة الحكومة الامبراطورية العثمانية، كانت لاسباب غطرسة ذاتية. وكان محمد على وهو المصلح المصري في النصف الاول من القرن التاسع عشر الالباني الاصل الذي اسس امبراطورية مصرية ضخمة كان مسترشدا ايضا بصفات حب النفس. فهو لم يعرف العربية وكان يحتقر المصريين. حقيقة ان ابنه ابراهيم قال: «أني لست تركيا ـ فقد وصلت الى مصر طفلا ومنذ ذلك الحين مصرتني شمس مصر وتغير دمي واصبح عربيا». لكن موضوعيا، وقد يكون عن غير وعي، فان علي بك الكبير ومحمد على عبرا عن فكرة استقلال مصر، دون ان تتشكل الآمال القومية للمصريين حينذاك بعد.

ولذا فالافكار التي حملها نابليون الى مصر سقطت على تربة غير صالحة بعد. فقد طرد الشعب المصري المنتفض بمساعدة الاتراك والانجليز الفرنسيين من مصر. لكن بعض البذور التي بذرها الفرنسيون اخترقت الارض وبدأت تعطي ثمارها، وعلى اية حال ليست تلك الثمار التي انتظرها الاوروبيون.

فمفهوم «القومية» ذاته يعود للعصر الحديث. وهو الابن النامي مع الثورة الفرنسية، رغم ان كلمة «قومية» اقدم من ذلك بكثير. ولم توجد لدى العرب هذه الكلمة او تلك. وكلمة «أمة» التي اصبحت المرادف العربي «لقومية» تحمل في طياتها معنيين.

وبهذه الكلمة يعني العرب الان، كما في السابق، تجمع المؤمنين، وقد جاء العرب بكلمة «قومية» من المصدر «قوم» الذي يعني «شعب»، او «مجموعة قبائل».

وفي اللغة العربية فان كلمة «عصبية» هي الاقرب لكلمة «قومية»، و«عصبية» هي الكلمة التي استخدمها ابن خلدون ـ المغربي العظيم ابو علم السياسة والاجتماع العربي الذي عاش في القرن الرابع عشر. ولكن مثلما كان في السابق والآن تعني هذه الكلمة (عصبية) التضامن القبلي والاخلاص له وللأصل وقد يكون ايضا الاخلاص للاسرة الكبيرة ولمصالحها وعاداتها وتقاليدها ولقوانين سلوكياتها.

وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اصبح المصريون المتعلمون في اوروبا والشخصيات السياسية يستخدمون كلمة «وطن». فبعد بحثهم في مصدر تسمية وطنهم «ايجبت » وبالعربية « مصر»، توصلوا الى اصلها الفرعوني. وكلمة ايجبت هي تحريف للكلمة اليونانية «خيت كا بتاح» بمعنى «قصر قرين الاله بتاح». اما كلمة «مصر» فانها محرفة من الكلمة المصرية القديمة «بيراوسيريس»، اي «بيت الاله أوزيريس»، مؤكدين ان الشكل الثاني لهذه الكلمة ظل موجودا في التسمية الجغرافية لاحدى المدن المصرية ـ أبو صير. وعلى أية حال فان مصدر كلمة مصر ظلت مادة لنقاش طويل بين المتخصصين في علم اللغة.

لكن التمرينات في ايجاد مصدر الكلمات ظلت مهمة قلة من المتعلمين المصريين فقط. والاهم هو القومية كشعار سياسي، القومية كراية للنضال ضد الغزاة الاجانب وضد المضطهدين الاجانب. وحتى العشرينات والثلاثينات من قرننا الحالي جرت القومية المصرية والقومية العربية في تيارين منفصلين لم يصبا كل منهما في الاخر. وكان لهما اعداء مختلفون واهداف مختلفة.

فشعار «مصر للمصريين» الهم ثورة ١٨٨٢ التي قادها احمد عرابي باشا. وكان هذا الشعار موجها ضد الغزو الانجليزي ـ الفرنسي من جهة وضد السيطرة القومية التركية من جهة اخرى وضد الارستقراطية الشركسية في مصر. واصبح هذا الشعار واضح التعبير بعد ان احتلت انجلترا البلاد وضمّتها عملياً للأمبراطورية البريطانية. وكان هذا الشعار هو القوة المحركة لاول حزب وطني لعرابي باشا، ولثاني حزب وطني اسسه عام ١٩٠٧ الخطيب البارع المثالي مصطفى كامل الذي خلفه محمد فريد. وكانت هذه قومية مصرية ذات صبغة اسلامية. وكانت مصر

بالنسبة لهم هي كل وادي النيل بما في ذلك السودان الذي ضمه محمد علي لمصر. وكانت بريطانيا العظمى هي عدوهم اللدود، وقد ارادوا الاستعانة في مواجهتها بالخليفة السلطان العثماني الذي ظل الحاكم الاقطاعي الشكلي لمصر وايضا الاستناد الى فرنسا المنافسة لانجلترا. لكن الائتلاف الانجليزي ـ الفرنسي على ابواب الحرب العالمية الاولى خيب آمالهم، كما ابعدتهم ميولهم النسبية للسلطنة العثمانية عن الحركة العربية التحررية التي نهضت في المناطق الاسيوية من الامبراطورية العثمانية.

ان سوريا ولبنان والى حد ما العراق ايضا هي وطن القومية العربية. وكانت القومية العربية تهدف الى النضال ضد الاضطهاد العثماني وتأسيس الدولة العربية الواحدة. لاول مرة طرحت فكرة ان العرب هم قومية واحدة في باريس من قبل مجموعة من القوميين عام ١٩١٣. وكان طارحوها سوريين وليس مصريين.

وعموما فان المقصود كان تأسيس القومية العربية الواحدة والحكومة العربية الواحدة على الاراضي الواقعة شرق السويس. وقد ادت هذه الفكرة ذاتها بالقوميين العرب من سوريا والعراق الى تأييد انتفاضة الحجاز التي قادها الشريف حسين ضد الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى، وهي انتفاضة التي اندلعت لاسباب محلية لكن دعمت ونظمت الى حد ما بإيعاز من قبل انجلترا.

وقد عقد القوميون حسنو النية والليبراليون الموالون للغرب ومعظمهم من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت، عقدوا الامل على مساعدة «الديمقراطية الغربية» لهم من فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة في النضال من أجل تأسيس دولة عربية مستقلة. وكان الثمن غاليا وقاسيا وهو تقسيم الشرق الاوسط بين انجلترا وفرنسا بعد الحرب العالمية الاولى.

وكانت اوهام المصريين اقل تجاه نوايا الغرب.وقد جربوا على انفسهم منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر ماذا يعني النهب المالي للدول الغربية. احتلت انجلترا مصر وحولتها الى شبه مستعمرة لها. واصبحت اوروبا محطا لكراهية القوميين المصريين، ولم تعد بعد مبعثا للمدح والحسد. ويخيل للمرء ان كلمات

الشاعر الروسي الكسندر بلوك المقتطفة من شعره انها مكتوبة عن مصر مباشرة:
«روسيا ـ أبو الهول فرحة آسية مضرجة بالدماء السوداء، انها تنظر، تنظر اليك محدقة بمحبة وكراهية».

وكانت احدى طرق تأكيد الذات القومية هي فكرة ان مصر لا تعد جزءا من العالم العربي وانها تشغل مكانا خاصا في الحضارة العربية الاسلامية، وكما لو كانت تشغل مرتبة اعلى من الاخرين. ومنذ نهاية القرن الماضي دأب الليبراليون المصريون المتعلمون في اوروبا على عزل مصر عن العرب، متذكرين عصور الفراعنة. وقد شاطرتهم هذه الافكار مجموعة من الكتاب والادباء والشخصيات السياسية التي تربت في مصر في بداية العقود الاولى من القرن العشرين.

فقد اعتبر قائد ثورة ۱۹۱۹ ورئيس حزب «الوفد» سعد باشا زغلول أن مسألة تحرير مصر، بما في ذلك السودان، من قبضة الانجليز وتحقيق استقلالهما هي مهمة قومية. وفي خطبه هاجم احيانا القومية العربية رغم انه تجاهلها في اكثر الحالات.

ولم تتقدم الاطر الجغرافية والسياسية للوفديوين والمصريين القوميين الاخرين في العشرينات والثلاثينات ابعد من شعار «مصر للمصريين» الذي ظهر في نهاية القرن الماضي.

وقال الدعاة الوفديون ان «الفلاحين فقط هم الذين من حقهم ان يسموا انفسهم مصريين ويعتبروا اصحاب البلاد الشرعيين» آملين بذلك جذب الجماهير الفلاحية لجانبهم في الحملات الانتخابية.

وقد رفض الوفديون هذا الحق حتى للبدو المصريين. وكان تطور التفسير التالي لمؤيدي «الوفد» هو ان «الفلاحين هم الورثة المباشرون لسكان هذا الوادي. وهم مدينون بأحسن صفات طبعهم لعبيد الفراعنة، بناة الاهرام، ان «أمة» الفلاحين دون التفريق في العقائد هي واحدة، يوحدها السعي للعمل الجماعي والحياة العامة معا التي تضاعف قوتهم عشرات المرات».

وفي عام ١٩٢٢ اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون. وقد عرضت نجاحات الفن المصري القديم والثقافة والمهن والعلم والتكنيك بشكل حازم وواضح. وقد ارتبطت عظمة الماضي في رؤوس الليبراليين المتعلمين في الغرب والقوميين المصريين، وهم الذين اتخذوا من جامعة القاهرة قلعة لهم، بعظمة المستقبل الذي لا يمكن تحقيقه دون تحقيق الاستقلال.

وقد طرحت في صحيفة «الجريدة» التابعة لحزب «الامة» الذي رأسه احمد لطفي السيد فكرة عن خصوصية «الطابع القومي المصري» التي كانت تعني مهمة نضال المصريين فقط من اجل مصر. وقد رفضت فكرة المجتمع الاسلامي المشترك.

فقد كتب احمد لطفي السيد: «نحن فراعنة مصر، ونحن عرب مصر، نحن مماليك مصر، ونحن اتراك مصر، وكلنا مصريون. وكل هذه عناصر طابعنا القومي المادية او المعنوية والروحية الموروثة والمكتسبة - كل هذا جعل منا اتحادا قوميا اقوى من اي اتحاد بيننا وبين آخرين، واقوى في بيئتنا من اغلب القوميات الاخرى».

وقد حاولت شخصية سياسية وليبرالية كبيرة اخرى في ذلك الوقت وهو محمد حسين هيكل تحديد الطابع القومي المصري، والشخصية المصرية عن طريق قدرتها على تذويب شعوب مختلفة عبر كل سنوات التاريخ وتمصيره ودمجها في الشعب المصري.

ووصل بعضهم، وخاصة سلامة موسى، في تغنيهم بالطابع القومي المصري الى حد التغنى «بالفرعونية». وقد دعا للاهتمام باللهجة المصرية وباعداد لغة مصرية جديدة على اساسها وكتب سلامة موسى «نحن الاسرة التي عاشت في هذا الوادي اكثر من عشرة آلاف سنة، ولا يوجد لدينا مصري واحد لم تسرِ في عروقه ولو قطرة واحدة من دم رمسيس وخوفو واخناتون».

وقد أكد العالم حسن صبحي ان لمصر حضارة خاصة وان العرب انضموا ببساطة لها وليست حضارتهم هي التي انتصرت على الحضارة المصرية. انه يمكن ايجاد عناصر الحضارة المصرية في بنية المنزل وفي الاغاني التي يغنيها

الفلاحون وايضا في اللغة العامية وفي الادوات الزراعية التي ظلت منذ عهد الفراعنة.

ويمكن اضافة اسم طه حسين - قمة اللغة العربية الفصحى – الى الداعين للطابع المصري غير العربي. فقد اكد ان مصر هي جزء من «حضارة حوض البحر الابيض المتوسط» ولا ينتمي اطلاقا لاي حضارة شرقية. كتب طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ان العقل المصري منذ القرون الاولى خضع لتأثير ثقافة البحر المتوسط وتدخل مصر في اسرة الشعوب القاطنة سواحل البحر المتوسط.

وكان الكاتب والمؤلف المسرحي توفيق الحكيم احد المساندين لمثل هذه الافكار وقد عكسها في روايتي «عودة الروح» و«أهل الكهف». وفي رواية «عودة الروح» بالذات لفظ بوضوح وبصوت عال نشيد «الفرعونية» للماضي المصري المثالي وللفلاح، وللروح الثابتة المثابرة عبر آلاف السنين. وقد اجبر الكاتب الاثري الفرنسي (في الرواية) ان يغني هذا النشيد في مناجاته الموجهة للانجليزي، معبرا عن فكرة الكاتب نفسه - فكرة توفيق الحكيم: «ان هذا الشعب الذي تحسبه جاهلا ليعلم اشياء كثيرة، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله!.. ان الحكمة العليا في دمه ولايعلم!... والقوة في نفسه ولا يعلم !.... هذا شعب قديم. جيء بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدري!...

نعم .... ان أوروبا سبقت مصر اليوم، ولكن بماذا؟... بذلك العلم المكتسب فقط، الذي تعتبره الشعوب القديمة عرضا لا جوهرا، ودلالة سطحية على كنز دفين، لا انه هو في ذاته كل شيء!. .

ان كل ما فعلناه – نحن الأوروبيين الحديثي النشأة – أن سرقنا من تلك الشعوب هذا الرمز السطحي دون الكنز الدفين؛ لذلك جيء بأوروبي وافتح قلبه تجده خاليا خاويا!...

قوة أوروبا الوحيدة هي في العقل!.. تلك الآلة المحدودة التي يجب ان نملأها نحن بارادتنا.... أما قوة مصر ففي القلب الذي لا قاع له...».

واستمر الكاتب يقول على لسان «الأثري الفرنسي»: «نعم الأهرامات!... التي قصدها شامبليون بقوله: «لا استطيع أن اصفها؛ اذ أن شيئا من اثنين: أما أن كلامي لن يعبر عن جزء من ألف مما يجب أن أقول، واما اني لو أردت رسم أبهت صورة للحقيقة، لعدّني الناس مغرقا في الحماسة أو مجنوناً، ولكن أقول شيئا: أولئك القوم كانوا يشيدون كعمالقة طولها مائة ذراع!»...

...... أننا لا نستطيع أن نتصور تلك العواطف التي كانت تجعل من هذا الشعب كله فردا واحدا، يستطيع أن يحمل على أكتافه الأحجار الهائلة عشرين عاما، وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد، راض بالألم في سبيل المعبود.... اني لموقن ان تلك الآلاف المؤلفة التي شيدت الأهرام، ما كانت تساق كرها كما يزعم «هيرودوت» الاغريقي عن حماقة وجهل.... وانما كانت تسير الى العمل زرافات وهي تنشد نشيد المعبود، كما يفعل أحفادهم يوم جني المحصول.. نعم كانت اجسادهم تدمى، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية، لذة الاجتماع في الألم من أجل سبب واحد!

وكانوا ينظرون الى الدماء تقطر من أبدانهم في سرور لا يقل عن سرورهم برؤية الخمور القانية تقدم قرابين الى المعبود!...». ولا تختفي سذاجة ومثالية الحكيم حتى وراء القدرات الفنية الكبيرة لاعماله ولكن هكذا كانت تلك الفترة التاريخية. وكانت هذه هي آراء القسم الاكبر من المثقفين المصريين. وهناك علاقة وراثية بين رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم والمجموعة النحتية لتمثال «نهضة مصر» لمحمود مختار. فقد تلقى المؤلفان تعليما غربياً ليبراليا. وعبر الاثنان في صورة فنية واضحة عن فكرة واحدة، عن مثل القومية المصرية.

ولكن كلا منهما في «فرعونيته» مثلهما مثل كل الداعيين لشعار«مصر للمصريين» عبر بشكل ضعيف التمويه عن السعي لادخال «النمط الغربي» و«النمط الاوروبي» في مصر. وسنعود فيما بعد لهذه المسألة، لكن سنتذكر الآن انه مع

رفضهما للغرب الاستعماري البغيض فقد نظرا بحب لحضارته وتنظيمه الاجتماعي. وحلما بان تصبح مصر جزءا من الغرب، وتستعين بانجازات حضارته، وتصبح متساوية مع كل الشعوب الاوروبية. وقد فهما تحت مصطلح «الحضارة» ـ الحضارة الرأسمالية الغربية والبناء والبرجوازي ـ الديمقراطي للدول الغربية المتقدمة. ونصح سلامة موسى المصريين بان «يولوا وجوههم الى اوروبا»، وهو الذي اصبح فيما بعد من مؤيدي الاشتراكية الفابية والصديق الوفي للاتحاد السوفيتي.

وكتب حسين مؤنس في كتابه «مصر ورسالتها»: «ان ما نسميه اليوم بحضارة الغرب ليست في الواقع سوى الحضارة المصرية القديمة التي تتطور في اتجاه ثابت وصحيح».

ومهما بلغ حد تمويه هذه الافكار وما شابهها فان الكثيرين رأوا فيها دعوة للتخلي عن الماضي الاسلامي، عن الحضارة الاسلامية.

ولم تصدر هذه الدعوة في اي بلد عربي بالوضوح والقطع الذي صدرت به في تركيا ايام كمال اتاتورك في العشرينات والثلاثينات. فقد كان هناك جو اجتماعي ـ سياسي ونفسي آخر.

وكانت هذه الدعوة بالنسبة للاتراك تعني التخلي لحد ما عن الحضارة العربية ـ الاسلامية وجزئيا عن الحضارة الفارسية ـ الاسلامية، الامر الذي لم يكن ممكنا للعرب سواء في مصر اوفي البلاد الاخرى. فارتباط اللغة العربية بالقرآن والاسلام اقوى واعمق وأخلص.

ومن المثير مقارنة مصير مصر بمصير تركيا. وهناك الكثير مما يشير الى تشابههما. فلدي الدولتين عدد سكان متقارب. وهما تقعان على تلاقي قارتين: آسيا واوروبا لتركيا، وافريقيا وآسيا بالنسبة لمصر. والدولتان تقعان على تلاقي اهم الطرق البحرية العالمية، واصبحتا مصدرا للهجرة الجماعية.

ولكن بمجرد ان نعود للتاريخ سرعان ما يتحول هذا التشابه الى تناقض. ولا

نتحدث هنا عن الاختلاف في الطبيعة والمناخ والقدرات الاقتصادية . لقد جاء الاتراك الى الأناضول وتراقيا فقط في الالف سنة الحالية، اما المصريون فقد عاشوا في دلتا ووادي النيل في عصور ما قبل التاريخ. ويتكون النوع العرقي للاتراك من خليط من القبائل التركية واليونانية والارمنية والجيورجية والسلافية والمنغولية. اما المصيرون فقد حافظوا على ملامحهم التي لم تتغير كثيرا عبر آلاف السنين وهذا الشعب وذاك ينتميان الى جنس البحر المتوسط، لكن بعض المصريين مختلطون بالجنس الاسود، وبعض الاتراك مختلطون بالجنس الاصفر.

واستخدم المصريون اللغة العربية بدلا من القبطية. لكن الاتراك حافظوا على انتماء لغتهم للغات المجموعة التركية، وفي العقود الاخيرة وعوا «لتنظيفها» من المقتسبات العربية والفارسية. وعرف المصريون الهيروغليفية والكتابة الهيراطيقية واللغة الديموطيقية والقبطة والابجدية العربية اما الاتراك فقد انتقلوا من استخدام اللغات الاينيتسية والأرخونية، ثم الابدية الصغدية ثم الى العربية ليرفضوها فيما بعد ويفضلوا الابجدية اللاتينية في تركيا والابجدية الكيريليتسية في الجمهوريات السوفيتية، وفي مصر تطابقت عملية الاسلمة مع التعريب، لكن ظلت قلة كبيرة من المسيحيين - الاقباط التي اصبحت جزءا من المصريين العرب. اما عملية اسلمة الاتراك وانتقالهم من الشامانية للاسلام فقد كانت شاملة للجميع. اذا لم نضع في اعتبارنا مجموعة صغيرة من المسيحيين - الجاجاوزايين الذين يعيشون خارج الاراضي التركية، لكن الاقلية الكردية الموجودة في تركيا لم تتأترك. وخضع المصريون منذ القرن السادس قبل الميلاد لقبضة الغزاة. اما الاتراك فلم يروا ابدا سلطة الاجانب. وظلت مصر لمدة اربعة قرون في اطار الامبراطورية العثمانية (التركية)، التي تحولت لدى انهيارها لأسوأ وافظع انواع الاستعمار. وقد اسست مصر بعد تحررها من التبعية العثمانية في القرن التاسع عشر امبراطوريتها التي لم تدم طويلا.

وبعد ان فقدت الدولتان ممالكها في القرن العشرين ظلتا تقريبا داخل حدودهما القومية.

وبدأت مصر وتركيا عملية التحديث وادخال النمط الاوروبي في بداية القرن التاسع عشر، لكن النتائج كانت غير مرضية للبلدين. فرغم ان تركيا خطت خطوات اكثر من مصر على هذا الطريق الا ان الدولتين دخلتا مرحلة الازمة، وبمحاولة كل منها تحقيق مستوى عال من التنمية مع المحافظة على الاصالة القومية تعاني كل منها، ولو بدرجات متباينة، من نهوض الاصولية الاسلامية.

وقد طرحت جانبا افكار القوميين ـ الليبراليين المصريين، والموالين للغرب و«الفراعنة» بعد استهواء قصير بها من قبل الشباب الجامعي والمثقفين، رغم اننا نقابل ترجيعا هذه الافكار في حياتنا اليومية الآن.

فقد اتضح ان كل الحديث حول عظمة ومجد الفراعنة غريب على الاغلبية العظمى من السكان التي كان الاسلام بالنسبة لها دينا ونمطا للحياة ومثالا واساسا حقوقيا. وكان الاعتماد على «الفرعونية» خسارة في نظر الشخصيات السياسية ذات التوجه البراجماتي، اما الدعوة الى ادخال «النمط الغربي» فقد افتضحت بعد تعاون الاحزاب الليبرالية مع الانجليز.

وقد قوبلت الهجمات المترددة المموهة على بعض العقائد الدينية بمقاومة جماعية كبيرة من جانب ممثلي الدوائر الدينية من علماء الاسلام بجامعة الازهر حتى «جماعة الاخوان المسلمين» التي ظهرت عام ١٩٢٨ والكتاب والمفكرين المحافظين، حتى ان انصار هذه الحملات تراجعوا على الفور وبرروا امرهم بحيرة وارتباك.

وقد ادت محاولة عميد الادب العربي طه حسين لتعميم التفسير المنطقي للشعر الجاهلي على الصفات الادبية للقرآن الى انفجار احتجاجي في الازهر والى التهديد بالاتهام بتدنيس المقدسات.

وقد كلفته تجربته العلمية ـ الادبية كرسي الاستاذية في جامعة القاهرة كما اصبحت هذه التجربة درسا لكل الادباء الآخرين. وقد تميزت الفترة الاخيرة من النشاط الابداعي والاجماعي والعلمي لطه حسين بتوجه اكثر فاكثر الى اليمين في

الاتجاه المحافظ. وقد املت الانتهازية السياسية والحياتية على المثقفين المتعلمين في اوروبا وعلى الشخصيات السياسية الاخرى عدم التعرض، على الاقل علناء لقضية الدين الحساسة.

وقد اتجه الليبراليون باحثين عن دعم ومساندة لدى الدوائر المحافظة والدينية لكنهم اضطروا لدفع ذلك مغيرين شعارتهم ولون افكارهم السياسية، الامر الذي لم يكن عموما بالصعب عليهم عمليا.

ولدى النظر فيما حولهم وتعرفهم بالاوضاع في الشرق الاوسط اكتشف القوميون المصريون وحدة مصائرهم مع مصائر الشعوب العربية الاخرى. وقد اعترفوا بان الاستعمار الاوروبي هو العدو المشترك لعرب الشرق والغرب. واصبح من الواضح ان مصر وحدها لن تستطيع تحقيق مهماتها الوطنية. وقد ملأت فكرة التضامن العربي في مواجهة المستعمرين كل القلوب والعقول.

وجذبت عطف واهتمام المصريين انتفاضة السوريين ضد الفرنسيين وقيام حكومة الريف في المغرب وايقظت المشكلة الفلسطينية باستمرار عقولهم، وهي المشكلة التي ظهرت نتيجة سياسة السلطات الاستعمارية الانجليزية والاستعمار الصهيوني للبلاد. وتطورت الاتصالات والتبادل الثقافي بين مصر وبقية الدول العربية الاخرى.

وكثرت زيارات المصريين لجيرانهم القريبين والبعيدين وزيارة السوريين والعراقيين وسكان الجزيرة العربية لكل من مصر والمغرب.

وبينما صمتت الاهرامات وابو الهول، كانت تصيح دمشق او القدس.

واخيرا في السياق وليس في الاهمية: لقد فكرت البرجوازية الكبيرة في مصر في الوقت الذي ستصبح فيه الحدود الدولية لمصر ضيقة عليها، وبدأت تنظر فيما وراء هذه الحدود بحثا عن اسواق جديدة. وكيف لنا الا نتذكر هنا «عروبة» مصر وعلاقاتها الاخوية مع الدول العربية اذا كانت هذه السياسة ستساعد على زيادة حركة السلع المصرية في الاسواق العربية؟

واصبحت تناقش بنشاط اكبر مسألة الوحدة العربية. فقد أكد احد قادة البرجوازية المصرية ـ طلعت حرب ــ مؤسس بنك مصر انه من الضروري في البداية تحقيق الوحدة الاقتصادية والتعاون بين الدول العربية، بالطبع برئاسة مصر، ثم التفكير بعدها في الوحدة العربية الشاملة.

وهناك الكثير من الاقباط بين الوفديين الذين نظروا بحذر لافكار القومية العربية واصبغتها الاسلامية. وأيدوا الطابع العلماني للقومية العربية خوفا من فقدان حقوقهم ومواقعهم، لكنهم لم يعارضوا فكرة العروبة الكاملة اذا كان ذلك سيفتح اسواقا جديدة للبرجوازية المصرية.

وقال احد زعماء «الوفد» الاقباط مكرم عبيد ــ «نحن عرب والدم القبطي او بمعنى ادق الدم المصري في الدم العربي» مؤكدا على ذلك بالاستناد الى الاسطورة كحقيقة تاريخية. «فقد كانت أمّ اسماعيل ـ الاب الاسطوري للعرب ــ مصرية واخت للفرعون رمسيس. ولذلك ففرعون مصر كان خالا لابي العرب اسماعيل. فالقربى والعلاقات الوطيدة تربط الشعبين».

وفي ذلك الوقت كانوا في بعض الدول العربية يعتبرون ان سير عملية القومية العربية والعروبة في مصر بطيئة ولا تتفق مع الدور الكبير لمصر. ووجه نقد لاذع لما يقال عن الطابع غير العربي لمصر ولشعار «مصر للمصريين». وكانت الامزجة المعادية للاستعمار والامزجة القومية قوية بشكل خاص في سوريا والعراق. وقد حمس هذه الامزجة الى حد ما الملك فيصل الذي كان ملكا لفترة قصيرة على سوريا قبل ان ينصب من قبل انكلترا فيما بعد ملكا على العراق. وقد تذكر انتفاضة العرب في الحجاز ضد الاتراك واوهام تلك الايام.

وقد ايد هذه الافكار البعض من البرجوازية القومية التي ظهرت حينذاك في بعض الدول العربية الواقعة شرق السويس. وقد نشر الملك فيصل وخلفاؤه السياسيون في العراق خطط اقامة دولة «الهلال الخصيب» الذي يشمل العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين. وتحدث الامير عبد الله شقيق الملك فيصل والذي اصبح فيما بعد ملكا على الاردن، عن سوريا الكبرى التي تضم الاردن

وفلسطين وسوريا ولبنان. وتلخصت هذه السخرية في ان انجلترا كانت وراء هذه الخطط التي ولدت ميتة سواء في عهد الملك العراقي او الاردني. وقد قتل الملك عبد الله على يدي فلسطيني.

وقد اصبح ساطع الحصري السوري مفكر القومية العربية. وقد عاش ساطع في العراق ثم في مصر. وقد أيّد مشروع الملك فيصل الخاص «بالهلال الخصيب» ونادى بالوحدة العربية ولكن دون صلات اسلامية معتبرا انه من الضروري فصل الدين عن القومية. وفي هذا التوجه كان ساطع الحصري رائدا للبعث وجزئيا للناصرية. وحسب تعريف الحصري للقومية فهي ــ جماعة من الناس مرتبطة ببعضهم بوحدة الوعي وتوحدهم اللغة والتاريخ. «ومن تحدث العربية فهو عربي» ـ وكانت هذه الكلمات التي تعود للبني محمد (ص) اقصر تعريف للقومية العربية والتي اصبحت عقيدته. وقد رفض الحصري الحدود بين الدول العربية معتبرا اياها من مخلفات الاستعمار، كما رفض وجود قوميات عربية منفصلة في اطار العالم العربي، اي ذلك العالم الذي يتحدث سكانه العربية. وكانت القوميات المحلية مثل المصرية والسورية واللبنانية والعراقية بالنسبة له دعوات ملعونة. وحينما اعلن طه حسين ان اللغة لا تكفي لاقامة الوحدة العربية، وان النداء بالوحدة هو عاطفة، وليس واقعا، اصبح الحصري خصما ايديولوجيا له.

وقد كتب الحصري: «ان على كل مصري ان يدرك ان الحضارة المصرية القديمة، مثلها مثل حضارة السومريين والأشوريين والفينيقيين ـ هي ميتة ولا يمكن اعادتها للحياة. ان العروبة ليست ماضيا محنطا بل حاضرا حيا». وقد اعتبر الحصري منذ البداية ان مصر بموقعها وقدراتها السكانية والاقتصادية لابد وان تكون القائد الطبيعي للقومية العربية لكن ذلك يتطلب ان تسيطر على مصر فكرة الرسالة المصرية في العالم العربي.

بعد هزيمة الفاشية ودول «المحور» في الحرب العالمية الثانية اكتسبت الافكار القومية السابقة في مصر والعالم العربي عموما نغمة جديدة. وتحولت مهمات الحصول على الاستقلال السياسي الحقيقي من الشعارات الى مجال الممارسة

السياسية. وتشكل نظام علاقات متبادلة جديد بين الدول العربية. وبارادة التاريخ فان مصر، التي ابتعدت في العشرينات والثلاثينات عن القضايا العربية العامة، اصبحت قائدة للعالم العربي نظرا لقدراتها السكانية والاقتصادية والعسكرية والسياسية. وكانت القاهرة مقرا لجامعة الدول العربية.

وقد زادت المأساة الفلسطينية وهزيمة العرب في الحرب الفلسطينية الاولى من حدة ضرورة القومية العربية وايقظت المشاعر العربية في مصر. وقد بَيّن عام ١٩٤٨ الى اي درجة يرتبط مصير مصر بمصير كل العرب. واصبح الوعي القومي العربي واقعا. وتأكدت القناعة بمعاداة الصهيونية والامبريالية للمصالح العربية.

وقد شدت افكار العروبة والقومية العربية إليها الضباط الشباب الذين جاءوا للسلطة في مصر نتيجة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وقد حدد جمال عبد الناصر في كتاب «فلسفة الثورة» مكانة مصر في ٣ دوائر: في العالم العربي، في افريقيا وفي العالم الاسلامي.

وقد اعلن في دستور عام ١٩٥٦ ان مصر جزء من الامة العربية. واعتبر جمال عبد الناصر ورفاقه ان الحدود بين العرب هي حدود اصطناعية فرضها الاستعمار. وترك شعار «مصر للمصريين» مكانه لشعار الامة العربية التي يجب ان تقوم فيها مصر، طبيعيا، بدور القائد. ودعت مصر الثورية للحرب الفدائية في فلسطين، وقد وجهت اسرائيل اولى ضرباتها بالذات لمصر في عام ١٩٥٥.

وقد تلاحم العرب لمساندة مصر اثناء العدوان الثلاثي عليها عام ١٩٥٦. فقد قدمت سوريا اكبر دعم لمصر بتعبئتها للقوات المسلحة وقطعها العلاقات مع انجلترا وفرنسا وحشدها للقوات السورية على الحدود مع اسرائيل. ودمرت اثناء هذا العدوان خطوط انابيب البترول الواصلة من السعودية والعراق لسواحل البحر المتوسط. وفي تلك الايام اوقف الانذار السوفيتي وامتعاض واشنطن المعتدين.

وقد اكتسب اسم عبد الناصر شهرة سحرية من المغرب حتى الامارات الخليجية. وقد سمع الجميع محطة اذاعة «صوت العرب» من القاهرة. واصبحت

القاهرة رمزا للبعث والامل العربي، وللاستقلال السياسي وقاعدة لحركات التحرر الوطني في العالم العربي من الجزائر حتى اليمن.

وكان في العالم العربي ٣تيارات اعلنت شعارات قومية وافكار «الوحدة العربية» ـ الناصريين والبعثيين وحركة القوميين العرب.

وقد عمل الناصريون على التحقيق التدريجي للوحدة العربية تحت قيادة مصر. اما البعثيون فقد نادوا بالوحدة العربية على اساس وحدة اللغة والروح والتاريخ والثقافة. وبالمناسبة لم يذكر الدين في هذه القائمة على الاقل لان مؤسس البعث هو ميشيل عفلق المسيحي. واعتبر البعثيون ان الشعوب العربية جاهزة للوحدة (طبعا تحت القيادة البعثية) وتعيقها فقط بعض العقبات الاصطناعية.

وقد تأسست حركة القوميين العرب عام ١٩٤٨ بعد قيام دولة اسرائيل وظهور المأساة الفلسطينية. وقد لعب دورا في تأسيسها هؤلاء الذين درسوا في الجامعة الامريكية ببيروت، وكثير منهم فلسطينون. فقد نادوا بالوحدة العربية على اساس ديمقراطي تقدمي شعبي، وبتحرير فلسطين وكل العرب من الاستعمار بالطرق الثورية. وكانت المواقف الماركسية قوية في هذه الحركة.

وقد تركت التجربة الفاشلة لوحدة مصر وسوريا من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦١ جرحا عميقا لدى القوميين العرب. اذ تأكدوا كم هو صعب تذليل الاختلافات الاقتصادية والحكومية والطبقية والايديولوجية بين الدول العربية. لقد انهارت الجمهورية العربية المتحدة التي تأسست بالحاح من سوريا بعد ان حدث الانقلاب الحكومي في سوريا وفصل هذه الدولة عن مصر.

الا ان الاصابة الكبرى لمؤيدي الوحدة العربية، الذين حلموا باعادة المجد والعظمة للعالم العربي وبوضع الدول العربية على مستوى متساو مع الغرب، جاءت بعد هزيمة ١٩٦٧. فقد اتضح ان الالة العسكرية الاسرائيلية المدعمة من قبل الولايات المتحدة اقوى من الجيوش العربية.

ودفعت الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ وارتفاع الاسعار العالمية للنفط

بالممالك والامارات المحافظة في الجزيرة العربية الى مقدمة الساحة السياسية العربية. وفي السبعينات تغير النهج في مصر على يد السادات دون اراقة دماء. وهدمت انجازات الناصرية في جميع المجالات. وتخلى السادات عن فكرة العروبة، وعن السياسة العربية المشتركة ومضى نظام السادات الى كامب ديفيد والى السلام مع اسرائيل والى قطع العلاقات مع الدول العربية الاخرى.

وكان الغطاء الايديولجي لهذا النهج هو العودة للحديث عن فكرة الطابع «غير العربي» الخاص لمصر، وعن عظمة عصر الفراعنة، ومواجهة القومية المصرية بالقومية العربية، واندلعت المناقشات حول «شخصية مصر» ـ هل هي عربية ام مصرية خاصة.

واشعل فتيل المناقشة ما قاله شيخ الادباء المصريين توفيق الحكيم.

وكان الحكيم انيقا بشيخوخته في بيريهه الفرنسي، وبدلته الممتازة التفصيل على الطريقة الاوروبية. وكان الحديث معه شيقا وممتعا. وقد لمح الحكيم بآرائه الفجائية والتحولات المتناقضة في الافكار. وكفنان كان يضع يده بعبقرية على ما يقوله الرأي العام المصري ويعكسه باتقان. وكمفكر سياسي استطاع ان ينتزع البسمة الساخرة من زملائه واحيانا البسمة المتساهلة واحيانا البسمة اللاذعة. لقد قابلته للتحدث معه عن كتابه «عودة الوعي» ـ وهي التسمية المشابهة لرواية «عودة الروح» التي اثارت ضجة في الثلاثينات. وكان كتاب «عودة الوعي» هجوما على كل عهد عبد الناصر من وجهة نظر مثقف ليبرالي. فهو لم ير أي بصيص من النور في حياة مصر بعد عام ١٩٥٢ فقد تذمر من أن «الضباط الاحرار» خيبوا ظنه وهم الذين رفعوا شعارات جذابة حينما جاءوا للسلطة. ويشعر المرء ان الحكيم حمل عبر عشرات السنين «الفرعونية» الساذجة للعشرينات والثلاثينات، ومُثل سعد زغلول، والحنين الى نماذج وانظمة اوروبا الغربية.

وقد استقبلني توفيق الحكيم في مكتبه بجريدة «الاهرام». وكان مبنى الاهرام هو برج المثقفين المصريين. وفاحت رائحة البن في الممرات وكذلك رائحة السجائر

الغالية الثمن والروائح الباريسية. وحمل المصعد الصامت الموظفين والضيوف للطابق الاعلى حيث كانت هناك الكافيتريا التي يمكن ان تليق تماما بجريدة في المانيا او الولايات المتحدة. ومن هذا الطابق الاعلى يتكشف من ناحية منظر شارع من طابقين مليء بالسيارات المسرعة، ومن الناحية الاخرى منظر حي بولاق وهو احد احياء القاهرة حيث تتركز فيه الحواري والمنازل القذرة والسكان الاميون الفقراء. اما هنا في برج «الاهرام» فكان لدى المثقفين المصريين الذين يعيشون في الواحة الاوروبية مكاتب وسكرتيرات ومرتبات ليست صغيرة.

وقال توفيق الحكيم بحسرة «لقد قامت مصر بالحرب من اجل الاخرين، للدفاع عن مصالح الغرباء وليس عن المصالح المصرية. ونزفت مصر الدماء مضحية باقتصادها. نحن نتهاوى وهم يزدهرون. هؤلاء البدو الاغنياء الجدد... انهم يأتون الينا ليشتروا شققنا بالجملة، ويشتروا اراضينا ونساءنا، ونحن، المصريين، نقف امامهم نمد يدنا لحسانتهم. انظر الى صحفيينا ومهندسينا واطبائنا. أنهم يأخذونهم، تشتريهم الدول النفطية العربية الغنية. انهم يقيمون باموالهم بمساعدة المصريين المراكز الثقافية والحضارية. هروب العقول! في القرن السادس عشر بعد ان غزا الاتراك مصر، كانوا يرسلون بمئات المصريين المهنيين والعلماء من مصر لتركيا مدمرين بذلك ما نسميه اليوم بالقدرات العلمية ـ التكتيكية للبلاد. فليتوحد العرب معنا في دولة واحدة وليتقاسموا معنا همومنا، ونضالنا. والا...... فعلينا ان نخرج من المواجهة مع اسرائيل، علينا ان نكف عن الحرب من اجل العرب، علينا ان نكون محايدين. يجب ان نكون سويسرا الشرق الاوسط».

وبعد عامين، حينما سافر السادات الى القدس، وسار للسلام مع اسرائيل، نشر توفيق الحكيم افكاره هذه في جريدة «الاهرام». واندلعت النقاشات، التي شملت افضل العقول المصرية. وجرت هذه المناقشات على صفحات الجرائد والمجلات وفاقت في حدتها المبارزة الثقافية بين مؤيدي ومعارضي «الفرعونية» في الثلاثينات، والجدالات الحادة حول «شخصية مصر» بعد هزيمة ١٩٦٧.

ويبدو ان الاديب الكبير لم يتوقع رد فعل القنبلة التي تفجرت اثر ما نشره.

ولربما انه لم يرغب في ان يكون الزينة العقلية او الغطاء للسياسة الساداتية. وليس صدفة ان زميله الاصغر يوسف ادريس، الكاتب المصري المشهور الذي يكن الاحترام لتوفيق الحكيم، رغم انه لا يتفق معه، حاول انقاذ ماء وجهه. فقد كتب على صفحات الجرائد «ان توفيق الحكيم ينكت ـ انها نكتة الكاتب».

وقال احمد حمروش الكاتب الذكي اللاذع ومؤرخ المرحلة الناصرية ان توفيق الحكيم فنان وليس مفكرا سياسيا ولذلك فان اخطاءه مفهومة.

ان توفيق الحكيم لم ينكت كما لم ينكت مؤيدوه ومعارضوه.

وأدرك يوسف ادريس ذلك: «ان الدعوة للحياد تعني الرغبة في اعاقة مصر عن سماع صوت اصدقائها وصوت الضمير، وعن رؤية ما يجري حولها، وعدم امتلاكها لرأيها. لقد فرضوا الحرب على مصر ولم تفرض هي على نفسها الحرب».

وقد كتب خيري عزيز الكاتب والسياسي الذي عمل حينذاك في مركز الدراسات الاستراتيجية «بالاهرام»: «ان استراتيجية الامن المصري تتطلب التعاون مع الدول العربية الاخرى. اذ تقع مصر في قلب العالم العربي. ويمثل موقعها السياسي والجغرافي وضعا يجعلها هي والدول العربية المجاورة تشكل منطقة واحدة... ان الدعوة لحياد مصر تعني الدعوة الى عزلها عن الشرق العربي والتقليل من امنها. وتقليديا فان مصر كانت دائما مرتبطة بالاتجاه الشمالي ـ الشرقي.

وكانت فلسطين ركيزة وقلعة للدفاع عن مصر من هجمات الامبراطوريات الغاشمة التي تواجدت في الشمال. وسوريا التي لم تمثل تهديدا بحد ذاتها في يوم من الايام لمصر، كان رأس جسر ومعبرا للغزاة.

ولذلك فان كل من هدد سوريا هدد مصر. وقد جرت المعارك الاساسية للامن القومي المصري في سوريا وفلسطين. انهما خط الدفاع الاول والاساسي لمصر» (ومن الطبيعي ان هذا كان صحيحا فقط حتى ظهور تلك الدول البحرية مثل انجلترا. الا ان الكاتب لمح بان اسرائيل التي احتلت كل الاراضي الفلسطينية تظل عدو مصر المهدد لأمنها).

وقد ايد الاديب الكبير علنا فقط الاديب المحافظ حسين فوزي واثنان او ثلاثة آخرون وببعض التحفظات. اما من كانوا «ضد» فمجموعة كاملة من الاسماء المرموقة. الا ان أحد هذه الاراء كان ذا ديناميكية وقوة لدرجة انه طرح قضية مكانة مصر في العالم العربي، قضية التناسب بين الوطنية المصرية والقومية العربية ومسألة اخطاء السياسة العربية وآثامها والثقافة السياسية بالشكل الذي جذب كل المناقشة اليه. وكان يمكن لهذا الرأي ان يشد اليه الاهتمام بما يحتويه فقط، الا انه كان مذيلا بتوقيع الكاتب والناقد البارز لويس عوض ذي العقل البراق وسعة الاطلاع العميقة والقلم الحاد. حقا، انه لم يناقش توفيق الحكيم فقط بل كل النظام الساداتي، وليس هذا فحسب. لقد وجه نقده القاتل، احيانا الصحيح واحيانا المتطرف، للقومية العربية والقومية المصرية» اذا صح التعبير.

فكتب لويس عوض: «الحياد، الحياد السياسي ــ انه اسطورة وخرافة. وهناك مطالب جغرافية سياسية. ان امن مصر يتوقف على مواقف الدول العربية والدول الافريقية. ولا مناص من ذلك. القومية العربية ميتافيزيقا أما التعاون السياسي بين الدول العربية فهو أمر آخر».

واضاف لويس عوض: حينما يتحدثون عن حياد مصر يأتون بالحجج كما لو كانت مصر في حاجة الى الكسب من السياحة، (والهدف ليس هو توفيق الحكيم بل السادات نفسه). اذا كانت مصر هي «متحف العالم» فلم لا تكون ايضا «كباريه العالم» اذا كانت الدولة في حاجة الى اموال؟ ان لكل دولة مصالحها القومية الخاصة، الا ان الامن قضية عامة، هكذا قال لويس عوض معتبرا ان التعاون بين الدول العربية ضرورة.

وعلى اية حال فقد كانت مقالته مُرّة. فقد كتب يقول انهم يعلمون الاطفال في المدارس تاريخ القرون الوسطى وهم اغراب عن قضايا اليوم. وبنظرة للوراء، اشار لويس عوض الى ان العسكريين وقفوا في منتصف الطريق، والثورة وقفت في منتصف الطريق. والمجتمع ايضا غير محدد، يقف في مرحلة انتقالية بين القديم والجديد، وبين التخلف والتقدم. كما انه لا يستطيع تحمل الحمل الثقيل الكامل ولا

الثورات الكاملة. واكد لويس عوض ان كل هذا كان مثل النفخ في قربة مقطوعة. «لقد كتبنا كل هذا لانفسنا بانفسنا، لان بعضنا يعرف الطريق للقوة ويخاف السير في هذا الطريق. ويظن بعضنا ان طريق الضعف هو طريق القوة والاخرون لا يفكرون لا في النفخ ولا في القربة التي ينفخون فيها. وهم يفضلون الترتيب المريح لامورهم حتى لو كان الاخرون حولهم يعيشون في جهنم».

وسخر لويس من فكرة تحويل مصر الى سويسرا او سويد الشرق الاوسط، لان هناك فارقاً كبيرا في المصالح والظروف التاريخية والجغرافية والثقافية، تلك الظروف التي تعيش فيها دول الشرق الاوسط ودول اوروبا الغربية.

واستمر الاديب يقول ان اسطورة العزلة والخيال العجيب عن تحويل مصر الى سويسرا لا تقل خطرا عن خرافة اخرى. وهي خرافة الوحدة العربية، المؤسسة على ان الشعوب والقوميات من الخليج الفارسي الى المحيط الاطلسي كما يزعمون يمثلون «امة واحدة».

أمة واحدة ليس فقط من وجهة نظر الثقافة والحضارة، بل وايضا من جهة نظر الدماء والجنس. وترتكز هذه الاسطورة على مقدمة كاذبة عن «الرسالة العربية» واعادة المجد السابق للعصر العربي العظيم ايام الفتوحات العربية. ان الاسطورة حول الجنس العربي خارج الجزيرة العربية لا تقل خطرا عن اسطورة الجنس الآري اثناء عهد النازيين والاساطير المشابهة عن تفوق المصريين والفينيقيين والاسرائيليين. ان كل دعوة قومية شوفينية، تعتمد على مهمة الغطرسة العنصرية والتفوق العنصري لشعب على الشعوب الاخرى في الارض، وعلى بناء مجد الامة على حساب السيطرة على اجناس اخرى او على التميز المتوارث لها على اجناس اخرى. ويبرر هذا، الاستعمار والاستعباد والتفرقة العنصرية... وتدعو هذه النظرة الى حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية لبعض الشعوب على حساب شعوب وأمم اخرى.

وكتب لويس عوض: «إننا نشعر بضرورة التضامن العربي في سبيل الامن العربي الشامل وفي سبيل امن كل دولة عربية على حدة. ومن اجل ذلك لا توجد

ضرورة لوجود جيش واحد وميزانية واحدة كما يدعو توفيق الحكيم، على نحو ما كان اثناء الوحدة الفاشلة مع سوريا. ولذلك فان المشكلة ليست في الحياد الحقوقي، بل ان المشكلة تتلخص في ضرورة تخليص العالم العربي من اساطير الوحدة والاندماج، وايضا من اساطير انعزال دولة ما عن الدول العربية الاخرى. كما ان المهمة المطروحة هي بناء التعاون العربي من اجل الامن العربي، والبناء العربي على الوقائع السياسية بدلا من الرومانسية التي تفترض ضرورة وحدة كاملة او انعزال في ابراج عاجية. والمشكلة ايضا تتعلق بان العرب لا يدركون مصالحهم الحقيقة. كما انهم لا يعرفون الطرق التي تؤدي الى تحقيق مصالحهم الحقيقية».

وفي الحجج التي ساقها لويس عوض اماكن ضعف واضحة يمكن المجادلة معه فيها. فلم يتريث بشأن بعضها. ولن اتحدث هنا عن المقولة اللبنانية المعروفة حول الوجهين المتعلقين بالقومية المضطهدة. او عن موقف كثير من المفكرين العرب، الذين يعتبرون انه توجد أمة عربية وفي اطارها شعوب مختلفة. وكانت مقارنة القومية العربية بالنازية تطرفا في الجدل.

وقد سمى احد نقاد لويس عوض هذه بانها «هجوم ظلامي على القومية العربية». وقد اكد خصومه ان من حق المفكرين في الاوقات العصبية للتاريخ ان يستعينوا بالإنجازات العظيمة للماضي حتى يعيدوا للشعب الثقة في قواه. وبالمعنى الضمني انه يمكن «المغالاة» في تمجيد القومية وان القومية العربية ليس لها اسس عنصرية. ويرد لويس، الا توجد لها اسس عنصرية؟ — فماذا يعني اذن كتاب ناجي معروف من جامعة بغداد المعنون: « الاصل العربي للعلماء المنسوبة اسماؤهم لشعوب الشرق الاوسط الاسلامي الاخرى»؟ في هذا الكتاب يوجد ٣١٣ اسم عالم من الدول الاسلامية عاشوا في الفترة من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر، ورغم كل الحقائق المعروفة يورد هذا الكتاب برهنة «علمية» على انهم كانوا عربا بالدم.

وقد حاولوا تفسير موقف لويس عوض من منطلق انه قبطي. ورد لويس على النقاد بقوله: «انا مصري، ولا يتوقف ذلك على ديانتي، فالاقباط والمسلمون في

مصر شعب واحد. لديهم لغة واحدة وتاريخ واحد ونوع عرقي واحد. هناك أمة مصرية، تختلف عن الأمم العربية الاخرى».

لكن مهما كان الامر فان الاقباط المصريين دعموا موقفه اكثر من المسلمين. وكانت حججهم هي انهم ليسوا «مع» ولا «ضد» القومية العربية والوحدة العربية. وكل القضية هي ماهية هذه الوحدة هي الحقوق التي ستضمنها لهم.

صحيح ان لويس عوض فهم على الفور انه بمقارنته في سخونة النقاش بعض افكار القوميين العرب بالافكار النازية، اعطى سلاحا في يد الدعاية المناهضة للعرب. واعترض خصومه بحق على ان اليهود قبل قيام دولة اسرائيل لعبوا دورا بارزا في مصر، وفي العراق وفي المغرب واليمن وسوريا. وشغل بعض اليهود مناصب وزراء وكان بينهم فنانون وادباء ناهيك عن دورهم في الاقتصاد والمال. وذكر لويس عوض بنفسه ان اليهود في الدول العربية لم يتعرضوا لتلك المطاردات التي واجهوها في اوروبا.

وكان لويس عوض لحد المأساة وحيدا، ولم يجد مساندة علنية من احد. واتسمت مقالتاه الثانية والثالثة بالطابع الدفاعي (في رده على النقاد) وباللهجة الناعمة. واذا ما صنف موقفه فهو موقف مفكر يساري يحاول الارتفاع فوق الصراع بعقله ومعرفته، موقف قريب من الماركسي ولكن ليس ماركسيا.

وكان كل حديث لي معه في ادارة تحرير «الاهرام» ذاتها يتطلب تشغيل العقل لكنه كان يبعث على الرضاء. وقد اوحت لي اللقاءات به بالثقة في الشعب المصري الذي يمتلك مثل هذه الرؤوس المفكرة.

لقد طرد لويس عوض عام ١٩٤٥ من جامعة القاهرة، وفي عام ١٩٥٩ ادخل معسكر الاعتقال حيث امضى سنتين وخرج عام ١٩٦١، ورفعه جمال عبد الناصر عاليا حيث شغل منصب رئيس القسم الثقافي «بالاهرام»، واصبح احد ابرز النقاد والادباء والشخصيات الثقافية في مصر. وبالرغم من التجربة الشخصية المرة، والعقل المرتاب فانه عقد الآمال على التجربة الاجتماعية ـ السياسية للمرحلة

الناصرية. ومع كل عام من استمرار نظام السادات كان وضعه الروحي يظلم اكثر فأكثر.

لقد ودعت لويس عوض عام ١٩٧٩. وغادرت القاهرة بعد انتهاء اربعة اعوام من العمل كمراسل. ولدى الوداع كان عوض حزينا وصارما. ومضى تقريبا عام على تلك المناقشة التي اثارت ضجة. ووقع السلام المنفرد بين اسرائيل. وظهرت السفارة الاسرائيلية في القاهرة. وفي سيناء اتخذت كتيبة من «قوات الانتشار السريع» الامريكية مواقعها. وقطعت الدول العربية، ما عدا السودان وعمان، علاقاتها مع مصر.

وتقلب السادات على وجهه باحثا عن مبررات لهذا الثمن، الذي دفعه مقابل السلام. فقد كان الخطيب الدائم والاساسي بالتليفزيون شاغلا البرامج لساعات طويلة، كما كان الكاتب الاجتماعي الاساسي والاقتصادي الاساسي والرجل العسكري الاستراتيجي الاساسي في مصر. وسألت لويس عوض : كيف ترى الحجج التي يسوقونها لصالح السلام مع اسرائيل؟ حينئذ لمعت في عيني الانسان المتعب والمريض شرارة المجادل. واجاب بتهكم وسخرية: «انها السوق التي يبيعون فيها الاساطير، السوق التي يبيعون فيها الاحلام».

لقد مضت سنون بعد ذلك اللقاء.

وها هو لويس عوض قد وافته المنية. ولم يعد على قيد الحياة. وعندما يعاود المرء قراءة نقاشات تلك الايام، يصل الى قناعة ثابتة بان الأفكار المتطرفة لا يمكنها في الظروف العادية ان تصبح ممارسة سياسية. ولكن من بوسعه ان يقول واثقا أين التطرف النزق واين رؤية المستقبل، اين الحق في التقييمات السياسية واين الباطل.

الباب الثامن

الشرق هو الشرق

انني ارفض رفضا قاطعا التأكيد بان الدين هو القاعدة المناسبة للعمل السياسي. ولا بد ان تستند قوميتنا الى مصالحنا وليس الى العقائد.

احمد لطفي السيد، قائد ومفكر الحزب الوطني. بداية القرن العشرين.

الله إلهنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا.

حسن البنا. مؤسس جمعية الاخوان المسلمين. عام ١٩٣٦.

حظر اي دعاية للتمايز العرقي او الديني، والتي تمس وحدة المصريين، وتقوية الدعوة للتسامح الديني في اطار التقاليد المصرية العظيمة. الدين لله والوطن للجميع.

في البرنامج الانتخابي لحزب التجمع الوطني الوحدوي. مايو ١٩٨٤.

لقد توهمنا بالامس بانه على المجتمع ان يقفز عبر المراحل التاريخية بمجرد الايماءة بالعصا السحرية بمساعدة المنقذ العام - وهو التحديث. اما اوهام اليوم فهي تتلخص في ان عودة الاسلام تشبه الرياح الآتية من الصحراء لتمسح كل التقدم على طريقها. لكن فكرة اليوم يمكن ان تخدعنا مثلما خدعتنا فكرة الامس. ويخطيء كلا الجانبين من يأمل في ان الحضارة المهدومة والتي منيت بالهزيمة منذ عدة قرون مضت تبدو وكأنها على أبواب البعث، كما يخطيء من يخاف من ان التأكيد الجديد على الاسلام سيكون بمثابة تمرد عظيم ضد الحياة المعاصرة.

لا بد ان ندرك من اجل ماذا يحارب البعض ومن أجل ماذا يناضل المجتمع وما هي مشاغلهم الحقيقية، هذا إذا كنا نريد فهم سبب تلويحهم بهذا السلاح او ذاك وسبب لجوئهم لاستخدام بعض الرموز المعينة.

فؤاد عجمي. العرب في وضع صعب. عام ١٩٨١.

في السادس من اكتوبر ١٩٨١ جري في القاهرة عرض عسكري بمناسبة الذكرى الثامنة لعبور الجيوش المصرية قناة السويس. وقد جلس رئيس الجمهورية انور السادات على المنصة مرتديا البدلة العسكرية المطرزة بالذهب والمقلدة تماما من بدل العرض العسكرية التي كان يرتديها الجنرالات النازيون. ولم ينتبه الضيوف والحرس المتعبون من المرور الطويل لوحدات الجيش الى الشاحنة التي تجر مدفعا والتي وقفت مباشة امام المنصة، وفجأة اطلق بعض الجنود الرصاص من البنادق الاوتوماتيكية والقوا بالقنابل التي لم تنفجر . وفي هذه اللحظة قفز الجنود من الشاحنة وتقدموا من جانب المقصورة واطلقوا الرصاص عن قرب على السادات. وبعد ان أفاق الحرس فتح النيران على المهاجمين، لكن كان الوقت متأخراً . ومات الرئيس متأثرا بجراحه قبل ان يعود لوعيه في المستشفى العسكري بالمعادي في نفس المكان الذي مات فيه شاه ايران السابق.

وقد اتضح ان المشاركين في الحادث والذين شنقوا بعد التحقيق هم من مقاتلي منظمة «الجهاد» المكونة من اعضاء الجماعات الدينية المتطرفة. وما زال احتمال مشاركة المخابرات المركزية الامريكية في الحادث والذي تقدم به بعض الباحثين، ولم يزل في مرحلة الاستنتاج الذهني لهؤلاء الباحثين.

وفي رأي المتطرفين المسلمين ومعظم المصريين فان السادات اصبح عميلا للغرب المفسد والمستغل للمسلمين، وخائن الاسلام والعرب الذي عقد الصلح مع الصهاينة. وفي هذا السياق فانه من العدل ما عبر عنه ببلاغة رئيس الوزراء اللبناني حينذاك شفيق الوزان حيث قال: «ان كامب ديفيد هو الذي قتل السادات».

وقد هز القتل الشجاع للسادات اثناء العرض العسكري كل مصر والشرق الاوسط. الن يكون هذا دوي الرعد الاول للعاصفة القادمة؟ والن تصبح مصر ايران الثانية؟ والن تكتسحها موجة الاصولية الاسلامية مثلما اغرقت ايران؟

لقد مضت عدة سنوات، لكن لا توجد اجابة قاطعة ومحددة بعد على هذه الاسئلة.

لقد اتضح افلاس النظام الساداتي. فقد حاول استبدال القومية العربية بالقومية المصرية الضيقة المغرضة. وتحوّ ل حواره مع العالم الخارجي بعد القطيعة مع الاتحاد السوفيتي، تحول الى تنازلات سياسية في كامب ديفيد. واطيح بالاصلاحات والتجارب ذات الصبغة الاشتراكية من اجل المشاريع الرأسمالية المتهتكة. وبدلا من الضابط الوطني صعد على المنصة تاجر جشع. فقد مجدت الدعاية الميلياردير الكبير قريب السادات عثمان احمد او الكومبرادور السعودي عدنان خاشقجي، وارتفعت الضجة على المشاريع الجبارة التي ستجمع الرأسمال السعودي والجهد المصري والاراضي السودانية، وعلى خطط جلب احدث انواع التكنولوجيا لدفع مصر والدول العربية الاخرى الى الربع الاخير من القرن العشرين دون ثورات ودون تحولات جادة، ودون حل اعقد المشاكل الاجتماعية. وظلت الكلمات كلمات والمشاريع خطوطا على رمال الصحراء التي غطتها اهدأ رياح الواقع.

ونظرت الجماهير بغضب خانق او بيأس يحتضر الى طفيلية الفئات الجشعة الجديدة ـ «قطط الانفتاح السمان» والى ابتعادهم المستمر عن التقاليد القومية. ولم يكن هذا الابتعاد هو الجوهر الاقتصادي - الاجتماعي والسياسي للكومبرادوريين الجدد (ولم تفطن الجماهير بوعيها بالذات لهذا الجانب)، بل كان يعني ايضا امركة حياتها ومعايير سلوكها ونظراتها وعاداتها.

وقد اكتسب الجشعون البيروقراطيون الكومبرادوريون والمثقفون الذين باعوا انفسهم لهم تلك الصفات المعروفة في الغرب تحت اسم «الكسموبوليتزم» وهنا في الشرق الاوسط معروفة باللاوطنية.

وقد ادى الاختراق التجاري الاوروبي للشرق الاوسط في القرن التاسع عشر لظهور فئة الوسطاء الكومبرادوريين. وقد يكون هؤلاء يونانيين أو أرمن او يهودا او فلسطينيين، سوريين، واحيانا مصريين. وتعني روح اللاوطنية الجديدة ان الكومبرادوريين الجدد ذوي الاصل المصري بتعاملهم مع الغرب سيعطون له كل مواقعهم القومية في مجال الثقافة والعادات والخلق.

ويصاحب التسريب اللاحد له لرأس المال من مصر (مثلما من كل الشرق الاوسط) للغرب انتقال الصفوة التي تفضل الحياة في عالمين في وقت واحد في مصر والغرب. ومن القاهرة الكبرى المزدحمة ومن القيود التي تفرضها تقاليد المجتمع يمكن بسهولة للكومبرادوريين المصريين الانتقال للتجوال في الغرب وشراء الشقق في باريس ونيويورك. لكن ذلك لا يعتبر «هجرة العقول» ـ رحيل العلماء والاطباء والمهندسين المغادرين للاقامة الدائمة في الغرب. بل هذا بالضبط هو الوضع الوسيط، الذي يحدد استعداد الكومبرادوريين للسكن في الغرب في حالة الاخطار الاجتماعية او السياسية، دون التفكير في غد وطنهم، او حتى في اجراء اصلاحات من شأنها ان توطد سلطتهم وامتيازاتهم لمدة طويلة. ويعتبر الباحث اللبناني فؤاد عجمي انه «لم تكن امكانية الهرب في تاريخ الحضارات متوفرة بهذه السهولة. ولم يكن ممكنا تصور النهضة اليابانية في القرن التاسع عشر، اذا كان امام الصفوة اليابانية مثل امكانيات الهرب هذه التي تمتع بها الصفوة العربية. لقد اتضح ان الثورة اليابانية من اعلى فعالة لان الساموراي قاموا بها وسخروها لعالمهم الخاص وكانوا حاملين حقيقيين للثقافة القومية».

وكتب عالم الاجتماع الانجليزي اللبناني الاصل البرت حوراني في الاربعينات: «ان تكون لاوطنيا معناه ان تعيش في عالمين او اكثر، دون أن تنتمي لاحدها. واذا ما كنت على استعداد للقبول بالاشكال الخارجية التي تحدد الانتماء لقومية او ديانة معينة او ثقافة معينة دون الامتلاك الفعلي لها، معناه انك لا تملك نظام القيم الخاص بك، بل تستطيع فقط تقليد نظم الاخرين، وحتى ليس التقليد الصحيح، اذ ان مثل هذا التقليد يفترض اصالة معينة. ويعني هذا عدم الانتماء لاي مجتمع او امتلاك اي شيء مشترك مع المجتمع. ويبدو هذا في مشاعر الفقدان والتصنع والاستهتار واليأس».

لنتوقف هنيهة. ان الفقرات الخمس السابقة كتبت في بداية الثمانينات. ونحن الآن في اواسط التسعينات فهل هي سليمة الآراء المطروحة فيها؟ ليس من جواب محدد على هذا السؤال فلم يكن فيها انتقاص للحقيقة، لكن لم يكن ثمة مجال

للوصول الى حقيقة اكمل كتلك التي لم تنكشف امام اعيننا الا من علياء تجربتنا الحياتية والتاريخية الجديدة. فقد اتجه وجهة «الانفتاح» والنزعة الكمبرادورية الجديدة هذه المرة ورثة الاتحاد السوفياتي، وكذلك الصين. ويبدو ان لا طريق حتى اللحظة غير هذا الطريق. الا انه لا هدأة ابداً للجدال حول اشكال وطرائق «الانفتاح» على مدى العالم، وحول الثمن الذي يمكن للشعوب ان تسمح لنفسها بدفعه - سواء اقتصاديا ام اجتماعيا ام روحيا ام ادبيا ـ مقابل التوق الى استخدام آلية السوق واعتماد الاقتصاد الحر.

هل كان القادة المصريون واعين لتلك المشاعر المتقاسمة بين الحب والكره تجاه الانفتاح لدى السكان؟ وللخطر الذي يحيق بالنظام من جراء غزو قيم اخلاقية وثقافة غريبة لموطىء التقاليد القومية والدينية، ومن جراء الفراغ الايديولوجي في المجتمع؟ انهم، لعمري، كانوا واعين لهذا.

ويحدد كلام البرت حوراني في المقام الاول ايديولوجية اللاوطنية وليس الحاملين المحددين لها. ورغم ان الكومبرادوريين المصريين الجدد يتمتعون تماما بالتصنع والاستهتار لكنهم لا يشعرون بالفقدان وباليأس. فالفطرة التجارية والاستهتار الكومبرادوري - الكوسموبوليتي يبعدان اليأس عنهم، اذ انهم لا يشعرون بالارتباط القومي ولا بالمسؤولية القومية. ويظل اليأس والشك من نصيب جزء من المثقفين الموالين للغرب. ورغم توجههم الغربي وبيع انفسهم مقابل المنح الدارسية وامكانيات ايجاد عمل او دراسة في الخارج، فهم يظلون متمتعين بمعرفة وعلم كافيين للتفاعل الحقيقي مع انقطاعهم عن جذورهم القومية وايضا لرؤية الطريق الخطر الذي تنطلق فيه بأقصى سرعة آلة الكومبرادورية، آلة «الانفتاح».

لذلك كان السادات يستعين دائما بالاسلام، بالمشاعر الاسلامية وهذا ليس فقط لضرب القوى اليسارية الوطنية، بل ايضا لتبرير «الانفتاح» بالاستناد الى وجهاء الاسلام والمشيئة الالهية. فقد كان يستخدم باستمرار مقتطفات من القرآن والسنة لدى دفاعه عن الظلم الاجتماعي ضد الدعاة الدينيين والماركسيين

والديمقراطيين الثوريين المنادين بالمساواة، وسعيا لتأييد رجال الدين السنيين الرسميين.

وفي عام ١٩٧٥ تحدث شيخ الازهر عبد الحليم محمود بمناسبة النقاش الحاد الذي اندلع في الصحافة حول مدى تطابق روح الطمع الرأسمالي مع مباديء الاسلام. فقد اعلن ان «الاسلام» كان دائما مع الملكية الخاصة وان النقاش حول المساواة هو هراء، ومن مات دون ان تكون له ملكية خاصة فهو معذب». وقد شكلت فتاوى شيخ الازهر بصدد حق الملكية الخاصة وهجومه على الماركسية كتابا كاملا. وحينما بدأ الجدال حول وجهات نظره المحافظة وبعد ان ظهرت اخبار عن الثراء والمشاريع السرية والنشاط الراسمالي لبعض علماء الازهر المرموقين منعت السلطات هذه النقاشات وحظرت مجرد الاشارة للسلوك غير الصحيح لعلماء الاسلام. وكان الشيخ بالنسبة للنظام هو «رمز لكل المسلمين ولا يمكن السماح بالهجوم عليه».

وحاول علماء الدين بنفوذهم تبيض وجه اتفاقيات كامب ديفيد والصلح مع اسرائيل وذلك باصدارهم فتوى خاصة بذلك: «يعتقد علماء الازهر ان المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية تتفق مع القانون الاسلامي. وقد وقعت من موقع القوة بعد معارك الجهاد والانتصار الذي حققته مصر في ١٠ رمضان عام ١٣٩٣ هجرية (في اكتوبر ١٩٧٣. الكاتب)». وكأنما من أجل ان يبين الازهر كيف يمكن استخدام السنّة بمرونة، وجد للمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية سابقة من دبلوماسية الرسول محمد، واستشهد بعلاقة الحرب والسلام من الاتفاق الذي عقد في عام ٦٢٨ مع شيوخ قريش التي كانت تحكم مكة....

وكان السادات دؤوبا في تبرير نشاطه «بالقدر الالهي». ولم ينقصه التواضع للتأكيد على ان يد الله هي التي اشارت له الى طريق الحياة. وقد كتب في كتابه «البحث عن الذات» ان نجاته من الموت المحقق، وصموده في عصر «النضال والجنون» (في مرحلة الناصرية) كان بفضل ايمانه. فقد وجد الطريق «للمهمة المقدسة» ـ وهي نشر أفكار المحبة والاخوة. وقد كتب في مقدمة كتابه عن قصة

حياته ـ «هذه هي قصة حياتي التي هي في نفس الوقت حياة مصر منذ عام ١٩١٨، لان هذا هو حكم القدر».

كما ان القدر حكم بان يكون في الجيش الذي تحذلق السادات باستمرار بتسميته «جيشي» ضباط شباب كان السادات يسميهم ايضا «ابنائي»، لكنهم كانوا يعتبرون سياسة السادات خيانة. وصلوا واستعدوا لقتله، ثم نفذوا ذلك وقتلوه.

اذا هناك اسلام واسلام.

اسلام مختلف ومتعدد الوجوه ومتناقض. ويمكن لمختلف التيارات السياسية ـ الاجتماعية ان تتستر وراء رايته.

وتتميزخصائص السبعينات والثمانينات في ان المسلمين الاصوليين المصريين، اي مؤيدي التقاليد والعودة «للعصر الذهبي» للاسلام لا يعترفون بادعاء النظام دور المعبر الحقيقي عن امزجتهم وتطلعاتهم. فاسلام الازهر الرسمي شيء، والاسلام الشعبي وآراء وافكار «الاخوان المسلمين» والكثيرين غيرهم من المجموعات الدينية شيء آخر. ومن الطبيعي ان الاحداث الايرانية وانتصار الثورة الاسلامية الشعبية على الشاه وحاشيته الامريكية لم تترك ارواح المصريين دون رد فعل، رغم ان التطور اللاحق للاحداث اتي بخيبة الامل وحتى الكراهية «لسلطة رجال الدين» التي كانت في ايران. لا بد من ملاحظة ان الحال الدينية في مصر لا تتطابق مع مثيلتها في ايران. فقد كانت الشيعة الدينية باستمرار تاريخيا في موقف المعارضة من السلطة العلمانية، ومعتبرة اياها غير قانونية. اما هنا فان جزءا من الجهاز الحكومي وفي سنوات محددة كان يواجه السلطة في المعارضة ممثلو الاسلام الشعبي الجماهيري وليس ممثلو «المؤسسة» الاسلامية وعلى رأسها الازهر.

لكن الازدواجية الثقافية، او الازدواجية الحضارية واضحة في كل من المجتمعين الايراني والمصري، مما يحمل في طياته عناصر عدم الاستقرار. ويتضح هذا بالذات حينما تتواجد البنى الاجتماعية التقليدية والمعاصرة او

العصرية المزيفة في المجتمع، حينما يعمل بجانب الاسرة الاسلامية الكبيزة ، او الجماعة الزراعية مشروع رأسمالي حديث. ويصبح الامر غير محتمل حينما يعيش ويزدهر الاخير على حساب الاولين وخاصة اذا كان مفروضا على المجتمع من الخارج. واذا كان هؤلاء الذين تخلوا عن هويتهم ويحاولون الاندساس والتقرب «للغربيين» مكروهين من قبل الحاملين للثقافة التقليدية فان الامر بالنسبة للجماهير التي تقاسمهم المشاعر يصبح اكثر احتداما حول قضية الخبز اليومي.

فكثيرون منهم استغربهم واستعداهم التحديث الرأسمالي (او التحديث غير الحقيقي)، المشكوك في افضليته علاوة على الوضوح الفج لجوانبه السلبية. ويتوجه هؤلاء وهؤلاء الى «القيم الابدية للاسلام» كنمط للحياة، وايديولوجيا وراية للنضال السياسي.

وبالنسبة لاي سياسي فان هناك اهمية برجماتية لبعث تأثير البنى الاجتماعية التقليدية وايديولوجياتها. فقد اصبحت تخرج الى الساحة السياسية الجماهير الشعبية الواسعة التي كانت في وقت ما خارج هامش النضال الاجتماعي. الا انهم اتوا معهم بلغتهم وبنظام الرموز الخاص بهم وبمعتقداتهم وبخرافاتهم وبثقافتهم السياسية. واتضح ان الثقافة الشعبية اكثر رسوخا مما تصور اتباع مذهب العصرية من مختلف الالوان والدرجات.

ومن السذاجة وقصر النظر السياسي اعتبار الاسلام يد الماضي الميتة. وفي العشرينات والثلاثينات كان يمكن لكمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة ان يصيح قائلا: «اننا سنسير في طريق الحضارة وسنصل اليها... ومن سيتخلف سيغرق في فيضانها الهادر... ان الحضارة هي تلك النيران القوية التي تحرق وتهلك من يتجاهلها... اننا سنعيش كأمة تقدمية متحضرة». وكان الحضارة تعني لمؤيدي كمال اتاتورك اتباع النمط الحياتي الاوروبي دون اي مساومة.

وكان اتاتورك ايضا بمثابة نموذج لمحاولة التحديث الفاشلة التي قام بها أمان الله خان في افغانستان في العشرينات، وايضا لمحاولة التحديث المزيفة التي قام بها الشاه رضا في ايران في الثلاثينات .

وقد درس عبد الناصر الشاب باهتمام تجربة مصطفى كمال اتاتورك.

ان تركيا تقف بمستوى تطورها الاقتصادي ـ الاجتماعي في مقدمة اي دولة عربية، لكن الى اي مدى هي تقدمت؟ وهل اقتربت من اوروبا؟ وكان الثمن الثقافي الذي دفعته تركيا مقابل التعميم الشامل للنمط الاوروبي من وجهة نظر الاصوليين كبيرا جدا، اما الامتيازات (او العائد) فقليل.

واذا ما تتبعنا تاريخ مصر خلال المائتي سنة الاخيرة فاننا سنرى مدا وجزرا في المشاعر الاسلامية، توجها للقيم الاسلامية او رفضها، تقلبات نقاش لم ينته بعد بين «الموالين للغرب» و«الاسلاميين». وبدءاً من عصر محمد علي كان النظام المسيطر يقف الى جانب التقدم، والتحديث والاصلاحات في مراحل نهوض ما ومراحل انجاز ما، تورات فيما بعد وراء قشرة الاساطير والتقاليد في مرحلة الرجعية والانهيار. وقد ارتبطت فترات النهضة والتحولات او على الاقل الامل في النهضة والتقدم بفترة حكم محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٢)، الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) وبمرحلة ازدهار البرجوازية الوطنية المعادية للانجليز (١٩١٩ ـ ١٩٣٦)، وبالنظام الثوري التسلطي لجمال عبد الناصر (١٩٥٢ ـ ١٩٦٧). الا ان التوجه للتقاليد والذكريات وللاساطير حول «العصر الذهبي» للاسلام بدأت تسود حينما مني نظام التحديث بالهزيمة. كان هذا هو الوضع في عهد حكم الخديوي عباس الاول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) وفي فترة الاحتلال الانجليزي المباشر منذ عام ١٨٨٢ وحتى الثورة عام ١٩١٩، ومن ١٩٣٦ حتى عام ١٩٥٢، واخيرا بعد هزيمة حرب الايام السنة عام ١٩٦٧، وبشكل خاص بعد نصف الانتصار الذي تحقق عام ١٩٧٣ وفترة الاستقرار المؤقت لسلطة السادات..

ولقرون وقرون عاش المصريون والعرب وكل العالم الاسلامي في ايمانهم العميق الراسخ بتفوقهم الكامل والمطلق واللاشك فيه على اوروبا «الكافرة». وبعد الرسالة الالهية لمحمد «خاتم الانبياء»، كانت المسيحية بالنسبة للمسلمين تمثل حضارة الناس الضالين، وفي احسن الاحوال المحتاجين للعناية والشفقة. وحتى القرن السادس عشر الميلادي كان المصريون والعرب الاخرون في تجارتهم او

تعاملهم مع الاوروبيين على ثقة تامة بان الاوروبيين لا يتفوقون عليهم بالانجازات العلمية التكنيكية وبمستوى تطور المهن والزراعة. اما انتصارات السلاح العثماني(المسلم) على «الكفار» فجعلت من المضحك نسف فكرة تعلم اي شيء ما حتى من العدو الضعيف او نقل شيء ما عنه. وكل ما كان يخصنا فهو جيد وحكيم وخير، وما هو غريب فتعيس وسخيف ومقزز واثيم. ولم يلاحظ احد في الشرق، بما في ذلك في مصر، البواكير الجديدة القوية المشحونة بالحياة للحضارة الغربية والتي بدأت عملية البعث. وحتى الهزيمة العسكرية للاتراك من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والانهيار المأساوي لمصر في نهاية القرن الثامن عشر والمجاعة الجماعية والموت الجماعي للسكان وانهيار منشآت الري ـ كل هذا لم يغير علاقة المصريين بالاوروبيين.

وايقظت المصريين دفعة فجائية خشنة.

فقد اقام جيش حملة نابليون الذي حطم الجيوش التركية ـ المملوكية عام ١٧٩٨ السيطرة الاستعمارية لفرنسا على مصر. وقد استمرت هذه السيطرة اول عن آخر ٣ سنوات لكنها تركت في الوعي الاجتماعي المصري اثرا عميقا لدرجة انها اصبحت نقطة العد الاولى لكل تاريخ مصر التالي. فقد تأكد المصريون من تفوق التنظيم العسكري «للكفار»، وظلت عملية تقليد النماذج العسكرية الاوروبية لمحاولة تأسيس قوات عسكرية تتفق مع المعدلات الغربية، ظلت حتى يومنا هذا الشاغل الاساسي والهاجس والصداع للحكام المصريين. وكانت هذه المهمة سهلة التحقيق في النصف الاول من القرن التاسع عشر عنها في النصف الثاني من القرن العشرين. وكانت عملية ادخال نظم الجيش الاوروبية في مصر واللوائح والمدارس والخبراء النابليونيين والمهندسين والمصانع العسكرية واحواض بناء السفن قد أدت الى تحويل مصر لقوة عسكرية اساسية في الشرق الاوسط مما تطلب تدخل الدول الغربية للقضاء عليها في اربعينات القرن الماضي.

وقد وصلت مع جيوش نابليون الى مصر بعثة عملية فرنسية مكونة من نخبة الفكر العلمي، الفني والانساني الاوروبي وكان تفوقهم واضحا للعيان لدرجة ان

المصريين العقلانيين الشرفاء توصلوا لاستنتاج وحيد - وهو ضرورة التعلم من اوروبا، تعلم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والهندسة والطب والبناء والنشاط الصناعي، وباختصار، كل مجمل المعارف العلمية - التكنيكية. حتى المؤرخ المصري العظيم عبد الرحمن الجبرتي دعا الى ذلك. وكان الجبرتي آخر المؤرخين العظماء، ومن رجال الازهر، وقد ترك وثائق قيمة عن حملة نابليون وبداية حكم محمد علي. ونادى بذلك ايضا بعض رجال الدين الاخرين. ولم يكونوا مطلقا لا محدثين ولا «موالين للغرب».

وقد استطاع محمد علي باشا التركي الالباني الاصل الاستيلاء على السلطة في مصر والاستقلال عمليا عن سلطة الباب العالي في اسطمبول وحتى تحديها. وقد بدأ اجراء اصلاحات ادارية وعسكرية بهدف توطيد سلطته والقدرة العسكرية للبلاد. واصبح الحاكم المصري ينتقي ويرسل الشباب الموهوب لدراسة المعارف العسكرية والعلمية - الفنية في اوروبا الغربية.

وهكذا اصبحت ضرورة التعامل والتوجه لانجازات الغرب في المجال العلمي - الفني والعسكري لا تثير شك احد ما. لكن ما العمل اذن مع التنظيم الاجتماعي والبنية السياسية، والحقوق ودور ومكانة الانسان في المجتمع، ووضع المرأة، والايديولوجيا والادب والفن والعادات؟ وهل هناك انجازات عسكرية وعلمية - فنية يمكن نقلها مباشرة وبشكل معزول دون ان يعكر ذلك صفو العقيدة والاسس الحضارية، او ان هذه الانجازات من لحم ودم الحضارة الغربية بالمعنى الواسع للكلمة؟ لكن اذا ما اعترفنا بتفوق الغرب في الحياة الاجتماعية والروحية وبدأنا في تقليده ألن يضر ذلك التقليد اركان العقيدة والنظم الاجتماعية السابقة؟

واختلفت الاراء في المجتمع المصري وكل الشرق بخصوص هذه الاسئلة. ولم تنته لليوم المناقشات والجدالات بين مؤيدي ادخال الانماط الغربية والاوروبية والمحدثين البرجوازيين وبين الغيورين على الاصالة القومية الدينية وعلى الطريق «الاسلامي» الخاص للتطور. ودعا المتطرفون «الموالون للغرب» الى نقل الحضارة الاوروبية بالكامل بورودها واشواكها ونفض غبار القرون عن ارجلهم، وابعاد كل

التراث الاسلامي كبقايا للماضي، والسير على طريق التقليد الكامل وغير المشروط للغرب في كل المجالات ــ من المجال الاجتماعي السياسي والحقوقي حتى الثقافي والادبي والفني. وكما ذكرنا ان تركيا سارت ابعد الخطوات على هذا الطريق ايام مصطفى كمال اتاتورك. وكان له مؤيدوه في مصر لكن صوتهم لم يكن عاليا او ذا وزن ولم يقاسم افكار «المتطرفين الغربيين» سوى حفنة من المثقفين.

وترددت في مصر بقوة اكثر، رغم انها لم تكن هي المحددة باستمرار، نداءات التقليديين، الذين يسمونهم في الادب الأنجلو ساكسوني وفي الصحافة في السبعينات والثمانينات الحالية الاصوليين، اما في الادب الفرنسي فيسمونهم التكامليين. وهم يعتبرون ان القرآن والسنة هما بداية ونهاية كل شيء. فالعالم الاسلامي سار للانحدار ليس لتأخره في السير على الطريق الغربي للتطور، بل لانه نسي «الايمان الحقيقي» وتعاليم الرسول والخلفاء، وسقط في الاثم والتدهور الخلقي. وكان على العودة للاصول الاولى، «للاسلام الحقيقي» للقرآن «والسنة السليمة» وليس للتقليد الأعمى للغرب او محاولة «التحديث»، ان تعيد «العصر الذهبي» للاسلام. وسيعيد الايمان المبعوث من جديد المكلل بالتكنولوجيا الغربية الى العالم الاسلامي قوته العسكرية وكرامته واحترامه للذات وازدهاره. وهناك تيارات للفكر الاجتماعي ــ السياسي غير معزولة بحائط اصم بين الاتجاهين المتطرفين، اللذين يدعو احدهما بالقبول المطلق للحضارة الغربية والاخر الداعي لرفضها. وقد اعتبر احد هذه التيارات انه بعد المحافظة على اسس العقيدة دون لمسها، من الضروري تحديثها وتكييفها لمطالب العصر وبوعي او بدون وعي اقامة اطر اجتماعية ـ سياسية وايديولوجيا للتطور الرأسمالي الممكن. وكان جمال الدين الافغاني اكبر شخصيات هذا التوجه في نهاية القرن التاسع عشر ــ بداية القرن العشرين، والذي عاش فترة طويلة في مصر، كما تبعه المفكر المصري الديني الاصيل الشيخ محمد عبده.

وكان الافغاني ابا الجامعة الاسلامية وهي افكار توحيد الشعوب الاسلامية تحت قيادة حكومة اسلامية عامة، يرأسها سلطان خليفة عثماني. وباتحادهم

سيستطيع المسلمون مواجهة المطامع الاستعمارية للغرب المسيحي. وحينما يتوطد الاستقلال ستظهر ضرورة تحديث الاسلام من اجل توفير تقدم وازدهار المسلمين. وكان الافغاني مؤيد اقتباس ليس فقط المعارف العلمية ـ التكنيكية والعلمانية بل نادى ايضا باتباع مبادىء البرلمانية والدستور. ودافع المعلم الديني عن حق كل مسلم في التفسير الحر للقرآن.

واذا كانت افكار الافغاني الدينية والاجتماعية قد اعتبرت روح الاصلاحية فان شعاراته السياسية كانت مناسبة للرجعية المتطرفة وقد استخدمتها الحكومة العثمانية كراية في طموحاتها لابقاء وحتى توسيع الامبراطورية العثمانية الآيلة للسقوط.

وقد تميز الشيخ محمد عبد بالثقة ني الرسالة الخيِّرة التي كان يظن ان السلطان ـ الخليفة العثماني يقوم بها من اجل مصر. ونشير الى ان اغلبية الوطنيين المصريين ابدوا التعاطف مع الاتراك: وكانت انجلترا هي العدو الاساسي، وفي النضال ضدها حاول الوطنيون المصريون الاعتماد على مساعدة السلطان التركي. ولم يرد المثاليين ـ الوطنيين المصريين الا سياسة الامبراطورية العثمانية الموجهة نحو اتركة المناطق العربية وهي السياسة التي اتبعت بدأب على ابواب الحرب العالمية الاولى. ورغم نضال محمد عبده ضد انجلترا الا انه فضل بنيتها السياسية واعتبرها نموذجا ووثق في امكانية التعاون مع الانجليز من اجل مصالح مصر. ولم يؤمن كثيرا بواقعية تأسيس حكومة اسلامية عامة واقترح للبداية تجديد الدين من اجل تغيير نمط حياة المصريين وتحقيق التغييرات الاجتماعية. وقد ظل الشيخ محمد عبده في ذاكرة المصريين كاكبر مصلح اجتماعي ديني.

اما المصلحون الاخرون الذين شكلوا توجها ليبراليا، كالعادة ذا تكوين غربي، فقد افترضوا انه مع الابقاء على الدين في مجال العبادات والاخلاق وقد يكون في مجال الحقوق الاسرية ايضا، من الضروري اتباع النموذج الغربي في المجال السياسي الاجتماعي.

لكن يجب ان تكون هذه النماذج مستوعبة فقط من النخبة وتعد مجالا لنشاطها، اما الدين فيستخدم كزمام للسيطرة على الجماهير.

وقد جرى تطور الفكر الاجتماعي المصري في بلد لم يكن معزولا مطلقا عن العالم الخارجي. ولم يكن الغرب محبا للسلام وجارا محبا للخير. ولم يكن من السهل تتبعه وملاحظته ببساطة، ودراسته واحتساب ما يمكن اقتباسه من خبرته وما لا يمكن. فقد اقتحم الغرب مصر دون تكليف في القرن التاسع عشر بسلعه وقروضه التي كبلت البلاد وكذلك باحتلاله المباشر لها. ولم يأت الغرب في شخص بريطانيا العظمى كفاعل خير وليس كاخ كبير مادا يداه لمصر المتخلفة او من اجل رفع مستواها الحضاري، بل كمستغل مستهتر وناهب معيق لتقدم مصر، وكعسكري امبريالي غليظ استقر في اكثر معاقل آسيا وافريقيا استراتيجية. وكانت الثكنات العسكرية في وسط القاهرة على شاطىء النيل حيث يوجد الان فندق «الهيلتون» وفي منطقة قناة السويس اكبر دليل مقنع على كيفية تفكير لندن لعلاقاتها المتبادلة مع مصر. وكم من المرات تحطمت اوهام الليبراليين العرب لدى مواجهتهم المباشرة مع وحشية الغرب.

ولذلك فان صورة الغرب منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم في نظر المصريين متناقضة ومزدوجة. فهو مثل مغر للتقليد، وهو ايضا نموذج للمستغل المكروه والمعتدي - المضطهِد. وقد ادت ثنائية تقييم الذات والعالم الخارجي الى التركيب المتناقض لمجمل العيوب والنواقص تجاه الغرب مع مجمل صفات افضلية المسلم عن اي مسيحي.

وكان التطور الرأسمالي بحد ذاته الذي بدأ في مصر قبل الاحتلال الانجليزي مشوها ومريضا وبلا شكل سليم ولا قوميا. وقد اصبحت العناصر الاجنبية المتدفقة على البلاد هي الحاملة للعلاقات الرأسمالية مثل - اليونانيين، والايطاليين، والفرنسيين والارمن واليهود. وبعد ان تحلى بعضهم بالخلق المحلية واجادوا اللغة العربية، اصبحوا يعرفون في مصر ايضا بغير الوطنيين. فلم يكونوا مصريين او اوروبيين، وكانوا نصف عرب ونصف اوربيين ومن ناحية جوهرهم الاجتماعي

كانوا ذوي توجهات غربية كاملة. وقد ازداد الطابع الاجنبي والمعادي للمصريين الرأسمالية المحلية قوة اثناء فترة الاحتلال الانجليزي. وطبيعي ان اكبر نصيب من الكعكة - من شركة قناة السويس ومن تجارة القطن - كان في ايدي رأس المال الانجليزي والفرنسي والانجليزي الكبير. ولم تتطور سوى تلك القطاعات الاقتصادية التي كانت ذات فائدة للمستعمرين. واصبحت مصر بلد المحصول القطني الواحد، ومورّدة المواد الخام لمصانع النسيج في لانك شاير. ولم يؤد ظهور رجال الاعمال ذوي الاصل المصري ورجال البنوك والتجار الكبار في العشرينات والاربعينات الى تغيير الطابع شبه الاقطاعي وشبه الاستعماري، الكومبرادوري للرأسمالية المحلية. وكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هي رد الفعل على ذلك، وهي التي وضعت نقطة البدء للتجربة الثورية - الديمقراطية للمرحلة الناصرية التي تعد تجربة عظيمة في تاريخ مصر.

الا انه من الزعم المفرط ان يدعي المرء ان بامكانه تلخيص تطور مصر الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي على مدى مائتي سنة في عدة فقرات. فقد تطرقنا فقط لهذا بشكل مختصر تمامامن اجل العودة للحديث عن تطور الفكر الاجتماعي المصري. ولم يأت قاذفوا القنابل - جنود نابليون (جرينادیري) بالكبرياء الاستعماري الفرنسي فقط على سناكيهم، بل اتوا ايضا بشعار الثورة الفرنسية «الحرية والمساواة والاخاء». وحاولت الدولة المستعمرة ان تزرع في التربة المصرية بعض عناصر بنيتها الحكومية والادارية والحقوقية، وافكار التمثيل البرلماني، وفصل السلطة التشريعية والتنفيذية، والدستور، وقد لعبت كل هذه العناصر المدخلة الجديدة دورا غير مألوف. ومع ان الوسائل التي استخدمها الاستعماريون وضعت لتحسين وزيادة فعالية سيطرتهم وتغطت بالديماغوجية المطلوبة الا انها لاول مرة ومنذ مئات ومئات السنين اصبحت تعود المصريين على ادارة بلدهم. وكانت «الحكومة» المصرية اثناء الوجود الفرنسي في مصر لافتة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية. لكن لم يكن لدى المصريين اثناء الحكم المملوكي صوت واحد في الحكومة ولا اية حقوق او ضمانات للحياة او العقارات. وكانت

الادارة الاستعمارية الفرنسية افضل من الاستبداد العثماني - المملوكي، لكنها كانت مرفوضة من قبل المصريين كشيء مفروض عليهم من الخارج، وكشيء غريب، مسيحي في نهاية الامر، وضع المسلمين في وضع الخاضع. وقد استوعب تلامذة الفرنسيين الدرس اسرع مما اراد المدرسون.، وكان اول رد فعل لدى المصريين الذين تعرفوا على الاشكال الادارية الجديدة هو السعي لاستخدام هذه الاشكال ليس للمصلحة الفرنسية بل للمصلحة المصرية الخاصة. وكان رد الفرنسيين هو التنكيل، ورد المصريين هو الانتفاض. وبعد طرد الفرنسيين بمساعدة دولة كافرة» اخرى هي بريطانيا العظمى لم ينس المصريون الدروس الفرنسية. ولم يستطع المصريون تذوق طعم الديمقراطية الاوروبية الغربية، الا ان رائحتها النفاذة وصلت الى انوفهم على الاقل. فلم يكن لدى المصريين الثقافة السياسة المطلوبة ولا التنظيم ولا الخبرة. لكن ظلت الذاكرة التاريخية كعامل حيوي للحياة الاجتماعية المصرية، رغم ان محمد علي اسس نظاما استبداديا لم يستطع احد اثناءه الحديث عن الدستور او عن البرلمان.

وقد خضع بعض المصريين، الذين ارسلهم محمد علي الى فرنسا ولبعض الدول الاوروبية الاخرى لدراسة الهندسة العسكرية والطب، خضعوا تماما للثقافة الاوروبية. كما انهم لم يظلوا صما تجاه الافكار الاجتماعية - السياسية لاوروبا الغربية، ولم يختفوا في قلعة جهلهم المهدىء من الاشكال الغربية غير المعروفة للحياة الاجتماعية - السياسية. وكان رفاعة الطهطاوي اكثر المصريين بروزاً ومؤسس كل تيار المصريين «الغربيين»، وهو الذي ذكرناه لدى الكلام عن قضية تحرير المرأة.

وبعد ان قضى الطهطاوي خمس سنوات في فرنسا وتعلم اللغة الفرنسية، عاد الى الوطن مليئا بالافكار والانطباعات، واصبح منظما ومديرا لمدرسة المترجمين، التي اهدت مصر اكثر من الفين من الترجمات، كما اصبح محررا لاول جريدة مصرية وهي «الوقائع المصرية». وقد سجل الطهطاوي وجهات نظره في كتاب «تخليص الابريز في تلخيص باريز» وكذلك في كتاباته الاخرى. وكل من يدرس

الليبرالية المصرية لا بد وان يبدأ من رفاعة الطهطاوي، على الاقل للتأكد من مدى ضآلة المقلدين المعاصرين لليبرالية مقارنة بالحجم الضخم لشخصية اول مصري «غربي النزعة». ويستعان بالطهطاوي بالذات من اجل ايجاد جذور كثير من الافكار والفكيرات الصغير، الخاطرة والخويطرات المعاصرة التي تشكل الاساس الايديولوجي لليبرالية المصرية المعاصرة الموالية للغرب.

وكان الطهطاوي ابنا لبدله وزمنه، وبعد ان اصبح «اماما ذا نزعة غربية» لم ينس دوره كامام مسلم. فقد قسم العالم الى عالم مسلم وجد فيه تفوق المبادىء الروحية، وعالم اوروبي حيث يسيطر العلم. واعتبر الطهطاوي ان توحيد هذين العالمين فقط اي تركيب الحضارتين الشرقية والغربية هو الذي سيضع الاساس لبعث وتحديث مصر.

وتشكلت آراء الطهطاوي الاجتماعية ـ السياسية تحت تأثير روسو وسان جوست وفولتير ومونتسكيو. واذا كان الطهطاوي قد ابتعد في وقت متأخر من عمره تدريجيا عن الاهتمام بيعقوبية روسو وسان جوست من اجل ان يتخذ مواقف مونتسكيو المعتدلة، فانه حتى هذه المواقف كانت كافية الثورية لمصر في القرن التاسع عشر.

وقد علق الطهطاوي في كتاب «تخليص الابريز في تلخيص باريز» على الميثاق الدستوري للويس الثامن عشر بما يلي: «ورغم ان ما يحتوي عليه الميثاق لن تجده في القرآن او السنة.... الا انك ستدرك ان العدالة والانصاف هي ادوات توفير رفاهية الدولة والشعب».

ولم يغب مصطلح «الحرية» الذي يعتبر جديدا على المجتمع الاسلامي عن اهتمام الطهطاوي. وكان هذا المصطلح يعني لعلماء الشريعة الحالة الحقوقية فقط والمعاكسة للاستعباد. وعلى اثر المفكرين الفرنسيين اعتبر الطهطاوي ان الحرية هي الوضع الطبيعي للانسان الذي يضمنه مساواة الناس امام القانون. ولذلك فان السلطة لا يمكن ان تكون مطلقة، ولا يمكن تبريرها بارادة الله. ويجب ان تكون

محدودة بالتمثيل البرلماني. وكتب الطهطاوي ان «الملك الفرنسي ليس حاكما مطلقا يستطيع ان يفعل ما يشاء. فهو يظل ملكا بقدر ما يتبع القوانين التي اصدرت بمساعدة اعضاء الجمعيات المختلفة.... ويدافع البرلمان عن حقوق الشعب».

ولن نحكم على الامور بصرامة دقيقة اذ ان اهتمامات الطهطاوي تنطلق من الخبرة التاريخية للمائة وخمسين عاما السابقة. بل ستحاول ان ننظر اليه من وجهة نظر مصري مستنير من القرن التاسع عشر.

ولنذكّر انه من وجهة نظر علماء الشريعة فان الله هو مصدر السلطة والقانون. اما من وجهة نظر ايديولوجيي الثورة الفرنسية فان الامة هي مصدر السلطة والقانون. ورغم ان هذا الوضع وذاك هما وهم حقوقي يعطي الشكل القانوني لسيطرة الطبقة الحاكمة (الاقطاعيين في الشرق الاوسط في الحالة الاولى والبرجوازية الاوروبية الغربية في الحالة الثانية) فان هناك هوة كبيرة بين نظامي الفكر السياسي والقانون الحكومي. واصبحت عملية بناء جسور فوق هذه الهوة من المهمات المزمنة والصعبة لليبراليين المصريين.

وفي وصفه لثورة ١٨٣٠ في فرنسا ذكر الطهطاوي عملية فصل الكنيسة عن الدولة، ملمحا بذلك الى امكانية فصل السلطتين الدينية والعلمانية في مصر، ومن هنا الى استقلال مصر عن السلطان - الخليفة التركي. وقد حكى الطهطاوي لقرائه المصريين عن دور التنظيم السياسي في المجتمع. ولاول مرة في التاريخ عرف المصريون أنه حتى الرعية يمكنهم تكوين حلف للدفاع عن مصالحهم والالتحام حول المبادىء الاقتصادية والسياسية العامة. اذ انه حسب الشريعة فان إخلاص الرعية للسلطان يجب ان يكون بلا حدود، كما كان من المستحيل الاتفاق على حقوق الرعية. وكتب الطهطاوي عن حرية اعتناق العقيدة وعن علانية المحاكم والقضاء، عن الديمقراطية وعن حقوق الانسان وذلك في الوقت الذي لم يسمع فيه المصريون عن هذه الاشياء، وفي البلد الذي لم يكن فيه مكان لا للدستور او لحقوق الشعب او للديمقراطية.

وقد اسكرت هذه الكلمات الليبراليين المصريين حينذاك كما تسكرهم الان.

وفي ظروف مصر لم يثبت الطهطاوي على افكار سيادة الامة و«التمثيل البرلماني». وقد اختار انجلترا كنموذج بعد مونتسكيو. ورأى ان انسب شكل لادارة مصر هو الملكية الاستشارية التي يتخذ فيها الحاكم القرارات بعد استشارة اصحاب المقامات الكبرى. اما مصدر القوانين فقد رآه في الملك وليس الامة.

وكانت افكار الثورة الفرنسية غريبة عن المجتمع المصري التقليدي. ومن اجل التحذير من مساوئها لجأ الطهطاوي منذ البداية الى الطريقة القديمة والمجربة وهي ادخال الافكار المقتبسة مصورًا اياها كأفكار اسلامية تخصه. وقال الطهطاوي ان الاشكال الاوروبية للتنظيم الاجتماعي لا تناقض الاسلام بل انها كانت معروفة منذ زمن لهم، اما افكار الثورة الفرنسية فهي تتطابق مع القرآن وأورد للبرهنة على رأيه عشرات من المقتطفات من القرآن والسنة.

وكان الطهطاوي واحدا من اوائل من تحدثوا عن القومية المصرية، وعن القومية بشكل عام وهي امور لم تكن معروفة للمصريين من قبل. وحسب تفسيره فان الوطنية تعني حب التجديد والبناء وتقوية مصر.

كما لم يغب عن اهتمام «امام ذوي النزعة الغربية» مبادىء الاقتصاد السياسي. فقد كتب ان العمل هو اساس الثروة واساس القيمة الناتجة، كما شجب الاستغلال المفرط للفلاحين والاجراء. ودافع عن الملكية البرجوازية والرأسمالية البرجوازية. وبتكراره ما قاله ارزام روتردامسكي افترض ان الدين والامور الدنيوية لا يناقض بعضها البعض.

وقد ايد المثقفون المصريون الاصغر مكانة افكار الطهطاوي. ولم يكونوا مناضلين بل مثقفين رأوا مهمتهم في نشر التربية العلمانية والمعارف الفنية - التكنيكية والافكار الاجتماعية - السياسية الجديدة. ولذلك فاننا نستطيع ان نكرر وراء الباحث الغربي جابرييلي: «على المؤرخ ان يدين اليوم بالعرفان للصحافة العربية ملتقى القرنين، كأول مظهر هام من مظاهر البعث العربي. فحينما تقرأ الان اعمال هؤلاء الكتاب فانك كثيرا ما تسمع وراء الاسلوب الشرقي المزوق احيانا

بصوت عال واحيانا بصوت منخفض اصوات روسو وفولتير وجون ستيوارت ميل وهوجو وغاريبالدي ومازيني».

وقد تبع الطهطاوي في مجال الفكر الفلسفي والسياسي المفكر الكبير قاسم امين، الذي تحدثنا عنه كمنشد لمساواة المرأة، وكذلك الشخصية السياسية احمد لطفي السيد. وقد استرشد الى حد كبير بافكارهما سعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩ ومؤسس حزب «الوفد». وقد عكس الدستور المصري الصادر عام ١٩٢٣ الانتصار المؤقت للوفدية.

فقد اعلنت مصر «دولة حرة ومستقلة وذات سيادة»، الامر الذي رفض فكرة «الدولة» الطائفية الاسلامية برئاسة السلطان - الخليفة.

وحدد الدستور مساواة المصريين امام القانون، رغم ان الشريعة كانت تعني تميز المسلمين عن المسيحيين، واليهود والزرادشتيين.

واخيرا نصت المادة ٢٣ من الدستور على: «تنبع كل السلطة من الشعب وتجد تعبيرا لها في النظام الدستوري الذي يفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية».

وقد خيل انه حان وقت انتصار الافكار الليبرالية المظللة بظلال رفاعة الطهطاوي. كما خيل ان مصر ستصبح جزءا من اوروبا. لكن مرة أخرى ظهر في اليد الممدودة للشعب المصري حجر بدلا من الخبز. وكانت لبنود الدستور نفس الديماغوجية التي سادت في خطب وبرامج الحملات الانتخابية.

«فالدولة الحرة المستقلة ذات السيادة» كانت مثلما سبق محتلة من قبل الجيوش الانجليزية، وابقت معاهدة ١٩٣٦، التي اعترفت شكليا باستقلال البلاد، الجنود الاجانب في اراضي البلاد.

وكانت المساواة بين المصريين امام القانون في ظروف الظلم الاجتماعي الواضح، عملية استهزاء بملايين المحرومين من الحقوق الانسانية وبالفلاحين المجهولين اللاحول لهم ولا قوة وبفقراء المدينة. وقد احتفظت السفارة الانجليزية

والقصر الملكي «بكل السلطة»، وشاركهم كذلك الجهاز البيروقراطي الضخم والاحزاب العلنية المنغمسة في الدسائس السياسية والتطاحن على الاماكن الدافئة. وكان الدستور والشعارات الليبرالية كلمات تلبي في احسن احوالها حاجات الفئات العليا والقطاع المحدث من المجتمع المصري، والراسمالية شبه الاستعمارية، اما في اسوأ الاحوال فمجرد ثرثرة. ولم تستطع الرأسمالية التابعة وشبه الاستعمارية ان تساعد على النهوض الاقتصادي وتحسين مستوى معيشة الجماهير .

واستمرت اغلبية المصريين في الحياة في اطار المجتمع التقليدي، سواء في مجال الانتاج المادي، او الثقافة والايديولوجيا والحقوق والقيم الاجتماعية والخرافات. وقد رفضت الاغلبية المطلقة من السكان التحديث البرجوازي بالذات لانه يعني تقوية الاستغلال والنهب المباشر الذي اقترن في نظر الجماهير بالسيطرة الاجنبية.

وقد ظلت المثل الثقافية والسياسية «لذوي النزعة الغربية» امورا غريبة ومعادية للجماهير، خاصة وان كثيرا من الوفديين كانوا اقباطا، واكثر تعرضا لمؤثرات الحياة الاوروبية. وكانت «الانتخابات» و«البرلمان» وغيرها من المتطلبات الخارجية للدولة المعاصرة عبارة عن «لعبة الافندية» ، ولهو للسادة ولم يكن لها اي اساس مشترك مع المصالح الملحة للمجتمع المصري.

وقد ادت هذه الاوضاع الى بعث جبار للحركات السياسية ـ الدينية وذلك كظاهرة مميزة للحياة الاجتماعية المصرية بدءا من الثلاثينات، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى الى قيام ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢.

وهناك آراء مختلفة حول تناسب التقليدية والتحديث في الحياة السياسية ـ الاجتماعية لمصر في القرن العشرين. وسأورد احد هذه الاراء وهو للمستشرقة السوفيتية تشيرنوفكسايا وهي كاتبة البحث المرجعي الجاد الثري بالمعلومات حول «نشأة الانتليجينسيا المصرية في القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين».

فقد كتبت انه «وفي النصف الاول من القرن العشرين حينما اصبح واضحا اتباع مصر لطريق التنمية الرأسمالية، لم تستطع الايديولوجيا الدينية التي كانت تعتنقها الانتليجيسيا التقليدية حينذاك القيام بالدور المقرر في حياة المجتمع. ووجدت فئة المثقفين الصغار سند لها في الشعب - وسط الفلاحين والفئات شبه البروليتارية في المدينة وايضا وسط الفئات الانتقالية الاخرى من السكان والتي انفصللت عن المجتمع التقليدي لكنها ما وجدت مكانا في المجتمع الجديد. الا ان التوجهات الموضوعية لتطور مصر حددت عدم المستقبلية التاريخية للحركات الجماهيرية، التي تشكلت ايديولوجيا على ايدي ممثلي الانتليجينسيا القديمة.

وقد بينت تجربة مصر بجلاء ان المستقبل مع القوى السياسية الجديدة، التي كان الشكل المعاصر من الانتليجينسيا يعبر عن طموحاتها. ففي هذه الفئة الاجتماعية كان الشعور حادا بعدم التناسق بين وجهات النظر القديمة الموروثة عن الاجداد، وطرق التفكير وبين ظروف الحياة الجديدة. وفي بداية القرن العشرين بدأ كثير من ممثلي الانتليجينسيا الابتعاد عن مثل الجامعة الاسلامية والاصلاح الاسلامي».

لكن هل يتفق الواقع المصري مع تنبؤات باحثتنا الذكية الواسعة الاطلاع؟ أليس هناك استعجال في الاستنتاجات؟ والا نصور المرغوب على انه واقع؟ والا نضع انفسنا لدى اعطائنا هذه التقييمات، في اسر التأكيدات الرائجة عن أن «التحديث» كما لو كان ينتصر دائما على «التقليدية»؟ فيما يتعلق بالانتصار فانه سينتصر في نهاية المطاف لكن هل في كل مكان؟ وبعد اي فترة تاريخية؟ لكن ما العمل اذن في تجربة ايران وباكستان والعربية السعودية؟ اضافة لذلك فان هناك تحديث و«تحديث». والمقصود بالتحديث الاخير بالضبط هو التطور الرأسمالي المشوه والمعادي للمصالح القومية. واحتماءا من هذا التحديث يغرق الكثيرون في مستنقع التقليدية. واذا «كان في بداية القرن العشرين بدأ كثير من ممثلي الانتلجينسيا الابتعاد عن مثل الجامعة الاسلامية والاصلاح، الاسلامي» فقد اتضحت صورة مدهشة: في الثلاثينات والاربعينات بدأوا الابتعاد ليس للامام الى

اصلاح اعمق بل للخلف، لرفض ضرورة الاصلاحات حتى السطحي منها المتعلق بادخال بعض عناصر النمط الاوروبي.

وبعد نصف قرن من انزال الجيوش البريطانية في مصر، اصدر طه حسين، الاديب والمعلم المصري المرموق الذي عين في منصب وزير المعارف في آخر حكومة للوفد، كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» الذي اصبح برنامجا لليبراليين المصريين «ذوي النزعة الغربية». فقد عبر في كتابه عن رغبة الشعب المهزوم في ان يكون مقبولا من الذين سيطروا عليه، رغبة استخدام التقليد الثقافي لتبرير اصالته عن طريق القضاء على الحدود بين مصر ومحتليها، مؤكدا، ان مصر هي جزء من الغرب، ان كلمات الكاتب الانجليزي كيبلينج «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا» لا تنطبق على مصر. وحاول طه حسين اقناع قرائه بان العقل المصري، ليس عقلا شرقيا، بل هو قريب من اوروبا اكثر منه للصين واليابان والهند والدول المحيطة بها. لقد انتمت مصر لحضارة البحر المتوسط، ولم تسمح لها اوهامها وتخلفها بالحياة طبقا لطبيعتها. وقال طه حسين للمصريين: «علينا ان نكون في وضع يجبر اوروبا على ان تشعر باننا ننظر الى الاشياء بنظرتها ونقيمها كما هي تقيمها، ونحكم علهيا كما تحكم عليها اوروبا». وفي رأي طه حسين لم تكن هناك مشكلة مع الاسلام. فهذا العلماني الذي كف عن الاهتمام بالدين والناطق بالفرنسية في مجال الثقافة، اعتبر حينذاك ان الاسلام لم يعرّب مصر. ونفس الشيء مع الديانة المسيحية، فهي ديانة شرقية اخرى انتشرت في اوروبا دون ان «تجعلها شرقية»، وهكذا الاسلام انتشر في مصر لكنه لم يمس جوهرها الغربي.

ودعا طه حسين مواطنيه الى ان يصدقوا في انه لاتوجد فوارق بين الاوروبيين والمصريين. فقد كتب: «ان واجبنا القومي الحقيقي بعد ان حصلنا على الاستقلال واقمنا الديمقراطية في مصر يتلخص في ان ننفق كل ما لدينا وأكثر، وكل قوتنا وجهدنا ووقتنا واموالنا من اجل حث المصريين مجموعات وافراد على ان يشعروا بان الله خلقهم للمجد وليس للمذلة، للقوة وليس للضعف، وللسيادة وليس للخضوع، للتجديد وليس للرجعية، وازال من قلوبهم الوهم المجرم الفظيع بأنهم خلقوا من

طينة اخرى تختلف عن تلك التي صنع منها الاوروبيون، وتشكلوا بطريقة ما تختلف، ولديهم عقل يختلف عن ذلك الذي لدى الاوروبيين».

وقد اثار البرنامج الليبرالي الذي كتبه طه حسين بالذات معارضة حادة لدى الاصوليين المسلمين الذين كانوا قد بدأوا في النهوض حينذاك. وقد اجاب مصري آخر على طه حسين وهو سيد قطب المفكر الديني - السياسي وأحد قادة «الاخوان المسلمين» بان تقسيم العالم الى شرقي وغربي امر يذهل بمحدوديته وعدم اكتماله. لقد نسي الليبرالي ذو النزعة الغربية عالما متكاملا له نظريته وهو العالم الاسلامي. ومصر بالذات تنتمي لهذا العالم، وما هو غير ذلك فهو مكر واحتيال، واي محاولة للسير في طريق آخر للانسلاخ عن هذا العالم ستبوء بالفشل.

لقد توفي سيد قطب منذ زمن. وهو الذي كان منظما للمعارضة ضد نظام جمال عبد الناصر ودفع مقابل ذلك ثمنا غاليا. الا ان الآراء التي واوحى بها له معلمه حسن البنا وآراءه الشخصية آخذه في الانتشار. فهي تجد مؤيدين لها بين الشباب والفتيات الاتقياء في العديد من الجامعات اذ انها تعطي اجابات، او بمعنى اصح ردودا ظاهرية مقنعة على الاسئلة المعقدة التي تواجه المجتمع الذي وقف امام طريق مسدود. فبطريقة بسيطة وبتركيز على المشاعر والنظام الخاص بالرموز - تجد صدى في أرواح الفئات الامية من القاعدة العريضة التي يعتبر الكثيرون منها مهاجرين من الريف - فلاحي الامس الذين لا حول لهم ولا قوة والذين وجدوا لهم ملجأ في ازقة المدن الكبرى والمنبوذين من «التحديث» الرأسمالي.

فالكوارث الاقتصادية والاختلالات والصعوبات والجوانب المشوهة «للانفتاح» وازدياد الظلم الاجتماعي وانهيار المجتمع القديم وغياب بديل واضح له وفشل النظام في تعامله مع الغرب وضعفه في الدفاع عن الاصالة القومية - كل هذه العوامل تبعث عدم الرضا في العقول والقلوب وتثير البلبة في نفوس الناس. وتفتح عملية الامركة المفروضة على وعي جماهير الشعب من التلفيزيون الطريق الى عالم غريب جدا عن الاغلبية لدرجة انه يثير الاحتجاج والصد، وهي تجبر الناس على البحث عن شيء مستقر ثابت خاص بهم. ويقوم الاصوليون المسلمون

بمخاطبة الجماهير بلغتها ويستخدمون المفاهيم والثوابت التي تستوعبها. وتتضمن دعايتهم النقيض الواضح لا بتذال ونفاق وسائل الاعلام الرسمية.

ويقوم موقف «الاخوان المسلمين» على رؤيتهم الخاصة للتاريخ وللاحداث التاريخية. فقد تذكروا نضال الرسول محمد ضد اليهود مطبقين ومقارنين اياه بنضال العالم الاسلامي الان ضد الصهيونية واسرائيل. ويشير الاصوليون باستمرار الى «ان اليهود لن يتخلوا عن الايمان، بأنهم شعب الله المختار». وكانت خطة السادات كاذبة: فقد قبل فكرة نظام الشرق الاوسط رغم ان نفس مفهوم «الشرق الاوسط» يعتبر غير مقبول من المشاعر الاسلامية لانه يحدد العالم الاسلامي عن طريق علاقته بالغرب - «بالهيمنة اليهودية». واعتبر الاصوليون انه لا يمكن التحادث مع المحتل والتخلي له عن الحقوق التاريخية. لقد غزا الكثيرون مصر سابقا. وقاومت مصر المحتلين ر لا بد ان تقاوم الان ايضا.

لا بد ان يغادر الحكام «قصورهم العاجية» وان يتخلوا عن سياراتهم الفارهة الغالية حتى يقودوا النضال والا فستطـ ح قضية شرعية سلطتهم.

وحينما نتحدث عن «الاصوليين الاسلاميين» فاننا نعني ليس فقط «الاخوان المسلمين»، اذ ان الاطار الذي يشمل كل من يتوجه للقيم الإسلامية ويعيش على امل اعادة «العصر الذهبي للاسلام» - هو اطار واسع. فتوجد في مصر حوالي مائة منظمة دينية مختلفة التوجهات ومختلفة من حيث درجة تسيسها، فمن هؤلاء الذين فقط يجتمعون معا للصلاة الى المقاتلين المسلمين الذين يؤمنون ليس فقط بالعنف بل ويلجأون لاستخدامه ويمثلون بذلك المعارضة المسلحة الوحيدة ضد النظام. لكن اذا لم ندخل في التفاصيل فان وجهة نظر اغلبيتهم تتفق في خطوطها العريضة مع المبادىء الايديولوجية «للاخوان المسلمين».

ففي رأيهم بدأ الاسلام ينهار ليس فقط في القرن التاسع عشر او العشرين بل بعد حكم الخلفاء الراشدين الاربعة. فقد كانت الدول التي حكموها «دولا اسلامية حقيقية من وجهة نظر العقيدة والنظام». فقد كان الحاكم، يختار كما يدعون، من

الشعب وفقا لصفاته. كما يدعون ان الجماهير كانت تدرك انها مصدر السلطة والقاضي الاعلى للحكام بمساعدة الاسلام، وان الحاكم التقيّ عرف روح وقوانين الاسلام. وكانت الخزانة العامة في خدمة الشعب لانه كان «من حق» الشعب ان يطالب الحاكم والدولة بتحمل المسؤلية في تلبية احتياجاته. وفي «العصر الذهبي» للاسلام لم ير «الاخوان» ولم يريدوا رؤية النضال الدموي من اجل السلطة ولا الدسائس السياسية ولا الانتفاضات الاولى للجماهير المضطهدة. وفي بداية نشاطه شعر حسن البنا مؤسس حركة «الاخوان المسلمين» بخيبة الامل القوية للاوضاع الدينية التي كانت فيها البلاد. فقد استطاع مقابلة علماء الازهر وصب عليهم غضبه لهذه الاوضاع، الا انه لم يجد تفهما لدى ممثلي المؤسسة الاسلامية الرسمية. لذا فقد قرر حينئذ التوجه مباشرة للشعب. وعمليا فقد كانت حركته تحدياً واضحا لنفوذ الازهر وتعرية لضعفه. وفي تعليقه على انهيار العالم الاسلامي قال حسن البنا ان علماء الازهر يرونه ويسمعون عنه لكنهم لا يفعلون اي شيء.

وفي رأي «الاخوان » فانه حينما اصبح علماء الازهر لا يقومون بعمل شيء تبعتهم في ذلك بقية العشيرة الاسلامية. ولم يستطع علماء الازهر القيام بواجباتهم في الدفاع عن الاسلام. كما لم يستطع الازهر مقاومة الدولة المختلفة والاحزاب والقصر وشارك بالتالي في فساد البلاد. والأسوأ من ذلك ان علماء الازهر لم يناضلوا ضد الامبرالية.

ويرى «الاخوان» ان علاقة مصر بالاسلام كانت على علاقة فريدة. ومنذ بداية التاريخ الاسلامي كان مصير مصر مرتبطا بمصير الشعوب الاسلامية. وكانت مصر مركز اقدم الحضارات الانسانية وقاعدة منطقية ومركزا للاسلام. وقد حملت مصر بالذات راية الاسلام ضد الصليبيين والمغوليين. وعلى مصر الان ان تلعب دورا خاصا في بعث الاسلام.

واذا كان علماء الاسلام يتحملون المسؤلية في انهيار الاسلام بسبب عدم قدرتهم على القيام بشيء، فان السبب الاساسي للانهيار هو الاستعمار الذي فرض

نفسه وحضارته على مصر. وقد حدد «الاخوان» «نوعين من الاستعمار»: خارجي ـ وهي قوى دول الاحتلال الغاشمة الاجنبية، وداخلي محلي وهي تلك الفئات الاجتماعية التي بوعي او بدون وعي، وفي افضل الاحوال بسبب لامبالاتها وفي اسوأها بسبب خيانتها لاحتياجات وارادة العشيرة الاسلامية، خدمت مصالح هذه الدولة الاجنبية. وقام الاستعمار المحليَ بنشر الهزيمة المعنوية والانهيار وابعاد نظر المصريين عن عقيدتهم التقليدية الى مسالمتهم الميتة واذلالهم التعس وقبولهم بالحالة الراهنة.

ورفض «الاخوان» الاحزاب السياسية والقادة السياسيين والانتماء الحزبي كاشكال للحياة السياسية ـ الاجتماعية لمصر الاسلامية . فقد قاد الناس الاحزاب وسخروها لخدمة اهدافهم الشخصيرة الانانية . ولم يكن لديهم برامج حقيقية ولا اهداف حقيقة.

وتوصل «الاخوان» لاستنتاج بان الحياة البرلمانية والحكومية الديقراطية في مصر قد فشلتا. «فالطبقة العليا» التي ركزت السلطة السياسية ـ الاقتصادية في يدها قد «احتكرت» الحكومة لنفسها. وكان الشعب مضطرا لاختيار اعضاء البرلمان من مضطهديه. وكانت الادارة ايضا ضحية للفساد السياسي للاحزاب. وكانت اكثر الصفات التي تميز البيروقراطية هي عدم فعاليتها وفسادها ومماطلتها واساءة استخدام السلطة لنفوذها الشخصي. فقد جرت التعيينات دون اي اعتبار لصفات وامكانيات الشخص المعين.

وفي مجال الحياة الاقتصادية اشار «الاخوان» الى التوزيع الظالم للسلطة والاراضي مطلقين على ذلك «الرأسمالية المصرية» والاستغلال الاقتصادي الاجنبي.

وتؤدي هذه الحالة في المجالات الدينية والاقتصادية والسياسية الى آثار سلبية. فهي، في رأيهم، تشل قوة الامة وتحطم الصفات الانسانية وتفسد الطباع. وهي تخالف الروح الدينية «وتدفع الناس الى ايدي الشيوعيين». واعتبر «الاخوان» ان هذا الوضع لا يمكن تحمله.

وحينما جاءت الجيوش الاوروبية الى مصر جلبت معها قوانينها ومدارسها ولغاتها وعلومها وايضا «خمورها ونسائها وآثامها». وقد أدى العمل بتقاليد وقيم الغرب الى انحلال المجتمع، واتى بالخلاعة وحطم القيم التقليدية الموروثة للمجتمع الاسلامي. كما فسدت الحياة الاسرية والاجتماعية بالسينما «الرخيصة» والمسارح والراديو والموسيقى، والمشاكل الخلقية والجنسية للشباب لها علاقة مباشرة بالنساء« العرايا» في الشوارع، وبالافلام القذرة والموسيقى المغرية، والصحافة الخارجة عن السيطرة، والسماح بالخمر، وقد ادت عملية اختلاط الجنسين دون اي تفريق الى العربدة. وقد فقدت النساء صفاتهن الاسلامية بسبب مشاركتهن البذيئة في السهرات والرقصات، التي تواكب الحياة «المعاصرة» الرسمية وغير الرسمية. لماذا؟ لان النساء الاوروبيات يفعلن ذلك «ونحن نريد تقليد اوروبا في كل شيء». ونتيجة لذلك فان الامة مقسمة الى نمط حياة اوروبي وآخر اسلامي. فقد ظل البعض مسلمين، وفاق الاخرون ذوي النزعة الغربية انفسهم».

وهكذا، فان صورة مصر في نظر «الاخوان» تبعث على الاسى.

فاللامبالاة الدينية والإستعمار بكافة درجاته وضعا مصر في فوضى نفسية، وجعلا منها فريسة لخيبة الامل «القاتلة» والذبول والجبن الحقير. وقد اقتحمت الحضارة الاوروبية بحزم العشيرة الاسلامية المنحلة والضعيفة وتركتها في حطام. كما أفسدت الحضارة الغربية المصريين. وكان يفهم «الاخوان» تحت مفهوم الغرب كلا من العالم الراسمالي والإتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي القائم آنذاك.

وللحضارة الغربية جوانب سلبية وايجابية. ومن بين الجوانب الايجابية نذكر الديمقراطية والتمثيل البرلماني. ومن ميزات «العالم الشيوعي» التي كانت تستحق الاهتمام، مقابل النظرة الاولية «للإخوان» هو العناية بالفقراء، والمساواة والاخوة والانسانية في العلاقات بين الشعوب. ويمكن ان تؤدي هذه الصفات مستقبلا الى العدالة الاجتماعية على المستوى المادي. ويمكن «للشيوعية الروسية» ان تكون طريقا ممكنا لتطور المسيحية الاوروبية الغربية. وكتب «الاخوان» انه ليس هناك

اسباب للعداوة بين الاسلام وفكرة العدالة الاجتماعية، مثل تلك العداوة بين المسيحية الغربية والشيوعية. وبفضل اعتماد «الاشتراكية الروسية» اللادينية على العدالة الاجتماعية فهي تمثل البديل الوحيد للاشتراكية الاسلامية، المؤسسة على القواعد الجذرية للوحدانية الالهية واخوة البشر. وقد يكون الغرب هو الذي اسس عملية سياسية جيدة، الا ان الديمقراطية الغربية ادت الى افساد الافراد وبالتالي فساد المجتمع. ونتيجة لذلك فقد ظهرت انانية الافراد والتي ظهرت على اثرها مواجهة الانسان للانسان والطبقات ضد الطبقات. وادت هذه الفردية الى عدم المسؤلية المعنوية والى التدهور والفوضى الاجتماعية. وأثار كل ذلك الازمة داخل الاسرة وادى الى تغيير مكانة المرأة في الاسرة والمجتمع والى انهيار الاسرة. واصبحت الديمقراطية مرادفا للرأسمالية باستغلالها وللربا المعترف به علنا. واخيرا فان القضية العرقية لم تحل بعد في الدول الغربية المتقدمة على اسس المساواة والعدالة. واصبحت امريكا القائد والمدافع عن امبراطورية الانسان الابيض.

ومهما كان الامر فان الرأسمالية هي مرادف للفردية الوقحة وبالتالي الفوضى الاجتماعية، اما الشيوعية - فهي تعني الالحاد وهما متفقان في المادية.

والمرارة التي يشعر بها «الاخوان» تجاه الرأسمالية المصرية تدفعهم الى فكرة اعتبار كل الغرب الرأسمالي وزعيمته - الولايات المتحدة الامريكية عدوهم الواقعي.

ونادى«الاخوان»: «اطردوا الاستعمار من ارواحكم وحيئنذ سيغادر اراضيكم». ويتذكر «الاخوان» الان تحذير سيد قطب من ان الخطر الحقيقي يمكن في الاستعمار الروحي والعقلي، لانه بخلاف الامبريالية العسكرية والسياسية والتي تولد المعارضة فان هذا النوع من الامبريالية يعتبر كمنوم ومهدأ وخادع لضحاياه.

ويشبه ظهور اسرائيل بالحملات الصليبية، والصهيونية بالاستعمار الغربي. وتحمس العمليات العدوانية التي تقوم بها تل ابيب امزجة «الاخوان المسلمين» المعادية لاسرائيل.

اما المخرج الذي يقترحه «الاخوان» فهو «العودة للاسلام الصحيح». ويمكن للمسلمين ان يواجهوا ويصمدوا امام الايديولوجية الغربية والاجنبية عموما.

والهدف النهائي «للاخوان» هو اقامة نظام مسلم يتضمن تشكيل «دولة اسلامية مقامة على الشريعة الاسلامية». و«القرآن دستورنا» هكذا اعلن حسن البنا في منتصف الثلاثينات، ويرددون اليوم هذا الشعار بقوة وضغط لا يقل عما سبق. واضافة للقرآن فان الدولة الاسلامية يجب ان تبني على اسس الدستور، وعلى الحكام ان يربطوا بين تعاليم الاسلام وارادة الشعب. وفي رأيهم ايضا فان تعاليم الاسلام وارادة االشعب يجب، طبعا ان يفسرهما قادة «الاخوان»، كما يجب على الحكام ان يستشيروهم.

لكن كيف يمكن تكييف القوانين التي صدرت منذ ١٠-١٣ قرنا مضت لمشاكل اليوم؟ والا يتعارض التنفيذ الدقيق والصارم للشريعة مع واقعيات عصرنا الحالي- مجتمع نهاية القرن العشرين؟ لا، يؤكد «الاخوان» انها لا تتعارض، مقترحين «اعادة فتح ابواب الاجتهاد من جديد». ويعني هذا المصطلح حق رجال الدين - الفقهاء الادلاء بافكارهم عن ظواهر الحياة الاجتماعية التي لا تتضمنها الشريعة. وفي نهاية القرن الثالث الهجري حينما تم تشريع الحقوق الاسلامية، اغلقت «ابواب الاجتهاد»، لانه افترض ان المعايير الحقوقية الجديدة لا ضرورة لوضعها، اذ ان المعايير الموجودة شملت كل نواحي الحياة، وكانت هذه المعايير بحد ذاتها تجسيدا لارادة الله. وحسب رأي «الاخوان» وغيرهم فان التوجه للاجتهاد كان عليه ان يعطي الفرصة لتكيف المسلمين وحقوقهم لمتطلبات العصر.

ويعلن «الاخوان»المساواة المطلقة لكل المواطنين». و«الحرية» في كل مظاهرها مثل حرية العقيدة وحرية الكلمة والتعليم وامتلاك العقارات. وتحت مفهوم الحرية الاجتماعية يقصد «حرية» الخضوع للدولة الاسلامية الشاملة ولايديولوجية «الاخوان المسلمين». هنا لا يعترف باي نوع من انواع التفكير الآخر.

ومن الجدير بالاهتمام الحديث عن «حق امتلاك العقارات»، فيرى «الاخوان» ان

الاسلام حدد بان من حق الانسان ان يمتلك ما يشاء وذلك في الأطر التي يحددها القانون. ويمكن حيازة الملكية حسب فائدتها، لكن دون الإفراط ودون البذخ الزائد.

ويجب ان توزع الثروات الزائدة حسب القانون الاسلامي.

وتظهر بجلاء تركيبة الاساطير الدينية مع سعي الجماهير الى المساواة التامة في قضية الملكية. ويمكن الحصول على الثروة فقط «عن طريق القيام باي عمل من اي نوع». ولذلك فانه حسب تعاليمهم فانه لا توجد بالاسلام فوارق طبقية قائمة على اساس امتلاك العقارات المادية، اما الفوارق الموجودة بين الناس فهي ذات طابع روحي وذهني.

ولكل انسان الحق في الملكية الخاصة، لكنها لا يجب ان تتناقض مع الرفاهية العامة. ومن حق الناس ان يزيدوا من ملكيتهم الخاصة لكن في حدود القانون فقط. ومن المحظور الحصول على الملكية بطريق غير شرعي او بطريق الإحتكار والربا والذي تدخل في اطارهما النسب المئوية البنكية.

واذا كان «العمل» هو اساس الملكية فهو ايضا الصفة الاقتصادية والاجتماعية الاساسية. ولذلك فالاسلام، في رأي «الاخوان» يضفي على العمل «قدسية» و«وقارا». ويجب ان تقوم العلاقة بين العامل وصاحب العمل، وبالذات، على اساس «العطف والاحترام المتبادل» اضافة الى الحقوق والواجبات المتبادلة. فللعامل الحق في السكن والاجر الذي يوفر له المتطلبات الحياتية، كما ان له الحق في يوم عمل محدد بعدد معين من الساعات. وفي المقابل عليه ان يؤدي عمله بالكامل وبضمير. ولا يرى «الاخوان» تناقضا بين صاحب العمل والعامل المستغل لديه.

وفي رأي «الأخوان» ان الاسرة هي اساس استقرار التنظيم الاجتماعي. الا انه لا ممثلو الغرب ولا ممثلو الشرق فهموا العلاقات المتبادلة داخل الاسرة بشكل صحيح. فاذا كان ممثلو الشرق قد بينوا ضيق العقل والتفكير في هذا الموضوع فان ممثلي الغرب نادوا بالتحرير المطلق والحرية الكاملة للمرأة «دون اعتبار لمسؤلية سلوكها». ويعتبر «الاخوان المسلمون» ان المكان الاساسي للمرأة هو المنزل والاسرة.

وتتخذ «الامة» في رأي «الاخوان» وضع الشيء المقدس. فقد اعتبروا من الضروري التعبير عن المشاعر الوطنية والاستعداد للدفاع عن «الامة» والوطن. لكن ليس عن مصر فحسب بل عن مصر كجزء من العالم الاسلامي. وتقدس القومية لانها تخدم العقيدة.

وتفترض القومية قبل كل شيء النضال ضد الامبريالية كخطوة اولى، لان تحرير مصر هو الخطوة الاولى لبعثها. ويقول «الاخوان» ان مصر هي «جزء من الامة العربية وحينما نعمل من اجل مصر فاننا نعمل من أجل العروبة والشرق والاسلام». وفي هذا المفهوم للقومية - وهو الدفاع عن الوطن ضد المعتدي - يتركز «الواجب الديني، لان الاحترام الذاتي للدين يمكن ان يكون فقط في ظروف التحرر من السيطرة الاجنبية». ويرفض «الاخوان المسلمون» القومية بالمعنى الغربي للكلمة. فرغم ان القومية الغربية قد اسست «دولة حديثة» الا انها قضت على وحدة العالم الاسلامي وتركته ضحية للامبريالية المسيحية والصهيونية. وباعلان «الاخوان المسلمين» عن اخلاصهم للعروبة فانهم يعتبرون انهم «يخدمون الاسلام وكل العالم». ومن الطبيعي ان وجهة النظر هذه، وليس فقط بصدد الجامعة العربية، تضع «الاخوان» على طريق الصدام مع الاقلية المسيحية في مصر.

ويعتبر «الاخوان» ان فلسطين ليست فقط هدفا «للعدوان الصهيوني»، ولكن ايضا خط دفاع امامي عن الامة العربية و«الوطن العربي». وهي «قلب العالم العربي» و«مركز للشعوب الاسلامية» و«اولى القبلتين» (فالمسلمون الاوائل توجهوا في صلواتهم ليس الى مكة بل الى القدس). ويوجد في فلسطين الحرم الاسلامي المقدس من حيث الاهمية بعد مكة والمدينة.

ومن الطبيعي ان تجذب هذه التعاليم المنتقاة اليها ممثلي مختلف الفئات والطبقات في المجتمع المصري. ومن الطبيعي ايضا ان تركيبة شعارات المساواة التامة مع الدفاع عن مصالح وسلطة الملاك حملت في طياتها بذور التناقضات المستقبلية والانشقاقات في نفس تنظيم «الاخوان». فقد ابتعدت عن الجمعية بعض المجموعات ذات الميول الاكثر يسارية وذات الميول الاكثر يمينية، اي تلك

المجموعات التي نادت بمساواة اجتماعية اكثر وتلك التي نادت بالسماح بالاستغلال الرأسمالي تحت العباءة الاسلامية.

وقد قادت جمعية «الاخوان المسلمين» التي تأسست عام ١٩٢٨ بحلول نهاية الاربعينات مئات الآلاف وربما الملايين من اتباعها. وكانت قاعدتها الاجتماعية مكونة في البداية من الفئات المحرومة في المدينة، ثم اصبحت تجند اعضائها من بين الطلاب والموظفين والعمال والضباط. وتوارثت الجمعية من الخلايا الاسلامية السرية القديمة التدين العميق والرمزية والتحديد الدقيق للفرق بين الاعضاء العاديين وبين الصفوة «المتعلمة». وقد توافقت هذه الصفات مع التنظيم والطرق المقتبسة من الاحزاب اليمينية المتطرفة والتي تتلخص في المركزية الكاملة تحت القيادة الصارمة للزعيم، وفي تأسيس نظام الخلايا التي يعين ويختار رؤساؤها بمعرفة الجهات الاعلى. وقد اقامت الجمعية تنظيمات نسائية في اطارها، وتنظيمات الجوالة والاندية الرياضية. وزادت جمعية «الأخوان» من تأثيرها باقامتها للمستوصفات الطبية، والمدارس سواء للاطفال او للكبار، والجمعيات التعاونية وبيوت العجزة. وقد استطاع «الأخوان» التحكم في الجماهير وقيادتها اثناء الاجتماعات والمظاهرات، واخيرا من حيث المكان وليس الاهمية ـ فان «الأخوان» اسسوا فرقهم المسلحة الخاصة بهم. فقد اعتبروا ان «القوة هي افضل ضمان للحق وهي واجب تماما مثل الصلاة والصيام».

وقد جلبت لهم مشاركتهم في حرب فلسطين شعبية اضافية وكذلك مشاركتهم في الحرب الفدائية ضد الانجليز في منطقة قناة السويس.

وشهدت نهاية الاربعينات قمة تأثير حركة «الاخوان المسلمين».

ثم اخذت الجمعية تلجأ للارهاب. كما اصبحت تتعاون مع القصر، في الوقت الذي استعدت قياتها للقيام بانقلاب.

واكتشفت حكومة النقراشي باشا هذه الخطة وافشلتها، الامر الذي كلف النقراشي حياته. وردا على ذلك فقد قتل رجال البوليس حسن البنا وحلت جمعية

«الاخوان»، ثم سمح بنشاطها مرة اخرى في عام ١٩٥١. وقد اصطدمت بالتوجه السياسي التسلطي لعبد الناصر ولجأت حينئذ مرة اخرى للارهاب، حيث قامت بمحاولة فاشلة لاغتيال الرئيس عبد الناصر مما ادى للقضاء عليها تنظيمياً.

وفي عهد السادات انتقل الاخوان الى وضع شبه علني واصبحوا يصدرون نشرة صحفية، لكن برفضهم لكامب ديفيد وضعوا انفسهم في معارضة حازمة ضد السادات. ولم يكن المقاتلون الذين قضوا على السادات من تنظيم «الاخوان» لكنهم استلهموا كثيرا من الافكار من ايديولوجيي الجمعية.

وفي السبعينات والثمانينات لم تستطع الجمعية ان تعود لوضعها المتجانس والمتعددة التنظيمات مثلما كانت ايام حسن البنا اثناء قمة نهوضها ونشاطها في نهاية الأربعينات. الا انه من وجهة نظر الاختراق الايديولوجي لكل مجالات الحياة الاجتماعية ومن وجهة نظر تجنيد المؤيدين لافكارها السياسية والدينية دون ربطهم بتنظيم ملتزم فان تأثير الجمعية في هذه الفترة كان اكبر عما كان عليه وضعها عشية ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢. ويضطر قادة البلاد والاحزاب السياسية ان يأخذوا في اعتبارهم هذا التأثير. ويكفي القول بان وحدة حزب «الوفد الجديد» الليبرالي اليميني مع «الاخوان المسلمين» سمحت له بان يصبح الكتلة البرلمانية الثانية من حيث الاهمية عام ١٩٨٤. ولا شك في انه اذا ما توافرت ظروف انتخابية حرة فان تمثيل «الاخوان المسلمين» في السلطة التشريعية للبلاد يمكن ان يرتفع اكثر من ذلك بكثير.

ورغم الاختلاف الايديولوجي بين الليبراليين ذوي النزعة الغربية وبين الاصوليين الاسلاميين فانهم في ممارستهم السياسية يتوحدون في عدائهم للماركسين واليساريين، وللتصحيح نذكر: ان هذا العداء لا يعني انه احيانا لا تتطابق وجهات نظر ممثلي مختلف التيارات الفكرية الاجتماعية السياسية في مصر او حتى بعض اجزائها بصدد بعض القضايا. وتبين الممارسة السياسية «للاخوان المسلمين» في سوريا والسودان وفي افغانستان انه في ظروف معينة ينسون امزجتهم المعادية للغرب ويصبحون حصنا للقوى اليمينية المتطرفة.

وبدأت اول الافكار الاشتراكية في دخول مصر في بداية قرننا الحالي. وقد تحولت الافكار الاشتراكية الى تيار اجتماعي سياسي قوي بعد انتصار الثورة في روسيا.

وطالب الحزب الشيوعي المصري الذي تأسس لتوه في العشرينات، بقيادة الكومنترن بدمقرطة الحياة السياسية في مصر وباعادة النظر في الدستور وقانون الانتخابات. من اجل جعل الشعب «مصدرا حقيقيا للسلطة».

وتضمن برنامج الشيوعيين المطالبة بتحديد ٨ ساعات عمل يوميا واقامة المساواة بين العمال المصريين والعمال الاجانب. وتقاربت شعارات المطالبة بالاستقلال السياسي مع شعارات الوفديين. واعلن الشيوعيون المصريون ان «الحزب يناضل من اجل الاستقلال الكامل لكل وادي النيل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا» ولاول مرة في تاريخ مصر اعلنوا شعار« تحويل قناة السويس لملكية قومية».

ورغم ان آراء الشيوعيين المصريين الاوائل كانت ذات طابع مبهم الى حد ما ولم تتعد المطالب الوطنية والديمقراطية العامة ذات الصبغة اليسارية، الا انهم تحدثوا لاول مرة عن الاشتراكية العلمية وعن الصراع الطبقي. وبعد الممارسات السياسية الاول للحزب، مثل تنظيم الاضرابات، واجه اضطهاد من جانب الحكومة الوفدية. ولم يفلح في الحفاظ على وحدة التنظيم اثناء انحسار الحركة الشيوعية في العشرينات والثلاثينات. كما لم تنهض الحركة الشيوعية اثناء النهوض العام في الاربعينات. وكانت اغلبية اعضاء الخلايا الماركسية في مصر من غير المصريين، مما حدّ من تأثيرهم. ولم يستطيعوا بث جذورهم وسط الفلاحين المصريين.

واستمرت في مصر على مدى حوالي ١٥ عاما تجربة سلطة التسلط الثوري، ومن خصائصها البارزة ان الممارسة تغلبت على النظرية. فقد وضع نظام عبد الناصر قانون الاصلاح الزراعي وامم راس المال الاجنبي، كما امم رأسمال البرجوازية الكبيرة وجزء من المتوسطة في مصر، لكن البحث النظري لهذه التحولات بدأ متأخرا. وبعد ان قطع الناصريون العلاقات مع الشيوعيين

واليساريين ووجهوا ضدهم حملات التنكيل، توصلوا فيما بعد لضرورة التعاون معهم. وتبين ان الكثير من المقولات النظرية مصبوغة بالافكار الماركسية..

وحدد عبد الناصر مفهومه «للمجتمع الاشتراكي» في خطاب له في عام ١٩٦٠ في مدينة بور سعيد اذ قال: «اذا اعلنا اننا نتحرك تجاه المجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني فانه ضروري اضافة اننا نفعل ذلك من اجل ان يشعر باننا نعمل على تحقيق امانيه. ماذا يعني المجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني؟ انه المجتمع الذي يرتفع فيه مستوى المعيشة والذي يتميز بالعدالة الاجتماعية والذي قضي فيه على الاقطاع والاستغلال وسيطرة رأس المال، والذي توجد فيه الفرصة لكل مواطن يعيش في هذا البلد. لا عبيد لدينا ولا اسياد، وكلنا مواطنون في جمهورية واحدة. واننا متساوون ونشعر بكرامتنا».

في عام ١٩٦٢ واثناء مؤتمر قوى الشعب العاملة والذي انتهى بالتصديق على ميثاق العمل الوطني عدد عبد الناصر الفوارق التي اعتقد انها كانت بين الاشتراكية السوفيتية «والاشتراكية المصرية».

اذا قال «ان اشتراكيتنا تتفق تماما مع ظروفنا. اننا لا ننقل اتوماتيكيا تلك الخبرة الموجودة في العالم عن بناء الاشتراكية. وهناك اختلاف جوهري بين اشتراكيتنا المنصوص عليها في ميثاق العمل الوطني وبين الاشتراكية الماركسية - اللينينية.

ان الماركسية - اللينينية لا تؤمن بالدين. ونحن نؤم بالدين ونؤمن بالله.

والماركسية تتطلب الانتقال من ديكتاتورية الرجعية الى ديكتاتورية البروليتاريا. ونحن لا نقول اننا سنعطي الديكتاتورية لطبقة واحدة. اننا سننتقل من ديكتاتورية الرجعية الى ديكتاتورية كل الشعب.

وتتطلب الماركسية - اللينينية القضاء على الطبقات المستغلة بالوسائل العنيفة. ونحن نقول اننا سنقضي على صعوباتنا دون اراقة الدماء وسنعطي الفرصة للطبقات المستغلة لكي تعيش حياة كريمة .

والماركسية - اللينينية ترفض الملكية الخاصة والملكية الشخصية. ونحن

نؤمن بوجود الملكية غير المستغلة بجانب الملكية المستغلة. نحن ضد الملكية المستغلة فقط.

وتفترض الماركسية والشيوعية تأميم الاراضي. اما اشتراكيتنا فلا تفترض تأميم الأرض. نحن نؤمن بالملكية الشخصية - والملكية الخاصة للارض».

لقد أعلن ميثاق العمل الوطني الصادر في عام ١٩٦٣ اختيار مصر الطريق الاشتراكي للتطور ورفض الطريق الرأسمالي. وقد فسر الناصريون المصريون هذا الاختيار بعدد من الاسباب.

اولا: - ان الرأسمالي المحلي المصري تبيّن انه غير قادر على منافسة الاحتكارات الدولية. وكان يمكن ان يصبح فقط ذيلا لهذه الاحتكارات والوصول بالبلاد الى الافلاس. ثانيا: - كان من المستحيل توفير الاحتياجات الحياتية الملحة للتغلب على التخلف الاقتصادي والتكنيكي عن طريق افراد مثل رجال الاعمال الذين يسترشدون في نشاطهم بمصالحهم الخاصة في جمع الارباح. وكانت الدولة فقط قادرة على تعبئة المدخرات المحلية وتوجيهها لصالح التنمية على اساس خطة قومية وباستخدام منجزات العلم والتكنيك. وقد اولى الميثاق اهتماما خاصا بقضايا التخطيط على مستوى مصر كلها. اذ اشار الميثاق الى ضرورة الرقابة الشعبية على جميع وسائل الانتاج وعلى استخدام الموارد في اطار الخطة التي شملت كل قطاعات الاقتصاد.

وجاء بالميثاق ايضا ان الرقابة الشعبية على وسائل الانتاج لا تعني بالضرورة تأميم كل وسائل الانتاج والقضاء الكامل على الملكية الخاصة. الا ان مثل هذه الرقابة يمكن ان تقام عن طريق اقامة قطاع عام فاعل، يقوم بالدور الاساسي في كل قطاعات الاقتصاد المصري ويتحمل المسؤولية الاساسية عن تنفيذ خطة التنمية.

في عام ١٩٦٤ تم الافراج عن الشيوعيين من السجون ومعسكرات الاعتقال. وعبر الناصريون عن استعدادهم للتعاون معهم بشرط تخلي الشيوعين عن نشاطهم الحزبي. وقام ممثلو بعض التنظيمات الشيوعية بالاعلان عن حل

تنظيماتهم. وكانت هذه الخطوات صعبة ومعقدة. وقد اثارت نقاشا حادا حينئذاك والان ايضا. وتفسر هذه الخطوة ايضا بان الكثير من شعارات الشيوعيين كانت تتحقق عمليا في ظل نظام عبد الناصر، مما وحد الاهداف بين الماركسيين والديمقراطيين الثوريين. وشغل بعض الشيوعيين البارزين مناصب عليا في ادارة عبد الناصر، وفي وسائل الاعلام. واصبح الماركسيون يقومون بالتأثير على تشكيل وتطور ايديولوجية الديمقراطيين ـ الثوريين.

وقد حددت شخصية عبد الناصر البارزة لدرجة كبيرة التحولات الداخلية التي جرت في مصر بعد ثورة ١٩٥٢ وكذلك النهج السياسي الخارجي للبلاد.

الا ان خصوصيات قيادته تمثلت في ان هذا النظام كان نظام سلطة الفرد. ولم يترك الرئيس الذي وافته المنية قبل الاوان تلك الهيئات الاجتماعية ـ السياسية التي كان يمكن ان تضمن استمرارية نهجه. وقد جرى العكس.

وبالرغم من القيود الحازمة التي وضعت امام الاقطاعية الكبيرة واما نشاط رأس المال الاجنبي وجزء كبير من البرجوازية الكبيرة والمتوسطة المحلية ظهرت في مصر توجهات طبيعية نحو تنمية علاقات السوق عبر كل العوائق الممكنة، بالتوازي مع «برجزة» الاجهزة الادارية والحكومية والعسكرية. ولم تكن هناك اي عوائق جادة خلاف الشخصية الفذة الشريفة للرئيس عبد الناصر. واستمر الفساد واستمرت البيروقراطية الفظيعة للادارة المصرية. وبجانبها وداخلها نمت على المقاولات والمضاربات وعلى السرقة والرشوة ما يسمى «بالبرجوازية الطفيلية» واستبدت في القرية فئة الفلاحين الأغنياء الأقوياء، وقد تحولت هذه الفئة الى القوة المسيطرة خارج المدن الكبيرة، وقد قامت مصالح هذه الفئة بالضغط على الجهات العليا حتى في السنوات الاخيرة لحكم عبد الناصر اذ ان هذه المصالح لم تتوافق مع السياسة الاشتراكية.

وبقدر ما توارت في الماضي السيطرة السياسية المباشرة للغرب على الدول النامية بالروح الاستعمارية القديمة، فقد انتقلت التناقضات بين البرجوازيات

«القومية» وبرجوازيات الدول المتقدمة الى علاقات بين الشركاء الكبار والصغار في اطار النظام الرأسمالي.

وقل اهتمام البرجوازية «القومية» بالشعارات التي طالبت بالتضحية بالمصالح الشخصية والطبقة من اجل اهداف قومية غامضة.

ولدى تفسيرنا لمقدمات اعادة النظر العامة للسياسة الخارجية والداخلية فاننا لن نتوقف خصيصا على العامل الجديد للحياة الشرق اوسطية وهو القدرة السياسية والمالية الهائلة للحكومات الملكية في الجزيرة العربية والتي شجعت التوجهات المحافظة داخل المجتمع المصري.

ويمكن القول ان الامكانيات قد نضجت في مصر في بداية السبعينات. الا ان بعض الشخصيات المحددة بمعتقداتها وارائها المختلفة تؤثر اثناء وجودها في قيادة دولة مثل مصر على شكل هذه التوجهات مساعدة اما على كبحها او بالعكس على اندفاعها. وبهذا المعنى فان تغير الرئيس في بداية السبعينات لعب دورا مقرراً.

وقد تبقى من عهد عبد الناصر تنظيم سياسي وحيد هو الاتحاد الاشتراكي العربي. وقد لعب دورا في نشر الافكار الاشتراكية وفي توطيد القطاع العام لكنه لم يكن، بشكل محدد، لا حزبا ولا جبهة بل كان يمثل تجمعا لمختلف القوى الاجتماعية المساندة للسياسة التي اعلنت عام ١٩٦٢ في ميثاق العمل الوطني. وقد فشلت محاولة تأسيس «من اعلى» حزب سياسي في اطار الاتحاد الاشتراكي العربي. وقد انهت منظمة «طليعة الاشتراكيين» وجودها بعد وفاة عبد الناصر، وهي المنظمة السرية التي اسست عام ١٩٦٦ كنواة للحزب. وبدأ الاتحاد الاشتراكي العربي المدعو لان يكون «اتحاد قوي الشعب العاملة» يفقد اهميته السياسية متحولا لذيل متحجر للجهاز البيروقراطي وفاقدا القدرة على التعبير عن مصالح اي قوة ما الا مصالح الدوائر البيروقراطية العليا.

واصبح حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي هو الوريث السياسي للعهد

الناصري. فكما اعلن قادة الحزب فان ثلثي اعضاء الحزب كانوا من الناصريين والباقين من الماركسين او من المتعاطفين مع الماركسية.

وما زال تأثير الناصريين والماركسين الذين يعانون من المطاردة والاضطهاد في مصر محدودا. لكن هناك تيارا سياسيا اجتماعيا آخر لم يتخذ شكله التنظيمي بعد في مصر يطالب بتغييرات عاجلة.

وهناك قلة قليلة من المصريين الذين ولعوا بالثورة. فقد رفضوا النظام الناصري كنظام قليل الثورية والراديكالية رغم انهم اشتاقوا اليه اثناء حكم السادات وحلموا بالاطاحة بالنظام الموجود دون ان تكون لديهم رؤية واضحة للنظام الجديد الذي يجب ان يكون. فقد كانوا شبابا يملؤهم الحماس الثوري الذي عُبّر عنه فقط في «الغليان في افعال فارغة».

وقد تعود كثير من المصريين وعموما من المثقفين العرب النظر الى انفسهم في المرآة الغربية وقياس انفسهم بمعايير غربية رافضين هذا الحماس. وكثيرا ما نظر الراديكاليون اليساريون في السبعينات والثمانينات الى انفسهم والى الاوضاع في العالم العربي بنظرات اليساريين الجدد الغربيين واليساريين المتطرفين. وقد عبر افضل من المجتمع عن مشاعرهم وافكارهم كاتب ليس مصريا بل سوري وهوصادق العظم الذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة الامريكية وعمل مدرسا لفترة ما في الجامعة الامريكية ببيروت. وقد كان كتابه «النقد الذاتي بعد الهزيمة» الذي صدرت طبعته الاولى عام ١٩٦٨ احد الامثلة الواضحة والمتناقضة للفكر السياسي العربي لمدة خمسة عشر عاما مقدما. فقد راق هذا الكتاب للراديكاليين المصريين من الشباب. الا ان حقيقة ان كاتب الكتاب سوري كانت تعني الكثير. فالمصريون حتى الراديكاليون المتطرفون منهم يتركون دائما مواقف احتياطية، مقدمين الفرصة للاخرين للتعبير عن افكارهم التمردية المتطرفة.

وتعتبر طريقة واسلوب كتابة صادق العظم في منتهى الصرامة والوضوح. فقد كتب بطريقة لاذعة عن ذلك الوضع الذي اصبحت فيه الدول والشعوب العربية،

كما تجرأ على الحديث عن الاسلام بشكل حاد لم يسبق له مثيل خاصة في ذلك الوقت، وحتى الان. ورغم ان الكتاب جاء نتيجة خيبة الامل والاهانة الكبرى التي مني بها العرب بعد هزيمة ١٩٦٧، والتي تم تعويضها جزئيا في الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٧٣، الا ان السهام الحادة للكتاب كانت موجهة ضد البناء الاجتماعي المتهالك للعالم العربي وضد المعايير الخلقية البالية، وضد التقاليد وطرق التفكير القديمة. وبمرارة وربما بسخرية لاذعة، وحرارة، وربما حرارة بالغة يصدر العظم حكمه على العربي كفرد وعلى العربي كأنسان في نظام العلاقات الاجتماعية. وقد رأى الشباب العرب من المتطرفين اليساريين مهمتهم في ايقاظ العقلاء ونفض حمل التقاليد عنهم، واعادة تكوينهم، وايجاد مقدمة نفسية للعمل الثوري والتغييرات الاجتماعية العميقة. وقد اعجب الراديكاليون الشباب في مصر وفي الدول العربية الاخرى ببعض جوانب الحضارة الغربية، اذ اعتبروا انها قادرة على رفض الماضي من اجل المستقبل وعلى اجبار الناس على التحرك والعمل. وفي رفضهم للامبرابالية والاستعمار الجديد والاستغلال والفساد، اقترحوا اقتباس العقلانية والتناول العلمي للمفاهيم والظواهر من الغرب. واعتبروا ان تراكم الاسلحة والالات لا يعني انه بذلك يتم التعامل مع العصر. واعتبروا ايضا انه من الضروري توفر توجه محدد للعقل وللعنصر الانساني.

وقد انتقد الراديكاليون اليساريون امثال العظم الانظمة«التقدمية» العربية بدرجة اكبر مما انتقدوا الانظمة «الرجعية» وقيل انه لا يمكن انتظار شيء من الرجعية فهي ستفضح نفسها بنفسها. لكن الانظمة «التقدمية» تثير الكثير من الضجيج والقليل من الافعال الواقعية. وهدر اليساريون المتطرفون بقولهم: «لم تكن الثورة العربية لا اشتراكية ولا ثورية». وقد قام العرب فقط بتغييرات تبدو في ظاهرها ثورية وتقبلوا بعض الظواهر الخارجية للاشتراكية، وحقيقة لم يغيروا اي شيء في اعماقهم. وفي هذا السياق فان التجارب التي نفذت في مصر وسوريا كانت نصفية وقابلة للجدل. ولم يقرر الناصريون والبعثيون العرب مع ذلك ماذا يريدون: هل الاشتراكية ام رأسمالية الدولة المنحصر" في الاصلاح الزراعي

والثورة الزراعية. وهل ارادت الثورة العربية الحفاظ على حياة الفرد العربي في اطار القوانين التي سنت منذ مئات السنين، والتركيز على القيم المستمدة من الماضي ، او انها ارادت اقامة «نظام حقوقي جديد» مأخوذ من الفكر الاشتراكي «العلمي»؟ وقال الراديكاليون اليساريون انه اذا نزعنا غطاء التضليل عن الدول العربية التي اعلنت الاشتراكية وصرفنا النظر عن الضجيج الذي اثارته فانهم سيبدون كاي حكومات عادية. ويفسر ذلك تلك الطاقة التي فقدتها هذه الانظمة على السفسطة البحتة وعلى حججها الواهية عن مطابقة اشتراكيتها للاسلام، وعن مدى اصالة شكل اشتراكيتها. التي تصلح دون الصراع الطبقي مفضلة عنه الطريق التعاوني للاشتراكية.... وتحدث العظم ومؤيدوه باستهزاء عن ان الدول العربية «بعدم امتلاكها الارادة والعزيمة لاتباع السياسة الاشتراكية» اثارت ضجة اشتراكية في الوقت الذي ظلت فيه اسس مجتمعاتها تقليدية.

وقد جمع بين الراديكاليين اليساريين العرب في مصر وخارجها احتقارهم للتقاليد، اذ قالوا انه من الضروري التخلي عنها اذا كان الناس يريدون التغلب على وضعهم الحالي. واعتبر العظم ومؤيده في مصر، مثلهم كثير من المثقفين من دول آسيا وافريقيا الاخرى الذين يتبنون آراء راديكالية يسارية، ان القضاء على التقاليد وبناء المستقبل عملية وثيقة الارتباط ولا يمكن تجزئتها: واذا ما لم يتم الجزء الاول (القضاء على التقاليد) فان الباقي عديم الجدوى... وفي رأيهم فان نظام عبد الناصر ترك كل الاسس الهامة للنظام التقليدي دون تغيير او لمس، وبعد هزيمة ١٩٦٧ اضطر الى التنازل لارادة الحكومات المحافظة ولتلك الفئات في المجتمع المصري التي لم تقبل في اي وقت ما سياسته اليسارية.

وقد قارنوا هزيمة العرب في حرب ١٩٦٧ بهزيمة روسيا في الحرب مع اليابان عام ١٩٠٤. وقد رأى العظم في انتصار اسرائيل واليابان على العالم العربي وروسيا الضخمين لكن المنغمسين في النوم، انتصاراً للطاقة على الجمهرة، انتصار الاخلاص والعمل على فخامة تظاهرية وطقوس السلطة ومراسمها، واعتبر العظم ان هزيمة الاسطول الروسي شبيهة بهزيمة القوات الجوية المصرية. لكن

روسيا تلقت درساً من هزيمتها. وكان من الضروري ان تؤدي هزيمة ١٩٦٧ الى نفس العملية في العالم العربي. الا ان الراديكاليين العرب تبينوا بخيبة امل ان هذا لم يحدث. اما نصف الانتصار الذي تحقق في الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ فقد اعطى للمحافظين سلاحا ماضيا من اجل الصراع به ضد التغييرات الاجتماعية - الاقتصادية العميقة.

وكانت الليبرالية عمليا لجزء من الشباب الثوري لعنة محرمة، مرادفة للاستعمار الغربي، اما الاصولية الاسلامية فهي قوة القرون الوسطى الطاغية. وفي رأيهم ايضا ان «الافكار القومية» فشلت مثلما فشلت الديمقراطية الثورية للعهد الناصري. واصبح اليساريون الراديكاليون المصريون يبحثون عن مصادر الهام أخرى لدى «اليساريين الجدد» في الغرب.

وكانت النتائج السياسية والايديولوجية لبحثهم وترنحهم، على الاقل لمصر في السبعينات واوائل الثمانينات، لا تبعث على الرضا.

فلم يستطع ضوء افكار الراديكاليين اليساريين الغربيين المنعكس ان يضيء ويؤدي الى المخرج من الطريق السياسي والايديولوجي المسدود، الذي تواجدوا فيه. وقد خلبت المقولات والامثال الغربية عقول المتطرفين اليساريين ولكنها لم تجد آذانا صاغية لدى الجماهير، بل لم تصل للجماهير، اذ لم تسمع السلطات بذلك: فلم تعط الفرصة للراديكاليين اليساريين المصريين ان ينظموا انفسهم وان يعملوا وسط الجماهير الذين استمروا في الحياة في عالم آخر، وفي مناخ اجتماعي نفسي آخر، وعمليا في حضارة اخرى. وقد بعثت اغاني الشيخ امام التي يغنيها على اشعار فؤاد نجم بهجة واعتزاز عشرات ومئات وربما آلاف المصريين. لكن هتافات ونداءات المؤذنين للصلاة في المساجد، وهتافات «الله!» في حلقات ذكر الصوفيين كانت اعلى صوتا، اما صلوت ومواعظ «الاخوان المسلمين» فقد جمعت العديد والعديد من مريديهم. وفيما بعد صارت الأغاني إياها أكثر خفوتاً، وافترق الشاعر والمغني إلى الأبد.

وهناك امر آخر: فلم يكن الشباب اليساري الراديكالي عاديا.

فكالعادة كانوا في مقدمة ذوي سنهم من ناحية الكفاءات وبحجم ومستوى المعارف والطاقة والقدرة على العمل. وكان يمكن زيادة قدرتهم الثورية لو لم يجدوا استخداما لقواهم في المجتمع. لكن كان هناك لها منفذ في الهجرة. فالمصري الشاب الغاضب كان بامكانه السفر للدول العربية النفطية والعودة بعد عدة سنوات بدفتر شيكات في جيبه وبالهدوء والسكينة في روحه. وكان يمكن الدفع مقابل الكفاءة والمعرفة والطاقة بشكل جيد بشرط واحد وهو الكف عن اي عمل ثوري سواء قولا، او خاصة عملا. وقد قدمت لمصريين اذكياء من الشباب فرصة الدراسة والبحث في جامعات ومعاهد امريكا واوربا الغربية ومراكزها العلمية، وكما لو كان يقال لهم - اكتبوا وابحثوا وانشروا اعمالكم وتسلموا مقابلها المكافآت لكن يجب ان تصبح يساريتكم الراديكالية من احلام الشباب الرومانسية او التجريد العلمي. واذا لم يرق هذا او ذاك لاحد فلدى المجتمع ولدى سلطة الملاك امكانية الإلقاء بك في القاع او في اسوأ الظروف ايداعك السجن.

وكان المتطرفون اليساريون في مصر وما زالوا موجودين. لكنهم قلة وليسوا هم الذين يحددون الاتجاهات الاساسية للحياة الاجتماعية السياسية المصرية.

ونعود الان مرة اخرى للقضية الاساسية، واذا اردتم الجذرية، التي ظهرت بعد اغتيال السادات: هل هناك مستقبل للاصوليين الاسلاميين في مصر، ايا كانوا «اخوان مسلمين» او غيرهم؟

قد يبدو ان هناك الكثير من المعطيات الموضوعية التي تدفعنا لاعطاء رد ايجابي على هذا السؤال. افلم يفضح نموذج «التحديث» البرجوازي - الليبرالي نفسه كنموذج معاد للشعب وموال للغرب وذي طابع استعماري جديد؟

والم يتبق من التجربة التسلطية للناصرية سوى مجموعات من المؤيدين وحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي الذي لم يصبح حزبا جماهيريا؟ أو لم يفضِ انهيار التجربة الإشتراكية في الاتحاد السوفياتي إلى نفي وجود بديل اشتراكي للرأسمالية؟ والا يؤدي التطور الرأسمالي (المشوه) في المجالات الاجتماعية الاقتصادية سويا مع الغزو الغربي للثقافة والايديولوجيا الى الانهيار

او الانتقال المؤلم للبني الاجتماعية التقليدية ويضطر ملايين الجماهير الفقيرة المعدمة والمنبوذة من «التحديث» للهروب تحت قشرة العلاقات الاجتماعية التي تعودوا عليها وللرموز والطقوس والعواطف، وباختصار شديد للتوجه للاسلام؟ الا يعطي الاصوليون الاسلاميون من وجهة نظر المصري عميق الايمان رؤية شاملة للعالم المقسم لاجزاء؟

كل هذا صحيح، لكنه من الممكن طرح حجج واسباب مضادة لدى الرد الايجابي على هذه الاسئلة. افلم يذهب المجتمع المصري عموما بعيدا للامام والى هذا الحد الذي لاعودة بعده؟

عودة للمعايير الحقوقية وللتنظيم الاجتماعي والحكومي والى الايديولوجيا والعادات الاجتماعية التي تشكلت منذ الف سنة مضت والتي مهما حاولنا دفعها او تجميلها فلن تلبي متطلبات العصر النووي؟ والم يثبت فشل تلك التجارب التي تضمنت استخدام الاصولية الاسلامية بكل اختلافاتها والوانها في الممارسة الاقتصادية الاجتماعية والسياسية؟ الا يعني التدويل السريع للعلاقات الاقتصادية والتبعية غير المشروطة لمصر لهذه العلاقات، وانخراط مصر في عملية الاتصالات الدولية بموقعها الجغرافية الفريد وبخبرتها التاريخية الا يعني كل هذا ببساطة عدم امكانية اقامة مثل هذا المجتمع المنغلق الذي يضع حاجز بينه وبين العالم الخارجي؟

وهناك سبب آخر هام وذو وزن وهو الطابع القومي للمصريين.

شعب «الامور الوسطى» المعادي للتطرف الذي تجنب دائما القرارات المتطرفة والطوباويات غير المجربة. ويعرف كثير من المصريين المطلعين على تاريخ «الاخوان المسلمين» ان نشاطهم الاجتماعي الخيري وديماغوجيتهم السياسية اصبحا يختلطان بالارهاب الدموي في الاربعينات والخمسينات. ويعرفون ايضا مصير «المرشد العام» للجمعية حسن البنا الذي شجع «الاخوان»» في البداية على ممارسة الارهاب، ثم محافظا على حياته، الامر الذي لم يتمكن من تحقيقه تخلى عن اتباعه مسميا اياهم لا «اخوان» ولا مسلمين. وماذا عن محاولات تعاون «الاخوان مع

الملكية المتعفنة المعادية للوطن؟ وماذا عن اطلاق «الاخوان» الرصاص على جمال عبد الناصر؟ واخيرا، مثال اخير هو تعاونهم مع حزب «الوفد الجديد» الموالي للغرب الذي يعتبر تجسيدا لنفس النزعة الليبرالية التي يرفضها «الاخوان» كلاما فقط.

وقد كانت التناقضات الاجتماعية في مصر دائما حادة لدرجة انها كانت تلهم المتطرفين من اي نوع: من المتطرفين يساريا الى المقاتلين المسلمين والفاشيين. في الثلاثينات تأسس في مصر حزب «مصر الفتاة» على منوال الاحزاب الفاشية في اوروبا الغربية.

وكانت شعاراته الاخلاص للوطن وللدين وللملك. وكان برنامج هذا الحزب جزءا من الافكار الفاشية والاصلاحية والقومية المتطرفة.

وقد تطفل حزب «مصر الفتاة» على المشاعر المصرية الوطنية المعادية للانجليز. وكان مؤيدو هذا الحزب بالذات، الذي غير اسمه بحلول ذلك الوقت، هم الذين خرجوا لشوارع القاهرة يصيحون «الى الامام ياروميل!» في عام ١٩٤٢ حينما اندفعت الدبابات النازية نحو مدينة الاسكندرية. ولكن روح التحفظ والحذر تغلبت في امزجة المصريين حتى في مرحلة التحولات الاجتماعية السياسية.

وقد ظل اعضاء «مصر الفتاة» قلة ورغم انهم غيروا اسم الحزب اكثر من مرة الا انهم ذابوا في المجتمع دون اثر. وبعد ان نسي بعضهم عواطفهم الميالة للنازية انضموا لحزب العمل الاشتراكي اليساري الوسطي، الذي تأسس في نهاية السبعينات، ولم تصمد الفاشية كايديولوجيا عموما في مصر.

وحتى في مرحلة اليأس والصعوبات الاجتماعية ولدى الاختيار بين القرارات المتطرفة وبين السعي للتوصل الى حل وسط للمحافظة على السلام، فضل معظم المصريين الطريق الثاني. وتعد هذه الظاهرةمعروفة ولا يعتبر كاتب هذه السطور انه مكتشفها. وقد كتب عنها المصريون والاجانب.

وتبين التجربة التاريخية ان حركة الاصوليين الاسلاميين يمكن ان تزعزع

اسس استقرار النظام القائم وتنزع عنه الغطاء الديني وتمزق ثياب العلنية الاسلامية عنه. ولمن سيمهدون الطريق: لانفسهم ام لمن؟ من الصعب الرد على هذا السؤال. والطابع القومي المصري الذي تحدثت عنه واستشهدت به لن يظل متحجرا وللابد ساكنا.

فهو يتغير ببطء كبير تحت فعل المتغيرات في مجال العلاقات الاجتماعية الاقتصادية، والثقافة، والتعليم، والاتصالات، وبالطبع متأخرا عن هذه المتغيرات. لكن المتغيرات نفسها تتسارع، وتعجل بذلك اعادة بناء الطابع القومي.

ليس هناك شيء ابدي لا يتغير.

حتى على شواطيء النيل، في ظلال ابي الهول والاهرامات.

الخاتمة

على مدى تاريخها، اطول تاريخ في العالم، شهدت مصر نهوضا لمجد إن لم يكن عالميا فهو اقليمي، كما شهدت دمارا واذلالا. وتغير وزنها وتأثيرها باستمرار. اذ تحولت في فترات الى دولة قوية عسكريا، وفي فترات كانت مستعمرة عديمة الحقوق لدول قريبة او بعيدة.

وقد بدأ المنافسون لمصر في الظهور منذ الالف الثاني قبل الميلاد في المنطقة التي نسميها الان بالشرق الادنى والاوسط. وكان المركزان العسكريان الآخران: احدهما في آسيا الصغرى والبلقان والاخر في ايران والجزيرة ما بين النهرين قد بدآ بالتدريج في ازاحة مصر للقيام بالادوار الثانوية. وكثيرا ما تقدم المصريون في دوائر بدلا من التقدم حلزونيا للامام. وما تغير هو العالم المحيط وليس مصر. وكانت بلاد النيل فريسة سهلة مغرية جدا لجذب الغزاة.

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد تقريباً حتى قرننا الحالي سيطر الاجانب على مصر. ونهب الغزاة خيرات الشعب المصري الفين وخمسمائة عام. وبدأت نهضة البلاد في الوقت الذي جعل الغزاة فيه من مصر مركزا لامبراطورياتهم ووفروا تطور اقتصادها. وهكذا كان الوضع في عصر البطالمة الاوائل ثم الفاطميين وفي المرحلة الاولى من العصر المملوكي واثناء حكم محمد علي.

وفي مرحلة اسلام القرون الوسطى كانت عملية الانتماء القومي مسألة غير اساسية مما سهل «تمصير» الغزاة الذين استقروا في مصر.

وقام صلاح الدين الايوبي بطرد الصليبيين من القدس اعتمادا على موارد

مصر، وحطم المماليك المغول في عين جالوت. الا ان تقوية الامبراطورية العثمانية سلبت مصر استقلالها. وحينما حصلت مصر على الاستقلال مرة اخرى في القرن التاسع عشر سقط كل الشرق الاوسط فريسة لتنافس الدول الاوروبية الكبرى، التي احكمت سيطرتها تدريجيا على الدول العربية.

وادى الحاق مصر بالامبراطورية البريطانية الى تحولها الى نقطة ارتكاز للهند، وتحول قناة السويس الى ممر مائي هام للامبراطورية.

وانقذت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والتعاون مع الاتحاد السوفيتي مصر من هذه التبعية. الا ان النظام الساداتي وضع مصر في الفلك الامريكي، رغم ان العلاقة بين «السيد» و«المسود» لم تعد ابدا هي هي في ازمنة الامبراطوريات الاستعمارية.

وقد ادى تدويل السياسة والاقتصاد في عصرنا النووي الى التقليل من الاهمية الاستراتيجية لمصر ولقناة السويس. وقد اغلق اهم طريق تجاري وبحري من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٥. وطبيعي انه كان من السهل للعالم ان يحيا حينما كانت القناة مفتوحة للملاحة، لكنه استطاع التصرف بدونها.

وفي السابق كانت خطوط الدفاع الاولى لمصر في فلسطين. الا ان ظهور اسرائيل قلب مفهوم التوازن الاستراتيجي السابق للقوى في الشرق الاوسط. ومصر مكشوفة من الشمال الشرقي ومن البحر. ولم يؤد الصلح المنفرد الى تغيير هذا الواقع الاستراتيجي. وظلت اسرائيل هي العدو رقم واحد والخطر المحتمل والحقيقي ولا يمكن لهذا الا ان يؤثر على النهج السياسي لأي حكومة عاقلة في القاهرة.

وكما سبق فان سكان مصر ما زالوا يمثلون ثلث سكان العالم العربي. ولدى مصر اكبر القدرات من حيث الكوارد واحتياطي من القوى العاملة المؤهلة واكثر الصناعات تطورا. الا ان الايرادات الضخمة من النفط اعطت الدول العربية النفطية في اياديها وسائل التنمية الاقتصادية. وبالمعايير الشكلية للناتج القومي الاجمالي. فان كثيرا منها سبق مصر حتى بالحجم العام.

وكان سكان مصر القديمة (٦ ـ ١٠مليون نسمة) يمثلون حوالي ٥٪ من سكان العالم حينذاك، و٢ ـ ٢٥٪ من سكان العالم في القرون الوسطى. اما سكان مصر الان (حوالي ٦٠ مليون نسمة) فلا يزيدون عن ١٪ من سكان العالم. الا ان الديموغرافيا في شكلها النقي لا تحدد وزن الدولة في العالم. فقد احتلت مصر القديمة قمة العالم بمستوى تطور القوى المنتجة، والعلم، والتكنيك، والثقافة ، والفن. اما مصر الحديثة فهي تدخل في عداد عشرين دولة من حيث عدد سكانها، وستين من حيث المنتوج القومي الاجمالي، وتسعين من حيث نصيب دخل الفرد من اجمالي الدخل القومي. وتعتبر انتاجية الفلاح المصري مائة مرة اقل من انتاجية الفلاح الامريكي. ونظرا لعدد السكان فقد عاشت مصر دائما على اقصى امكانياتها. وتقيد الاستخدام التوسعي للاراضي الزراعية بوجود الصحراء، اما الاستخدام المكثف فقد تقيد بمستوى المحاصيل الزراعية. وقامت الطبيعة والمجتمع الانساني بقساوة بالغة بتنظيم وتسوية تعداد المصريين. وقد ادت الحروب والفيضانات الى الجوع والاوبئة والقضاء على الملايين. وانخفض عدد السكان ليزداد بعد عدة اجيال لاقصى حدوده.

وببدء الحملة الفرنسية على مصر انخفض عدد سكان مصر لاقل مستوى له تقريباعلى مدى التاريخ الحضاري اذ وصل ٢,٥ مليون نسمة. وقد ادت اقامة السلطة القوية والاصلاحات الادارية وتحسين منشآت الري ونقله من النظام الحوضي للنظام الدائم الى زيادة الانتاج الزراعي وفتح المجال لزيادة السكان. فقد تضاعف عدد السكان اربع مرات خلال مائة سنة، ثم ازداد اربع مرات اخرى في اقل من ٧٥ سنة. ويعتبر النمو السريع للسكان مأساة للبلاد وليس انجازا لها. فلاكثر من ربع قرن فانها تتغذى بتناسب مطرد على الاستيراد. اذ تستورد معيلة روما سابقا قمحها الان من الولايات المتحدة وكندا واستراليا.

لكننا حينما نتحدث عن مستوى التطور فان الارقام البسيطة للناتج القومي الاجمالي او نصيب الفرد منه يمكن ان تضللنا. ولن نشير للامثلة التقليدية للكويت او ابي ظبي التي سبقت شكليا بفضل الايرادات النفطية كلا من الولايات المتحدة والسويد وسويسرا.

ولنقارن بين مصر واليابان. وفي ظروف اليوم يمكن ان تثير هذه المقارنة الابتسام الساخر. لكن في الماضي القريب كان لكل من مصر واليابان ـ عام ١٩٤٩ ـ مستوى واحد من نصيب الفرد من الدخل القومي ـ ١٠٠ دولار. وكان غذاء المصري المتوسط يفوق غذاء الياباني. فلماذا الان وبعدما يقارب الأربعين سنة تضاعف نصيب الفرد من الناتج القومي الاجمالي في اليابان اكثر من ٢٠ مرة ؟ وقد تجلب الاجابة الكاملة والمسببة على هذا السؤال المجد والشهرة العالمية للكاتب ، اذ ان من اجل البحث عن اجابة لواحدة من اهم قضايا العصر جذرية يعمل آلاف وآلاف من الاقتصاديين وعلماء التاريخ وعلماء النفس من جميع انحاء العالم. ويتوقف اختيار المليارات من سكان العالم الذين يعيشون في «العالم الثالث» لطرق تنميتهم على الاجابة على هذا السؤال.

واذا ما عدن للمقارنة مرة اخرى بين اليابان ومصر فاننا سنجد ان اليابان محت اميتها كاملا في عام ١٩٤٩، وعلى اية حال فقد كانت لديها قدرة علمية ـ تكنيكية ضخمة منذ مائة عام مضت، وكان فيها فروع صناعية متقدمة، حددت لعشرات من السنين اللاحقة التقدم العلمي ـ التكنيكي في اليابان، ولم يوجد في مصر شيء من هذا القبيل، وان مصر كانت في مواجهة عسكرية مع اسرائيل على مدى ٣٠ عاما، وانفقت مصر موارد ضخمة على الاغراض الدفاعية، وان السوق المحلية وسكان مصر كانا اقل مما في اليابان.

واذا ما تعمقنا اكثر فسنجد ان الاخلاق او الفلسفة الانتاجية افضل لدى الياباني مما هي عليه لدى المصري. واذا ما وضعنا المسألة اوسع من ذلك فاننا سنجد انه للآن لم تصل بعد لا مصر ولا اي من دول «العالم الاسلامي» او اقتربت بمستواها من دول العالم المتقدمة اقتصاديا.

ولا اعتقد ان فكرة ضرورة اجراء اصلاحات عامة او رفع المستوى الثقافي ومستوى المعيشة العام للسكان فكرة غير معروفة للطبقات الحاكمة سواء في مصر او في الدول الاسلامية الاخرى. لكن الامر يختلف اذا ما نظرنا الى عناصر منفصلة متناثرة للاوضاع عنه اذا ما فهمنا الاسباب وترابطها. لا بد من نضوج

مجمل الظروف الضرورية لتحقيق طفرة في التطور.ويمكن للتاريخ المصري ان يقدم امثلة براقة لقضية، كيف يمكن نسيان واهمال الانجازات الضخمة للعبقرية الانسانية ولطاقاتها وهمتها، وذلك لانها لم تكن حينذاك ضرورية لا لمصر ولا للبشرية، ولم تكن هناك ظروف لاستخدامها وللحفاظ عليها او لتطويرها.

لقد قام الفينيقيون باوامر من الفرعون نيحو بالمرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح والدوران حول افريقيا في القرن السابع قبل الميلاد قبل فاسكودي جاما باكثر من ألفي سنة، وهو الطريق البحري حول افريقيا الذي اعظم اكتشافات الرحالة البحريين على تخوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وقد حفرت القناة الموصلة بين البحرين الاحمر والمتوسط، حقيقة باستخدام احد فروع النيل منذ الفين وخمسمائة عام قبل الميلاد، وقد ردمت هذه القناة اكثر من مرة وحفرت من جديد.

وقد رأى العرب الذين قدموا لمصر هذه القناة الا انها اهملت فيما بعد. ولن يستطيع احد ان يقنع كاتب هذه السطور بان اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو الذي كان السبب الاساسي لانهيار الشرق الاوسط، بما في ذلك مصر، بدءا من القرن السادس عشر فكم من هذه المراكب الشراعية ذات الحمولات الصغيرة في عدة مئات من الاطنان دارت حول افريقيا كل عام؟ وهل لم يكن الحجم الكمي لحمولات الترانزيت عبر الشرق الاوسط اكبر من الحمولات التي نقلت عن طريق رأس الرجاء الصالح؟ وهل كانت تجارة الترانزيت هي التي تحدد كل التطور؟ فلماذا اذن لم تظهر فكرة بناء قناة من النيل للبحر الاحمر من جديد وجعل الابحار التجاري حول افريقيا عملا لا جدوى له؟ وقد اضطرت الحاجة الملحة للملاحة البحرية الدولية في القرن التاسع عشر الى تشييد قناة جديدة تصل بين البحرين.

ونحن نتنهد بألم حينما نتذكر ان العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية. (حقيقة ان الكتاب ذوي الميول الاوروبية ينسون ان الحارق الاول لهذه المكتبة لم يكن سوى يوليوس القيصر). ومما لا شك فيه ان مثل هذه الحرائق جلبت الخسارة للثقافة الانسانية كلها. لكن هل كانت الانسانية على استعداد لتقبل واستخدام افكار

العلماء الذين نظروا للمستقبل لقرون ولآلاف السنين، تلك الافكار التي كانت مرسومة على الرقائق المكتبية المحترقة؟

فقد اكتشف ممثل مدرسة الاسكندرية للرياضيات أريستارخوس الساموسي ان الارض تتحرك حول الشمس وتدور في نفس الوقت حول محورها وذلك في القرن الاول الميلادي. ولم يرسل به احد للنار الا ان الأمر الواضح خيل للبشرية مستحيلا، وازيحت تعاليمه لالف وخمسمائة سنة حول «النظرية» الخاصة بمركزية الارض التي تقدم بها كلوديوس بطليموس في نفس مدينة الاسكندرية بعد قرن من هذا الاكتشاف، اذ افترضت هذه النظرية ان الارض هي مركز الكون. واكتشف علماء الاسكندرية قوة البخار وايضا تطلب الأمر الفا وثماني مائة عام لنبدأ استخدام هذه النظرية.

ومثلما تستطيع الافكار العلمية ـ التكنيكية تستطيع ايضا الافكار الاجتماعية السياسية ان تسبق عصرها لمئات السنين. فهي قد تنضج في مجتمع غير مستعد بعد لاستتيعابها. وهي يمكن ان تكون موجودة وفعالة في بعض البلدان وتبوء بالفشل لدى استخدامها في بلدان اخرى. ويتطلب الاستخدام الناجح للاكتشافات ليس فقط المحلية بل والغربية واستخدام نماذج التطور والخبرات التاريخية ظروفا اجتماعية ـ سياسية واقتصادية وسيكولوجية وثقافية مناسبة. فهل توجد هذه الظروف الان في مصر وفي بقية الدول الاسلامية ؟ ان الانتعاش العام للفكر الاجتماعي ـ السياسي والادب والفن في مصر وفي الدول العربية الاخرى في القرنين التاسع عشر والعشرين اطلق عليه تسمية عربية «النهضة»، ويسحب البعض هذه التسمية على القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ويسحب الاخرون هذه «النهضة» على يومنا المعاصر.

ويترجم هذا المصطلح كالبعث (عصر النهضة). ولدى الاصطدام بهذا العصر اردت ام لم ترد فانك تتوقف عنده. هل من الممكن اطلاق اسم النهضة على اي نهوض ثقافي بما في ذلك في مصر؟ وهل يمكن تفسير هذا المصطلح بتوسع اكثر مفترضين ان المصريين وكل العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين عاصروا

تلك العمليات التاريخية الشبيهة التي عاشها الاوروبيون في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر؟

وتتعقد القضية بان بعض العلماء يقصدون بكلمة «النهضة» مرحلة واحدة فقط من عصور تاريخ الثقافة، ويعتقد الاخرون ان النهضة هي حلقة خاصة من حلقات العملية التاريخية رابطين بذلك بين المحتوى الثقافي لعصر النهضة والمحتوى الاقتصادي ـ الاجتماعي.

وكثر من ذلك فان مفهوم عصر النهضة الاوروبية البحت اصبح شاملا وعالميا للكثيرين. واصبحوا يطلقون على عصر النهضة «الموجة التي عمت كل القارة الاوروآسيوية او بمعنى اصح الافروأوروآسيوية الضخمة... وقد بدأت هذه الحركة في القرن الثامن الميلادي في الشرق، وفي الطرف الشرقي من القارة الاوروآسيوية وانتهت في القرن السابع عشر في الطرف الغربي على شواطىء المحيط الاطلنطي». ويتحدث كبار العلماء ذوي الوزن والنفوذ العالي التقدير عن النهضة الصينية (في القرون من الثامن حتى الثاني عشر)، ونهضة وسط آسيا وايران وشمال غرب الهند (في القرون من التاسع حتى الثالث عشر)، وعن النهضة العربية (في القرون من الثامن حتى الثاني عشر).

ويبحث هؤلاء العلماء ويجدون المظاهر العامة لنهضة كل العصور والشعوب في العودة للقدم والنهوض الثقافي والمناخ الانساني. ويشيرون الى ان العراقة الكلاسيكية كانت مجرد اداة للنضال ضد الثقافة القديمة والاراء البالية وايضا قاعدة لاعداد الثقافة والاراء الجديدة.

ومع ان الكاتب لا يدعى شمولية معارفه التاريخية الا انه ومع ذلك يشك في عدالة التفسير الشامل وسحب مفهوم عصر النهضة على كل المناطق. وكما نرى فان المهم في النهضة الاوروبية كان في تحرير الشخصية من قيود الدين والعادات وتحرير الاحساس بالعالم المحيط ووجهات النظر من الجمود بمساعدة منطق الشك وحرية التفكير، والحصول على ذلك الوضع الذي يجعل المجتمع يعترف بهذا التحرير. وسعى الانسان الجديد الى ان يحقق النجاح في الحياة بفضل جهوده

الشخصية والمراس والعقل والمعرفة. واستطاع الانسان الوقوف على قدميه بثبات واضعا نفسه مكان الرب وقد اصبح مركزا للكون.

وقد سعى انسان عصر النهضة بتوجهه للعقل وللتفكير الابداعي الحر الى الحصول على حق التطوير الكامل لشخصيته ونفسه، والتحرر من سيطرة الكنيسة وجمودها وتقاليدها. وقد جرى تثبيت للشخصية الفردية في البداية في صورة انسانية وفيما بعد، في عملية الاصلاح، اخذت صورة تراكمية اقتنائية. وجعل النقد العقلاني للدين،من الممكن ظهور الالحاد وظهور الافكار الاجتماعية السياسية الجديدة. وادى كل ذلك الى ايجاد تلك المقدمات الاجتماعية ـ النفسية والثقافية والايديولوجية التي صاحبت تطور انتاج الخيرات المادية ومهدت لظهور الحضارة الغربية الدينامية، ولظهور المجتمع البرجوازي الذي بدأ ينمو داخله في حينه، تياران متطرفان في الفكر السياسي والممارسة اليومية هما الشيوعية والفاشية. وقد اتضح ان ظواهر النهضة في القرون الوسطى في الشرق سلكت طريقا مسدودا. فلم تؤد هذه الظواهر الى اقامة ظروف للتقدم الاجتماعي اللاحق، وظلت معزولة رغم مظاهر الثقافة الممتازة التي داستها الاقدام بدورها او تجمدت في العملية التاريخية التالية.

ولا يمكن تسمية عمليات «تغريب» او تقليد اوروبا في مصر او في بلاد الشرق الاخرى، بالمعنى الصارم للكلمة، عمليات نهضة ليس فقط لاننا لا نعود هنا للثقافة القديمة شبه المنسية (رغم اننا يمكن ان نتذكر شكليا «الفرعونية» المصرية التي عبر عنها محمد مختار، والجامعة التركية والجامعة العربية) بل لان «التغريب». في المقام الاول، كان يعني محاولة اقتباس ثمار حضارة غربية وليس اسسها وجذورها. وفي مجال الخيرات المادية اقتباس الاستهلاك وليس الانتاج. هكذا كان الوضع في عصر محمد علي. وهكذا كان الوضع في عصر السادات. ان اقتباس الشكل وليس المحتوي والمظهر وليس الجوهر، والكلمات وليس الروح نفسها وغياب العنصر الهام وهوتكوين الانسان الجديد ـ كل هذا لا يسمح باستخدام مصطلح «النهضة» لظواهر الثقافة والحياة الاجتماعية لمصر والدول العربية

الاخرى في العصر الحديث والحالي. ويؤدي التطور الرأسمالي التابع والمشوه الى ميلاد نوع جديد من الشخصية الشرقية الكومبرادورية التي يعني التحرير الروحي بالنسبة لها المزيد من الجشع والنهب الوحشي.

وهناك ملاحظة اخرى فان النهضة (حتى النهضة التي سارت في طرق مسدودة خارج حدود اوروبا) - هي عصر العمالقة في الفن والثقافة والفلسفة والذين اصبحت ابداعاتهم في متناول البشرية جمعاء.

دانتي ورابليه وشكسبير وليوناردو دافينتشي.... وحينما اختار الاديب والكاتب الاجتماعي لويس عوض المصريين الذين كان يمكن ان يعطوا الثقافة العالمية شيئا ما خلا ١٥٠ سنة ذكر اسماء كل من: رفاعة الطهطاوي، محمد عبده، احمد لطفي السيد، طه حسين، توفيق الحكيم، يحي حقي، على عبد الرازق، حسين فوزي، نجيب محفوظ، يوسف ادريس. ولننحن امام كل اسم من اسماء هؤلاء الامجاد رغم تناقضاتهم، والذين لا يمكن تخيل الثقافة لا المصرية ولا العربية بدونهم. انهم يبعثون الاحترام والفخر، رغم عدم الموافقة احيانا مع آرائهم. لكن من المستبعد ان يصعد احد منهم لمرتبة العمالقة العالميين. اذ ان معظم الاسماء المذكورة وليس جميعها معروفة فقط للمستشرقين لدينا. ويجوز ان القارىء العادي لدينا قد سمع عن طه حسين ويوسف ادريس وتوفيق الحكيم. وقد يكون لديهم من يفضلونهم، لكن لم يستطع احد من الفنانين المرموقين المصريين في مجال الكتابة ان يتساوى في تأثيره على قرائنا على الاقل مع ارنست همنجواي، ناهيك عن الحديث عن مبدعي عصر النهضة.

هذا هو الواقع.

وفيما يخص المستقبل فإن كاتب هذه السطور يؤمن بمصر وبالمصريين. وان هذا التحول الاجتماعي الجذري او الجزئي ان اردتم، وهذا الغليان من التناقضات، والحماس الفردي والاجتماعي، وهذا الانفتاح لسيل المعلومات من الخارج الذي تستوعبه العقول التقدمية للبلاد بتعطش وذلك الكم الهائل من الثقافة

الذي يقدر بالعديد من القرون والعديد من آلاف السنين - كل هذه الامور مجتمعة يمكن ان تؤدي لميلاد الكثيرين من امثال محمود مختار جدد، ذوي مستوى وحجم لم تشهده مصر من قبل. وسيعرف الشعب المصري في ابداعهم نفسه ويعترف بنفسه وتصبح ابداعاتهم في متناول الثقافة لا المصرية والعربية فحسب بل والثقافة العالمية ايضاً.

ويمكن ان يظهر في بلاد النيل مفكرون وقادة سياسيون على مستوى تحديات العصر.

وسيجد الشعب المصري طريقه للتطور والتقدم.

وتبقى ضرورية فقط القدرة على الانتظار.

والتحمل.

وليس امامنا في نهاية المطاف سوى ان نكرر وراء الفلاح المصري: «الصبر خير».

الفهرس